

خيري حمّاد

عبد الله

قطعة من تاريخ العرب الحديث

شورات المكتب التجاري - بيروت

خيري حماد

عبد الله فيلبي

قطعة من تاريخ العرب الحديث

منشورات
المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر
بيروت - لبنان

فهرست

فصل		صفحة
	مقدمة	٩
١	من هو فيلبي ؟	١٣
٢	بين سيلان وكمبردج والهند	٢٧
٣	فيلبي في العراق	٣٥
٤	اول لقاء مع الصحراء	٥٣
٥	بين الملكية والجمهورية	٧١
٦	الوهابي في خدمة الهاشميين	١٠٧
٧	زوال مملكة	١٤٧

فصل		صفحة
٨	فيلبي المستشار	١٩٥
٩	جنة الاسلام	٢٥١
١٠	تاجر السيارات	٢٦٥
١١	جواب البوادي	٢٧٥
١٢	آراء وافكار	٢٩٣
١٣	الطريد	٣١١
١٤	العودة الى الحظيرة	٣٣٩
١٥	النهاية	٣٤٥

الأهداء

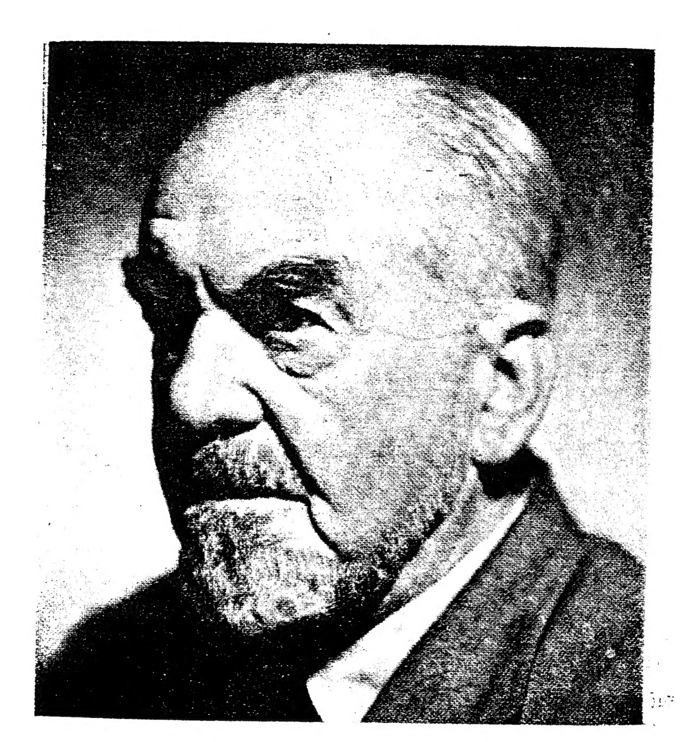
الى كل عربي مؤمن بوطنه ...

والى كل عربي خاض معارك تحرير هذا الوطن ..

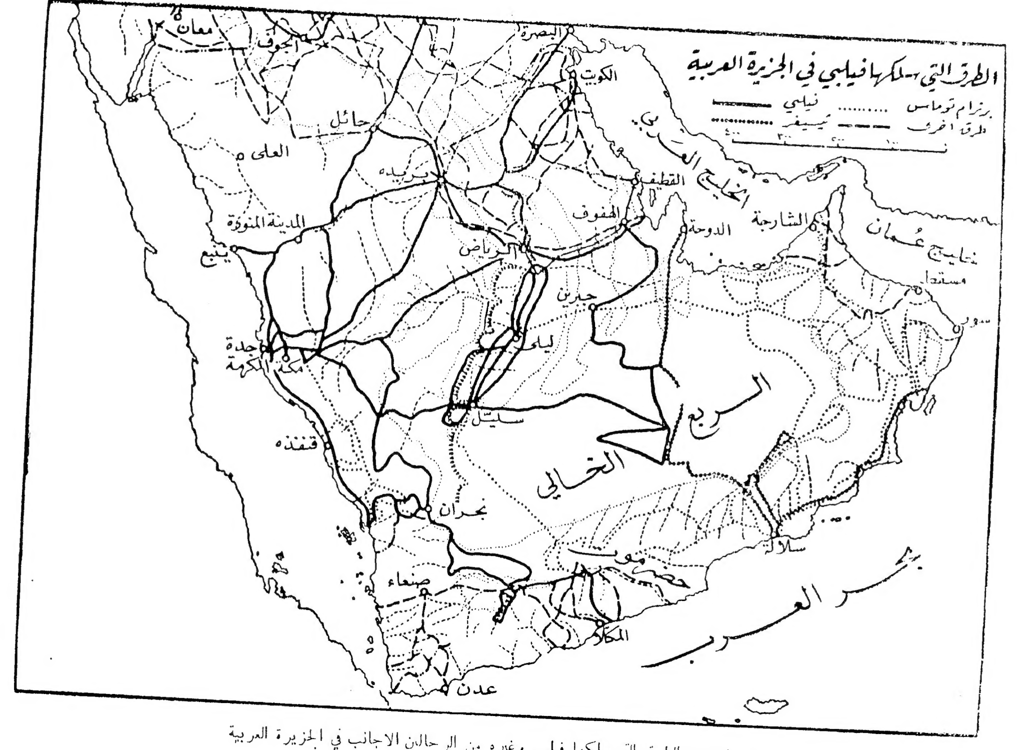
من لبى نداء الشهادة ...

او عاش لينعم بالحرية ...

خيري حماد



سنت جون فيلبي



خريطة تبين الطرق التي سلكها فيلبي وغيره من الرحالين الاجانب في الجزيرة العربية



الحاج عبدالله فيلبي

المقدمة

طلعت الصحف اللبنانية صباح الثاني من تشرين الاول من هذا العام وقد حملت في صدر صفحاتها الاولى النبأ التالي : « صلي أمس على المرحوم الحاج عبدالله فيلبي في مستشفى الجامعة الامريكية في بيروت حوالي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر ، حسب الشريعة الاسلامية ، وتولى الصلاة عليه أحد المشايخ ، ثم نقل الجثمان الى مقبرة الباشورة حيث ووري الثرى بعد عشر دقائق ، وقد اشترك في تشييع الجثمان عدد لا يزيد على العشرة اشخاص بينهم ولده وزوجته ، والحمالون الذين نقلوا الجثمان الى مقره الاخير » .

هذا الرجل الشيخ الذي توفي وهو في الخامسة والسبعين من عمره ، والذي مرت الصحف بوفاته مر الكرام ، وشاء بعضها ان يكتب عنه مقالاً او مقالين ، كان احد القلائل ، من ابناء الغرب ، الذين اجتذبهم الشرق بما فيه من سحر وما ينطوي عليه من أسرار ، وما تزخر به مجاهله من ثروات دفينة ، وفرص كامنة ، لإقامة مسارح النفوذ ، وتقوية دعائم الامبراطوريات . فارتحل اليه ليقضي فيه جلّ حياته ، ان لم نقل كلها . معتنقاً ديانته ، ومكتسباً تقاليده وعاداته.

أجل ، كان هذا الرجل ، الذي انطوت حياته في نهاية مغمورة لم يسمع بها إلا القليلون ، أحدَ الرجال الذين قامت على اكتافهم امبراطورية بريطانيا في الشرق العربي ، منذ نيف واربعين عاماً . فكانت له صولات وجولات في ميادين السياسة والنفوذ ، يلعب بمقدرات الشعوب والممالك ، ويطيح بالعروش

ليقيم على انقاضها عروشاً أخرى ، ويوزع صناديق المال والذهب ، ويعقد المحالفات والمواثيق . ويجوب البوادي والأمصار ، مستقلاً الطائرة حيناً ، والباخرة احياناً ، وممتطياً صهوة الجواد أو سنام البعير زمناً ، ليغذ السير بسيارته زمناً آخر ، وهو في كل جولاته هذه ورحلاته يعمل في خدمة بلاده وتحقيق مطامعها ، والحفاظ على مصالحها .

هذا الرجل الذي لم يضم مشيعوه الى مقره الأخير ، سعودياً او عراقياً او اردنياً واحداً . كان في يوم ما ، يتحكم بمصائر السعودية والعراق والاردن ، ويقضي في أمورها كما يشاء ويهوى ، والجميع لا ينشدون الا رضاه ، ولا يخطبون إلا وده ، فهو المعطي والمانع ، وهو المعز والمذل ، وكبار الملوك والامراء من أصدقائه والمقربين اليه ...

وكانت حياته اسطورة ، بل قصة اشبه بقصص الخرافات من مطلعها الى نهايتها ... انها قصة المغامر ، الذي يؤمن بعظمة القضية التي يعمل لأجلها ، فيركب الأهوال غير هياب ولا وجل . ويمتطي المخاطر بعزيمة لا يشوبها وهن أو يلحق بها ضعف ...

انها قصة عبدالله فيلبي ، او سنت جون فيلبي . السياسي الرحالة والتاجر الداهية وواضع السياسات ومنفذها ، الذي قدر له ان يلعب دوراً في تاريخ الشعب العربي الحديث ، يفوق دور لورنس اهمية ، وأثراً .

وقد توخيت في وضع كتابي هذا ، الدقة في السرد التاريخي . مستنداً على المراجع التي كتبت عن فيلبي وفي مقدمتها كتبه التي وضعها ، وهي مرتبة حسب تاريخ صدورها : قلب الجزيرة العربية . الجزيرة العربية الوهابية ، الجزيرة العربية الربع الخالي ، حاج في بلاد العرب ، أيام عربية ، النجود العربية ، اربعون سنة في البادية ، اليوبيل العربي ، كتاب جزيرة العرب في القرن العشرين للشيخ حافظ وهبه ، كتاب الجزيرة العربية للشيخ فؤاد حمزة ، كتاب الملوك الهاشميون لجيمس موريس ، كتاب مذكراتي للملك عبدالله بن الحسين ، رسائل جرترود بل ، وشرقيات للسير رونالدستورز ، اعمدة الحكمة السبعة

للورنس ، قرقعة الاشواك لكيركبرايد والعراق للونغريغ ، وغيرها من الكتب الاخرى .

ولم يكن هدفي من وضع هذا الكتاب ، ان اؤرخ حياة فيلبي تأريخاً دقيقاً شاملاً ، وانما رسم لوحات جانبية عن هذه الحياة الضخمة الملأى بالأمور المثيرة ، راجياً ان اكون قد وفقت ، والله ولي التوفيق .

خيري حماد

١

مَنْ هو فيلبي ؟

كانت بريطانيا ، في نهاية القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين ، الدولة التي لا تغيب الشمس عن امبراطوريتها وممتلكاتها ، وكانت في الوقت نفسه القوة التي تحتل مكان الصدارة ، في ميدان الاصطراع الدولي . فهي التي تفرض رأيها وهيبتها في كل شأن من شؤون العالم ؛ وهي التي تتزعم الاحلاف وتعقد المعاهدات والمواثيق للحفاظ على كل ما يسمونه بتوازن القوى . وتبادر الى الحرب ، كلما رأت خطراً يهدد هذا التوازن ، لتضمن لنفسها البقاء في مكان الصدارة الذي يتيح لها استمرار ما كانت ترفل فيه من رخاء ونعيم ، ودوام، وما تزهو به من قوة ومنعة وعظمة . فهذا الرخاء وذاك النعيم ، انما ينبعان من مجرد الحقيقة الواقعة ، وهي ان بريطانيا كانت تسلب هذه الممتلكات التي لا تغيب عنها الشمس ، مواردها وموادها الأولية، بثمن بخس ، لتنقله اساطيلها التجارية الضخمة ، التي لا تنقطع عن مخر البحار والمحيطات ، الى مصانعها في لانكشاير ويوركشاير ، حيث يشتغل عمالها ، في تحويل هذه الموارد وتلك المواد ، الى بضائع استهلاكية تتنوع من اكثر الضروريات حاجة ، الى ابعد الكماليات رفاهية ومتعة وتعود بواخرها ، الى حمله وتصديره ، الى أسواق تلك الممتلكات ، المقيّدة المغلوبة ، لتبيعه من جديد فيها سلعاً استهلاكية بأغلى الاثمان وابهظها ، جانية من الارباح الطائلة ، التي تحصل عليها عن طريق هذا الاستغلال، ما يضمن لشعبها الحياة

المرفهة الرخيّة ، ولخزائنها الموارد الضخمة ، التي تيسّر لها سبل الاحتفاظ ، بأقوى ما مخر عباب المحيطات من اساطيل حربية ودارعات . وما قاتل على سطح اليابسة من جيوش لجبة ، حديثة التسليح ، والاعداد .

وكانت الهند الدرة اللامعة في تاج الامبراطورية . قارة واسعة شاسعة ، تبلغ في مساحتها مئات اضعاف مساحة الجزر البريطانية ، ويقيم فيها مئات الملايين من البشر المستكينين المستضعفين ، يعيشون على فتات ما يتبقى لهم من نتاج اعمالهم ، ويدرون كالبقرة الحلوب ، ملايين الجنيهات في كل عام ، على خزينة بريطانيا الدولة ، وخزائن مصانعها وشركائها ، وكبار اصحاب الأموال فيها . وكان كل ما يهمها في هذا العصر ، ان تبعد عن بقرتها الحلوب ، كل طامع ومستعمر ، وان تحطم اجنحة كل دولة ، تعمل على منافستها أو تحلم بسلبها بعض ما تملكه ، قبل ان تقوى هذه الاجنحة ويشتد عودها ، فيصعب كسرها . وكانت هذه الحقيقة ، الذريعة الصادقة لتفسير جميع الحروب التي خاضتها بريطانيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، في القارة الأوروبية وخارجها.

وكانت الامبراطورية العثمانية ببابها العالي في القسطنطينية ، واجنحتها الممتدة في قارات آسيا واوروبا وافريقيا ، الرجل المريض ، الذي تطمع فيه دول الارض القوية طراً ، لتقتسم ممتلكاته عندما يموت ، وتضم هذه الممتلكات الى بلادها وامبراطوريتها ، لما في ضمنها من تقوية لشأنها ، واعلاء لشأوها . لكن بريطانيا كانت ترى في بقاء هذا الرجل المريض ، واستمرار حياته بالمقويّات الآتية ، ضماناً لسياسة توازن القوى التي تسير عليها ، لا سيما وانها لم تكن لتطمع في ذلك الحين بممتلكات جديدة تضمها الى امبراطوريتها ، لما وصلت اليه من تخمة اولاً ولخوفها من ان لا تتمكن من اقتناص حصة الأسد ، اذا ما انتقل الرجل المريض الى رحمة ربه ثانياً ، بالنظر الى شدة اطماع الورثة الآخرين وتكالبهم واستعدادهم لخوض الحروب في سبيل تحقيق غاياتهم ، ورأت ان افضل سبيل لها ، هو ان تحافظ على هذا المريض ، وان تحمي بقاءه ، فاتخذت لنفسها موقف المدافع عنه ، الذاب عن حياضه لا في ندوات المؤتمرات السلمية فحسب ، بل في ميادين الوغى ايضاً . فحققت لنفسها من هذا الموقف

غايتين ، جوهريتين ، اولاهما ، حرمان منافسيها وقرنائها من ممتلكاته ، وثانيتهما ، نيل الامتيازات ، والحصول على المغانم بأهون سبيل ، من المريض نفسه ، الذي يقدم اليها ، كل ما تطلبه منه ، اعترافاً منه بجميلها وفضلها في حمايته من الطامعين الآخرين .

لكن هذا الوضع سرعان ما تبدل تبدلاً جذرياً ، بشق قناة السويس عام ١٨٦٩ . فمشروع القناة فرنسي محض ، قام به مهندس فرنسي . فزودته بلاده بأموالها مستهدفة من تحقيقه ، مطامع سياسية واسعة ، لعل اهمها ، تهديد بريطانيا في امبراطوريتها التي تقوم وراء هذه القناة . وتمكنت فرنسا ، عن طريق ، اتفاقها ، مع الخديوي آنذاك ، الذي لم يكن يهمه امر شعبه بقدر ما تهمه خزينته الخاصة وعظمته الشخصية ، من تسخير عشرات الالوف من المصريين في شق القناة التي حفروها ، بعرقهم ودموعهم وآلامهم . وعندما انتهى العمل في القناة وانتقلت من حيز الاحلام الى عالم الواقع ، تبينت بريطانيا فوراً ، ما لها من اهمية استراتيجية بالغة ، في طرق مواصلاتها مع امبراطوريتها ، وسارعت ، الى اقتناص حصة الأسد فيها ، عن طريق التنكر لحق مصر وشعبها في هذا المشروع ، الذي حققه هذا الشعب المسخّر ، بعرقه وآلامه .

وتغيرت الصورة كلها في امد قصير . فامبراطورية الرجل المريض ، ولا سيما الاجزاء القريبة منها ، من هذا الممر المائي العظيم ، غدت بين عشية وضحاها ، الأمل العذب ، الذي يداعب مخيلة ساسة الامبراطورية البريطانية ودهاقنتها ، ولم يعد بامكانها ، ان تترك أمر الحفاظ عليها ، في ايدي الرجل المريض ، خشية انتقاله الى الدول التي تنافسها والتي أخذت تقطع الآن اشواطاً بعيدة في ميدان القوة والتسلح . ولم يعد بقاء الرجل المريض على قيد الحياة ، بالأمر الذي يهم بريطانيا بقدر ما يهمها ان تسلب لنفسها ، اجزاء ممتلكاته ، التي تقع على طرق مواصلاتها الامبراطورية مع الهند ، أو قريبة منها . وسرعان ما رأيناها تغتصب مصر اولاً ، عام ١٨٨٢ لتلحق به السودان بعد حين ، وتضع يدها على عدن ، وتفرض حمايتها ، الكريهة على القسم الاكبر من سواحل

الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية ، وتحتل جزيرة قبرص ، ثم تشرع في وضع المؤامرات ، لاقتسام ما تبقى من الاجزاء القريبة الأخرى من الوطن العربي وفي مقدمتها سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية ، وبلاد ما بين النهرين .

وفي هذا الجو المحموم ، من التسابق مع الزمن ، ومن الاصطراع على اقتسام الغنائم ، واقتناص الفرائس وتثبيت دعائم الامبراطوريات ، ظهر جيل نادر من الدهاة العباقرة ، من رجال بريطانيا ، الذين ركبوا الأهوال والمخاطر وارتحلوا الى اجواء غريبة عنهم كل الغرابة ، في مناخها ، ودياناتها ، وتقاليدها ، وعاداتها ، ومواصلاتهاوطرق معاشها ، يجولون بواديها ، وقفارها ويؤمون نجودها ووهادها ، ويلتحفون سماءها ، ويفترشون غبراءها ، ليرسوا على ارضها دعائم امبراطوريتهم ، ويقيموا فيها دويلات وممالك ، وامارات ، ومشيخات ، تدين لهم بالولاء ، وتتطلع اليهم طالبة العطف والرضى . فكان منهم من حل في بيوت الوبر وعاش حياة البدو الرحل . وكان منهم من ارتحل الى ارض المدر ، واعتنق الاسلام ، في اقصى ربوع كردستان . وخدم المساجد والشيوخ ، وارتدى مسوح الصعاليك والفقراء ، لينتقل منها بعد سنوات قلة الى اردية الحكام والقادة .

أجل في هذا الجيل المحموم ، ظهر رجال من امثال : كتشنر ، ولورنس ، ومكماهون ، وستورس ، وكوكس ، وفيلبي ، وجرترود بل ، وكلايتون ، وغلوب ، وجارفيس ، ولونغريغ ، وكركبرايد ، ومزيا ستارك ، وبولارد وولسون ، وديكسون ، وادموندز ، وبرترام توماس وكورنواليس وسبيرز ، وغيرهم كثر . تفاوتت الادوار ، التي قاموا بتمثيلها على مسرح دنيا العرب ، من حيث الأهمية ، فكان لبعضهم دور البطولة في هذه المسرحية ، وكان للبعض الآخر ، دور البطولة في تلك ، بالاضافة الى عدد ضخم من الكومبارس ، واصحاب الادوار الثانوية ، وكثيراً ما اختلفت هذه المسرحيات في مواضيعها ، ومدلولاتها ، وعبرها ، لكنهاتتفق في شيء واحد ، وهو ان مؤلفها ، ومنتجها ومخرجها ، واحد ، ليس إلا ، هو الامبراطورية البريطانية ، بعظمتها وجبروتها

وامجادها وقوتها ، وصناديق ذهبها ، ومطامعها ، وخططها ، واستراتيجيتها ، وتكتيكها .

فأين يقف فيلبي بين هؤلاء العمالقة ؟ انه في الطليعة ولاشك ، ولا جدال . دخل اكاديمية « التمثيل البريطاني الامبراطوري » ، طالباً مجداً منذ نعومة اظفاره . فمثل ادوار الكومبارس ، في الهند ، ليرتفع شأنه بعد ذلك الى مرتبة الممثلين الثانويين اثناء حملة العراق ، في الحرب العالمية الأولى ، ثم لا يلبث ان تبرز مواهبه ، ويتجلّى نبوغه ، فيعطى أدوار الأبطال في مسرحيات تمثل في بغداد والرياض وعمان وجدة ، ويصل مرتبة الخلود ، في مسرحية الرياض ، فيعطى دوراً ازلياً سرمدياً ، يمثله على مسرحها ، حتى الايام الأخيرة من حياته ، عندما طوته عجلة الزمن ، واختلاف جماهير النظارة ، التي لم تعد تستسيغ تمثيله ، الذي غدا قديماً في طرازه واسلوبه ، فتطرده عن المسرح ، صاخبة لاعنة ، ليقضي ايامه الأخيرة ، في زوايا الاهمال والنسيان ، ويمضي الى خالقه ، في ميتة مغمورة لا يحس بها الا قلة من الافراد ، الذين شيعوه الى مقره الاخير ، في قبر بسيط وفقاً لوصيته ، وعلى الطريقة الوهابية التي اعتنقها ثلاثين عاماً من حياته .

وقد تضاربت الآراء في فيلبي ، بسبب ما كان في حياته ، من مفارقات وتضارب . فهو عند البعض ، الركن الاستعماري ، الذي اعتمدت عليه امبراطوريته ، في تثبيت دعائمها وتوطيد اقدامها في اكثر من ارض عربية ؛ وهو عند البعض الآخر ، بريطاني ، عمالي النزعة ، متحرر الفكر ، أحب العرب حباً خالصاً ، ودافع عنهم وطالب بتحررهم ؛ وهو عند البعض ، المسلم المؤمن الذي اقبل على الاسلام يعتنقه ، عن رغبة وطواعية ، وايمان ، بينما هو عند البعض الآخر ، الانتهازي الذي اتخذ من الاسلام ذريعة ، يستند اليها في تحقيق مطامعه واهوائه ، العامة منها والخاصة ، وستاراً ، يخفي به حقيقة ما كان يعمله في دنيا العرب . وهو فوق هذا ، عند البعض ، البريطاني الذي اختلف مع حكومته على سياساتها العربية ، فاستقال من خدمتها ، وآثر العمل الحر ، في

ميدان التجارة ، بينما هو عند الكثيرين ، رجل السياسة البريطاني ، الذي خلع عن نفسه صفته الرسمية عندما ادرك ضرورة ذلك ، ليعمل ، تحت ستار من السرية والاختفاء، في تحقيق اهداف بلاده وخدمتها حتى اللحظة الاخيرة من حياته .

أما الصورة التي يرسمها فيلبي لنفسه ، في مختلف الكتب التي وضعها ، والتي لقيت الكثير من الشهرة والرواج ، في عالم الغرب ، فهي صورة ذلك الرجل الذي عشق الاسلام ، منذ نعومة اظفاره. وقضى الاربعين سنة الأولى من حياته . كافراً بالمسيحية التي نشأ عليها ، ومتردداً في الانضواء الى راية الاسلام ، الى ان حزم أمره اخيراً فاعتنقه ، وأخذ يقوم باداء فروضه من صلاة وصوم وحج الى بيت الله الحرام ، وهو ذلك العمالي النزعة ، الذي كره منذ نشأته ، تزمت المحافظين واستعماريتهم العتيقة البالية ، فأراد خوض الحياة السياسية في بريطانيا ، وترشيح نفسه في انتخاباتها البرلمانية . ولكن سرعان ما كره العمال ايضاً لأن هؤلاء جاروا المحافظين ، في روحهم الاستعمارية ، فعمل مع غيره من المتحررين الناقمين ، على اقامة حزب جديد قوامه التحرر من النزعات الاضطهادية القديمة . وهو الموظف الذي يرى تنكر حكومته للعهود التي قطعتها للعرب ، وتراجعها عن تأييد حريتهم واستقلالهم ، وفرضها لانظمة الحكم والاشخاص الذين تريدهم عليهم ، فيثور على ذلك ، ويستقيل اكثر من مرة دون ان يكترث بمستقبله أو بأوضاعه المادية ، او يهتم بغضب حكومته وسخطها عليه ، وهو العادل المنصف ، الذي كثيراً ، ما يقضي ببراءة من تسوقهم الاجهزة الاستعمارية الى المحاكمة بهذه التهمة أو تلك ، وهو الرجل الذي لا يخشى في الحق لومة لائم ، فيعارض حكومته في آرائها ، ويختلف مع رؤسائه ومرؤوسيه ، ويعارض صديقه الملك عبدالعزيز اكثر من مرة ، ويجهر بنقد حكم ولده الملك سعود ، واوضاع بلاده ، دون ان يأبه بالعواقب أو يحسب لها حساباً . وهو الانسان العف الذي لا يطمع في مال أو ثراء . فيركل المنصب بقدمه ، ويرفض المعونة التي يقدمها اليه صديقه الملك السعودي ، ولا يقبض منها ريالاً واحداً ،

قانعاً من حياته بالكفاف . وهو الزوج المخلص والوالد البار ، الذي يكثر الحديث عن أفراد اسرته وزوجته في كل مناسبة ومقام . وهو الداعية الى السلام ، الذي لا يؤمن بالحرب ، فتقوده عقيدته هذه الى غياهب السجن ابان الحرب العالمية الماضية .

هذه هي الخطوط العريضة في الصورة التي رسمها فيلبي لنفسه ، والتي تظهر جلية واضحة في جميع كتبه ومؤلفاته . ولكن اين تقف هذه الخطوط في ميدان الاختبار ، ومحك التجربة ؟ انا لا اريد ان اتهم فيلبي في كتابي هذا ، بالمغالطة والزيف واعطاء صورة غير صادقة عن نفسه ، اذ ان هذا الاتهام ، يفتقر الى الادلة القاطعة الثابتة ، ولكنني اريد في كتابي هذا ، ان انقل ايضاً آراء الآخرين فيه ، وان أوازن بين الصورة التي يرسمها هو لنفسه والصورة التي يرسمها الآخرون له . وان احاول عن طريق الحجة والمنطق ، والاستدلال بالنتائج الوصول الى الحقائق المجردة ، لعلها تلقي ضوءاً صحيحاً على صورة فيلبي كما هو ، مجردة عن كل زيف او طلاء ، وخالية من كل تشويه ، أو افتراء .

لقد عاش فيلبي الثلاثين سنة الاخيرة من حياته مسلماً ، مؤمناً ، وقد ذكر هو ، انه كان يقيم الصلوات في أوقاتها ، ويؤدي فريضة الصيام حتى في أقسى شهور الصيف ، واثناء رحلاته وجولاته في البوادي العربية ، مبالغاً في ذلك في تزمته اذ ان الأسلام يبيح للمؤمنين الإفطار ان كانوا على سفر ، وانه كان يؤدي فريضة الحج ، دائماً ، كما مات فيلبي ميتة المسلم ، وأوصى ، بأن يدفن في المقابر الاسلامية . لكن اصدقاء فيلبي ، الحميمين الذين عرفوه ، هذه المدة الطويلة ، في المملكة العربية السعودية ، وفي سنواته الاخيرة كانوا يشكون في حقيقة اسلامه ، ويؤكدون انه لم ينقطع ، عن الخمر الذي يحرمه الاسلام ، ويعزون تزمته في الصيام الى رغبته الشديدة في التظاهر ، كما ينسبون اقباله على الحج الى محض الرغبة في ان يكون دائماً وابداً في رفقة الملك السعودي الراحل ، الذي كان لا يتوانى عن اداء الفريضة كلما امكنه ذلك . وهم يعللون وصيته الاخيرة ، بأنها مظهر نهائي ، لتجنب كل ما يفضح حقيقته التي عاشها ثلاثين

عاماً طوالاً .

ولقد تبجّح فيلبي في اكثر من موضع من مؤلفاته الكثر ، بنزعاته العمّالية ، وميوله المتحررة ، ومعارضته للاستعمارية المتزمتة. وروى على سبيل التدليل ، كيف استقال من العمل في العراق ، لأن الحكومة البريطانية اتبعت فيه سياسة استعمارية خالصة ، كما روى معارضته ، في بسط نفوذ بريطانيا واشرافها الكلي على امارة شرق الاردن . لكن البعض يرى في ان هذه المواقف تتعارض معارضة كلية ، مع خدمته الطويلة في حكومة الهند ، التي كانت تعكس الصورة المطلقة للتزمت الاستعماري ، ومع الوقت الرخي الطويل الذي قضاه في خدمة الملك السعودي الراحل ، الذي كان يمثل في حكمه ، اكثر أنواع الحكم المطلق القائم على سيطرة الفرد ، مما لا يتفق مع الليبرالية والنزعات الاشتراكية المتحررة في شيء ، الا اذا كان التظاهر ، بهذه الاشتراكية ستاراً يخفي به حقيقة ميوله وأهدافه ونواياه .

أما قصة احتجاجه على تنكر حكومته للوعود التي قطعتها على نفسها في العراق واستقالته تأييداً لهذا الاحتجاج ، فيعزوها الكثيرون ، الى حقيقة واقعه. ولم يستطع حتى فيلبي نفسه ، إنكارها أو تجاهلها ، عندما تحدث عن موضوعها في كتبه . فقد كان فيلبي ، يؤمن ، منذ اشترك في السياسات العربية اشتراكاً فعلياً ، ان المستقبل في العالم العربي ، للعائلة السعودية ، لا للاسرة الهاشمية . وكان ساسة بريطانيا والقابضون على زمام الحكم فيها من بداية الأمر ، مجزأين بين مؤيدي هذا الجانب او ذاك ، وان كانت غالبيتهم من الهاشمي الهوى. فلا بدع والحالة هذه أن نرى فيلبي يقف في احد الجانبين ، ويختار الفريق السعودي ، الذي اتاحت له الظروف معرفته عن كثب اكثر من غيره بسبب المهمة التي اوفد فيها الى الجزيرة العربية في أواسط الحرب الاولى ، ويشتد في تأييده لهذا الهوى السعودي ، ويغالي ، حتى انه كان يتوق ، الى تسليم العراق ، الى احد امرائهم ، او حرمان الهاشميين منه على الأقل ، وهذا ما دفعه الى الاستقالة ، عندما رأى تفوق الجانب الهاشمي الهوى عليه .

ولقصة استقالته من امارة شرق الاردن ، دوافع أخرى ، لعل أهمها ، ما يبدو من كراهيته ، في الكتب التي وضعها لان يكون تابعاً لأحد . فكيف اذا كان هذا المتبوع جيشاً لجباً من الموظفين والسكرتيرين في حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين . فلقد قيل له عندما قبل منصب المعتمد البريطاني في عمان ، انه سيكون مرتبطاً بشخص المندوب السامي البريطاني في القدس ، بوصفه المندوب السامي لفلسطين وشرق الاردن ، فلما أراد هذا المندوب ، وهو اليهودي ، المنفذ لمآرب الصهيونية ، ان يجعل من امارة شرق الاردن ، جزءاً لا يتجزأ من فلسطين ، وان كان يتمتع بنوع من الاستقلال الداخلي ، وأحس فيلبي ، ان الامير عبدالله ، يساعد عن قصد او غير قصد ، في تنفيذ هذه السياسة ، بكثرة مراجعته للمندوب السامي ، في كل صغيرة أو كبيرة من شؤون امارته ، ادرك ان مركزه كمعتمد مستقل ، مرتبط بالوزارة في لندن ، غدا مهدداً ، وانه سيضحي بين عشية وضحاها ، مجرد موظف بريطاني تابع للادارة المركزية في القدس ، بجيشها اللجب من الموظفين البريطانيين ، وآثر ان يستقيل ، من منصبه هذا ، على ان يكون تابعاً صغيراً .

أما حديث العدالة في الاحكام التي كان يصدرها ، في القضايا التي كانت تعرض عليه ، اثناء عمله الطويل في حكومة الهند ، او إبان الدور الثانوي الذي مثله على مسرح العراق ، في بداية عهده بالوطن العربي ، والتي اكثر من الحديث عنها في الكتب العديدة التي وضعها . فحديث قد لا يخرج عن جادة الصدق ، لأنه قد يكون في طبيعته ميالاً الى العدالة ، التي يريد تنفيذها . طالما ان هذه العدالة ، لا تتناول الا الجرائم العادية ، التي لا تؤثر في حال من الأحوال ، على سياسة امبراطوريته او مركزها أو نفوذها ، ولو كان حقاً انساناً عادلاً ، وبريطانياً يحب العرب اكثر من حبه الاعمى لبلاده ووطنه الاصلي ، لرأينا في كتبه الكثيرة ، دفاعاً عن حق العرب الذي هضمته امبراطوريته في فلسطين ، إبان الانتداب وبعده ، ولطالعنا حملة صادقة على سياستها الجائرة التي اقامت لليهود دولتهم فيها ، بعد ان شردت أهلها ، وطوحت بهم في كل واد ،

وأرض . ولكن مثل هذا الدفاع ، لم اعثر عليه في مختلف كتبه التي قرأتها والتي لم يخرج فيها عن لمحات خاطفة يتظاهر فيها احياناً بتأييد العرب ، وتبطن حيناً آخر ، عطفاً خالصاً على اليهود .

ولقد حمل فيلبي حقاً ، على سياسة الملك سعود وطريقة حكمه ، وعلى بطانته ورجال حاشيته ، متخذاً من الرغبة في الاصلاح ، والاشفاق على أحوال الرعايا ، ستاراً يختفي به حقيقة اهدافه من حملته هذه ، التي طوحت به خارج العربية السعودية وقذفت به الى زوايا الاهمال والنسيان . وقد تجلّت هذه الحملة اكثر ما تجلّت في كتابه الاخير ، « اربعون سنة في الصحراء » ، وفي السلسلة الطويلة ، من المقالات التي نشرها في مختلف الصحف والمجلات البريطانية وغير البريطانية ، اثناء منفاه ، ويرى الكثيرون من عارفي فيلبي ، واصدقائه ، انه كان مدفوعاً في حملته هذه بدوافع ، بعضها شخصي ، وبعضها عام . فقد كان في عهد الملك عبد العزيز المستشار المفضل ، الذي يؤخذ رأيه في كل صغيرة وكبيرة ، من شؤون البلاد الداخلية والخارجية ، وكان يحضر مجالس الملك الخاصة ، ويشترك في ما يدور فيها من مناقشات مبدياً رأيه ، وموجهاً ، وناصحاً. فلما انتقل الأمر الى الملك سعود ، ضعف نفوذه هذا بصورة تدريجية ، الى ان امّحى نهائياً ، وأبعد عن مجالس الملك الخاصة ، وغدا إمّعة لا حول لها ولا طول ، بفضل تحول السياسة السعودية من الاتجاه الى هوايت هول ، الى تلة الكابيتول ، وبداعي ، انتقال الحكم في البلاد ، من ايدي اصدقائه القدامى ، الى ايد جديدة تكره فيه ما يمثله ، وتحسده على ما كان يتمتع به من صولة وشأن ، وفي مقدمتها الملك سعود نفسه ، الذي كانت علاقاته به ، على اسوأ ما تكون منذ أيام والده ، ويؤكد هؤلاء ، ان فيلبي لو كان منصفاً في حملته الاصلاحية التي جهر بها في السنوات الأخيرة ، لكان قد اعلنها منذ عهد طويل في أيام الملك الراحل ، إذ ان الحكم الحالي في السعودية ، لا يخرج عن كونه امتداداً ، للحكم السابق مع ميل ، جديد ، الى بعض الاصلاح ، مجاراة لروح العصر ، وسيراً مع ركب الحضارة.

أما عفة نفسه ، ونظافة يده ، وترفعه عن اطماع الدنيا ، ومغانمها ، فهي

صفات حقيقية توجد دائماً في افذاذ الرجال ، الذين نذروا انفسهم وحياتهم كلها لخدمة قضية يؤمنون بها ، ولا ريب في ان انشغاله ، بأمور الملك واقامة الامبراطوريات ودعم السياسات ، وايمانه بعدالة القضية التي يعمل في سبيلها ، كلها امور ابعدته عن مطامع الدنيا وزخارفها ، ومغانمها ، ولا ريب عندي في انه كان صادقاً كل الصدق ، عندما حاول ان يدفع في كتابه « اربعون سنة في الصحراء » عن نفسه تهمة الاثراء وتكديس الأموال ، مبرهناً بالأرقام البسيطة ، على انه انسان عادي يقل في ثرائه شأناً عن اصغر موظف في اصغر سفارة سعودية .

ويكثر فيلبي من الحديث في كتبه عن زوجته واولاده ، ورعايته لافراد عائلته ، واهتمامه بتدبير امورهم ، فيظهر بمظهر الزوج الصالح والاب البار ، الذي يرقب نشأة اولاده وتعليمهم ، وخروجهم الى ميادين الحياة ، بعين الوالد المشفق الحنون . وقد لا يكون في هذه العواطف الانسانية التي يعكسها هنا وهناك أي مغالاة أو مبالغة ، لكن مما يستلفت النظر ، ان بعض اصدقاء فيلبي قد ذكروا في اكثر من حين ، وتناقل عنهم الكتاب ، ان زوجته لم تكن المرأة الوحيدة في حياته الطويلة ، وان كانت هي الأولى وهي الاخيرة ، وهي المفضلة والمكرمة .. ولعل فيلبي قد اقتبس عن الذين عاش بين ظهرانيهم ، هذا الأمد الطويل ، الرغبة في الزواج من اكثر من واحدة ، أو العيش مع الجاريات والسرايا ، وهي ظاهرة يعرفها كل بيت من البيوت التي تجاور المنزل الذي اقام فيه .

أما دعوته الى السلام ، وكرهه للحروب فلهما قصة اخرى ، قد ترد في سياق هذا الكتاب ، وان كنت اود الاكتفاء في هذه المرحلة ، بالاشارة الى ان السبب الحقيقي في مضيه الى السجن ، بعد عودته الى بريطانيا عام ١٩٤٠ ، قادماً من السعودية ، كان تقريراً بعث به السفير الفرنسي في جدة ، الى حكومته ، التي نقلته بدورها الى حليفتها الحكومة البريطانية ، جاء فيه ان فيلبي ، جهر علناً ، في احدى حفلات جدة برأيه في ان فرنسا ستخسر الحرب ، مما اعتبر

انهزامية في حينه . ولا ريب في ان فيلبي ، عندما جهر بمثل هذا الرأي ، كان يدرك ما يقول كل ادراك ، فهو بحكم عمله الطويل ، وحياته واختباراته ، يعرف ان فرنسا اصبحت ضعيفة أمام جحافل هتلر وجيوشه ، وانها لا تستطيع الصمود أمامها اذا ما حزب الأمر ، وهو ما اثبتت صحته الأيام التي تلت هذا القول . لكن فيلبي لم يقل ان بريطانيا ستنهزم ، ذلك ، ايماناً منه بقوتها ، وعظمتها ، وكيف لا يؤمن وهو الجندي الذي ارتضى حياة البادية ، وعيش الفيافي في جحيم الصيف وحره وشمسه اللاهبة ، ليخدم بلده ، وينفذ مآربه واغراضه . ولعل هذه المواقف التي وقفها ، والخدمات التي أداها ، كانت الشفيع له ، في ان لا يطول سجنه ، وان يخرج فوراً الى خضم الحياة السياسية في بريطانيا ، يشترك فيه بكل قوته وجهوده ، واقفاً نفسه واولاده على خدمة مجهودها الحربي .

* * *

هذا هو فيلبي الانسان الرجل ، الذي جعلنا منه موضوعاً لكتابنا .. انه الموظف الذي عمل في ارجاء الهند ومختلف اصقاعها ، والضابط السياسي ، الذي مثل دوره الفعّال ، في سني الحرب الأولى ، في بلاد الرافدين ، والمندوب فوق العادة ، الذي اوفدته بلاده الى الرياض ، ليلقى حاكم نجد آنذاك ، ويحرضه على حرب الاتراك وحلفائهم من آل الرشيد ، والمستشار الذي شاءت الظروف له ان يصبح الحاكم بأمره في شؤون العراق الداخلية ، فيعمل على ابعاد فيصل عن عرش العراق ، والمعتمد الذي اوكلت اليه في عمان مهمة ترويض الأمير عبدالله ، وتحويل امارته الناشئة ، من منطلق للثورة العربية كما أرادها رشيد طليع وعادل ارسلان ورفاقهما ، الى محمية خانعة ذليلة ، تخضع للمندوب السامي في القدس ، وتقيم أحسن العلاقات واوثقها مع الفرنسيين الذين اغتصبوا سوريا ، واقاموا فيها انتدابهم البغيض ؛ وهو الوسيط ، الذي سارع الى جدة يعرض خدماته ووساطته على الملك علي ليصلح ذات بينه مع الملك السعودي ، فعمل جاهداً ، على ازالة عرش الهاشميين في الحجاز ، وتوطيد

دعائم الحكم لصديقه عبد العزيز ؛ وهو التاجر ، الذي احتكر استيراد السيارات الى المملكة العربية السعودية ردحاً طويلاً من الزمن ؛ والمستشار ، الذي اوحى ، بمنح امتيازات البترول ، للانكليز ثم للامريكان ؛ والرحالة ، الذي طاف ربوع الجزيرة العربية ، ومجاهلها ، من ناحية الى اخرى ، وكتب عنها اضخم الكتب ، واعظم المؤلفات ؛ والعالم بالطيور والحشرات ، الذي جمع مجموعات نادرة ، من طيور الجزيرة العربية وحشراتها ؛ واغنى بها متاحف بلاده ، ومجموعاتها العلمية ؛ وعالم الاثار ، الذي درس آثار العرب وغير العرب ، من الأقوام التي اقامت في مختلف ربوع الوطن العربي ، والقى عنها عشرات المحاضرات وكتب عنها الفصول الطوال ؛ وهو المستشرق ، الذي درس العربية واتقنها كما درس لغات فارس والهند بمختلف لهجاتها ، فأم مؤتمرات المستشرقين وحضر مناقشاتهم ، وكان في طليعة من يعتد برأيهم في جميع الأمور المتعلقة بالشرق العربي ؛ وهو ضابط المخابرات الذي احتاجت بلاده الى خدماته في اكثر من مرة وحين ، وكان آخر ما احتاجت اليه ، في مستهل الحرب العالمية الثانية ، عندما عرضت عليه ، ان يعمل ممثلاً لها في العربية السعودية ؛ وهو الصحافي الذي يزود كبريات صحف الغرب ومجلاته بالانباء والتعليقات والبحوث ؛ وهو الطبيب ، الذي يقصده الاعراب في البادية لعلاج أمراضهم ، وشفائهم من عللهم وجراحهم ؛ وهو القاضي ، الذي يفصل فيما يعرض عليه من شؤون الجزاء ، والجرائم والجنح ، وهو فوق هذا وذاك ، الانسان كل الانسان ، والزوج الصالح ، والاب البار ...

هذا هو فيلبي ... الرجل ، الذي جاء الى الحياة ، ومضى عنها مخلفاً اثراً اختلف في أمره الناس ، فترك للتاريخ القول الفصل ، والكلمة النهائية ...

٢

بين سيلان وكمبردج والهند

في الثالث من نيسان عام ١٨٨٥ ، ولد هاري سنت جون بريدجر ، فيلبي ، عن ابوين بريطانيين ، في احدى مزارع الشاي ، في جزيرة سيلان ، فكان الابن الثاني للأسرة ، وكان والده ، قد ارتحل ، عن مقاطعة الاسرة في شيغويل ، في بريطانيا ، طلباً للرزق ، بعد وفاة ابيه ، اذ انتقلت ملكية المقاطعة الى أخيه الاكبر ، وحملته احدى البواخر الى جزيرة سيلان حيث ابتاع مزرعة للشاي في منطقة بادولا ، الواقعة في قلب جبال الجزيرة . وفي ذات يوم شهد حفلة راقصة في المدينة ، تعرف في غضونها الى ابنة القائد البريطاني الذي غدا فيما بعد الجنرال جون دنكان ، فأحبها واحبته ، وانتقل بها ، من المدينة الى الجبال حيث انشأت اسرتها الجديدة .

ويروي فيلبي ، ان أمه اضاعته ، وهو في سني الرضاعة ، فقد قضت أحد الاعياد عند اسرة صديقة ، في مكان قريب ، ثم انشغلت في اعداد متاعها للعودة . ومضت بعد ذلك في طريقها الى البيت ، وبعد ان قطعت مسافة طويلة ، تبيّن لها انها قد نسيت شيئاً هاماً ، هو طفلها الرضيع . فبعثت بالخدم ، يبحثون عنه في الطريق فلعله قد سقط منها ، وسرعان ما رأوا ، غجرية تحمل طفلين ، رضيعين في عمر واحد ، وبينهما شبه عجيب ، كان هو احدهما ، وكان الثاني ابن الغجرية . وقد عثرت عليه هذه في الطريق ، فنزعت عنه بعض ملابسه

الجميلة المترفة ، والبستها لولدها ، فاصبح الرضيعان متشابهين ، حتى ان الغجرية لم تدرِ ايهما ولدها . ويمضي فيلبي في روايته فيقول ان الخدم ، اخذوا أحسن الطفلين ملابس ، ولا يدرى أحد حتى الآن ، هل كان الذي اخذوه ، هو ابن الغجرية ، ام ابن سيدتهم الحقيقي . لكنه على كل حال لا يشكو من قدره ، وان كان يرجو ، ان يكون أخوه المزيّف قد اصبح عضواً في برلمان سيلان . لا سيما وقد قيل له ، ان رسالة ظهرت في السنوات التي تلت الحرب العالمية الاولى في الصحيفة الانكليزية المحلية ، التي تصدر في سيلان يسأل فيها كاتبها ، اذا كان باستطاعة احد ، ان يرشده ، الى الحقيقة ، فيما اذا كان « فيلبي » الذي اتصل اسمه بالجزيرة العربية ، قد ولد في مكان يدعى سان جون ، في بلاد الشاي . ولكن احداً لم يرد على كاتب هذه الرسالة في حينها .

ويمضي فيلبي فيقول : « وقد يكون هذا السائل ، هو أخي ، واذا كان حقاً هو ، وأراد ان يستعيد حقوقه التي حصل عليها من مولده ، وكان قادراً على اثبات هويته خيراً مني ، فانا على اتم استعداد لاعطائه مكاني ، وأخذ مكانه ، شريطة شئ واحد ، وهو ان لا اتنازل ، عن أمي الحالية ، مهما كانت قوة البيانات التي يقدمها .

وكان لفيلبي اربعة من الأخوة هم توم وجاك وتيم وبادي . وعندما كبرت العائلة ، رأى ربها ان يعود بها الى بلاده ، لينشئ اولاده في معاهدها ، فغادر سيلان مع زوجه واطفاله ، عائدين الى انكلترا في عام ١٨٩١ .

ويصف فيلبي نشأته الأولى ، فيقول : « ولدت مسيحياً ومحافظاً ، على الرغم من ان حياتي في سيلان ، لم تتأثر بهذه الاعتبارات ومن اصرار مربيتنا على تنشئتنا نشأة دينية . ولقد كنت بالتأكيد ، مسيحياً ومحافظاً . عندما ذهبت بعد ثلاثة عشر عاماً الى كمبردج ، لأجد زمرة من ذوي العقول الحادة والنبيلة ، مثلي يصطرعون ، مع كل ما للدين من اسس . وكنت اتلقى في غضون ذلك ، المبادئ الدينية والسياسية على زمرة من الرجال المحترمين . الذين لا اشك في صدقهم واخلاصهم وايمانهم بما يعتقدونه . وقد رضيت بتعاليمهم ، وتقبلتها ،

اذ لم يكن في وضعي آنذاك ما يمكنني من عدم الانسجام مع هذه التعاليم ، ذلك لأن طبيعتي وتقاليدي العائلية ، تجعلني متعصباً الى حد ما ، وعندما بدأت في المرحلة الاخيرة من تعليمي اشك في عدالة معتقداتي ، قذفت بها جميعاً ، وطرحتها جانباً ، دون تبكيت من ضمير أو احساس بألم ، فقد رأيت النور ساطعاً ، ولم تكن الانتهازية لتدور في خلدي او خاطري » .

هذا هو كل ما يذكره فيلبي عن طفولته من الناحية الروحية ، فقد كان يعرف ، ان الصلوات ما كانت لتنقطع في البيت ، وان المضي الى الكنيسة في صباح يوم من أيام الاحاد ، كان أمراً دائباً ومستمراً وكأنها جزء من كيانهم ووجودهم .

وعاشت الأسرة ردحاً من الزمن في بيت الجدة ، ثم انتقلت الى بيت خاص بها ، وسرعان ما دأبت على الانتقال من دار الى اخرى ، كالبدو الرحل .

والتحق فيلبي ، بروضة اطفال في ويستبورن تديرها السيدة روث . وكان شقياً منذ طفولته . فقد روي عنه ، انه كان في طريق ذهابه الى الروضة وايابه منها ، يكثر من قرع أجراس الأبواب التي يمر بها ، ويفر هارباً قبل أن تفتح هذه الأبواب .

والتحق مع أخيه الاكبر توم بمدرسة داخلية في هينفيلد في عام ١٨٩٤ تديرها سيدة ساحرة شابة تدعى ستيفنز وزوجها العجوز ، ومعهما مدرس شاب ذو قوام رياضي فارع يدعى كامنغز . ويروي فيلبي عن مدرسته هذه « انها كانت بيتاً تحيط به المروج الغناء ، وتنساب فيها بعض الجداول ، وتمتد في رحابها ملاعب رياضية واسعة ، تقع في نهايتها كنيسة قريبة يؤمها طلاب المدرسة. وكانت الدراسة فيها تقليدية » .

وينتقل فيلبي من هذه المدرسة الى ويستمنستر عام ١٨٩٨ ، حيث يتفوق على اقرانه . فينال المرتبة الأولى ، ويصبح زعيماً لها في عامه الأخير الذي انتقل بعده سنة ١٩٠٤ الى كلية ترينيتي في جامعة كمبردج ، حيث بدأ يحس بالرغبة في العزلة ، وأخذ يخلق حول نفسه جواً جديداً ، امتاز بطابع الحملات على النظام السائد .

ويقول فيلبي انه أخذ يتجه في حياته الجامعية نحو الاشتراكية ، ونحو الليبرالية الفكرية . وبدأ اتجاهه هذا ، يتخذ شكلاً جدياً في المواضيع التي كان يكتبها ، والمحاضرات التي يلقيها في ندوات الطلبة .

وتخرج من الجامعة عام ١٩٠٧ ، حاصلاً على درجة الامتياز ، وسجل نفسه ، في قوائم الراغبين في العمل ، في حكومة الهند . واجتاز في هذه الفترة دورة تدريب في اللغات الشرقية والقانون الهندي والتاريخ ، ثم سافر الى فرنسا والمانيا ، حيث تعلم اللغتين الفرنسية والالمانية بسرعة فائقة ، مكتشفاً في نفسه موهبة عظيمة في تعلم اللغات الاجنبية . وبدأ يتعلم ، الهندوستانية والفارسية وبعض مبادئ العربية .

وفي اوائل شهر تشرين الثاني من عام ١٩٠٨ ، استقل فيلبي الباخرة ، من ميناء ليفربول ، في طريقه الى الهند ، ليصبح عموداً من اعمدة الامبراطورية البريطانية ودعامة من دعائم بنيانها ، في الدرة اللامعة في تاجها ، حيث قدر له ، ان يقضي عشر سنوات متوالية ، دون ان يرى انكلترة التي لحق بها من التبدل في هذه الفترة الشيء الكثير . ويروي هو عن نفسه في كتابه « ايام عربية » ان تبدلاً خطيراً ، قد طرأ عليه ، في هذه الفترة نفسها ، بعد أن أخذ يطرح جانباً ، جميع الآراء والمعتقدات السياسية والدينية ، التي حملها من أيام عهد الملكة فكتوريا ، وسني دراسته الجامعية ، دون ان يتعلق بأهداب عقائد جديدة معينة . وترك للتجارب ان تحل محل النظريات في تكوين فلسفته الشخصية وتطويرها ، فواجه العالم على حقيقته ، ودون أي ستار من الزيف والاصطناع ، مؤمناً ، بأن الجميع يعملون في سبيل خير البشرية وسعادتها ، ولكن سرعان ما تبين له ان هذا الايمان لا يقوم على اسس صحيحة ، بعد ان حنكته التجارب وصقلته الأيام .

وأطلت الباخرة التي تقله على ميناء بومباي في الثاني من كانون الأول عام ١٩٠٨ ، فوجد الميناء ، يرتدي أجمل حلل الزينة ، والازدهاء . تظلله الاعلام الخفاقة احتفاء بعيد الملكة الكساندره ، وسرعان ما تلقى الأمر بالتوجه في القطار الى لاهور ، فاستقله ، ليواجه اول تجربة له ، في تفاهة الحياة الانسانية ، فقد

اصطدم قطاره ، بقطار آخر ، على مقربة من مصطفى اباد ، وعندما افاق من سباته ، رأى عشرات القتلى والجرحى ، وابصر بحطام الحديد والفولاذ ، واستمع الى الأنات والزفرات وصرخات الهلع والاستغاثة ، وانقضت ساعات طويلة ، قبل ان يصل قطار ثالث ليقل القتلى وقد بلغ عددهم الخمسين والجرحى وقد أربى على المائتين ، والناجين وبينهم فيلبي ، الذي خلص من الكارثة ، بعد ان فقد كل ما يملكه من متاع .

ونقله قطار آخر من لاهور الى جيروم ، التي قدر لها ان تكون مستقره للسنوات التالية من حياته فشعر بالسعادة في هذه المنطقة الجبلية الرائعة التي تقع على حدود الهند الشمالية ، والتي تطل جبالها العالية المكسوة بالثلوج على مقاطعة كشمير

وبدأ فيلبي فترة تمرينه مع عمود آخر من اعمدة الاستعمار البريطاني في الهند ، هو المستر جنكيز . وكانت القارة الهندية تمر في مرحلة اختبار جديدة ، اثر تطبيق المشاريع الاصلاحية التي سميت باصلاحات « منيتو — مورلي » والتي تعمل على اشراك الهنود ، في حكم بلادهم ، بعد ان استأثر به البريطان مئات السنين . ولا ريب في أن زملاءه من السادة الحكام قد افزعهم ، ما يصدر عن هذا الشاب الاحمق ، من آراء تدعو الى استقلال الهند الذاتي ، واعطاء شعبها حق تقرير مصيره .

ولم تمض عليه في جيروم شهور خمسة ، حتى كان قد اجتاز بتفوق امتحاناً اعدته الادارة الهندية لموظفيها لتعلم اللغة البنجابيه . ويروي فيلبي ان اوضاع الطائفة الاسلامية في المدينة قد استهوته اكثر من الطائفة الهندوكية ، وسرعان ما اقبل على تعلم القرآن ، على يدي احد صغار الكتبة في دائرته واسمه محي‌الدين الذي تطوع لتعريفه بجميع انحاء المنطقه ، فطاف به شوارعها واسواقها ومساجدها واماكن عبادتها .

وبعد ان قضى تسعة شهور ، في مرحلة التدريب والتمرين ، صدر الأمر بنقله الى راولنبدي ، وهي مركز اكثر اهمية من جيروم ، وفيها حامية عسكرية كبيرة . وقدر لهذه المدينة ان تلعب دوراً هاماً في حياته المقبلة . ففي الحفلات

الراقصة التي كانت تقام في ناديها ، تعرف الى دورا ابنة ادريان جونستون المهندس في مديرية الاشغال العامة في المدينة ، فأحبها ، وتمت خطوبتهما في شهر نيسان عام ١٩١٠ .

وأخذ يقبل في هذه الفترة على اللغات يدرسها فاجتاز في امبالا امتحاناً في اللغة الاوردية ، كما تعلم البلوجية والفارسية . وفي هذه المدينة بالذات تزوج فيلبي ، وولد له ولده البكر كيم ، الذي اصبح فيما بعد من رجال الصحافة المعدودين في بريطانيا .

ويروي فيلبي عن نفسه في هذه الحقبة حادثة تشير الى ما في شخصيته من انقسام وتجزئة . فبينما يدعى لنفسه الافكار الليبرالية التحررية ، ومناهضة الفروق العنصرية ، تراه في هذه القصة ، يسلك مسلك الاستعماري الصميم ، الذي ينكر على الشعوب المستعمرة ابسط الحقوق في الحياة . فقد ذكر في كتابه « ايام عربية » انه كان يمر في احد الشوارع ذات يوم ، فرأى جماعة من صبيان المدارس الهنود يقودهم أحد اساتذتهم ، من الهنود طبعاً ، وهو يحمل مظلته في يديه . ووقف فيلبي يحدث بعض الصغار ، فظل المعلم واقفاً امامه ، والمظلة مفتوحة بيده ، مما يعتبر خرقاً فاضحاً لأعراف الاستعمار وتقاليده في الهند ، التي تقضي على المعلم باغلاق مظلته والوقوف موقف التجلة والاحترام أمام السيد البريطاني . فما كان من فيلبي ، الا ان اختطف المظلة من يد الهندي ، وقذف بها بعيداً ، ثم أمسك بأذنه . يعركها بيده ، بشدة آلمت المعلم المسكين وحطت من قدره وهيبته أمام طلابه الصغار . ويبدو ان هذه القصة ، قد وصلت الى مسامع الصحافة الهندية ، التي حملت على المستعمر الشاب بشدة . وعلى الرغم من ان فيلبي قد اعترف في كتابه المشار اليه بخطئه ، الا أن هذه القصة في حد ذاتها تعكس ، ناحية مهمة ، في شخصية الرجل ، وآرائه ، ومعتقداته ، التي حاول ، ان يسدل عليها ستاراً ، من الليبرالية المصطنعة ، والتحرر الفكري الزائف ، لاسيما ، اذا اخذنا بعين الاعتبار ، ان فيلبي ، عندما قام بهذا العمل ، كان قد شارف الثلاثين من عمره ، وتهيأت له جميع سبل النضوج الفكري .

وخيرّته السلطات بعد ذلك ، بين الانتقال الى موري ، أو راجابور . وكانت الأولى تفضل الثانية من ناحية مناخها المعتدل الرائع ، وطراوة العمل فيها ، ووجود اسرة زوجته فيها ، حيث يستطيع ان ينعم مع عائلته بالسعادة البيتية . ولكنه آثر الثانية ، رغم ما اشتهر عنها من وفرة ثعابين الكوبرا فيها ، نظراً لاهميتها الجغرافية ، وما يحيط بها من مناطق ، يستطيع القيام ، بإشباع هوايته الى الاستكشاف فيها . ولعل هذه الفترة ، كانت الأولى في حياته ، التي عملت على إنماء غرائزه الاستكشافية ، التي جعلت منه في مستقبل ايامه ، رحالة من مشاهير رجال الاستكشاف في العالم .

وحل عام ١٩١٤ ، وبدأ يخطو قدماً في معارج الارتقاء ، فنقل نائباً لحاكم لايلابور ، واصبح من الأعمدة المتوسطة في بناء صرح الامبراطورية . ولم تمض بضعة اشهر عليه ، وهو في منصبه هذا . حتى كان يقيم حفل عشاء ساهر في منزله ، لكبار موظفي المقاطعة ، عندما حمل اليه ساعي البرق ، برقية بالشيفرة من الحاكم العام . بعث بها الى جميع حكام المقاطعات ، يعلمهم فيها بنشوب الحرب الكونية واشتراك بريطانيا فيها .

وأخذت الأيام تغذ خطاها ، فنقله المسؤولون ، رئيساً لقسم الصحافة في دائرة التحقيقات الجنائية ، في البنجاب . ويتعرف بحكم مسؤوليته الجديدة والخطيرة ، على عدد من قادة الفكر الذين قدر لهم ، ان يبرزوا في تاريخ الهند الحديث ، وفي طليعتهم ، مولانا ابو الكلام آزاد ، الذي كان ينشر المقالات انذاك ، داعياً الى حرية الهند واستقلالها ، وحاملاً على بذور الفتن الطائفية التي كان المستعمرون يشجعونها في البلاد ، لضمان سيطرتهم عليها. على اساس السياسة التقليدية « فرق تسد » .

وحملت اليه اسلاك البرق ، نبأ مصرع أخيه بادي . في مطلع الحرب ، في معركة ايبرس ، في الجبهة الغربية . فتأثر بالغ التأثر ؛ ثم سرعان ما جاءت الانباء ، تحمل اشتراك تركيا في الحرب الى جانب المانيا ، وصدور أمر الخليفة العثماني في القسطنطينية ، داعياً المسلمين في جميع انحاء الارض للجهاد . وكان

لابد لهذه الدعوة من ان تلقى صداها بين مسلمي الهند ، فتضاعفت مسؤولياته الجسام ، في دائرة الصحافة التي يعمل فيها ، لابطال مفعول دعوة الجهاد .

وجاءه الفرج ، على شكل برقية تلقاها ، من مقر نائب الملك في الهند ، يأمره فيها بالسفر الى العراق ، للانضمام الى الحملة البريطانية العسكرية ، التي اتجهت اليه من الهند ، لاحتلال وادي الرافدين ، وتهديد جناح الامبراطورية العثمانية في هذا الموقع الاستراتيجي الهام .

٣

فيلبي في العراق

ووصلت به الباخرة دورما ، التي كان قد استقلها من كراتشي في الثالث عشر من تشرين الثاني عام ١٩١٥ ، الى ميناء البصرة في اليوم العشرين من الشهر نفسه؛ وكانت القوات البريطانية قد احتلت جزءاً من جنوب العراق ، وشرعت في زحفها على بغداد نفسها . وكان على الدائرة السياسية الملحقة بالحملة العسكرية ، والتي يتولى ادارتها السير بيرسي كوكس ، ان تواجه العديد من المشاكل الادارية والسياسية التي يخلفها الجيش الزاحف وراءه . وكان من المنتظر ان تزداد هذه الاعباء ثقلاً وضخامة ، بعد سقوط بغداد المتوقع ، بين لحظة واخرى ، واتساع رقعة الاراضي المحتلة ، مما اقتضى توسيع الدائرة السياسية ، وتزويدها بعدد لجب من الموظفين من ذوي الخبرة الادارية ، والالمام باللغات المتعددة ، فقدر لفيلبي ان يكون في طليعة هؤلاء ، الذين حشدوا في سرعة هائلة ، للقيام بالواجبات الضخمة الملقاة على عاتقهم .

وكانت الدائرة تضم عدداً من الموظفين الذين استعيرت خدماتهم من حكومة الهند ، منذ مستهل الحملة العسكرية ، وفي مقدمتهم دوبس ، الذي عهد اليه بادارة قسم الواردات ، وهولاند ، الذي عيّن نائباً لكوكس ، ليرفع عن عاتقه ، الاعمال الروتينية الرتيبة ، ويمكنه من متابعة الجيش الزاحف .

وقد تعرف فيلبي فور وصوله الى المستر هولاند ، الذي ابلغه توقع وصول عدد كبير من الموظفين الجدد الذين سيرافقون الحملة عند دخولها الى بغداد .

وكان الجيش بقيادة الجنرال تاونسند قد وصل الى بلدة الكوت على نهر دجله في طريق زحفه الى العاصمة ، ولكنه سرعان ما تعرض لهجوم مقابل كاسح قام به الاتراك . ادى الى وقف الزحف ، ووقوع تاونسند وقواته ، في شباك الحصار في مدينة الكوت نفسها ، التي طوقها القائد التركي خليل باشا برجاله . ولم يكن في مكنة بريطانيا ، ان تبعث بإمدادات سريعة لنجدة الجيش المحاصر ، مما اضطره الى الاستسلام بعد بضعة اشهر من القتال العنيف .

وعندما عاد كوكس الى البصرة ، بعد نجاته من حصار الكوت بأعجوبة ، شرع في اعادة تنظيم دائرته ، فعين فيلبي مساعداً مالياً له ، وبدأت منذ ذلك التاريخ ، العلاقة الطويلة التي قدر لها ان تقوم بين الرجلين ، والتي ، وضعها فيلبي موضع التجلة والتقدير ، على الرغم مما كان يوجهه من انتقادات لرئيسه ، اهمها تأثره بآراء من يعملون في معيته ، وفي مقدمتهم الكولونيل ولسون في مستهل الحملة ، وجرترود بيل في المرحلة الاخيرة منها .

وعندما وصل فيلبي الى البصرة ، وبدأ عمله فيها . كان ولسون هذا في اجازة مرضية ، نالها ، بعد الجهد الجبار ، الذي بذله في حوض الفرات الاسفل . وأخذ يستمع الى أقوال الموظفين الذين كانوا يتوجسون خيفة من عودة ولسون من اجازته لما يعهدونه فيه من قسوة وصرامة وشدة . ومضى الموظف الجديد ، ينظم دائرته ، ويضع اسسها ، والنظم التي يجب اتباعها فيها ، وفي ضبط حساباتها ، على ان يعمل بهذه الترتيبات جميعها اعتباراً من مطلع العام الجديد . وكان زملاؤه يسخرون من هذه التنظيمات ، زاعمين ، ان ولسون لن يقبل بها عند عودته ، وان الأمور ، ستعود الى سيرتها الاولى .

ويروي فيلبي ، قصة مقابلته الأولى لولسون فيقول : «كنت اتناول طعام العشاء في الخارج ليلة وصوله ، وعندما عدت ، لم يتوفر لدينا الوقت ، الا لاجراء ، تعارف رسمي بسيط . وكنت في صبيحة اليوم التالي ، اتجه الى غرفة كوكس حاملاً بعض الأوراق ، في يدي ، عندما قابلني ولسون . وتبادلنا بضع كلمات ، لعلها تلقي ضوءاً ، على العلاقات التي قامت بيننا في السنوات

التالية ، فقد قال لي : « سمعت ان الحسابات ، قد ارتبك أمرها في غيابي فرددت عليه قائلاً : « لكن الحقيقة هي ان الحسابات قد اصبحت منتظمة ودقيقة لأول مرة منذ نشوب الحرب » . وكان ما قلته صحيحاً ، وكان ولسون يعرف ذلك . ومضيت في طريقي الى مكتب كوكس ، حاملاً اوراقي ولم يحاول ولسون الاصطدام بي من جديد ، بسبب هذه الحسابات ، فقد كان يعرف ما فيها من فائدة وجدوى لأنه لم يكن جاهلاً ولا سخيفاً . ولو ظلت الحسابات على ما كانت عليه ، من فوضى واضطراب ، لتدخلت السلطات العليا ، ونقلت الحسابات الى دائرة مفوض الواردات ، أو الى دائرة الحسابات العسكرية ، لاسيما وان السلطات العليا في الهند ، كانت قد بدأت تظهر ميلها نحو الاتجاه الثاني » .

وتولى فيلبي في هذه الفترة رئاسة تحرير صحيفة « الاوقات البصرية » ، التي تصدرها ، دائرة المندوب السياسي . ولكن عمله فيها لم يطل ، اذ عادت اليها المحررة الاصلية السيدة لوريمر التي كانت تجيد اللغة العربية ، بينما كان فيلبي لا يزال في المراحل الأولى من تعلمها .

وانتقل الاشراف على الحملة العسكرية في هذه الفترة ، من حكومة الهند ، الى وزارة الحربية البريطانية ، بعد ان ثبت فشل الأولى فيها ، وقامت الوزارة بتعيين الجنرال السير ستانلي مود ، قائداً عاماً للحملة كلها .

وشعر فيلبي بحكم عمله في الدائرة المالية ، بالحاجة الماسة الى وجود مصرف بريطاني ، يتولى عمليات تمويل شراء حاجيات القوات البريطانية من منتجات العراق وايران والبلاد المجاورة ، لاسيما وان المصرف الوحيد الذي كان موجوداً في البصرة في ذلك الحين ، بعد اغلاق البنك العثماني على اعتبار انه من المؤسسات المعادية ، هو البنك الفارسي الامبراطوري ، وهو اعجز من ان يحتكر جميع هذه الاعمال . وتمكن من اقناع كوكس ، بأن الاشراف على الوضع المالي يتطلب وجود مصرف آخر في البلاد . فدارت مفاوضات مع البنك الشرقي البريطاني ، في لندن ، اسفرت عن فتح فرع له في البصرة ، اصبح المصرف

الرسمي ، للادارة المدنية ، وظل المصرف الرسمي للحكومة العراقية الى ان نشأ مصرف الرافدين اخيراً .

ووصلت الى البصرة في هذه الآونة المرأة البريطانية التي قدر لها ان تلعب الدور الاكبر ، في تاريخ العراق الحديث ، وهي جرترود بيل . فقد جاءت لتعمل في مكتب المخابرات الحربي الذي يتولى رئاسته عالم الآثار المعروف كامبل طومسون ، قادمة من القاهرة ، حيث كانت تعمل زميلة للورنس في مكتب المخابرات الذي يتولى رئاسته جيلبرت كلايتون والدكتور هوغارت ، والمسمى بالمكتب العربي . ومضت عدة اشهر ، قبل ان تلتحق جرترود بالدائرة السياسية وان كانت دائمة التردد عليها ، حيث تعرفت الى فيلبي وكوكس ، وأخذت تنقل اليهما آخر اخبار القاهرة ، المتعلقة بالمفاوضات الدائرة بين السير هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر ، والشريف حسين ، والرسائل المتبادلة بينهما ، لضمان اعلان الثورة العربية في الحجاز ، وانضمام العرب الى جانب بريطانيا في حربها ضد الاتراك ، بينما كان السير برسي كوكس ، قد غادر العراق في كانون الأول من نفس العام الى العجير حيث اجتمع الى ابن السعود ، على ساحل الاحساء ، وعقد معه معاهدة ، تعهد فيها باسم بريطانيا بالاعتراف باستقلال بلاده .

ويقول فيلبي في حديثه عن جرترود ، انها كانت تتمتع بعقل ذكي ، لماح ، مكنها على الفور ، من ادراك المنافسة الشديدة القائمة بين الهند والقاهرة على السياسات العربية والتأرجح بين تأييد الهاشميين والسعوديين ، وهي المنافسة التي كانت وزارة الخارجية في هوايتهول تقوم بدور الحكم فيها . لكن فيلبي لم يكن حتى ذلك الحين ، قد ركز اهتمامه على الشؤون السياسية ، ولذا ، فقد نمت صداقته مع جرترود ببطء شديد ، الى ان تبينا معاً ، اهتماماً مشتركاً : في موضوع سلالات القبائل العربية وزعاماتها . ويقول فيلبي ان هذا الاهتمام كان جزءاً من عمل جرترود ، بينما لم يكن بالنسبة اليه ، الا فرعاً من فروع الدراسات العربية التي يقوم بها . ولكن هذه الهواية المشتركة « جمعت بينهما ووثقت

علاقاتهما لمقارنة ما يحفظانه من اسماء وما يصل الى مسامعهما من سلالات ، فنمت بينهما تلك الصداقة التي قدر لها ان تعيش سنوات طويلة » .

وكان حصار الكوت في هذه الآونة يشتد ، والانباء تترى عن سوء الحالة ، التي وصلت اليها القوات البريطانية المحاصرة فيها . ومضت الاشهر تباعاً ، والخسائر تزداد يوماً بعد آخر ، وثبت للقيادة البريطانية ان لا مجال للقوات المحاصرة للنجاة من الاسر ، عن طريق القتال والمعارك ، وخيل اليها ، أن في أمكانها ، ان ترفع هذا الحصار عن طريق الرشوة، فعهدت الى لورنس الذي استدعي من القاهرة ، بمفاوضة القائد التركي نوري باشا . وقد تمكن لورنس من الوصول الى الخطوط التركية ، بعد رفع علم الهدنة الابيض ، وعرض على القائد التركي مبلغ مليون ليرة ذهبية ، مقابل رفع الحصار ، ولكن هذا القائد ، رفض العرض المغري ، وتقرر مصير الكوت التي استسلمت في اليوم الثلاثين من نيسان بعد خمسة اشهر من الحصار .

وفي هذه الاثناء ، عين كوكس فيلبي ، رئيساً لدائرة الواردات بالاضافة الى منصبه الاصلي كمساعد مالي للمندوب السياسي ، وبعث الى زوجته يدعوها للمجيء الى البصرة والاقامة فيها . ووصلت الى مسامع فيلبي انباء مصرع اخيه الثاني يتم في الجبهة ، ويتحدث فيلبي عن هذه الفترة من حياته فيقول : «كان فصل نضوج التمر في عنفوانه . وكنت اقضي اطول وقت ممكن في العراء ، اجوب الحدائق والبساتين ، وارقب عملية جني المحصول ، باحثاً مع الناس في أحوال الموسم ، واسعار التمور ، والعلاقات بين اصحاب النخيل وتجار التمور . وكانت البواخر الامريكية الضخمة تؤم الميناء ، لتنقل صناديق التمر الى العالم الجديد . وكثيراً ، ما جلت في زورقي ، أو على صهوة جوادي ، في ضواحي البصرة ، لاطلع على أحوال المنطقة الزراعية وما شابه ذلك من المواضيع . وشرعت ارسم الخرائط للمناطق التي ازورها ، مما يعينني كثيراً في العمل الذي اقوم به كمدير للواردات .

« وقررت ان اقوم بجولة في منطقة الفرات ازور فيها سوق الشيوخ

والناصرية . حيث اجتمعت في السوق ، بالكبتن ديكسون ، الضابط السياسي ، ورأيت طريقته المثلى في تكييف نفسه للحياة العربية ، لاسيما وانه قد ولد في القدس ، عام ١٨٨٢ ، حيث كان والده يعمل قنصلاً عاماً لبريطانيا ، وحيث نشأ مع رفاقه من الأطفال العرب . وقد تعرفت في الناصرية وسوق الشيوخ الى عدد من شيوخ السعدون وفي مقدمتهم عجمي باشا ، الذي ظل على ولائه للاتراك ، وارتحل الى البادية لينضم الى صفوف ابن الرشيد ، والشيخ تامر ، الذي كان يعيش في مضاربه على مقربة من الحميسية . »

ويعود فيلبي الى البصرة ، ليمضي في رحلة ثانية ، باتجاه نهر دجلة هذه المرة مستصحباً معه جرترود بيل ، فزارا القرنه وقبر عزرا ، وقلعة صالح . والعمارة ، حيث اجتمعا الى اكبر عدد ممكن من الشيوخ ، وفي مقدمتهم عريبي باشا المشهور زعيم قبيلة البو محمد .

وعندما وصل البصرة عائداً من رحلته ، تبيّن له ان زوجته ستصل في اليوم التالي . ولم تكد تقضي في المنزل المخصص له بوصفه رئيساً لدائرة الواردات بضعة أيام ، حتى جاءه الأمر بتسليم الدائرة الى مجلس جديد مؤلف من ثلاثة مديرين ، مع الدعوة لمقابلة كوكس ، للبحث معه في المنصب الجديد الذي سيتولاه .

ويقول فيلبي في حديثه عن هذه الصدمة : «كانت اليد التي اصدرت الأمر هي يد كوكس ، لكن ولسون . كان العقل الموجه وراءه . ولم يكن لدي ادنى شك في ذلك ، منذ اللحظة الأولى ، ولكنني ادركت انني اعجز من ان اعمل شيئاً . وقد أجبت كوكس ، بكتاب ، اعربت فيه عن احتجاجي الشديد ، معاتباً اياه ، على سماحه لي بالمجيء بزوجتي ، الى وضع زائف كهذا . ولقد انتظر ولسون فرصته، ووجه الي هجومه ، بذكاء وعبقرية . لكن المعركة بيننا لم تنته بعد . وظلت المشكلة القائمة هي ، ماذا سيفعلون بي ، وفكرت في الاستقالة والعودة الى الهند » .

وعرض عليه كوكس ، ان يعمل ، ضابطاً سياسياً ، اما في العمارة او في

الكوت فاختار اولاهما ، وانتقل اليها ، حيث قضى فيها عدة اشهر . ولعل أطرف ما وقع له اثناء عمله فيها ، حادثته مع غضبان شيخ بني لام . فقد ارادت المندوبية البريطانية الحصول على عدد ضخم من الاغنام من بني لام ، لاستهلاك الجيش ، ولكن غضبان شيخ القبيلة ، كان عزوفاً عن بيع الجيش احتياجاته ، وكان يطلب اسعاراً خيالية لقاءها ، بعد ان بعث بها الى المرعى ، في جبال بلاد فارس المجاورة ، لتكون في منجاة من يد البريطانيين ، وترقباً لنتيجة المعركة الدائرة في الشمال بين الانكليز والاتراك . وكان ليخمن الضابط السياسي ، في العمارة ، قبل فيلبي ، يلح على كوكس ، بارسال قوة تأديبية الى بني لام ، لتلقين شيخها غضبان درساً لن ينساه . وكانت هذه الفكرة نموذجاً من الطريقة التي يتبعها ليخمن في جميع الاماكن التي عمل فيها ، ولعلها كانت السبب في مصرعه على يد الشيخ ضاري فيما بعد . ولكن فيلبي عندما حل بالعمارة ، اقترح طريقة اخرى ، وافقه عليها كوكس ، وهي ان يقوم بزيارة غضبان في مضاربه ، ويحاول اقناعه ببيع الاغنام للسلطات البريطانية .

وامتطى فيلبي صهوة جواده ، ومضى يرافقه بعض الاتباع في طريقه الى مضارب بني لام على حدود فارس . وعندما حل ضيفاً على الشيخ قابله بترحاب شديد ، بوصفه الضابط البريطاني الجديد في المنطقة . ويروي فيلبي انه تحدث الى الشيخ في مختلف المواضيع ، وبينها سير الحرب واتجاهها ، وسعر الاغنام بصورة عامة . وبعد قضاء يومين او ثلاثة في المضارب ، طلب من الشيخ تزويده ببعض الحرس ، للقيام بجولة قصيرة داخل الحدود الفارسية ، وواعداً بالعودة سريعاً . وجال فيلبي ، بالمراعي الخضراء ، التي كانت عشرات الألوف من اغنام بني لام تجوب انحاءها ، ثم زار بقايا قصر دارا الاكبر في شوشه ، حيث كانت بعثة جيولوجية فرنسية تقوم بأعمالها الاستكشافية قبل الحرب ، ثم قصد ديزفول ، حيث حل ضيفاً على الضابط السياسي البريطاني سون ، الذي كان يحكم المدينة وضواحيها بيد من حديد ، بالرغم من حياد فارس الاسمي ، في الحرب الضروس القائمة بين الألمان والحلفاء .

وعاد فيلبي الى مضارب الشيخ غضبان ، حيث اقيمت وليمة فاخرة تكريماً له . وبعد العشاء ، اختلى فيلبي بالشيخ في خيمته ، وتحدثا هذه المرة حديثاً صريحاً عن الأغنام وأسعارها . وقال فيلبي للشيخ ، ان الجيش بحاجة الى لحم الضأن ، على ان تصله الأغنام بسرعة ، وان لا يتأخر وصولها عن اسبوع او اسبوعين ، وإلا فإن زحفه المستمر ، سيوصله الى اماكن بني ربيعة ، فيحصل منهم على ما يريده من الأغنام . وتبودلت المساومات على الأسعار تلك الليلة دون الوصول الى نتيجة مرضية .

وفي صباح اليوم التالي ، بادر فيلبي مضيفه قائلاً : « اسمع يا شيخ غضبان ، لا يليق بنا معاً ، أنت الشيخ العربي الكبير ، وأنا الضابط البريطاني السياسي ان نساوم على أسعار الغنم . فعلينا ان نتبادل الهدايا الثمينة ، بدلاً من المساومة كصغار التجار . اسمع سأكون صريحاً معك . أنت تقدم الى الحكومة البريطانية هدية تعد عشرة آلاف رأس من الغنم ، وأنا اهديك باسم الحكومة مائة الف روبية دفعة واحدة . » وقال الشيخ « لقد هزمتني ، ولكن تذكر انني اكرم منك . » فقال فيلبي « لن انسى ذلك ، وسنقدر لك صداقتك » . وهكذا تمت الصفقة ، وانقضى يومان في جمع الأغنام ، وفي اليوم الثالث كانت تسير في خط طويل باتجاه علي الغربي ، حيث يتسلمها الجيش من رعاة القبيلة .

وانقضت الأسابيع متوالية في العمارة ، وتعرف فيلبي في إبانها على رونالد ستورس ، السكرتير السياسي للمندوب السامي البريطاني في مصر ، وكان قد وصل الى البصرة ، ومر بالعمارة في طريقه الى بغداد ، ليجتمع الى كوكس ، وليبحث معه في موقف ابن السعود ، من مطالب الشريف حسين ومطامعه ، لاسيما وقد اصبح يلقب نفسه بملك العرب . وقد تم الاتفاق على ان يعود ستورس الى البصرة ليسافر منها الى الكويت في طريقه الى الرياض للاجتماع بابن سعود ، واقناعه بقبول ، زعامة الملك حسين للعرب . ولكن هذه الرحلة لم تتم ، لان ستورس اضطر الى الغائها بعد قليل ، بسبب اصابته بضربة شمس بعد مغادرته للبصرة .

وكان بين الشخصيات الكبيرة التي زارت العمارة ، في هذه الفترة التي عمل فيلبي ابانها فيها ، ملكة « بشته كوه » ، فقد جاءت تنشد العلاج الطبي من مرض السكر على ايدي اطباء الجيش البريطاني . ويقول فيلبي انه خرج الى مسافة بعيدة من البلدة ، ليكون في شرف استقبال جلالتها ، او استقبال الهودج ، الذي تستقله ، بعيدة عن اعين الرجال ، وليواكبها الى أحسن بيت في العمارة ، اعد ليكون محلاً لاقامتها ، اثناء زيارتها. وكان من الصعب على الاطباء البريطانيين الاشراف على علاجها ، اذ تعذر عليهم ، القيام بفحصها أو معاينتها ، وانما اعتمدوا في تشخيصهم على أقوالها ، التي كانت تنقل اليهم من وراء حجاب . ويقول فيلبي ان الملكة سمحت لزوجته ولعدد من الممرضات برؤيتها ، ولكنه لم يرها قط ، وان كانت قد دارت بينه وبينها احاديث طويلة من وراء ستار ، تناولت مختلف المواضيع .

وضاقت العمارة على رحبها بفيلبي ، وأحس انه كالمنبتّ فيها ، رغم ما تتيحه له من فرص التحكم والنفوذ ، فهو يريد ان يكون في بغداد ، وأن يلعب دوراً قيادياً فيها يتفق مع طبيعته الطموح ، وينسجم مع رغبته في البروز والشهرة ، وخيّل اليه ان المسؤولين هناك ، يتعمدون إقصاءه ، عنها ، فشعر بالألم واليأس ، وأخذ يفقد كل اهتمام بالعمل في العمارة . وأخذت حالته النفسية ، تسوء من يوم الى آخر ، فكتب أخيراً الى كوكس ، يقول انه لا يستطيع مواصلة العمل ، وانه في حاجة ماسة الى الراحة والاستجمام ، في اجازة يقضيها في الوطن ، بعد ان مرت به تسع سنوات من العمل المتواصل ، دون اية اجازة مهما قصرت ، واكد ان عمله في العمارة ، ليس من النوع الضخم الذي يتطلب بقاءه ، بل في وسع اي موظف صغير القيام به واداءه على خير وجه .

وتلقى الرد برقياً ، فذكر المندوب السياسي ، انه قلق من انباء مرضه ، وانه على اتم استعداد لمساعدته ، لكن الاجازات المرضية لا يمكن منحها الا على اساس تقرير طبي ، ولذا فقد طلب الى السلطات الصحية انتداب مجلس طبي ، لفحصه . وعهد الى السير وليام ويلكوكس ، كبير اطباء العمارة ، والخبير

العالمي بالامراض المستوطنة برئاسة هذه اللجنة الطبية . وعند ما ظهر فيلبي أمامها ، وفحصته بعناية دقيقة ، ابتدره رئيسها ، وهو من اصدقائه الحميمين قائلاً :
« لا أرى فيك مرضاً خطيراً ، وانما بعض القنوط واليأس ، والملل من العمل ؛ ويبدو لي انك تريد استبدال منصبك والخروج من هنا ، وسأرى ما بامكاني عمله لمساعدتك » . وتلقى فيلبي بعد أيام صورة من التقرير الذي رفعته اللجنة وجاء فيه قولها : « لا يشكو هذا الضابط بدنياً من أي شيء ، ولذا فلا يسع اللجنة الطبية ان تجد اساساً تستند اليه في التوصية بمنحه الاجازة المرضية التي يطلبها . ولكنه يشكو من الناحية الثانية ، من انحطاط عقلي حاد ، وشعور باليأس والقنوط من اوضاعه الراهنة ، ولذا فنحن نقترح ، تبديلاً فورياً للمكان الذي يعمل فيه ، وطبيعة العمل الذي يزاوله » .

وتلقى فيلبي بعد بضعة ايام برقية من كوكس ، جاء فيها : « ان التقرير الطبي مرضٍ ، ولكنه يوصي بنقلك من منصبك . والوظيفة الوحيدة الشاغرة في بغداد ، هي رئاسة تحرير جريدة عربية نعتزم اصدارها قريباً ، فاذاكنت ترضى بهذا المنصب ، ففي وسعك الشروع في عملك الجديد فوراً ، شريطة ان تدرك ان زوجتك لا تستطيع المجئ الى هنا ، وان عليها ان تعود فوراً الى الهند . ارجو الابراق بقرارك » . وكان رد فيلبي الفوري : « شكراً جداً . لقد قبلت العرض . وشرعت في اعداد ترتيبات على هذا الأساس » .

وارتحلت زوجته الى الهند ، وفي السابع عشر من ايار ، ألقت به الباخرة النهرية مراسيها على شاطئ بغداد . فكان اول من لقيه فيها جرترود بيل ، التي استقبلته ، بعناق حار ، وأخذت بيده الى مكتبها وهي تقول : « كم سرني مجيؤك فالفوضى ضاربة اطنابها هنا ، والسير بيرسي مثقل بالأعمال ، منهك بالاعباء ، وليس ثمة في المكتب ، من يعرف اين يجد الشيء الذي يطلبه الرئيس فوراً . ان الوضع سيىء للغاية ، وارجو ان تتمكن من اصلاحه » .

وقال فيلبي متسائلاً : «ولكن ماذا حدث بالصحيفة التي تعتزمون إصدارها»؟ فقالت : « هذا موضوع سخيف ، في وسع الصحيفة ان تنتظر . على كل حال ،

لم نقم حتى الآن ، بأي عمل جدي ، في موضوعها ، على الرغم من حاجتنا اليها لشؤون دعايتنا . ولقد تحدثت طويلاً مع السير بيرسي ، فوافقني على رأيي في ان تبدأ العمل فوراً في مساعدته هنا في مكتبه ، والتصرف بهذه الاكوام المتراكمة من المعاملات المتأخرة . والآن تعال معي ، لأريك مكتبك » . وقادته من يده الى غرفة صغيرة ، فيها نافذة ضخمة تطل على نهر دجله ، وفيها مكتب كبير ، وضع امامه مقعدان ، ولها باب جانبي ، يؤدي الى مكتب كوكس نفسه .

ودخلت به الى كوكس ، فقال : « اسعدت صباحاً يا فيلبي ، آمل ان تكون قد قضيت رحلة مريحة . ولاشك في ان الآنسة بيل ، قد افهمتك العمل الذي ستشرع فيه . واعتقد ان في وسعنا تأخير اصدار الصحيفة ، فهناك عمل كثير امامك ، وليس في وسع غيرك ان يقوم به . وماكارنيس هو المسؤول عن المكتب ، وهو مجيد في عمله ، ولكنه لا يستطيع القيام بكل شيء ، لاسيما ، وقد اصبح من العسير علينا ، ان ننجز المعاملات يوماً بعد يوم » . واشار الى كومة هائلة من الملفات ، وقال : « اريد منك ان تدرس جميع هذه القضايا التي لا اعرف ما فيها ، ولكن قد يكون فيها اشياء هامة تتطلب العمل العاجل . وفي وسعك ان تبدأ بها فوراً ، ثم تنظم عملك بعد ذلك . »

وهكذا بدأ فيلبي عمله ، كالساعد الايسر لكوكس ، وكان يؤم مكتبه في الساعات المبكرة من الصباح ، ويظل فيه حتى الساعات المتأخرة من الليل ، لا يخرج منه الا لماماً ، لزيارة احد وجهاء المدينة . ويقول هو عن نفسه في هذه المرحلة : « وباستثناء زيارات نادرة قمت بها للكاظمية ، وللاعظمية ، فلم ابتعد كثيراً عن المكتب ، ولم اشاهد من بغداد ، ما كنت اتوق الى مشاهدته ، فقد ركزنا اهتمامنا على الاشخاص والاتجاهات ، اكثر من تركيزنا على الاماكن يضاف الى هذا ، ان العمل في الملفات كان ضخماً هائلاً » .

وكان على فيلبي ان يواجه سيلاً لا ينقطع من المعاملات ، فهناك مشاكل شراء المؤن والحاجيات للجيش ، وهناك مشاكل دائرة الواردات ، والخلاف على السياسة بين الجنرال هوكر حاكم بغداد العسكري الذي تطبع بخدمته الطويلة

في السودان ، فأراد اتباع سياسة العنف مع أهل بغداد وبين كوكس الذي يفضل الاساليب الدبلوماسية الناعمة . وثمة سيل دافق من البرقيات والرسائل من الكولونيل ولسون الذي يسيطر على ولاية البصرة ، والذي يلد في كل يوم ، فكرة جديدة ، او مشروعاً لا يمكن تحقيقه . وهناك حشد من الرسائل المتبادلة مع الضباط السياسيين في مختلف المناطق ، يطلبون التوجيه والارشاد أو يقترحون بعض الآراء . وهناك بعد كل هذا ، اكوام من البرقيات والرسائل ، التي ترد من سملا في الهند ، أو هوايتهول في لندن ، حول قضايا تتعلق بالسياسة العليا ، التي دخلت الآن ، دور التكوين ، على اثر البيان الذي اصدره الجنرال مود الى اهالي بغداد ، معلناً فيه وصوله اليها كمحرر لهم ، لا كفاتح منتصر . وهناك ايضاً لمح من الشكوك والتنافس بين الجنرال مود والسير بيرسي كوكس ، حول الحدود التي تنتهي اليها صلاحيات كل منهما وسلطاته ، لا سيما وان كلاهما قادر على الاتصال بأعلى السلطات في هوايتهول . وقد ظهر هذا التنافس على اشده ، بعد تعيين السير بيرسي كوكس ، مندوباً سامياً مدنياً ، لبلاد ما بين النهرين ، مع الصلاحيات المطلقة في مختلف القضايا المدنية على ان لا تتعارض مع مقتضيات السلامة العسكرية .

هذا هو المسرح الذي عمل فيه فيلبي ، عند وصوله الى بغداد ، وقيامه بواجباته فيها كسكرتير لكوكس ، في الواقع ، على الرغم من احتفاظه رسمياً ، بمنصبه كرئيس لتحرير الصحيفة التي لم تصدر بعد . وقد وضع منذ وصوله قاعدة عامة ، طبقها في جميع اقسام الدائرة ، بموافقة كوكس طبعاً ، وهي ان لا تصدر عنها ، أية رسالة مهما كان موضوعها تافهاً ، الا اذا كانت تحمل توقيع كوكس نفسه . وكان فيلبي يدرس جميع القضايا التي ترد الى الدائرة . ويوزع أوراقها على الملفات الخاصة بها ثم يضع مسودة الردود عليها ، ويحملها بنفسه الى كوكس ، ليصادق عليها مع الاستعداد لاجابة كل سؤال يوجهه اليه او اطلاعه على كل وثيقة [illegible] ثم يعود بها ليأمر بطباعتها ، لتعود ثانية الى كوكس لتوقيعها بشكلها النهائي .

ونال فيلبي ثقة كوكس المطلقة بجده ونشاطه ، واتقانه لعمله ، وسرعان ما أخذ يحيل اليه ، اكثر اوراقه سرية ، وخطورة ، فتمكن عن هذا السبيل من الالمام بكل صغيرة وكبيرة ، من شؤون البلاد ، واعمال الدائرة السياسية ، واصبح في وسعه ان يبني أحكامه التي يضمنها الرسائل والردود التي يعدها على المعاملات على قواعد من المنطق السليم ، والمعلومات الدقيقة الكافية . ويصف فيلبي كوكس في هذه المرحلة بقوله : « لقد كان اكثر انسان عملت معه ، ادراكاً لواجبه ، واحساساً بخطورة عمله ، ولم يكن يسمح لأية قضية مهما صغرت ، ان تمر عليه ، اذا لم يفهمها ويستوعبها ، ويوافق عليها . وما رأيته يتذرع قط بكثرة العمل للخلاص من دراسة قضية تتطلب منه تمحيصه العميق . وفي وسعي ان اقول ، ان العمل معه في هذا الجو الدائم من الثقة والاتصال ، القريب ، كان تجربة لي لا انساها مدى الحياة » .

ومضت الحياة في المكتب على هذا المنوال ، بصورة رائعة ، فكوكس يعترف بأن فيلبي ، قد أزاح ، عن كاهله الكثير من الاعباء والمتاعب ؛ وجرترود بيل ، التي كانت لا تنقطع عن الدخول الى مكتب فيلبي في كل ساعة ، تشكر له هذه العناية ، لانه اتاح للرئيس الوقت الكافي للاجتماع الى الشيوخ والوجوه ، الذين كانوا يصرون على مقابلته شخصياً ، وكان في الماضي كثيراً ما يعتذر عن لقائهم بسبب كثرة مشاغله . ويصف فيلبي هذه الحياة بقوله : « وهكذا عملنا ثلاثتنا في انسجام كامل ، جعل منا ثلاثياً ، منتجاً وفعالاً ، وكنت اشعر بمنتهى السعادة عندما نجتمع في غرفة كوكس عصر كل يوم ، لتناول الشاي ، فنبحث في مختلف المواضيع على اساس غير رسمي » .

وأحس الثلاثي ، الفعّال ، بالحاجة الماسة ، الى الصحيفة ، التي تتولى شرح وجهات النظر الرسمية البريطانية ، لأهل العراق ، ونو[illegible] بصدد المستقبل . وكان من الواضح ، ان الفكرة الأولى التي ساورت نفوس حكومة الهند ، بضم ولاية البصرة ، الى الحكومة الهندية ، قد عد[illegible] لتخلفها الفكرة الجديدة التي انطوت عليها اتفاقية سايكس بيكو ، وهي تقضي بتقسيم الاجزاء

العربية من الامبراطورية العثمانية بين بريطانيا وفرنسا ، على ان تأخذ الاخيرة ولاية الموصل ، بينما تحتفظ الأولى بولايتي بغداد والبصرة . وكان القلق قد بدأ يستحوذ على نفوس العراقيين ، من ان بريطانيا ستتراجع عن العهود التي قطعها الجنرال مود ، عند فتح بغداد بمنح الحرية للعراق ، فاقتضت ضرورة معالجة هذا القلق ، اصدار جريدة العرب .

وصدرت الصحيفة وتولى فيلبي رئاسة تحريرها ، يساعده في ذلك الاب انستاس الكرملي ، وأخذت الاعداد ، تصدر تباعاً ، تحمل المقالات الافتتاحية التي تعبر عن وجهات نظر بريطانيا الرسمية في الكثير من الشؤون والقضايا .

وفي هذه الآونة جاء ابن السعود ، لزيارة البصرة ، فكانت المرة الأولى التي يخرج فيها عن حدود بلاده وكانت جرترود بيل في استقباله ، لتطوف به مختلف الوحدات العسكرية والمنشئات ، ولتبث في فؤاده شيئاً من الرهبة عن قوة بريطانيا وعظمتها الحربية . ويقول فيلبي ، ان جرترود لم تترك وسيلة لاغداق عواطفها على أسد الصحراء الا واتبعتها ، لتأسره بسحرها ، وجمالها الاخاذ ، ولكنه تجاهلها ، فأحست بكبريائها ، وهي تدمي ، كامرأة جميلة ، قبل ان تكون سياسية ماهرة ، وحملت منذ ذلك اليوم للملك السعودي ، كراهية نمت مع الأيام، حتى وصلت الاوج . أما كوكس فقد وثّق في هذه الزيارة علاقاته بابن السعود ، التي بدأها عند اجتماعهما الأول في العجير ، وأخذ يميل ميلاً ظاهراً الى تأييده في نزاعه مع خصمه الحسين ، وفي تحديه لما يدعيه الشريف من سيادة على العرب جميعاً . ويؤكد فيلبي ان هذا هو السبب الذي حمل كوكس ، على الاحتفاظ بهذه المشكلة لنفسه دون ان يشرك جرترود معه في محاولة حلها ، لما يعرفه عنها من مشاعر معادية لابن السعود . ويمضي فيلبي فيقول : « أما أنا ، فلم تكن لي علاقة مباشرة بالموضوع في ذلك الحين ، حتى نهاية شهر آب ، عندما وصل الى بغداد ، الكولونيل هاملتون ، الوكيل البريطاني السياسي من الكويت للتشاور مع كوكس ، في قضية ايفاد بعثة بريطانية الى الرياض » .

وكانت الفكرة التي نبتت بعد الكثير من التراسل بين لندن والقاهرة وبغداد ، أن توفد كل من الاخيرتين بعثة من ناحيتها ، وان تجتمع البعثتان في الرياض ، للقيام بمحادثات مع ابن السعود ، الذي ابدى رغبة واستعداداً لاستقبالهما . وقد تقرر انتداب هاملتون ليرئس بعثة بغداد . وبعد ان انهى محادثاته مع كوكس ، شرع يعمل في مكتبي في اعداد الوثائق التي يريد ان يحملها معه . ويقول فيلبي انه قد حسده على هذه المغامرة العظيمة . وتقرر ان يرافقه ممثل عن القيادة العسكرية ، وطبيب وعدد من الموظفين . وعندما تلقى من كوكس تعليماته الاخيرة سمح له بالعودة الى الكويت لاستكمال ترتيباته اللازمة لرحلته حيث اعدت له الجمال اللازمة ، فمضى الى بريده ، قاصداً منها الى الرياض للانضمام الى حاشية ابن السعود ، مترقباً وصول البعثة الاخرى القادمة من القاهرة .

وفي هذه الآونة ، كان الخلاف قد اشتد بين فيلبي ، وبين ويلسون المقيم في البصرة ، والذي كان يواصل اعداد خططه دون اكتراث بالسياسة البريطانية الرسمية المعلنة ، وبوعود بريطانيا للعرب ، لتكون بلاد ما بين النهرين ، نواة ، لمنطقة جديدة تضم الى ربوع الامبراطورية البريطانية . وكان فيلبي يواصل في الوقت نفسه ، محاولة وقف ويلسون عند حده ، وتحطيم خططه ، لأنه كان يرى فيها تجاهلاً فاضحاً لمصالح بريطانيا الحقيقية ، التي تتطلب ، منها الحفاظ على عهودها لأهل العراق ، واقامة علاقة من الصداقة الوطيدة الدعائم معهم . وكان في موقفه هذا يحظى بتأييد جرترود بيل ولورنس نفسه ، اللذين يعارضان في اية خطة ترمي الى ضم العراق الى حكومة الهند .

وادرك ويلسون بذكائه اللماح ، ان الذي يقف وراء هذا الموقف الصامد في بغداد ، في معارضة مشاريعه هو فيلبي . وأخذ يشعر بالامتعاض والألم . من هذه المواقف المعارضة له . فأبرق الى كوكس ، يطلب السماح له بالمجيء الى بغداد ، لأعمال هامة قد تستغرق عشرة أيام ، وعندما تلقى الرد بالايجاب ، سارع بالقدوم الى العاصمة .

ويروي فيلبي قصة لقائه مع ويلسون فيقول : « وعقد ويلسون اجتماعاً

مطولاً مع كوكس في مكتبه ، فور وصوله ، ثم جاء الى مكتبي ، من الباب الداخلي ، واقتعد مقعداً امامي ، وبدأ حديثه قائلاً : « لقد تحدثت الى كوكس ، وقد اقترح علي ان اتحدث اليك مباشرة . ان الوضع الراهن لا يمكن ان يستمر ». وقلت معرباً عن البراءة بقدر ما استطيع « لماذا ، أهناك خطأ ؟ » ، فقال « الخطأ قائم في كل شيء . فأنت تقف حجر عثرة في طريق تحقيق أية قضية أطلبها . ان الوضع يحتاج الى تبديل هنا ، وكوكس مثقل بالاعباء ، ومنهوك القوى ، وهو يحتاج الى من يساعده هنا » . وقلت « اسمع يا ولسون ، لاشك انك تعرف ، انني اعمل فوق ما استطيع لمساعدة كوكس ، وقد سارت الأمور سيراً حسناً طيلة الوقت . فالعمل ، يسير على أحسن ما يرام ، وها هو مكتبي امامك ، تجده خالياً من كل ملف » . ورد ولسون قائلاً : « حسناً ، لا استطيع الصبر على الحالة الراهنة من الاجراءات » . وتفرست في وجهه ، وقلت « اسمع يا ولسون ، هل تعني أنك تريد ان تأخذ مكاني في هذا المكتب ؟ » فأجاب ، دون ان يحاول التملص « نعم . اعتقد ان هذا هو الوضع الذي يجب ان يقوم » . فقلت « في مثل هذه الحالة ، يمكن تدبير الموضوع بسهولة بشرط واحد . فأنت تعرف موضوع هذه البعثة التي اقترح ارسالها الى ابن سعود . أقنع كوكس بأن يوفدني على رأس هذه البعثة ، وفي وسعك ان تحتل مكاني فوراً » فقال : « حسناً سأذهب الى كوكس فوراً » ، وعاد بعد خمس دقائق ليقول ان كوكس قد وافق .

« ومضيت معه الى كوكس ، ومنذ تلك اللحظة ، اصبح ولسون يحتل مركزه كنائب للمندوب المدني في بغداد ، بينما خلفه في البصرة ايفلين هويل . وكانت النتيجة ، طيبة للجميع بالنسبة الى هذه التسوية للأزمة المحتملة . وقضيت الأيام التي تبقت لي في بغداد ، ادرس كل ما يقع تحت يدي من اضابير عن البلاد العربية » .

« وقبل يوم أو يومين من الموعد المقرر لسفري ، عقدت اجتماعاً طويلاً مع كوكس تلقيت اثناءه تعليماته النهائية . وعندما انتهى من حديثه قال : « وماذا

سيحصل ، عندما تلقى هاملتون في الرياض ؟ » . قلت « هذا أمر متروك اليك ، يا سيدي » ، فرد قائلاً : « حسناً سأعطيك رسالة اليه ، اوضح فيها الاسباب التي دفعتني الى تغيير خطتي السابقة بصدد البعثة ، واعطيه المجال ، للاختيار بين البقاء في البعثة تحت إمرتك ، او العودة الى الكويت » ..

« وهكذا وصلت الى عتبة قدري ، اذ منذ تلك الساعة ، ارتبطت خيوط حياتي ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الجزيرة العربية » .

٤

أول لقاء مع الصحراء

أعد فيلبي عدته لرحلة الصحراء الشاقة ، وشيعته جرترود بيل ، بعواطفها ، وبركاتها ، وتقرر ان يصحبه الكولونيل كانليف اوين ، الذي كان قد وصل مؤخراً الى العراق ، قادماً من جبهة غاليبولي ، كمستشار عسكري ، ومعهما جندي تابع يقوم على خدمتهما . أما الطبيب المرافق ، فقد تقرر العدول عنه في اللحظة الاخيرة ، لعدم تمكن القيادة من توفير احد الاطباء والاستغناء عن خدماته .

ومضت القافلة الصغيرة الى البصرة ، حيث زودتها السلطات هناك بما تحتاج اليه من معدات وحاجات ، وفي طليعتها مبلغ ضخم من المال ، على شكل جنيهات ذهبية ، وريالات ماريا تريزا ، وقد اعدت في صناديق متينة خاصة تصلح لسفر الصحراء على ظهور الجمال . واستقل الركب الباخرة الهندية لورنس ، الى جزيرة البحرين ، حيث انتقلوا منها على ظهر زورق شراعي عربي الى ميناء العجير حيث اجتمع السير برسي كوكس اول مرة بابن السعود في عام ١٩١٥ .

ووطئت اقدام فيلبي ارض الجزيرة العربية لاول مرة في السابع عشر من تشرين الاول ، فاحتفى به وبرفيقيه، امير العجير ، واقام لهم وليمة رائعة . وعندما وصلت الابل في اليوم التالي ، بدأت المغامرة التي استمرت اكثر من اربعين عاماً من حياة فيلبي .

واتجهت القافلة عبر كثبان الاحساء ، بعد ان خلع فيلبي ورفاقه عنهم الاردية الغربية ، والتفوا بالعباءات العربية ، الى بريمان ، حيث حطت رحالهم في المرحلة الأولى من هذه السفرة الأولى في تاريخ الجزيرة العربية .وفي الهفوف ، عاصمة الاحساء ، اقام لهم ، امير المنطقة الشرقية ، عبدالله بن جلوي مأدبة حشد اليها جميع وجوه المنطقة ورجالاتها وشيوخ قبائلها .

ومضت القافلة تغذ سيرها ، عبر فيافي نجد وصحاريها ، الى الدهناء ومنها الى ابو جيفان ، التي تطل على واحة الرياض ملكة الصحراء العربية ، وقد بدت أسوارها البيضاء العالية ، عبر صفوف اشجار النخيل المتناثرة هنا وهناك . وكان في استقبالهم هناك ، عدد من الفرسان على رأسهم ، كبير امناء ابن السعود ، ابراهيم بن جُمَيْعي ، ناقلاً اليهم تحية مولاه ، يرافقه رجل آخر ، سرعان ما عرف فيه فيلبي ، شخص هاملتون ، وقد طالت لحيته وبدا بثيابه العربية بدوياً من ابناء الصحراء .

وعندما وصل الركب اسوار المدينة ، كانت أصوات المؤذنين ، تعلو هاتفة بالمؤمنين الى صلاة الظهيرة ، ووجد فيلبي ورفاقه ابواب المدينة مغلقة ، لانشغال الجميع بالصلاة . وعندما انتهت فتحت الأبواب ، ودخل فيلبي لأول مرة في حياته عاصمة الوهابيين ، واتجه الركب فوراً الى باحة القصر ، حيث ترجلوا عن جمالهم ، وارتقوا درجات قليلة ، الى الطابقة السفلى من القصر ، فوجدوا في انتظارهم ، رجلاً عجوزاً ، ضئيل الجسم ، يبلغ السبعين من عمره ، رحب بهم غاية الترحاب واستضافهم على بعض المقاعد سائلاً أياهم عن صحتهم وأحوالهم ، واديرت عليهم اقداح القهوة العربية ..

ويقول فيلبي .. واصفاً اول لقاء له بابن سعود « وأخذت اتساءل ، عن هذا الشيخ الضئيل الجسم ، عندما رأيته يقف على قدميه قائلاً : « والآن اسمحوا لي بالذهاب فسيقابلكم ولدنا » . ولم يكد يغيب عن ناظري ، حتى ادركت ان ثمة شخصاً آخر ، كان يجلس في نفس الغرفة طيلة الوقت ، لكنه لم يسترع انتباهنا في البداية ، لانه كان منزوياً في زاوية بعيدة منها ، وسرعان ما رأيته

يتقدم الينا . انه رجل عملاق .. هو ابن سعود نفسه ، سيد الجزيرة العربية ، لكنه في حضرة ابيه عبد الرحمن ، لا يعدو ، ان يكون الولد البار المطيع . وقد سمعت فيما بعد ان عبدالعزيز ، ماكان يجرؤ على دخول غرفة يكون فيها ابوه الا اذا استدعاه والده ، وطلب اليه الدخول . وقام هاملتون ، الذي كان قد انقضى على وجوده في الرياض الآن نحو من شهر بدور تعريفنا على مضيفه ، وبدور التحدث الى ابن السعود ، حاكم نجد ، كما كان يسمى آنذاك . وقبل ان يتخذ لنفسه ألقابه التالية من سلطان وملك » .

وكانت هذه المقابلة الأولى رسمية ، ولم يتناول الحديث فيها أياً من المواضيع التي سيجري البحث فيها في الاجتماعات المقبلة . وبعد ان طافت القهوة على الضيوف عدة مرات ، اقترح عليهم ابن السعود ان يأووا الى مكان ضيافتهم طلباً للراحة ، وقادهم ابراهيم بن جميعي الى الاجنحة التي اعدت لنزولهم في قصر الضيافة . واختلى فيلبي بهاملتون ، واطلعه على أوراق اعتماده ، وقدم اليه الرسائل التي حملها اليه ، ثم اوى الى غرفته . ولم تنقض دقائق ، حتى كان هاملتون يندفع الى غرفة فيلبي في هياج وغضب شديدين ، اذ قرأ رسالة كوكس اليه ، عن التبدل الذي طرأ على البعثة ورئاستها . وبعد حديث قصير بين الرجلين أعلن هاملتون انه لن يبقى عضواً في البعثة ، وأنه يؤثر العودة ، الى الكويت . وتقرر تبعاً لذلك ان يتم بحث القضايا المتعلقة بالكويت مع ابن السعود ، في الايام الأولى ، ليكون حراً في العودة الى مقره هناك .

وجاء عبد الله الدملوجي ، سكرتير ابن السعود السياسي ، الى فيلبي بعد ساعة او ساعتين ، يستعلم عن راحته . وكان الدملوجي الطبيب العراقي من اهل الموصل ، وخريج جامعة القسطنطينية ، يتقن اللغتين الفرنسية والتركية ، وقد جاء في مطلع الحرب الى نجد لزيارة عمه الذي كان في ذلك الحين رئيساً لدائرة الواردات في امارة الاحساء ، فعينه ابن السعود سكرتيراً سياسياً له .

وبدأت المحادثات على الفور ، وعقد الاجتماع الأول الذي استغرق ثلاث ساعات في المساء ، وتناول البحث فيه قضية علاقات ابن السعود بالكويت ،

والحصار الذي فرضته بريطانيا لمنع تسرب المواد والسلع من الكويت ووصولها الى الاتراك ، فطلب هاملتون من ابن السعود تعاونه في توثيق الحصار . فرد هذا بقوله ، انه على الرغم من وعده بالمساعدة ، لا يسعه الا ان يجهر برأيه في ان الشيخ سالم الصباح ، حاكم الكويت ، هو الذي يساعد حركات التهريب الى الاتراك ، نظراً لتفاهمه السري معهم ، وان من الخير لبريطانيا ، ان توقف التهريب من منابعه ، في الكويت بدلاً من ان تطلب الى ابن السعود ، تضييق الخناق على المهربين بعد ان ينفذوا الى الصحراء الشاسعة . وانتقل الحديث هنا الى تبادل صريح في الرأي عن العلاقات السيئة القائمة بين ابن السعود والشيخ سالم الصباح ، وهي العلاقات التي قدر لها ان تظل على هذه الحالة من السوء الى ان توفى الله الشيخ سالم بعد بضع سنوات . تعرضت الكويت في غضونها لخطر الاحتلال الوهابي في عام ١٩٢١ ، ولم ينقذها منه الا إسراع الأسطول البريطاني الى التدخل وفرض النظام في المنطقة . ومما يجدر ذكره هنا ان ابن السعود ، قضى سنوات طويلة من طفولته وصباه مع والده عبدالرحمن ، ضيفين على الشيخ مبارك الصباح ، الذي ساعد ابن السعود ، في حملته التي استعاد بها اخيراً مدينة الرياض في مطلع القرن الحالي . وكان ابن السعود ، شديد الاحترام لمبارك ، ويستطلع رأيه في مختلف المسائل السياسية الهامة ، حتى وفاته عام ١٩١٦ فاحتفظ بخير العلاقات وأوثقها مع ولده وخلفه الشيخ جابر ، الذي توفي بعد فترة حكم قصيرة ، ليخلفه اخوه سالم .. فتسوء العلاقات بين الرجلين ، ولكنها لا تلبث ان تعود الى ما كانت عليه من الصفاء في عهد ولده احمد ، وتدوم كذلك حتى يومنا هذا .

وقد يكون من العسير الشاق ، تفسير سبب الكراهية المتبادلة التي قامت بين سالم وابن السعود ، وان كان فيلبي يعزوها الى حادث نزاع او خلاف وقع بينهما منذ امد بعيد ، لعله يعود الى عهد الصبا ، أيام ضيافة الاسرة السعودية في الكويت . لكن هذه الكراهية سببت لبريطانيا الكثير من الازعاج ، والقلق ، ولا سيما في سنوات الحرب ، وما تلتها ، والتي كان من المتعذر علاجها او

شناوؤها . وقد اقترح فيلبي على حكومته ، الخلاص ، من هذه المشكلة المعقدة ، بضم الكويت الى ممتلكات ابن السعود ، مدافعاً عن نظريته بأنها ميناء طبيعي لداخل الجزيرة . ولكن الحكومة البريطانية رفضت الأخذ بهذه النصيحة لاسباب عرفت فيما بعد عندما تدفق البترول غزيراً من رمال الكويت ، واصرت على وجوب احترام ابن السعود ، لسيادة الكويت وحدودها ، التي تعهدت بريطانيا بحمايتها .

وانتهى بحث المشاكل المتعلقة بالكويت ، وتوقف هاملتون عن حضور الاجتماعات ، ثم غادر الرياض بعد يوم او يومين في طريق عودته الى الكويت ، ولما كان كانليف اوين يجهل العربية . فقد اقتصر الحديث في هذه الاجتماعات على ابن السعود وفيلبي ، بينما كان اوين والدملوجي ، يقومان بدور المستمعين ؟

ولم يضع الرجلان وقتاً . فكانت الاجتماعات تعقد بمعدل ثلاثة في كل يوم ، وفي هذه الاجتماعات تبحث مختلف القضايا والمشاكل . وكان كل ما يهم فيلبي ، أمران اساسيان . اولهما الحيلولة دون أي نزاع خطير بين ابن السعود والملك حسين ، لاسيما وان دعاوى هذا في السيادة على جميع العرب . كانت تشتد كل يوم ، مستفزة غضب ابن السعود وسخطه ، وان حملة فيصل التي يرافقها لورنس على الاتراك ، كانت ضرورية لحماية جناح جيش اللنبي في فلسطين . وثانيهما ، توجيه اهتمام ابن السعود عن الحسين الى خصمه التقليدي الآخر ، ابن الرشيد سلطان حائل ، لمحاربته والقضاء عليه ، لا سيما وان هذا ، كان عدواً لبريطانيا وموالياً للاتراك . وقد حقق فيلبي هدفه الأول بسهولة ويسر ، اذ حصل على وعد من ابن السعود . بالامتناع عن القيام بأي عدوان على الحجاز شريطة ان تكبح السلطات البريطانية من جماح الملك حسين . وتمنعه من القيام بأي عدوان على اراضي ابن السعود ، وان تؤكد من جديد احترامها لاستقلال نجد ، وهو ما ضمنته له معاهدة العجير السالفة الذكر . وبالطبع لم يتوان فيلبي عن تقديم مثل هذه الوعود والتأكيدات .

أما بالنسبة الى القضية الاخرى . فقد اوضح ابن السعود . انه على الرغم من

عدم وجود ، أي خلاف في الحاضر بينه وبين ابن الرشيد الا انه لا يرى مانعاً من القضاء على منافس قوي ، لاسيما اذا كان هذا المنافس ، على اتصال بالملك حسين حول مستقبل الجزيرة العربية ، ويقيم حلفاً صريحاً مع الاتراك ، شريطة ان لا يعرض نفسه ومملكته للخطر . وهو لهذا ، يرى نفسه في حاجة الى المال والسلاح ، هذا اذا ارادت منه بريطانيا ان يحقق لها هدفها لاسيما وان جميع وارداته لم تكن لتربو آنذاك على المائة الف جنيه في العام ، تضاف اليها منحة سنوية قدرها ستون الف ليرة ذهبية يتقاضاها من بريطانيا . ولم يستطع فيلبي بالطبع ، البت بنفسه في هذا الموضوع ، فوعد بالرجوع الى حكومته ، مع التوصية الملحة بقبول مطالب ابن السعود ، وبعث بتقريره الاول الى بغداد ، شارحاً فيه جميع هذه الأمور ، ومؤكداً انه في حالة وصول المال والسلاح فإن الجيش الوهابي سيكون مستعداً للزحف على حائل في نيسان عام ١٩١٨ .

وكان على فيلبي ان ينتظر بضعة اسابيع مملة قبل ان يصله الرد على تقريره ، ولكن الحظ شاء ان ينقذه من هذا الملل ، فقد تلقى برقية تقول ان الملك حسين قد رفض رفضاً باتاً السماح للبعثة البريطانية القادمة من القاهرة . بالسفر الى الرياض عبر الحجاز ، متذرعاً بخطورة مثل هذه الرحلة في مثل تلك الأوقات المضطربة على الحدود بين نجد والحجاز . واتضح لفيلبي ان الحسين كان مصمماً على الحيلولة دون قيام اية مفاوضات بين بريطانيا . وبين عدوه ابن السعود ، ولكنه ، اي فيلبي وجد في هذه الحالة فرصة للخلاص من الملل الذي يشعر به في الرياض . ومجالاً لاظهار ما في حجة الملك حسين من مغالطة . وسارع في الحال الى الاجتماع بابن السعود ، فبحثا الموضوع من جميع نواحيه . واكد هذا لضيفه ان قصة الاضطراب على الحدود خيالية لاتمت الى الحقيقة بصلة ، وطلب منه فيلبي السماح باظهار ما فيها من خيال . بالتوجه الى الحجاز من الرياض ، والاجتماع الى البعثة فيها .

ووافق ابن السعود بعد لأي وتردد على الخطة . وسرعان ما اعدت الابل للرحلة الطويلة مع الحراسة الكافية . ولم يشأ كانليف اوين الاشتراك فيها . بل

آثر البقاء في الرياض في انتظار اوبة فيلبي الذي ابرق قبل سفره الى كوكس بالتطور الجديد ، معتذراً عن عجزه عن انتظار موافقته وتعليماته نظراً لخطورة الوضع وإلحاف القضية .

وقضى فيلبي ثلاثة اسابيع ، في قطع صحاري نجد ، تعرضت فيها القافلة لبعض الحوادث الطفيفة التي لا تستحق الذكر ، ولكنها وصلت الى جدة في اليوم الاخير من عام ١٩١٧ ، وشهد فيلبي احتفال رأس السنة في بيت الميجور باسيت ، القائم بأعمال المعتمد البريطاني في جدة مع رجال دار الاعتماد .

ويقول فيلبي انه كان الأوروبي الثالث الذي قطع الجزيرة العربية من الخليج الى البحر الاحمر ، فقد سبقه الى ذلك الكبتن سادلير في عام ١٨١٨ والكبتن شيكسبير في عام ١٩١٤ . ولكن سلفيه قطعا الجزيرة وهما يرتديان ملابسهما الاوروبية ،بينما هو ارتدى الزي العربي طيلة الطريق ، ولعل هذا الاصرار من جانب شكسبير هو الذي اودى بحياته في كانون الثاني عام ١٩١٥ ، عندما وجد نفسه غريباً في هذا الزي ، في معركة دارت رحاها بين ابن السعود وابن الرشيد في جرّاب ، فاصابته نيران جماعة ابن الرشيد اثناء قيامه بتوجيه بعض المدافع السعودية . ويؤكد فيلبي ان شكسبير لو عاش لكان الموجه للثورة العربية بدلاً من لورنس ، ولكان ابن السعود هو الذي قام بها بحافز من حكومة الهند ، بدلاً من الملك حسين الذي حرضته عليها دوائر القاهرة .

ويمضي فيلبي فيصف نفسه بخليفة شكسبير ، وان اختلف دوراهما . فقد كان ذاك محرضاً لابن السعود على القتال ، بينما اقتصر دوره على تثبيط عزيمته ومنعه من الحرب مخافة الاصطدام بخطط لورنس ومشاريعه ، على الرغم من اقتناعه منذ البداية ، بأن رجل القدر في البلاد العربية هو عبدالعزيز بن سعود ، لا الحسين بن علي ، حبيب القاهرة ومعبودها .

وتلقى فيلبي رسالة ترحيب رقيقة من الملك حسين ، عن طريق المعتمد البريطاني ، ولكنه لم يبد أي رغبة في مقابلته او الاجتماع به . ولكن لم يكن في وسع القاهرة ان تتجاهل وجود مبعوث بغداد في جدة ، أو الفرصة الجديدة التي

لاحت لمناقشة السياسة البريطانية تجاه العرب بصورة عامة بعد ان تعذر بحثها في الرياض . وهكذا اوفدت القاهرة فوراً الدكتور هوغارت الى جده ، وجاء الملك حسين في اليوم التالي ، ليبدأ الجميع اسبوعاً من المحادثات .

واترك لفيلبي هنا مجال الحديث عن هذه المرحلة التاريخية في احداث الجزيرة العربية . قال فيلبي في كتابه « أيام عربية » ، في الصفحة (١٥٨) ما يلي : « وبالطبع اهتم هوغارت ، بوصفه مؤرخ الرحلات الكشفية في البلاد العربية ، بالغ الاهتمام بالتحقيقات الجغرافية التي قمت بها اثناء رحلتي من الخليج الى البحر الاحمر . واهتم بالطبع ايضاً ، بأحاديثي اليه عن ابن سعود ، والقوانين الوهابية السائدة في قلب الجزيرة العربية ، لكنه كان ملتزماً برؤية مستقبل العرب ، عبر نظارت هاشمية . وقد ازعجته مجرد فكرة وجود منافس حقيقي خطير للملك حسين . وكان اكثر ذكاءً من ان يحاول كباسيت وويلسون (المعتمد البريطاني في جده) ، ولورنس ، تفسير الحقائق التي يجدها في غير مصلحته بشكل يتفق مع هذه المصلحة ، حتى ولو انطوى التفسير على مغالطة فاضحة . فقد كان سياسياً بفطرته على الرغم من مهنته كعالم في طبقات الارض . وكانت كياسته السياسية قادرة على تكييف الحقائق لخدمة السياسة التي يؤيدها ، دون ان يجهر بذلك . ولاريب في ان قراره النهائي ، كان نموذجاً من شخصيته ، وقد عاش ليرى ما انطوى عليه هذا القرار من خطل ، وخطأ على الرغم من شكي . في ان يكون قد اعترف بهذا الخطأ . »

ومضى فيلبي يقول .. « وجاءني ذات يوم يقول .. قد يكون كل ما نطقت به عن ابن سعود صحيحاً يا فيلبي ، وقد يكون ذلك الرجل الكبير الذي تحاول تصويره به ، وقد يكون ذلك الانسان ، الذي حقق نتائج مذهلة ، في تهدئة القبائل البدوية المشاكسة وتنظيمها والسيطرة عليها . ولكن على اية حال من هو هذا الرجل ؟ انه ليس اكثر من مجرد شيخ بدوي كبير ، يتمتع بكفاءة بارزة ، كمحمد بن الرشيد العجوز ، وغيره من الذين مروا على المسرح العربي دون ان يسجلوا اثراً بيناً في التاريخ كالقيام بعملية تنظيم دائمة . وكلنا نعرف ماذا وقع

بعد موت مثل هؤلاء الرجال . ردة عنيفة الى الفوضى الطبيعية المتأصلة في الجزيرة العربية . ولا يعدو ان يكون ابن السعود ، انساناً كالبشر ، يلقى حتفه يوماً ما . فماذا يحدث اذا مات ؟ نفس القصة القديمة من عودة الفوضى . بينما عندما يذهب الاتراك ، وسيذهبون حتماً ، فإن اسرة الاشراف وحدها هي التي تملك السلطة الدينية والسمعة السياسية التي تمكنها من بعث العرب ، واقامة شيء دائم في البلاد العربية ، يمكن البلاد من احتلال مكان ما في اطار العالم الحديث . على كل حال ، لقد التزمنا بتأييد قضية الأشراف ، وليس في وسعنا ان نحطم ما بنيناه بتأييد مطالب ابن السعود وادعاءاته » .

« وكان ردي على هذا القول ، ما يلي : « ليست لابن السعود أية مطامع او مطالب ، سوى الحفاظ على استقلال مملكته الحالية ، وضمان كيانها ، وفقاً للضمانات التي حصل عليها في معاهدة العجير . وهو بالاضافة الى عدم تفكيره بالعدوان على حليفنا الشريف ، لا يريد حقاً ان يهاجم ابن الرشيد عدوه وعدونا على الرغم من محاولتنا حثه على هذا الهجوم ، لنصرف اهتمامه عن الشكاوى التي يحملها على الوضع في الحجاز . واود ان اؤكد لك انه قانع بما يملك . وفي وسعنا ان نعمل على تخطيط الحدود بسهولة ويسر ، بعد انتهاء الحرب . ولكني واثق من انه لن يقبل مطلقاً بسيادة الحسين ، ومن العبث ان نأمل في قبوله لهذه السيادة . أما بصدد المستقبل ، فمن العبث أيضاً ، ان نبحث فيه على ضوء الافتراض بأن كل انسان معرض للموت . فابن السعود اليوم في السابعة والثلاثين من عمره . وفي وسعنا ان نتوقع منه ان يعيش عشرين سنة اخرى . واذا قدر له ان يعيش هذا الامد ، فإن الجزيرة العربية التي سيخلفها وراءه ، ستكون مختلفة كل الاختلاف ، عن الجزيرة التي نعرفها الآن ، ولن يجد خلفه ، الذي سيكون حتماً من عيار غير عيار هذا الرجل الفذ النادر ، اية صعوبة حقيقية ، في السير بها في الطريق الذي اختطه سلفه العظيم . فهو يقوم الآن عن طريق المستعمرات التي ينشئها للاخوان في كل مكان من انحاء سلطنته ، باسكان البدو الرحل في جماعات مختلطة تتفاوت في الحجم ، على اسس نصف زراعية ونصف عسكرية

مع الاحتفاظ بالطابع الديني ، ليوجد جيشاً اقليمياً قوياً ، على استعداد للعمل فوراً ، والقضاء على كل فتنة قبلية ، قد تؤدي الى الغزوات أو الحروب بين القبائل . وقد غدا الغزو الآن ، أمراً من امور الماضي ، كما اضحت الحرب بين القبائل محظورة بصورة قاطعة ، وأخذ الرخاء يزداد ببطء ولكن بتدرج ، يضاف الى هذا ان ابن السعود يسيطر على جيش متعصب ، مخلص له كل الاخلاص . وقد لا يكون هذا الجيش ، مسلحاً على احدث الطرق العصرية ، ولكنه كاف لمواجهة اية تطورات في الجزيرة العربية » .

ويمضي فيلبي في الحديث عن مقابلته الأولى للملك حسين ، عندما قصد اليه بعد وصوله مع هوغارث وباسيت للشروع في المحادثات ، بلباسه العربي ، فيقول ان الملك قبله بحنان ابوي في وجنتيه ، قائلاً : « والله ، انك لنجدي ، ولكن مع بعض المبالغة فنحن في بلادنا المتحضرة لا يحتاج اصدقاؤنا الانكليز ، الى الغلو في اللباس الى هذا الحد . » ويقول فيلبي « وتمتمت ببضع كلمات ذكرت فيها ، انني ارتديت ملابس الصحراء ، لانني وصلت لتوي قادماً من رحلتي الطويلة في الصحراء ، التي آمل في ان اكررها قريباً في الاتجاه المضاد . ورأيته يباغت بكلماتي الاخيرة هذه ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة » .

ويتحدث فيلبي عن هذه الاجتماعات ، فيقول ان الملك حسين كان يفرق بينه وبين زملائه ، فيخاطبه دائماً بكلمة « يا بني » ، ويحتفظ بطابع الرسميات في التحدث الى الآخرين . وكان « حسين في هذه الآونة ، على الرغم من بلوغه السبعين من عمره ، لا زال منتصب القامة ، حاسماً قاطعاً في حديثه ، متعوداً على اصدار الأوامر » . وبعد ان يصف الملابس التي كان الملك يرتديها ، وطريقته في التحدث الى ضيوفه يقول : « لقد كان حقاً محدثاً من الطراز الأول ، واديباً في طريقة حديثه ، ولكن عندما ينتقل الموضوع الى بحث السياسة ، نرى تربيته التركية ، تبرز الى المقدمة ، ولا يستطيع انسان ان يبزه في العناد والاصرار . ويحلق النقاش في مثل هذه الأحوال في اجواء بعيدة من الجدل والحوار العنيف ، اصمد فيها امام الملك ، وكثيراً ما تنتهي بتأكيد حسن النية من جانبه والرغبة في

التفاهم . وكان ما يزعج الملك اكثر من أي شئ آخر ، ادراكه بانني اعرف حقيقة الاوضاع في الداخل ، وان هذا الادراك ، يحول بينه وبين مناقشة الموضوع الا على اساس من المساواة ، لا سيما وان بامكاني ان اشير الى ان الكثير من البيانات التي افضى بها الى هوغارت وغيره من البريطانيين القادمين من مصر ، لا تمت الى الحقيقة بصلة . فقد اتهم ابن سعود مثلاً بالتجسس لحساب العدو ، معتمداً في اتهامه على الرسائل التي تبودلت بينه وبين فخري باشا القائد التركي في المدينة . وقد سر ، بل ودهش عندما اعترفت بالتهمة ، ولكن سروره سرعان ما زال عندما قلت « ولكن اتوّد جلالتك ان تقرأ الرسائل المتبادلة ؟ هاكها ، انها معي ، وقد سلمها الي ابن سعود ، وسترى يا صاحب الجلالة ان رسالة فخري باشا هي الاصلية وان الرسالة الثانية نسخة من رد ابن سعود عليها » .

ومضى فيلبي يقول : « ولكن الملك رفض ان يقرأ الرسالتين بل ورفض ان يأخذهما من يدي ، لأنه كان يعرف سلفاً ان ابن سعود قد رفض اجابة فخري باشا الى طلبه بتزويد حاميته بالمؤن . وحاول الملك ايضاً اثارة موضوع يتهم فيه اهل خورمة السعودية باعداد العدة للهجوم على البقوم في الحجاز ، ولكنني كنت على اطلاع على هذا الموضوع ايضاً ، فقدكنت في الرياض عندما جاء وفد من اهل خورمة ، لمقابلة ابن السعود وقد شهدت المقابلة بنفسي فابلغه الوفد بان أهل البقوم يحشدون قواتهم بأمر من الشريف للهجوم على خورمة ، وطلبوا اليه ارسال النجدات لمساعدتهم في الدفاع عنها . وقال ابن سعود مشيراً الي : « اترون هذا الرجل ، انه مبعوث بريطانيا وقد اكد لي ان حكومته لن تسمح للشريف بالهجوم عليكم . أما اذا هاجمكم ، فدافعوا عن انفسكم وابعثوا الي طالبين النجدة ، فسأسارع الى نجدتكم . وقد قلت لهذا الرجل انني سأنجدكم . ولكن لا تهجموا انتم . وقد وعدته بأن لا تهجموا فلا تسوّدوا وجهي معه » . وبالطبع لم يسر جلالته ، عندما رويت هذه القصة ، وتحدثت عن التعبئة وحشد القوات في البقوم ، وفي منطقة الخفض ، ولكنني كنت واثقاً من ان هوغارت

قد فهم الحقيقة » .

واستمرت المحادثات على هذا النحو اياماً طويلة ، الى ان اتضح اخيراً للجميع ، ان لا جدوى من استمرارها بل انها قد تؤدي الى نتائج سيئة . وقرر هوغارت وفيلبي ان يطلبا من الملك الاذن بالسماح لهما بالعودة ، ذاك الى القاهرة وهذا الى الرياض ، بنفس الطريق التي جاء فيها . ولكن الملك حسين رفض السماح لفيلبي بالعودة عن طريق البر ، واصر على رأيه رغم نصيحة هوغارت له ، مخافة ان يعتبر ابن السعود هذا الرفض عملاً عدائياً موجهاً له . وسافر فيلبي مع هوغارت الى القاهرة ، حيث اجتمع الى السير ريجينالد وينغيت ، المندوب السامي الجديد في مصر الذي خلف مكماهون ، والى جميع رجال المكتب العربي باستثناء لورنس الذي كان يقاتل في الجبهة مع جيش فيصل ، كما اجتمع الى الملك فؤاد . وحدثه عن مشاكل الجزيرة العربية .

وقضى فيلبي اياماً في مصر التي كان يزورها لأول مرة ، ثم استقل القطار مع هوغارت الى فلسطين حيث زار قيادة الجيش في الرملة ومدينة القدس حيث اجتمع ثانية الى ستورس ، الذي كان في ذلك الحين ، حاكماً عسكرياً للمدينة المقدسة ، كما التقى بجيلبرت كلايتون لأول مرة في حياته .

وعاد فيلبي الى مصر ، واستقل منها الباخرة الى البصرة ، حيث تلقى أوامر بالمضي فوراً الى الرياض . وكان كوكس قد غادر بغداد آنذاك ليصبح وزيراً مفوضاً في طهران ، وخلفه في منصبه ويلسون كقائم بأعمال المندوب المدني .

وارتحل فيلبي هذه المرة بطريق الزبير ، الى ابار الحفر ، حيث اجتمع بغضبان بن طوالا ، شيخ قبائل اسلام من عشائر شمر ، واقنعه بالانضمام الى ابن السعود في حملته المقبلة على حائل ثم مضى الى شوكي في الطرف الغربي من الدهناء حيث يحل عبدالعزيز في فصل الربيع من كل عام ، ومر في طريقه بعشائر المطير ، الخاضعة لزعامة فيصل الدويش .

وسر ابن السعود ، غاية السرور لعودة فيلبي فقد كان يريد ان يسمع منه حديثاً مطولاً عن الأحداث التي مرت به ، والمحادثات التي قام بها مع الملك

حسين . كما فرح لسماعه بأن الحكومة البريطانية ، قد وافقت على تزويده بخمسة الاف بندقية ومائة صندوق من الذخيرة ومده بخمسة الاف ليرة ذهبية في الشهر الواحد .

وأخذ فيلبي يعتاد حياة المضارب في الصحراء ، ويوثق صلاته بأفراد الاسرة المالكة ، وبالشخصيات المهمة التي تعمل في خدمة ابن السعود . ويقول فيلبي ، ان تركي الابن الاكبر ، كان في السنة السابعة عشرة من عمره ، وكان على أبواب الرجولة متفتحاً للطراد والقتال ، أما سعود ، النجل الثاني فيصغره ببضع سنوات ، ويفتقر الى حيوية أخيه ، بينما كان فيصل وفهد غلماناً في الثانية عشرة ، ومحمد وخالد ، ولدا جوهره ابنة عم عبدالعزيز وزوجته المفضلة ، لا يزالان في سن الطفولة الباكر . بالاضافة الى اولاد اخيه سعد الذي قتل عام ١٩١٦ اثناء احدى المعارك القبلية . ويقول فيلبي ، ان الشخصية التي استهوت فؤاده في هذا الحين هي شخصية عبدالله ابن عبدالرحمن شقيق عبدالعزيز ، وكان في العشرين من عمره ، كثير الاهتمام بالقضايا الادبية والعلمية . أما الرجلان اللذان كانا دائمي الاتصال بفيلبي في هذه الآونة فهما عبدالله الدملوجي سكرتير ابن السعود السياسي ، وابراهيم بن جميعي امينه الأول ، وقد احاطاه بجيش لجب من الخدم والاتباع يسهرون على راحته ويقومون على خدمته .

وكان فيلبي يعمل في خيمته التي ينام فيها ، فهي مكتبه بالاضافة الى انها النادي الذي يجتمع فيه الكثيرون من اصدقائه من اتباع ابن السعود يقبلون عليها للتدخين وتبادل الاحاديث وهو يستمع الى كل ما يقولونه من آراء غير رسمية تتناول الاوضاع بصورة عامة ، فيدون منها ما يهمه ويضمنها تقاريره التي يقوم بطباعتها بنفسه ليبعث بها الى بغداد .

وحان وقت العودة الى الرياض . فقد تقرر ان يبدأ الهجوم على حائل ، في شهر آب ، وهذا يعني بالنسبة الى فيلبي بضعة اشهر جديدة من البطالة يقضيها في العاصمة الوهابية ، مما لا يتفق مع طبيعته التي تتفجر بالحيوية . فأراد ان يشبع هواية جديدة تكونت لديه في هذه السنة من زيارته الأولى للصحراء العربية

وهي التجوال في اكثر ما يمكنه من اجزائها واستكشاف مجاهلها ، والاطلاع على أحوالها ، ودراسة جغرافيتها ، وحشراتها وطيورها . فطلب من ابن السعود اذناً بقضاء الشهرين التاليين في انحاء نجد الجنوبية ، التي لم تطوها قدم اوروبي من قبل . وقبيل سفره سلم ابن السعود مائة الف ريال ليفيد منها في استكمال اعداداته العسكرية للهجوم على حائل ، موكداً له وصول الاسلحة في الوقت المناسب ، ثم غادر الرياض يصحبه ابن جميعي وحرس مؤلف من نحو عشرين رجلاً بحثاً عن المجهول في الاصقاع الجنوبية .

ويؤكد فيلبي انه كان الاوروبي الأول الذي زار هذه الصحاري ، وأن ما زعمه بلغريف من زيارته للخرج وعفلج في عام ١٨٦٣ لا يمت الى الحقيقة بصلة وانه لم يصل حتى الى الرياض أو القصيم ، وان اقصى ما وصل اليه لا يعدو ان يكون حائل . أما القصة الرومانطيقية الرائعة التي وصفها والتي استهوت العالم في حينه ، فلا تعدو ان تكون قصة عابرة من قصص السائحين الافاقين .

ويستند فيلبي في ادعائه هذا ، الى ان بلغريف لم يذكر شيئاً في كتابه عن بحيرات الخرج وعفلج المشهورة التي لو رآها لما غفل عن ذكرها . كما لم يشر بقليل او كثير الى الآثار الفينيقية المنتشرة في هاتين الامارتين اللتين اشتهرتا في الماضي البعيد بأنظمة الري فيهما ، القائمة على هذه البحيرات . وكان فيلبي اول انسان تحدث عن هذه البحيرات والآثار ، وعن المناطق التي توجد فيها وواحاتها واهلها . ثم توغل بعيداً نحو الجنوب حتى وصل وادي الدواسر المشهور . الذي تصل اليه وديان التثليث وبيشة ورانية منحدرة من جبال الجزيرة العربية القائمة في الغرب والمرتفعة نحواً من ثمانية الاف قدم ليسير في طريقه الى الخليج العربي عبر الربع الخالي .

ويتحدث فيلبي باسهاب عن رحلته هذه في كتب رحلاته فيقول : « ان أهل الخرج وعفلج . استقبلوه وصحبه استقبالاً حسناً ، ولكن عندما وصلوا الى وادي الدواسر البعيد عن كل آثار المدنية . والغارق في تعصب الوهابية . اختلفت الصورة تمام الاختلاف . فقد نقلت الانباء الى اهل المنطقة اتجاه « الكافر » الى

بلادهم ، وعندما وصلوا الى الواحة ، كان عدد من الرجال يحملون بنادقهم ويسدون عليهم طريق المرور ، الى دام مقر الحاكم . ودارت مفاوضات طويلة مع ابن جُميعي ، حتى سمح الوهابيون لفيلبي ورفاقه بالسير الى دام ، التي وصلوها بعد سلسلة من الحوادث المشابهة ليجدوا حشداً كبيراً من الناس تقدح عيونهم شرراً ، امتعاضاً من مجيء هؤلاء الزائرين الغرباء ». ويقول فيلبي ، ان ابن السعود ، صرف حاكم دام من الخدمة بعد مدة قليلة لضعفه وتهاونه وسماحه بهذه المظاهرة المعادية . ومع ذلك فقد قضى فيلبي في المنطقة عشرة ايام تمكن في غضونها من اكتشافها كلها وجمع ما يريده من معلومات جغرافية عنها .

وعاد الركب الى الرياض متخذاً طريقاً آخر ، عابراً هضبة الطويق ، حيث عثر على بعض المتحجرات البحرية ، مما قام دليلاً جديداً على ان هضاب الطويق كانت في يوم ما مغمورة بمياه المحيط .

وهلّ مطلع شهر آب . وبدأ الزحف العظيم على حائل ، واتجه ابن سعود على رأس قواته الى شقرا ، ومنها الى عنيزه ، فبريدة ، التي تقرر ان تكون مركز قيادة الحملة . ورفض ابن سعود السماح لفيلبي بالاشتراك في المعركة ، متذكراً ما وقع لشكسبير . وهكذا فقد أخذ فيلبي يرقب المعركة من شرفة عالية من برج قريب . وجاءت الانباء بعد أيام تحمل انتصار ابن السعود على عدوه في تيب ومطاردة قواته لفلول ابن الرشيد المنهزمة الى ان وصلت بها الى أسوار حائل المنيعة . وانسحب ابن سعود حاملاً غنائم كثيرة الى واحة المشقوق ، القريبة من قصيبة . ويقول فيلبي انه سارع الى الواحة ليهنئ ابن السعود على انتصاره ، وان كان يحس بمرارة شديدة ، لأن النصر لم يكن ذا طابع حاسم ، على الرغم من تأكيد ابن سعود بعزمه على استئناف القتال بعد اعادة تنظيم قواته وتلقي امدادات جديدة .

وعندما وصل الركب في طريق العودة الى الطرفيّه تسلم فيلبي رسالة من الساحل حملت اليه انباء غير سارة . فقد ذكر ويلسون في كتابه ان كل ما استطاعت السلطات العسكرية البريطانية ان تؤمن ارساله خمسة آلاف بندقية من

طراز وينشستر ، مع كميات كافية من الذخيرة . وكان ابن سعود قد عرف بهذه الانباء في نفس الوقت اذ تلقى رسالة من وكيله في الكويت ، الذي قام بفحص البنادق واختبارها فثار على هذه الهدية من « البنادق الصبيانية » كما اسماها في الوقت الذي أدّى هو فيه دوره في الصفقة تمام الاداء .

ويصف فيلبي هذا الحادث فيقول : « كان غضب ابن سعود شديداً ، فحاولت تهدئته : وحمله على العدول عن عزمه بإلغاء الحملة كلية مقترحاً عليه ان امضي بنفسي الى الكويت ، واذا اقتضى الأمر الى بغداد نفسها لاضمن استبدال البنادق بأسلحة يمكن استخدامها . وقد وافق على هذا الاقتراح وقضينا اليومين التاليين في الاعداد لرحلتي المقبلة . وعندما حان يوم الرحيل ، استدعاني ابن السعود الى خيمته وكان الوقت باكراً ليتحدث الي حديثاً نهائياً ، فقدم الي سيفاً غمده من الذهب وجواداً عربياً اصيلاً اسمه مرزوق .. ثم قال بلهجة جدية .. اسمع يا فيلبي ، انك تدرك موقفي فلم اخف عنك شيئاً ، ذلك لأنني اعرف ان علي ان احافظ دائماً على الصداقة الطويلة القائمة بيني وبين بريطانيا . ولكن يبدو لي ان ثمة جماعة من بني قومك لا يعرفونني ولا يحبونني ، وهم الذين يخلقون لي المتاعب . وانا اعرف هذا كما تعرفه انت . فقد جئتني كمبعوث لبريطانيا ، وها انت تغادرني الآن كمبعوث لي الى شعبك . واني لآمل ان أراك ثانية هنا ، ولكن تذكر ، ان هذه المتاعب اذا لم تسوّ بشكل يرضيني ، وأعني بها قضية البنادق وتجدد الحالة المضطربة في خورمة ، فلا جدوى من عودتك » .. وقلت .. للبطل : « سيكون كل شيء كما تشتهي ان شاء الله ، والا فانني لن اعود اليك كمبعوث لبريطانيا » ..

« ومضيت بعيداً عن ذلك الوجه المهيب المحبب الي ، لأعبر الصحراء العربية من زاوية اخرى . وكانت الرحلة ممتعة ، لم يتخللها أي حادث . ولكن عندما اقتربنا من الساحل ، حملت الينا رياح الصحراء ، شائعات غريبة ، فقد لقيتنا جماعات من البدو ، كانت قادمة من الكويت تنتجع المرعى ، ووجدت من الصعب علي ان اصدق الانباء التي حملوها واعتبرتها مجرد شائعة من

اقاويل الصحراء . قالوا ان الحرب قد انتهت ولكنهم لا يعرفون اية تفاصيل . وعندما وصلنا الصبيحية كان ثمة حشد كبير من البدو يسقي الابل عندما اقتربنا ، وأخذت عياراتهم النارية تنصب علينا حاملة نذراً سيئة . وبدا لي ما في هذا الاستقبال من غرابة ، ووجدت ان الحرص خير من الشجاعة ، فأمرت رجالي بالتوقف ، وبعثت برسولين الى البدو لاستطلاع الأمر . وتبيّن اخيراً انهم اخطأوا ، فحسبونا جماعة من الغزاة ، ثم سمحوا لنا بالنزول الى الابار حيث سمعنا الشائعات من جديد دون اية تفاصيل . فالكل يعرف ان الحرب قد انتهت وفي هذه المعرفة الكفاية . وبدا على هؤلاء البداة الاستياء من نهاية الحرب ، لأنها تعني انتهاء عملهم في التهريب . وعندما وصلنا الى الكويت في اليوم التالي ، ابلغنا ماكو لوم ، الوكيل البريطاني ان الاتراك قد طلبوا الهدنة وانهم قد اجيبوا الى طلبهم ، وهكذا خرجت تركيا من الحرب ، لتقطف النتائج السيئة لدخولها فيها قبل اربع سنوات . وقمت ببعض الاعمال الرسمية ، وشهدت مأدبة ، كما اجتمعت عدة مرات الى الشيخ سالم الصباح ، الذي بدا لي شخصاً يصعب الجدال معه كالملك حسين . ولكنه مع ذلك يستطيع ان يسلك مع الضيف الذي لا يحبه سلوك النبيل العربي المنطوي على الكياسة والكرم :

« وأعد مركب لنقلي الى البصرة، وغادرت الكويت بعد ان قضيت نحواً من سنة في الجزيرة العربية ، وقد غمرني شعور حزين بأن قصة حياتي في الجزيرة قد انتهت قبل أوانها نهاية فاشلة . وأخذت اتطلع ورائي الى تلك السنة التي اعتبرها اسعد سني حياتي دون ان يساورني الأمل بأنها قد تعود » .

٥

بين الملكية والجمهورية

استقبلت جرترود بيل فيلبي عند عودته الى بغداد استقبال الفاتحين ، فعانقته عناقاً حاراً ، وأخذت تستمع اليه وهو يحدثها عن الحياة التي عاشها في الجزيرة العربية وعن التجارب التي مرت به ، وعن سياسة ابن السعود ، على الرغم من انها لم تخف عنه آمالها ، في ان تؤدي نهاية الحرب الى غفران بريطانيا لابن الرشيد واستخدامه وسيلة لخلق شيء من التوازن في الجزيرة العربية ، وطريقاً للوقوف أمام نفوذ ابن السعود النامي والمتزايد . أما ويلسون ، فعلى الرغم مما كان بينهما من حزازات شخصية في الماضي فقد استقبل العائد استقبالاً رائعاً يتفق والخدمات الجلى التي قدمها للامبراطورية في هذه السنة التي انقضت من المتاعب والجهود والمشاكل .

وعكف فيلبي على وضع تقريره ، وقضى بضعة اسابيع وهو يجمع الوثائق ، ويصنف الاحداث ، ويرتب الوقائع ، ليضعها كلها في تقرير رسمي يقدمه الى ويلسون بوصفه المندوب السياسي ، عن بعثته . وقد تناسى هذا العلاقات السيئة الماضية فأطرى التقرير اطراء كبيراً وأمر بطباعته ، وتوزيعه على مختلف المراجع والجهات التي يهمها أمره .

واقيمت في غضون ذلك ، احتفالات النصر في بغداد . وصدر البيان

البريطاني الفرنسي المشترك ، عن السياسة المقبلة التي تعتزم الدولتان اتباعها في البلاد العربية التي تم تحريرها من نير الاتراك . ورأى فيلبي وصديقته جرترود في هذا البيان خطوة ليبرالية تقدمية ، بينما رأى فيه رئيسهما ويلسون ، قنبلة حطمت له جميع اماله في جعل الشرق الاوسط بأسره نقطة ارتكاز اساسية في الجهاز الاستعماري الضخم ، الذي وضع خطوطه العريضة . وأراد ويلسون ان يتحدى ذلك البيان ، فأعلن في منشور رسمي اصدره انه يرى ان أهل العراق لم يصلوا بعد المرتبة، التي تؤهلهم للاستقلال ، وحكم انفسهم ، وانه تبعاً لذلك قرر تدريبهم على التدرج في الحكم الذاتي . فوضع المخططات اللازمة لاجراء انتخابات في المدن الرئيسية، لتأليف مجالس بلدية يكون رؤساؤها ونوابهم وسكرتيروهم من البريطانيين ويكون لاعضائها المنتخبين حق المناقشة دون الاقتراع .

ومضى ويلسون في تحديه ، فعمل على توسيع رقعة المناطق التي يحتلها البريطانيون في العراق ، دون استشارة لندن ليضم اليها ولاية الموصل التي كانت لا تزال في ايدي الاتراك عند توقيع الهدنة . وأوفد ويلسون مبعوثه ليخمن للتفاوض مع الحاكم التركي ، كما صدرت الأوامر الى القائد البريطاني لدعم المفاوضات بالقوة اذا اقتضى الأمر . وأذعن الاتراك للأمر الواقع ، فسلّموا الموصل بعد احتجاج رسمي؛ وشق ويلسون طريقه اليها دون ان يأبه بمؤتمرات الصلح أو ينتظر نتائجها .

ويقول فيلبي ان هذه الأمور لم تكن تهمه في قليل او كثير ، ولكن ما همه هو موقف ويلسون من الوعود البريطانية السابقة لأهل العراق . فقرر ان ليس بإستطاعته ان يعمل تحت امرته وفي ظل ظروف كهذه. وخيل اليه بعد الشهرة التي حصل عليها من بعثته في الجزيرة العربية ان في وسعه ان يكون اكثر تأثيراً على الاحداث اذا عاد الى لندن . فطلب اجازته الطويلة التي يستحقها ، وسارع ويلسون الى الموافقة عليها دون ابطاء او تردد .

وقد تكون دعوى الوعود التي يكثر فيلبي من ترديدها صادقة الى حد ما ولكن الشيء الثابت الذي تسنده الوقائع ، وعلاقات الرجلين ببعضهما منذ بدأ

فيلبي عمله في العراق ، ان هذه العلاقات كانت من السوء على درجة كبيرة ، تجعل من المستحيل عليهما العمل معاً، لاسيما اذا كان احدهما رئيساً والآخر مرؤوساً . وقد تحدثنا في الفصول السابقة عن هذه العلاقات بشيء من الاسهاب والتفصيل، ناهيك عن أن اسراع ويلسون الى منح الاجازة، يصور رغبته في التخلص من هذا الموظف المشاكس ، الذي سبق له ان اتخذ مواقف تنطوي على العداء منه ومن مشاريعه .

ويبدو لي ، ان المركب الذي تكوّن عند فيلبي منذ مجيئه الى العراق ، وتبوئه مناصب مسؤولة ، لا يدين فيها بالتبعية الا لشخص ضخم كبير كالسير برسي كوكس ، كان يحول بينه وبين العمل في ظل رئيس آخر لا يكبره سناً كويلسون ويرى فيه نداً وقرناً لا رئيساً موجهاً ، لاسيما وان مركب العظمة هذا قد تأصل في نفسه بعد بعثته الناجحة الى الجزيرة العربية ، وما رافقها ولحق بها من شهرة وذيوع صيت وانتشار اسم . وخيل الى فيلبي ، ان في وسعه الآن، ان لا يقتصر على دور التابع المنفذ للسياسات فحسب ، بل ان يشترك في وضع هذه السياسات وتنفيذها وتوجيهها .

في مثل هذه الحالة النفسية ، غادر فيلبي بغداد الى البصرة ، في طريقه الى بلاده . ودفعته هذه النفسية الى وضع مذكرة شاملة يقترح فيها الخطوات التي يجب ان تتبع لتنفيذ الوعود والسياسة البريطانية الفرنسية المعلنة في بلاد ما بين النهرين . وبعث بنسخة من هذه المذكرة الى ويلسون الذي تجاهلها ؛ كما بعث بنسخة اخرى الى المكتب العربي في القاهرة ، قيل انها فقدت فيه ؛ وسلم النسخة الثالثة الى وزارة الهند في لندن عند وصوله اليها فحفظت ، ثم نسيت . ويقول فيلبي ان نسخته الوحيدة التي بقيت ، هي التي احتفظ بها ، وان ويلسون لو سار على الاقتراحات التي وضعها « لأضحى من كبار رجال الادارة البريطانية في الامبراطورية » .

وصل فيلبي الى انكلترا في كانون الثاني من عام ١٩١٩ ، بعد غياب عنها دام اكثر من عشر سنوات . فقام فور وصوله بزيارة وزارتي الهند والخارجية

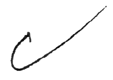
حيث اجتمع الى غاربيت وهيوبرت يونغ الخبيرين بشؤون الشرق الاوسط ، كما زار مقر الجمعية الجغرافية الملكية وتعرف الى ايدوين مونتاغ واللورد كرزون . وأخذ يقضي جماع وقته في اعداد الخرائط اللازمة ، عن الأماكن التي زارها في الجزيرة العربية ، للجمعية الجغرافية ، وفي كتابة السلسلة الطويلة من المحاضرات التي سيلقيها في الجمعية المذكورة وفي الجمعية الآسيوية المركزية .

وبدا كل شيء ضاحكاً لفيلبي . ولكنه شرع يفكر في مستقبله ، فهو لا يريد العودة الى الهند ليعمل في سلك ادارتها ، كما انه لا يريد العودة الى العراق والجزيرة العربية ، الا اذا رأى حكومته تنفذ السياسة التي يراها صالحة للشرق الاوسط . ويروي انه اثناء مروره بمصر في طريقه الى انكلترا ، تلقى برقية من ويلسون يطلب اليه فيها زيارة سوريا بالنيابة عنه ، ليبعث اليه بتقرير عن التطورات فيها ، لاسيما تلك التي قد تؤثر على الاوضاع في العراق ، ولكنه اعتذر عن قبول المهمة ، بحجة الاعياء . ويمضي فيروي انه تلقى بعد بضعة اشهر عرضاً آخر من ويلسون بتولي ادارة تسوية الاراضي في احد الالوية العراقية الواقعة على الفرات ، ولكنه اعتذر من جديد متذرعاً بعدم موافقته على سياسة « التسوية » التي وضعها ويلسون ومستشاروه .

وأحس فيلبي بالمرارة ، لأن لورنس قد دعي لحضور مؤتمر الصلح في باريس ، بينما لم يدع هو ، للاشتراك في وضع السياسة التي تتعلق بالبلاد العربية والشرق الاوسط عامة . ويصف هو الوضع في هذه الفترة فيقول : « على العموم . لم اشعر بالارتياح لمظاهر الأمور . ولكني كنت عاجزاً عن التأثير على التطورات ، فوزارة الهند . تؤيد سياسة ويلسون الاستعمارية في العراق ، بينما تؤيد . وزارة الخارجية الملك حسين ، وولده فيصل . وصديقهما لورنس »

وهنا حدث تطور جديد حمل فيلبي الى مسرح الحوادث مرة ثانية . فقد تلقى في منتصف شهر آذار من العام نفسه رسالة برقية عاجلة تطلب اليه الاشتراك في اجتماع تعقده وزارة الخارجية لبحث شؤون الشرق الاوسط . ويصف فيلبي هذا الاجتماع فيقول : « ودخلت الى القاعة الخارجية ، فرأيت صفاً

طويلاً من الجنرالات ، وامراء البحر ووكلاء الوزارات ومعهم هيوبرت يونغ يقوم بدور السكرتير . ودلفنا جميعنا الى مكتب اللورد كرزون الوزير ، حيث وجدنا مونتاغ يجلس الى جانبه . وافتتح الرجل العظيم الاجتماع بدماثته الفائقة . كانت المشكلة ، مدار البحث ، تتناول خورمة. فقد سبق لي اثناء السنة التي قضيتها في الجزيرة العربية ، ان رفعت اربعة تقارير عن اعتداءات قامت بها قوات الشريف على الواحة ، صمد اهلها لها بنجاح ، وفي المرة الأخيرة ، انذرني ابن السعود ، ونقلت هذا الانذار بدوري الى الحكومة البريطانية ، بأن المحاولة اذا تكررت ، فسيمضي بقوات ضخمة من رجاله لتلقين المعتدين درساً . وكان الملك حسين قد كبح جماحه بعد هذا الانذار ، ولكن يبدو انه قد اشرف على نهاية الاحتمال والصبر ، فطلب الى الحكومة البريطانية بحزم والحاف ، ان تسوي مشكلة الحدود لصالحه ، مهدداً بالهجوم في المنطقة اذا رفضت طلباته . وبدا ان الازمة قد بلغت ذروتها . وأخذ اللورد كرزون يشرح الوضع لهذه الجماعة النادرة من كبار الموظفين فقال : ان الموقف يتلخص في اننا قد وعدنا الفريقين بتسوية هذه القضية . وحسين يلحف الآن بوجوب تسويتها وله كل الحق في ذلك . وقد درسنا حجج كل من الفريقين دراسة وافية ، فعرض المستر فيلبي قضية ابن سعود ، بأقوى ما يمكن من حجة ، وفوق ما كان يتصوره ابن سعود . وقد يكون ثمة مجال للخلاف في وجهات النظر ، حول الحق في القضية . ولكنها بالنظر الى الحافها وحراجتها ، غدت مشكلة سياسة اكثر منها موضوع حق وعدالة . وسياستنا في جميع المشاكل العربية سياسة « حسينية » . ولا ارى داعياً لمناقشة الاسباب التي دعتنا الى تبني هذه السياسة . وأود ان اقول انها ايضاً اكثر من قضية سياسة ، انها موضوع مصلحة . وعلينا ان نقتنع بأن رجلنا ، اذا قررنا الموضوع لصالحة . كما يجب ان نقرر ، سيفوز في المعركة اذا وصل الأمر الى حد القتال . والا فان النتائج ستكون خطيرة للغاية » . وعندما انتهى اللورد من حديثه ، طلب من المجتمعين ، الافضاء بوجهات نظرهم . فأكد الجنرالات والاميرالات أن هذه الحثالات من المتعصبين الوهابيين ، لا تستطيع



ان تصمد صموداً جدياً امام قوات الحجاز النظامية ، التي تدربها بريطانيا وتجهزها بالاسلحة والمعدات .

« ودعيت لابداء الرأي آنذاك، وحشدت كل ما عندي من شجاعة ، فهاجمت الرأي الذي اجمع عليه العسكريون وقلت : « ليس فيكم من رأى القوات الوهابية او درسها ، واستطيع ان اقول بكل جزم وتأكيد ، انه اذا نشب القتال وسينشب حتماً ، اذا كان قرارنا ضد ابن سعود ، فإن الوهابيين لن يجدوا صعوبة قط في هزم القوات الحجازية . »

وقال الرجل العظيم .. « شكراً يا سيد فيلبي ، فسيكون رأيك موضع اعتبارنا . ولكن مثل هذه المناقشات لا يمكن الا ان تتم عن طريق الاغلبية ، ولا ريب في انك ترى نفسك في جانب الاقلية » .. فقلت « نعم يا سيدي ، انني ادرك ذلك » .

ومضى اللورد يقول : « وهكذا فقد تقرر الوضع . لقد اشار علينا خبراؤنا العسكريون ، بأن في وسعنا المضي في سياستنا المقررة بأمان واطمئنان . ولهذا فإن هذا المؤتمر يقرر تخويل الحسين رسمياً ، احتلال المنطقة المتنازع عليها ، والتي اصبح الآن من حقه احتلالها . ومن الواجب ابلاغ ابن سعود بهذا القرار ، بالطرق العادية مع انذاره ، بأن اية محاولة من جانبه ، لمقاومة تنفيذ هذا القرار ، ستثير استياء حكومة جلالته الشديد ، مع العلم بأن العون المالي الذي يتلقاه سيقطع عنه فوراً اذا لم يقبل بقرارنا عن طيبة خاطر . وسنتولى اصدار التعليمات اللازمة فوراً ، والآن بقي امامنا شيء واحد . وهو ان المؤتمر يود قبل انفضاضه ان يستمع الى وجهة نظر السيد فيلبي . فيما سيحدث عندما يتسلم ابن سعود هذه الأوامر » :

وقلت فوراً .. « حسناً يا سيدي ، ليس لدي من شك ، في ان ابن سعود عندما يتلقى هذه الرسالة ، سيشرع في تعبئة قواته ، ويهرع للدفاع عن خورمة . لقد وعد اهلها ، بهذا الدفاع ، وسينفذ وعده ، قطعت المساعدة المالية عنه او لم تقطع . وقد سبق لي ان حدثتكم برأيي في نتيجة المعركة » .

وانفض الاجتماع على هذا الاساس ، وخرج المؤتمرون جميعاً ، وهم يهزأون برأي فيلبي . أما هذا ، فقد اتخذ قراره فوراً . انه سيعود الى الهند بعد انتهاء الاجازة ، وبعد ان يؤمن مدرسة داخلية لولده كيم . وأخذ يواصل العمل بجد ونشاط في دراساته الجغرافية ، حتى شهر ايار عندما غادر لندن مع زوجته الى ايستبورن بحثاً عن مدرسة فيها . وتلقى ذات يوم رسالة حملها اليه طباخه الذي ذهب الى لندن لجمع الرسائل . كان الوقت ظهر يوم الاثنين ، وكانت الرسالة برقية صادرة يوم الجمعة السابق ، تدعوه لحضور مؤتمر عاجل في وزارة الخارجية بعد ظهر اليوم نفسه . ولما كان موعد المؤتمر قد فات ، فقد بعث برسالة الى الوزارة يشرح فيها اسباب تغيبه ، ويعتذر . فتلقى برقية على الفور تقول : « لقد تأجل المؤتمر بسبب غيابك . المسألة عاجلة . ابرق ، موعد حضورك » .. وطار فيلبي الى لندن فور تسلمه البرقية .

وأعود فأترك لفيلبي نفسه وصف المؤتمر الثاني .. قال : « وجدت نفس الاشخاص في القاعة الخارجية ، وقد جلس الجنرالات والاميرالات مطأطىء الرؤوس . وقال احدهم معلقاً « يبدو اننا راهنا على الجواد الخاسر » . ودخلنا غرفة اللورد كرزون ، فافتتح الاجتماع قائلاً : « لقد اجتمعنا هنا قبل شهرين ، وتوصلنا الى بعض القرارات التي سارعنا الى تنفيذها . وها نحن نجتمع اليوم لبحث النتائج . فقد بعث حسين ، بعد ان سمحنا له ، بجيشه تحت قيادة ولده عبدالله الى الخورمة لاحتلالها . ووصل الجيش الى ترابه ، دون أي حادث ، ثم اقام في معسكر تحيط به الخنادق المحصنة المنيعة استعداداً لبدء الهجوم على خورمة . وعجزت وحدات الاستطلاع ، عن رؤية اية حشود وهابية او تدابير مقابلة . ولكن في الساعات المبكرة من صباح التاسع عشر من ايار ، هاجمت القوات الوهابية المعسكر ، بعنف من جميع الاتجاهات . وفر عبدالله ، واركان حربه على ظهور الخيل ، الى الطائف ، أما الجيش الشريفي ، فقد ابيد عن بكرة ابيه . هذا ما وقع في الميدان . وينقل الينا معتمدنا السياسي في جدة صورة الفزع الشديد الذي خيم على مكة والطائف ، حيث بدأ الاهلون يجلون عنهما زرافات ووحدانا

باتجاه الساحل ، وبينهم نحو من احد عشر الفاً من الرعايا البريطانيين الهنود . ويضيف معتمدنا ان الوهابيين يتجمعون في الشرق ، لمطاردة عبدالله ، ومن المنتظر وصولهم الى الطائف ومكة فوراً . ويتوقع ان تنتشر الاوبئة بين جماهير اللاجئين الذين اكتظت بهم جدة حيث المياه نادرة ، والوقاية الصحية غير كافية . ويطلب حماية الرعايا البريطانيين عسكرياً ، وتأمين البواخر اللازمة لنقلهم الى اوطانهم في اسرع وقت ممكن . هذا هو الوضع : الذي يجب علينا ايها السادة ان نتدارسه الآن ، ولا ندري ما وقع من تطورات سيئة اخرى ، منذ ارسال هذه البرقية قبل ستة أيام. ولنبحث اولاً في موضوع البواخر ، فماذا في وسع الاميرالية ان تفعل لنا » . وتحدث الاميرال الاقدم فقال : « ان التعليمات لدي تقضي بأن اوضح لكم انه بالنظر الى حراجة الوضع في البواخر الآن ، فليس في وسع الاميرالية ان تؤمن باخرة واحدة لهذه الغاية ، فكيف يمكن لها ان تؤمن نحواً من دزينة من البواخر ، تحتاج اليها هذه العملية ؟ » ، واتجه اللورد الى الناحية الاخرى وقال : « وماذا في وسع وزارة الحرب ان تفعل ؟ فليس في وسعنا ، ان نترك هؤلاء الناس يذبحون ذبح النعاج على ايدي الوهابيين » فرد أحد الجنرالات قائلاً : « اخشى يا سيدي اننا لا نستطيع ان نعمل شيئاً . ووزارة الحرب مصممة على عدم اقحام نفسها في اية مغامرة حربية في الصحراء العربية . فقد كفانا ما مررنا به حتى الآن » .. وقال الرجل العظيم « حسناً يبدو لي اننا اعجز من ان نعمل شيئاً لهؤلاء الناس . والآن ، هل في وسعك يا سيد فيلبي مساعدتنا بصورة من الصور . فقد برهنت على صحة رأيك بالنسبة الى التطورات تمام البرهان .. » وقلت مجيباً « من الناحية الأولى لا اعتقد ان هناك ما يدعو الى الفزع . فأنا لا اعتقد بأن الوهابيين سيتابعون انتصارهم » .. واشتد غضب اللورد ولكنه سيطر على أعصابه وقال : « ارجوك لا تكن احمق ، يا سيد فيلبي . فها هو تقرير معتمدنا هناك واضح كل الوضوح ، ولا ريب في ان المعتمد البريطاني هناك اكثر اطلاعاً على الوضع في المنطقة منك ، انت الجالس هنا . » .. فقلت بكل جرأة « كلا يا سيدي انه

لا يعرف الا ما يريد الملك حسين ، ابلاغه اياه ، انا اعرف ما في ذلك من عدم وثوق . أما قصص اللاجئين فلا قيمة لها ، اذ ان اياً منهم لم يرَ وهابياً قط في حياته . انني واثق من ان الوهابيين لن يتابعوا زحفهم . ولابن السعود سيطرة كاملة على رجاله وهو اكثر حكمة من ان يسيء الينا بمهاجمة الحجاز » ..

وقاطعني اللورد قائلاً .. « ولكن هذا ، لا يجدي شيئاً .. فعلينا ان نعمل وفقاً لتقارير ممثلنا هناك ، وقد يكون الوهابيون الآن على أبواب مكة او جدة » . وقلت « حسناً يا سيدي لنفترض انهم يزحفون. ففي وسعنا اقناعهم بالتوقف والعودة » .. وقال وقد بدا عليه الاهتمام .. « كيف ؟ » .

فقلت بكل حزم .. « علينا اولاً ان نعكس القرار الذي توصلنا اليه في المؤتمر السابق ، وان نوافق على ان يحتفظ ابن سعود بخورمة وترابة التي احتلها الآن ولن ينسحب منها. وانا اضمن لكم ان ابن سعود سيرضى بهذا . فاذا وافقتم على ذلك فابعثوا برسول الى ابن سعود، وانا اضمن لكم انسحابه من الحجاز

وقال اللورد .. « ولكن الوقت اضيق من ان نرسل رسولاً ، فقد يكون الوهابيون في هذه اللحظة يذبحون اهل مكة وجدة . » .. وقلت « في وسع الكولونيل ويلسون ان يذهب لمقابلته من جده ، او نبعث رسولاً في طائرة خاصة من هنا ، تصل في يوم او يومين . » .. وسرح الفكر باللورد بضع لحظات ثم قال .. « هل تذهب انت ؟ » قلت « نعم يا سيدي بكل تأكيد » فقال « متى تكون على استعداد للذهاب » قلت فوراً .. فقال .. « حسناً . هذا هو الأمل الوحيد . واذا وافق المؤتمر عهدنا الى الميجور يونغ باعداد طائرة خاصة لتنقل المستر فيلبي فوراً .. آمل لك التوفيق يا سيد فيلبي » ..

وأعدت الطائرة في الوقت المناسب ليستقلها فيلبي الى القاهرة حيث يجتمع اولاً الى الجنرال اللنبي ، المندوب السامي لتلقي تعليماته . وكان هذا قد تلقى في غضون ذلك تعليمات بارسال سرب من ست طائرات الى جدة في صناديقها لاستعمالها عند الحاجة كما تلقى ويلسون في بغداد أوامر بقطع المعونة الشهرية عن ابن سعود .

وغادرت الطائرة لندن في طريقها الى باريس فليون فالستريسي فبيزا فروما فتو رنتو فباتراس حيث ارغمت على الهبوط فاثينا فخليج سودا في كريت فالسلوم فالقاهرة . وكانت الاشارة اللاسلكية تسبق وصول الطائرة الى كل مطار ، طالبة الأفضلية في الهبوط لأنها تقل ممثلاً لوزارة الخارجية في طريقه الى القاهرة في مهمة عاجلة من مهام الدولة » . وعندما هبطت الطائرة في اثينا سمع فيلبي بوجود لورانس في خليج سودا في جزيرة كريت مع حطام طائرته هناك اثناء سفره من لندن الى القاهرة ، حيث قتل راكبان من ركاب الطائرة واصيب هو في ظهره اصابة عنيفة ، وأخذ ينتظر وسيلة يستقلها الى مصر .

ويروي فيلبي في الصفحة السابعة والثمانين من كتابه « اربعون سنة في الصحراء » قصة لقائه الأول بلورنس .. فيقول : « اجتمعنا صدفة في خليج سودا ، ولم يكن يعرف من أنا في ذلك الوقت سوى انني مبعوث من وزارة الخارجية البريطانية في طريقي الى القاهرة . ولا ريب في أن معرفته لهذه الحقيقة قد جعلته يقف مني موقفاً معادياً منذ بداية اللقاء ، ولكننا تحدثنا حديثاً طويلاً عن التطورات الأخيرة في البلاد العربية ، وسرعان ما ساد حديثنا التفاهم الكامل قبل ان يسألني من اكون . وقد أثر علي بالغ التأثير لا بسحر حديثه فحسب ، بل بإلمامه الشامل بالموضوع الذي يبحثه. ولاريب في ان كل من اجتمع به لأول مرة دون ان تكون له سابق معرفة بتاريخه واتجاهاته يتأثر مثل تأثري بعذوبة حديثه وصحبته الممتعة .

ولم يكن قد سمع بآخر التطورات العربية ، فأصغى الى حديثي باهتمام زائد معلقاً عليه حيناً بكلمة « حسناً ، حسناً » واخر بكلمة « ممتاز » ، فقد كان لا يميل الى الملك حسين .. ولاريب في انه قد استغرب كل الغرابة اطلاعي العميق على الشؤون العربية ، إذ انه سرعان ما التفت الي قائلاً : « هل لي ان اسألك من تكون » . قلت له .. « اسف ، ظننتك عرفتني ، أنا فيلبي » .. قال « انت فيلبي إذن .. » ..

هذه هي مقابلتي الأولى للورنس ، ولكن قدر لي ان أراه كثيراً في السنوات

التالية قبل ان يفقد اهتمامه بالبلاد العربية .. واقترح عليّ ان يسافر معي الى القاهرة فرحبت باقتراحه ، ووصلنا معاً فحللنا ضيفين في دار الاعتماد البريطاني وكنا نجلس الى مائدة العشاء على جانبي الليدي اللنبي ، وتدور بيننا مناقشات حامية ، حول مختلف القضايا العربية فتحتد السيدة من نقاشنا ويطلب اليها الجنرال ان تعمل على حفظ النظام في حديثنا . وقد قبل الجنرال بوجهة نظري في ان الطائرات التي ارسلت الى جدة اذا استخدمت وهبطت إحداها في ارض وهابية ، فسيقطع الوهابيون رقاب طياريها ، وهكذا أصدر الجنرال أوامره بأن تظل الطائرات في صناديقها .

وكانت الانباء الأولى التي وصلت الى مسامع فيلبي عند وصوله الى القاهرة ان الوهابيين لم يحاولوا التقدم وراء ترابه ، وان ابن السعود ترك أوامر صارمة لدى قواده في الجبهة بالتزام موقف الدفاع ثم انسحب عائداً الى الرياض . وهكذا تبخرت الضرورة العاجلة في رحلته ، وظل ينتظر أوامر وزارة الخارجية التي جاءته اخيراً بالسفر بحراً الى جدة والعبور منها براً الى الرياض .

ويروي فيلبي انه اجتمع في القاهرة الى الكولونيل جاكوب الذي كان موفداً على رأس بعثة بريطانية رسمية الى صنعاء في اليمن فسأله فيلبي عن اللباس الذي سيرتديه في رحلته فأجاب : « طبعاً اللباس العسكري كضابط بريطاني محترم ومعي حرس من الفرسان الهنود » .. فقال فيلبي : « حسناً . لا اعتقد انك ستصل قط الى صنعاء » وبالفعل لم يصل الكولونيل الى صنعاء فقد اغلقت عليه قبيلة القهرة الطريق عند باجل ، وبعد اسابيع من الحصار سمح له بالعودة الى الحديدة .

وعندما وصل فيلبي الى جده ، لم يسمح له الملك حسين بالنزول فيها رغم إلحاف المعتمد البريطاني ، وانقضت أيام ثلاثة في اخذ ورد ، الى ان صدرت لأوامر الى فيلبي من وزارة الخارجية بالعودة الى مصر ولندن ، وهكذا انتهت تلك المغامرة في حياته التي خرج منها هادئ البال قرير العين لان صديقه ابن اسعود خرج ظافراً من الجولة الأولى في معركة السيطرة على الجزيرة العربية كلها .

وبعد عودته الى لندن ، طلبت اليه الحكومة البريطانية ان يرئس بعثة بريطانية رسمية ترافق الامير فيصل آل سعود ، الذي وصل على رأس بعثة سعودية رسمية اوفدها عبدالعزيز لتهنئة الحكومة البريطانية بالنصر ، ولاستئناف المفاوضات معها حول مستقبله وحدود ممتلكاته . وقد استغرق هذا العمل من فيلبي ثلاثة شهور كاملة طاف فيها مع الأمير الفتى ويلز وايرلنده ، والقارة الاوروبية وميادين القتال في فرنسا . ويروي فيلبي ان الملك فيصل رفض في باريس مقابلة الامير فيصل آل سعود ، فغادر هذا العاصمة الفرنسية الى مرسيليا في طريق العودة الى الرياض بينما عاد فيلبي الى انكلترا .

ومن الغريب ان الأوامر التي اصدرتها الحكومة البريطانية بقطع المعونة المالية الشهرية عن ابن سعود ، لم تنفذ ابداً . وهذا ما يعترف به فيلبي نفسه. ولعل الأيدي الخفية في توجيه السياسة البريطانية هي التي اوحت بذلك ، وان كان فيلبي يفسر الحادث بقوله ان ويلسون تلقى في بغداد برقية الأمر ، وكان يعتزم الخروج من مكتبه فوضعها في جيبه ثم نسيها واضاعها . على أي حل ظلت المعونة تدفع وظلت ترابة وخورمه في ايدي ابن السعود ، وان لم يتخذ بصددهما أي قرار نهائي .

وعدل فيلبي في هذه الاثناء عن فكرته في العودة الى الهند ، فقد جاءت الانباء من العراق تحمل توقع حدوث اضطرابات فيه ، لاسيما وكان رفاق فيصل في سوريا يغذون بالأموال التي يقبضونها من بريطانيا — على حد تعبير فيلبي — الحركات الاستقلالية التي بدأت ترفع رأسها في بعض انحاء العراق ، لاسيما وكانت اساليب ويلسون الديكتاتورية خير حافز لهذه الاضطرابات . .

واضطرب فيلبي لهذه الانباء ، وذهب في كانون الأول بعد سفر الامير فيصل الى وزارة الهند حيث قابل جون شاكبوروه وكيلها وقال : « لا ادري ماذا تنوون عمله في بلاد ما بين النهرين . الا ترون ان البلاد بأسرها غدت متأهبة للثورة ؟ » فقال شاكبوروه : « لا يا فيلبي . ان ما تقوله لا يتفق مع التقارير التي نتلقاها من ويلسون . وعلينا على كل حال ان نصدق الرجل الموجود في المنطقة .

أتحب ان ترى هذه البرقية الاخيرة التي تلقيناها منه اليوم». كان ويلسون يروي انه جال انحاء البلاد فقوبل فيها بمظاهرات حماسية شعبية ، وتبين له ان الشعب العراقي بأسره يريد ان يرى حكومة بريطانية قوية في البلاد ، بينما لا يعدو مؤيدو الشريف ان يكونوا قلة ،لا يؤبه بها ،من الناس. واضاف ويلسون ان الوضع اليوم أحسن من أي وقت مضى منذ الحرب ، ولكنه يقترح وقف هذه الحملات في الصحف البريطانية التي تطالب البريطانيين « بحزم امتعتهم والخروج من العراق » مؤكداً « ان هذه البلبلة تترك اسوأ الاثر لدى الشعب العراقي » .

ويمضي فيلبي في روايته فيقول .. « انا اقدر تمام التقدير رأيكم في وجوب احترام ما يقوله ممثلنا في المنطقة ولكن يجب ان لا يخدع بهذه الأقوال أي انسان . فويلسون يعمل باصرار وعناد ضد السياسة البريطانية المعلنة في العراق ، وهو يستفز الشعور الوطني في العراق الذي يلقى تأييداً من العناصر القومية في سوريا . ولاريب في ان الوضع سينتهي الى اضطرابات خطيرة تقع عما قريب » .

ويبدو ان جرترود بيل ، كانت في هذه الآونة قد بعثت برسائل خاصة الى اصدقائها من كبار المسؤولين في لندن تحذرهم فيها من الاحداث المتوقعة وتؤيد وجهة نظر فيلبي . ولم يمض طويل وقت حتى كان ويلسون يطالب من لندن استدعاء جرترود ، لأنها تثير له المشاكل في البلاد .

وفي ايار عام ١٩٢٠ ، بدأت ثورة العراق بهجوم قام به جميل المدفعي ، من ضباط فيصل الموثوقين ، ورجالاته ، على تلعفر في لواء الموصل حيث ابيدت الحامية عن بكرة ابيها ، وكانت تضم عدداً من الضباط البريطانيين . وانتشرت الثورة انتشار النار في الهشيم الى حوض الفرات ، حيث منيت كتيبة بريطانية بخسائر فادحة . وقتل الشيخ ضاري الكبتن ليخمن في خان النقطه . واستدعى ويلسون السيد طالب النقيب من البصرة ، حيث كان يعيش في هدوء بعد عودته من المنفى في سيشل ، ليعمل على اخماد الثورة ويعالج الوضع في بغداد الذي اخذ ينذر بالثورة العاصفة . وتمكن السيد طالب بجرأته من وقف الحركات في بغداد بينما استمر القتال في كل مكان .

وهزّت هذه الاحداث « هوايتهول » من سباتها العميق ، وقررت الحكومة البريطانية ان تعمل شيئاً فورياً ، فاستدعت كوكس من طهران للتشاور معه في لندن . ومرّ الرجل ببغداد والبصرة وطمأن مستقبليه بأن الحكومة ستفعل شيئاً لتحقيق وعودها لهم هذه المرة اذا ركنوا الى الهدوء والصبر . وقررت لندن اخيراً تنحية ويلسون وان يخلفه كوكس الذي سيعود من لندن الى بغداد مندوباً سامياً يشرف على تنفيذ السياسة الجديدة ، التي بدأت تتخذ شكلها النهائي في لندن .

وأتاحت هذه التطورات مجالاً جديداً لفيلبي . فقد انتهى امر عدوه ويلسون وتقرر ان يعود الى بغداد صديقه كوكس ، وأصبح في امكانه بدوره ان يعود . فعرض على السير برسي مساعدته فقبلها على الفور ، وتقرر ان يرافقه الميجور شيسمان كسكرتير خاص ، وان يصحبه غاربيت ايضاً . وكان اول ما يجب تقريره ، المبادئ التي ستسير عليها الادارة الجديدة في البلاد ، لاسيما وقد اشتد الضغط على كوكس لقبول فيصل ملكاً على العراق بعد ان ضاع عليه عرش سوريا بسبب خيانة الفرنسيين وتنكرهم للعهود والوعود . ولكن فيلبي اشار على رئيسه بأن لا يلزم نفسه بأي وعد قبل ان يستشير أهل العراق ، واعد له مذكرة ضمنها رأيه في هذا الصدد ونصيحته باقامة حكومة موقتة في البلاد تشرف على اجراء انتخابات حرة لجمعية تأسيسية تقرر دستور البلاد ، وتختار رئيس الدولة المقبل ، فهذه هي الاقتراحات التي تتفق مع وعود بريطانيا السابقة للشعب العراقي بأن تكون له الحرية المطلقة في تقرير مصيره .

ويبدو من تاريخ الوقائع وتسلسل الاحداث في هذه الفترة ان كوكس لم يكن متحيزاً لفيصل أو لأي ملك هاشمي يتبوأ عرش العراق . ويقول فيلبي في كتابه « أيام عربية » : انه كان واثقاً من ان شعب العراق لا يريد ان يرى حاكماً كهذا ، وان ويلسون المندوب السياسي السابق ، كان قد اجرى نوعاً من الاستفتاء دون ان يحنزه اليه احد ، فتبيّن له ان غالبية الشعب قد اقترعت ضد فيصل وضد أي من اخوته .

وفي العشرين من آب ، ابحر كوكس على ظهر الباخرة دلهي ، ترافقه زوجته

وشيزمان وفيلبي . فحطت بهم الرحال في بومباي حيث قاموا بزيارة خاطفة للحاكم العام في بونا السير جورج لويد . ثم عادوا بالباخرة لورنس في طريقهم الى البصرة حيث وقفت بهم في العجير للقاء ابن السعود الذي أمّ الميناء خصوصاً للاجتماع بكوكس ، وفقاً لموعد سابق ، وبحث القضايا العربية بصورة عامة .

ويقول فيلبي انه اجتمع اثناء هذه الزيارة الى عدد من اصدقائه القدامى وفي مقدمتهم عبدالله الدملوجي ، وانه عقد عدة اجتماعات خاصة مع ابن السعود ، بالاضافة الى الاجتماعات العامة التي شهدها والتي حضرها ايضاً دكسون الوكيل السياسي في البحرين . ويضيف فيلبي ان المحادثات كانت ذات طابع ودي وان كوكس علق على صدر ابن السعود الوسام الرفيع الذي منحته إياه الحكومة البريطانية . ثم يستطرد فيقول : « ومع ذلك فقد حذرته في احاديثي الخاصة معه انه اذا اراد ان يصبح عاملاً مهماً في اعتبارات بريطانيا السياسية وحساباتها ، فعليه ان ينتهي من أمر ابن الرشيد ويزيله من مسرح الجزيرة العربية . وقلت له أن لابن الرشيد اصدقاء اقوياء ما زالوا يحلمون باعادته الى مركز يحفظ فيه التوازن في الجزيرة العربية وسياساتها ، وينفذ عند الحاجة الدور الذي يطلب اليه تنفيذه ضد ابن السعود وضد الشريف نفسه . وكان ابن السعود يعرف كما اعرف ان السيد حمزة غوث ، قد وصل الى بغداد كمبعوث لابن الرشيد وانه بدأ باتصالاته مع جرترود بيل . وقال لي ابن السعود ، مؤكداً ادراكه لما في الوضع الراهن من مخاطر ومصاعب ، وانني سأسمع في الوقت المناسب باذن الله انباء سارة عن اكمال المشروع الذي بدأناه معاً » .

وهكذا يبدو من سياق الاحداث السابقة واللاحقة ، ومن هذه الاعترافات التي وردت على لسان فيلبي نفسه انه هو المسؤول الأول عن تصفية ملك ابن الرشيد في الجزيرة العربية وتحريض ابن السعود على توحيد قلبها . ومن المؤكد انه كان ينفذ في المرحلة الأولى من الاحداث سياسة حكومته التي قامت على وجوب الخلاص من ابن الرشيد ، حليف الأتراك . وانه في هذه المرحلة الثانية كان يعمل بحافز شخصي منه ، بالاضافة الى سياسة حكومته الرسمية التي لم يطرأ

عليها تبدل واضح وان كانت قد ظهرت ثمة اتجاهات عند البعض ، وفي مقدمتهم جرترود بيل ذات النفوذ والحول والطول ، للحفاظ على ابن الرشيد والابقاء عليه شوكة في جانب ابن سعود تستطيع بريطانيا الاعتماد عليه في سياستها القائمة على مبدأ « فرق تسد » .

وقد يتساءل المرء هنا : هل كان فيلبي في موقفه هذا ، مدفوعاً بحبه الشخصي لابن سعود أو منفذاً لسياسة حكومته ؟ يقيناً ان العاملين قد لعبا دورهما معاً في هذا الموقف ، ففيلبي يحب ابن السعود وليس في هذا شك ، فقد اصبح سعودي الهوى والسياسة منذ عهد بعيد ، ولكنه يحب بلاده وامبراطوريته اكثر منه ، وهو يؤمن ايماناً قاطعاً ان تقوية ابن سعود امر ضروري لخدمة هذه الامبراطورية ليقف في وجه الملك حسين الذي كان قد بدأ يتصلب في مواقفه مع الانكليز بصدد مستقبل البلاد العربية بصورة عامة وقضية فلسطين بصورة خاصة ، مطالباً بتنفيذ وعود مكماهون له ، ومؤملاً في دولة عربية قوية يقف هو على قمتها عن طريق وكلائه وممثليه من ابنائه وأعوانه ..

وعلى أي حال في وسع كل مؤرخ ومتتبع لسير الاحداث ان يؤكد ان فيلبي لعب دوراً رئيسياً في هذه المرحلة من إزالة ملك ابن الرشيد وتوطيد دعائم المملكة العربية السعودية :

ووصلت الباخرة الى البصرة ، وكان في استقبال كوكس ورفاقه حشد كبير من الموظفين والوجوه ، وفي مقدمتهم ويلسون . واقيمت في اليوم التالي مأدبة كبرى في حدائق البصرة ليتعرف فيها وجوه البلاد ، على اول مندوب بريطاني سام للعراق . وكان ابرز رجلين في الجمع على حد قول فيلبي ، الشيخ خزعل ابن مازدو امير المحمرة الذي تعهد له كوكس أيام الحرب باعتراف بريطانيا به حاكماً على عربستان ، والذي اصبح من المرشحين لعرش العراق ، والسيد طالب النقيب الذي ساعد بريطانيا اخيراً في تهدئة الثورة في بغداد والذي كان كوكس قد نفاه من البصره في مطلع الحرب والطامع الحالي في عرش العراق .
ويقول فيلبي ان السيد طالب اقام لكوكس في تلك الليلة نفسها وليمة عشاء

كبرى في قصره المنيف المطل على النهر ، ضمت عشرات الأعيان وكبار الموظفين البريطانيين . وفي صباح اليوم التالي ادى حرس الشرف تحية الوداع العسكرية لويلسون ، عندما استقل الباخرة لورنس ، في طريقه الى الهند . ويقول فيلبي متحدثاً عنه ما نصه : « تحدثت طويلاً الى ويلسون فوجدته متألماً اشد الألم لتطور الاوضاع بصورة عامة ،ومن العهد الجديد المقترح للبلاد ، لما يعنيه من تحطيم نهائي لاحلامه الضخمة في ان يكون العراق درة لامعة في تاج الامبراطورية . ولقد حزنت في النهاية عندما رأيته يمضي عنا . لقد ضاعت مواهبه الفائقة وصفاته العظيمة في حلم عتيق بال ، وقد تحطم البناء الذي حاول ان يبنيه على رأسه وانقلب الى ركام . ولا مجال للرحمة في أحوال كهذه من الفشل . لقد كان في السادسة والثلاثين من عمره عندما ارتحل عنا . وكان من المقدر له ان يشغل مناصب هامة في شركة البترول الفارسية الانكليزية في انكلترا وخارجها قبل ان يصبح عضواً مجداً ، وان كان غير فعّال من الاعضاء المحافظين في مجلس العموم . ويقيناً انه لم يحقق ما كان يعلق عليه من آمال ضخمة في شبابه » .

اليست هذه منتهى الشماتة بالعدو القديم الذي انهار وتحطم على صخرة السياسات البريطانية ؟ أو لم يكن فيلبي بين العديدين من خصوم ويلسون الذين عملوا على تهديمه بالمعاول التي حملوها في ايديهم ؟ أولم يكن أحد الذين هاجموه جهراً وسراً في لندن ودوائرها الاستعمارية العالية ، كما رأينا في حديثه مع شاكبوروه ؟ أجل لقد انهار ويلسون وانهارت معه سياسة البطش وسياسة الحاق العراق بامبراطورية الهند ، لتخلفها سياسة معسولة جديدة تقوم على محاولة ترضية العراقيين بتحقيق بعض اهدافهم في الحكم الذاتي ، ولتفرض بريطانيا عن طريق هذه الترضية سيطرتها الخفية وتضمن مصالحها وتحقق اهدافها القريبة والبعيدة . وكان فيلبي احد حملة لواء هذه السياسة الجديدة .

وانتقل كوكس وزوجته وركبه ، يرافقهم السيد طالب النقيب الى سفينة نهرية اقلتهم صاعدة نهر دجله الى بلدة الكوت حيث استقلوا منها القطار الى بغداد . ويقول فيلبي انه تحدث احاديث طويلة خاصة الى السيد طالب الذي

اسرّ اليه بمطامحه البعيدة المدى ، ومنها عرش العراق متسائلاً عن السبب الذي يحول بين الملك جورج الخامس وبين الانعام عليه بمرتبة الامارة ، في الحال ، وانه أي فيلبي لم يشجعه مطلقاً في التعلق بهذه المطامح .

ويمضي فيلبي فيقول : « وبالطبع كنت اعلق عليه امالاً كباراً يستطيع تحقيقها في المستقبل ، فهو الرجل البارز في العراق ، بذكائه وقوة شخصيته ، ولولا بعض الغرور والطيش فيه ، اللذين كانا يكرهانه الى الكثيرين لكان رجلاً ممتازاً . وخيل الي ان بوسعنا استغلال كفاءاته الممتازة تمام الاستغلال ، بدور يمثله على المسرح السياسي ، كموجه لمصير العراق المستقل في السنوات التالية ، اما عن طريق رئاسة الوزارة مثلاً او رئاسة الجمهورية . وبدأت منذ تلك اللحظة ادربه على هذا الدور ، وعليّ ان اعترف هنا بأنه كان طالباً ذكياً ، لاسيما اذا كانت الايدي التي تتولى تدريبه ايد صديقة . وكان من المحتمل ان تنجح خططنا المشتركة لولا تدخل بعض الظروف التي سأتحدث عنها فيما بعد » .

وعندما وصل القطار الى محطة جنوب بغداد عزفت الموسيقى السلام الملكي . ويصف فيلبي الاستقبال قائلاً : « ووقف السير برسي في بدلته الرسمية البيضاء يؤدي التحية ثم توافد المستقبلون الجنرال مارشال ، فالسير ادغار بونهام كارتر . وكثيرون غيرهما ، وجرترود بيل في اناقتها الرائعة ترتدي ثوباً من احدث طراز باريسي . ورأيت نقيب بغداد العجوز السيد عبدالرحمن النقيب الكيلاني يرئس حشداً من الوجوه والاعيان .. وهكذا احتفلت بغداد بمولد عهد جديد من الهدوء ، والحرية ، والرخاء ، بينما كانت بذور الثورة لا تزال تعمل في خارج العاصمة . وعلى الرغم من تحطيم عنفوان الثورة ، الا ان عمليات التطهير كانت لا تزال مستمرة . وقد اقترحت على كوكس اعلان الهدنة والعفو العام ، ولكن اقتراحي هذا لقي مقاومة عنيفة من العسكريين ومن رجال ويلسون الذين استطاعوا التأثير على كوكس » .

وبدأت المشاورات فوراً لتأليف الحكومة المؤقته التي ستتولى ادارة البلاد تحت اشراف كوكس وتوجيهه . وعهد الى بونهام كارتر المندوب القضائي باعداد

قانون للانتخابات ، فلم ينته العام الا وكان قد اعد مشروع قانون على غررا القوانين التركية السابقة التي تقضي باجراء الانتخابات على درجتين . وانشغل كوكس اكثر ما انشغل باختيار الرجال اللائقين للاشتراك في الوزارة الأولى . ومضت الأيام متعاقبة ، وهو يجتمع الى المرشحين للوزارة وغيرهم ، ويستشير الوجوه وعليّة القوم ، بينما تواصل جيرترود بيل وفيلبي مقابلة الآخرين واستطلاع الآراء وجمع المعلومات. وفي مقدمتهم عبد القادر باشا الخضيري ، الرجل الكبير في بغداد الذي لا يحمل اية اطماع سياسية ، ولكنه يعرف كل صغيرة وكبيرة في المدينة . ويقول فيلبي ان الخضيري اصبح اكبر صديق له في العاصمة العراقية ، لاسيما وكان قد ابدى من الشجاعة النادرة المثال اثناء الحكم التركي ، ما جعله كبيراً في عيون جميع البريطانيين » .

ويتحدث فيلبي عن جرترود في هذه الايام ، فيقول انها كانت تعيش في دارة جميلة تحيط بها حديقة غناء تكسوها الورود والرياحين ، وقد غدت هذه الدارة المكان الذي يحج اليه كافة المشتغلين في الشؤون السياسية لقضاء اطيب الاوقات وحبك الدسائس السياسية . وكان فيلبي يكثر من التردد عليها ويعملان معاً في جس نبض الرأي العام ، وتلمس الحركات والاتجاهات في هذا المجتمع الذي يغمره النشاط السياسي . وعمل الثلاثة كوكس وفيلبي وجرترود يداً واحدة في انسجام وتوافق كبيرين للوصول الى هدف واحد ، وهو اقامة حكومة مؤقتة في بغداد تلقى التأييد الشعبي الكامل .

ولم يكن تحقيق هذه الغاية بالأمر السهل . ويصف فيلبي الوضع آنذاك بقوله : « وكان ثمة رجلان ، يستطيعان ان يشغلا المنصب الذي خلقا لاشغاله . اولهما حسقيل ساسون التاجر اليهودي البارز في بغداد ، الذي يليق بتولي وزارة المالية ، وجعفر باشا العسكري الذي حارب ببسالة في الحرب ونال ارفع الأوسمة ، وارتقى اعلى المناصب العسكرية في جيش فيصل ، والذي لا ينافسه في وزارة الدفاع انسان . وكان هناك مواطن بغدادي آخر بين جنرالات فيصل لم يكن قد عاد بعد الى بغداد . وان كان ينتظر وصوله بين عشية وضحاها وهو نوري

باشا السعيد ، الذي خططنا لتعيينه رئيساً لاركان حرب الجيش العراقي . وكان امامنا رجل فاضل هو الشيخ مصطفى الآلوسي لتولي وزارة العدلية ، بينما هناك سيل زاخر من المرشحين لوزارات المعارف والصحة والاشغال ، وفي وسعنا ان نختار منهم من نريد دون ان يحدث اختيارنا أي اساءة سياسية لأي شخص ، كما فكرنا بتعيين عدد من الوزراء بلا وزارات من ذوي الشخصيات البارزة .

« وتركز جميع اهتمامنا على من يتولى رئاسة مجلس الوزراء ووزارة الداخلية . وكان السيد طالب النقيب هو خير من يليق بهذا المنصب . ولو اتبعنا هذا السبيل لأصبح السيد طالب المرشح المقبل لرئاسة الدولة مهما كان اللقب الذي سيحمله ، وان كان على الغالب رئاسة الجمهورية اذ باستثناء حفنة من مؤيدي الاشراف من ذوي الاهمية كان الشعور الغالب في الرأي العام العراقي يؤيد حتماً الجمهورية ويعارض في الملكية » :

هذا ما يقوله فيلبي . لكن كثيرين من الذين أرخوا هذا العهد كانوا يعارضونه في هذا الرأي ويؤكدون ان هوى العراقيين في ذلك الحين كان يتجه الى الملكية ، لأن النظام الجمهوري كان غريباً على العالم العربي في ذلك الحين ، الذي عاش ردحاً طويلاً في ظل الملكية العثمانية الدينية ، ولم يكن عدد المثقفين من ذوي الآراء الليبرالية المتحررة كبيراً بحيث تشمل الدعوة للجمهورية جميع اوساط العراق وفئاته . ويقول الاستاذ عبدالرزاق الحسني في كتابه « العراق في دوري الاحتلال والانتداب » ان « اقلية كانت تؤيد الجمهورية . وهي جماعة الحزب العراقي الحر الذي ألفه في بغداد السيد النقيب والذي ضم الى عضويته توفيق الخالدي ، وسالم الخيون ومحمود النقيب وعبدالمجيد الشاوي وفخرالدين آل جميل . وكان فيلبي يؤثر عليهم اشد التأثير » .

أما جرترود بيل ذات الاثر الفعّال في السياسة البريطانية في العراق في ذلك الحين ، فقد كانت تكره السيد طالب كراهية التحريم . وكان كوكس بدوره لا يثق فيه ولا يحبه . ولكن كوكس وجرترود اتفقا على ان ليس في الامكان

ابعاده عن المناصب الوزارية وان كانا يريان ان المنصب الذي يجب ان يحتله هو منصب وزارة الداخلية لا رئاسة الوزارة . ويقول فيلبي انه لم يصر على تعيين طالب رئيساً للوزارة لأنه كان يعرف ان الرئاسة ستعود اليه حتماً لأنه يرفض العمل في ظل أي رئيس وزراء آخر باستثناء نقيب بغداد الشيخ السيد عبدالرحمن الذي سيرفض حتماً رئاسة الوزارة بالنظر الى شيخوخته وعجزه عن تحمل الاعباء والمسؤوليات مما يضع كوكس أمام الأمر الواقع ويرغمه على اسناد الرئاسة للسيد طالب لاستحالة تأليف وزارة لا يكون هو عضواً فيها .

ويقول فيلبي ايضاً : « وكنت على اتصال دائم بالسيد طالب ، وكنت انصحه بالصبر والتريث وقبول وزارة الداخلية اذا قبل السيد عبدالرحمن الرئاسة لانه سيكون في الحكومة المؤقتة على اي حال ، الشخصية المتنفذة بوصفه وزيراً للداخلية . واخيراً تم اعداد كل شيء وعقدت مع كوكس وجرترود اجتماعاً لتقرير الخطوة التنفيذية الاولى . ومضى كوكس وحيداً الى النقيب عارضاً عليه تأليف الوزارة ، بينما ظللت مع جرترود في مكتبه ننتظر نتيجة المقابلة ، فلما جاء اعلن لنا ان النقيب قد قبل وسررنا جميعاً بهذه النتيجة السعيدة » .

وتألفت الوزارة الأولى على الشكل التالي : عبدالرحمن النقيب للرئاسة ، طالب النقيب للداخلية ، حسقيل ساسون للمالية ، جعفر العسكري للدفاع ، عزت الكركوكلي للاشغال العامة ، عبداللطيف المنديل للتجارة ، محمد مهدي الطباطبائي للصحة والمعارف ، محمد علي فاضل للاوقاف ، وعبد الرحمن الحيدري وعبد الجبار الخياط وفخرالدين آل جميل وعبدالغني كبة والشيخ عجيل السمرمد وعبد المجيد الشاوي والشيخ محمد الصيهود وداود اليوسفاني والشيخ سالم الخيون واحمد الصانع والشيخ ضاري السعدون والحاج نجم البدراوي وزراء دولة .

وكان فيلبي قد أعد في غضون ذلك بتوجيه من كوكس وارشاده جهاز المستشارين البريطانيين في مختلف الوزارات والالوية والاقضية فأنقص عددهم من مائة واربعين الى اربعين ، وسرح الباقين بعد ان امن دفع تعويضات كافية لهم . وتقرر اخيراً تعيين بونهام كارتر اقدم الموظفين واعلاهم رتبة مستشاراً

للعدلية وسليتر من رجال مكتب المخابرات مستشاراً للمالية ، وفيلبي مستشاراً لوزارة الداخلية والجنرال اتكينسون لوزارة الاشغال العامة وسميث للمعارف .

وهكذا انتهت جميع الترتيبات وأصبح كل شيء معداً للاعلان عن تأليف الحكومة الجديدة ، وعقدت الوزارة اجتماعها الأول بحضور جميع المستشارين وبدأت في دراسة مشروع القانون الانتخابي الذي دارت حوله مناقشات حادة وكثيرة . ولكنه اقر أخيراً في صيغته النهائية ، ورفع الى المندوب السامي لنشره في الجريدة الرسمية بعد المصادقة عليه .

وهنا وقعت تطورات غير منتظرة ادت الى تأخير اعلان القانون الانتخابي فقد اصبح المستر ونستون تشرشل وزيراً للمستعمرات ، وبدأ عمله باعادة النظر في جميع الالتزامات والقرارات المتعلقة بشؤون الشرق الأوسط . وكان قد دعا لورنس ليصبح ناصحه الأمين ، وكان هذا قد قرر التنكر لجميع الوعود السابقة لأهل العراق ، وان يوجه ضربة قاصمة يخدم بها صديقه فيصل بن الحسين الذي كان يعيش الآن حياة العزلة والانزواء في ايطاليا :

واقترح تشرشل عقد مؤتمر في القاهرة لبحث جميع المشاكل المتعلقة بالشرق الاوسط ، ولاتخاذ القرارات المناسبة بصددها . وكان من الطبيعي والحالة هذه ان يتأخر اعلان ، القانون الانتخابي بعض الوقت انتظاراً لنتيجة المؤتمر ، وان كان الشعور الذي ساد كوكس وفيلبي ان مؤتمر القاهرة لن يؤثر مطلقاً على الخطط المقررة للعراق :

ويقول فيلبي .. « لكن الطريقة التي الف بها كوكس وفده للذهاب الى القاهرة اثارت الشكوك . فقد ضم الوفد بالاضافة الى كوكس كلاً من جرترود وغاربيت وجعفر باشا .. وناب بونهام كارتر عن كوكس في ادارة البلاد واخذت الاسئلة تنهال عليه وعلي ، وكنا نرد ببراءة وصدق ان الحكومة البريطانية قد وعدت شعب العراق بأن يقرر بحرية مصيره ، وان ليس في نيتها تعديل هذا الوعد او النكوص عنه . وكان السيد طالب قد ساوره القلق كما بدأ النقيب الشيخ يتساءل ، ووصلت الى بغداد رسائل بعث بها جعفر باشا الى انصاره

ومشايعيه تفيد بأن كل شيء يسير على ما يرام وفق الخطة الموضوعة . وانتشرت الانباء في بغداد انتشار النار في الهشيم ، وبدأ النقيب وطالب يشكان في انني اعرف اكثر من الذي اتظاهر بمعرفته ، وانني وبونهام كارتر شريكان في مؤامرة سرية . وأعددت مذكرة قدمتها الى بونهام كارتر المندوب السامي بالوكالة ، استعرضت فيها الشائعات الكثيرة التي وصلت الى مسامعي ، وأبديت عزمي على الاستقالة احتجاجاً اذا كانت الوعود التي كنت الواسطة في اعطائها وتفسيرها بحكم منصبي الرسمي سوف يعبث بها في القاهرة . وقد عبّر لي كارتر عن رأيه بأن موقفي كان معقولاً جداً ، وله ما يبرره بالنسبة الى الظروف على الرغم من انه لا يعرف شيئاً اكثر مني عن مدى تقدم مداولات القاهرة[٢]، وانه سيعرض مذكرتي على كوكس عند عودته . وعندما عاد كوكس قابلته على الفور ، وكان قد قرأ المذكرة ، فأكد لي ان الحكومة البريطانية لا تنوي مطلقاً العدول عن وعودها للشعب العراقي . أما جرترود وجعفر باشا فكانا اقل كتماناً من كوكس ،ومع ذلك فقد وثقت بتأكيدات كوكس،وشعرت ببعض الراحة ، واخذت اهدئ من مخاوف السيد طالب والنقيب . ولكن الشائعات استمرت تكتسح العاصمة وأصبح الوضع شديد الحراجة والحساسية » :

وفي هذا الجو المحموم من الشائعات والقلق ، ارتكب طالب النقيب خطيئته الكبرى التي كلفته غالياً وأبعدته عن مسرح العراق السياسي مطوحة به في زوايا الابعاد والنسيان . فقد أقام في قصره في بغداد وليمة كبرى دعا اليها جميع قناصل الدول الاجنبية وممثليها الدبلوماسيين ، وكبار رجال التجارة والأعمال من الأجانب ولفيفاً كبيراً من الوجوه واعيان البلاد وبعض الصحفيين العالميين[٥]. ولم يشهد فيلبي هذه المأدبة على الرغم من دعوته اليها لانه ادرك انها ستكون ذات طابع سياسي ، ولم يرغب في ان يقحم نفسه فيها . وسالت الخمرة ، في المأدبة كالمياه ، واحتسى صاحب الدعوة اكبر قدر منها وانطلق على سجيته المرحة يحاول التخفيف من غلواء ما يحمله في قلبه من هموم سياسية كانت اكثر مما تعود على حمله . فألقى كلمة في المدعويين ذكر فيها ان الشائعات تملأ المحافل والانديأ

بأن فيصل سيعين ملكاً على العراق ، وأنه يود ان يوضح للحاضرين بصورة عامة وللحكومة البريطانية بصورة خاصة أن شعب العراق لا يريد فيصلاً ، ولا يمكن ان يذعن لارادة بريطانيا في فرضه عليه ، ثم قال : « واذا كنتم تشكون في حديثي فمعنا على هذه المائدة هنا الشيخ محمد أمير ربيعه ، وهو يسيطر على اربعين الفاً من اشداء الرجال ، والشيخ فلان ، يرئس قبيلة تعد ثلاثين الفاً ، فاسألوهما يجيبانكم عمّا يفكر به الناس في هذا الشأن . ولقد سبق للحكومة البريطانية ان وعدتنا بالحرية في انتخاب نظام الحكم الذي نريده ، فاذا وقع أي تبدل في هذا الوعد فانني سأكون أول واشد من يحتج » . وسارع احد الضيوف واسمه تود من التجار البريطانيين في بغداد ، فنقل الحديث كاملاً الى دارة « مرتع العزّاب » ، كما كان يطلق على بيت جرترود ، التي سارعت بدورها فنقلته كاملاً الى كوكس .

وهنا نجد بريطانيا تسارع الى اساليبها الاستعمارية الرخيصة البالية في التخلص من معارضيها ومقاومي سياستها . فيدعى السيد طالب الى تناول الشاي مع السيدة كوكس ، في دار المندوبية السامية ويحدد لذلك ابكر وقت بعد حادث المأدبة .. واني اترك لفيلبي نفسه رواية هذه الحادثة التي تفضح أساليب بريطانيا وطرقها ، فقد قال : « وعند الظهيرة وكان يوم سبت مرّ السيد طالب بغرفتي المجاورة لمكتبه في وزارة الداخلية وقال انه قد انهى عمله وسألني عمّا اذا كانت لدي اية نقاط اود اثارتها مع كوكس ، اذ انه سيلقاه عصر ذلك اليوم على الشاي فرددت بالسلب ومضى عني .

« وكنت قد دعيت مع زوجتي في ذلك المساء الى العشاء مع شخص يدعى الكبتن (الرئيس) كوكس في نادي العلوية . وعندما وصلنا النادي تقدم الينا ضابط آخر قال ان صديقه كوكس قد طاب اليه استضافتنا ذلك المساء لأن كوكس قد عهد اليه بمهمة عاجلة مفاجئة في ذلك اليوم . وهمس الضابط في اذني ونحن نتجه الى قاعة الطعام ، قائلاً «عمل فظيع اليس كذلك؟» . ولم افهم شيئاً ، ولكنني لم اسأل . ودعا أحد الضباط زوجتي الى الرقص ، فسارعت به الى

المشرب وطلبنا كأسين وقلت « انا آسف لغياب كوكس ، ولكن قل لي كيف حدثت القصة ؟ » وقد افترض الضابط بالطبع انني اعرف الموضوع فشرع يحدثني بالقصة :

« لقد خطف السيد طالب ، بأمر من السير بيرسي كوكس وهو ضيف في بيته ، وحملته سيارة عسكرية مصفحة الى احد الزوارق النهرية لينقله الى البصرة ومنها الى منفاه في سيلان .. وهذه تفاصيل القصة :

« لا شك عندي في ان الليدي كوكس كانت بريئة من المؤامرة ولم يكن لها فيها أي ضلع ، وكانت الخطة شديدة الاحكام حتى انها تناولت قطع جميع خطوط الهاتف الرئيسية بما في ضمنها خط هاتفي . وكان السير برسي قد ذهب الى سباق الخيل تاركاً رسالة اعتذار رقيقة مع زوجته ، التي كانت في صحبتها جرترود بيل عندما وصل السيد طالب . وقدم الشاي واذا بزائرين غير متوقعين (كما في الظاهر) يهبطان البيت ويتناولان الشاي هما الميجور بوفيل والكبتن كوكس ، وغادر الضابطان دار المندوبية بعد قليل . وبعد نحو من عشر دقائق استأذن السيد طالب بالذهاب ، وخرجت جرترود تشيعه الى المدخل الخارجي لدار المندوبية ، ولم تتركه إلا عندما رأته يستقل سيارته وتتحرك به . وعندما أراد السائق الخروج بها من حديقة الدار الأمامية وجد الطريق أمامه مغلقة بعدد من سيارات الشحن . وكاد السيد طالب يتفجر غضباً محتجاً على هذه المعاملة السيئة عندما ظهر الميجور بوفيل والكبتن كوكس من وراء احدى السيارات وقدما إليه الاعتذار على المضايقة ، وطلبا اليه ان يعتبر نفسه سجينهما ، قائلين ان الأوامر التي لديهما تقضي باعتقاله ونقله الى مكان مجهول . وهكذا مضى اصلب رجل في العراق إرادة ، الى الفخ البسيط الذي نصب له ، والذي لا خلاص له منه . أجل مضى بهدوء .. »

« واتصلت في اليوم التالي مبكراً بكوكس وطلبت مقابلته ، فاستدعاني فوراً ، وذهبت وأنا مزمع على الاستقالة فوراً . ولكنني عدت بعد ثلاث ساعات من النقاش وقد غدوت عضواً من اعضاء الوزارة أي وزيراً للداخلية بالوكالة .

ولقد كان كوكس صريحاً معي كل الصراحة حول موضوع نفي السيد طالب ، وتبيّن لي انه بالنسبة للظروف لم يكن في وسعه ان يطلعني على المؤامرة قبل تنفيذها لأنني كنت بالتأكيد ، سأنقل لصديقي طالب خبرها واحذره من الذهاب الى حفلة الشاي ، ولا يدري الا الله ماذا كان سيحدث اذا ما لجأ طالب الى مواجهة المؤامرة بأسلوبه وطريقته الخاصين .. لقد كان العمل من اعمال كوكس وحده وعلى مسؤوليته . وقد اعربت له عن عدم موافقتي على هذا العمل الذي افسره بأنه يعني الخلاص من السيد طالب لتمهيد الطريق امام فيصل . وذكرته بالمذكرة التي كنت قد اعددتها قائلاً انني لا أزال على رأيي ، ولكنه اكد لي من جديد ان ليست هناك من نية مطلقاً في فرض فيصل ملكاً ، ولم يكن في وسعي الا قبول هذا التأكيد .. وعندما انتقلنا الى الحديث عن المستقبل ، وعن الرجل الذي سيخلف السيد طالب ، قال انه لا يرى ضرورة لأي خلف ، فالانتخابات على الأبواب وفي وسعي ان اقوم بدور الوزير .. » .

هذه هي القصة كما رواها فيلبي . وأنا لا أريد مناقشة موضوعيتها فقد تكون وقائعها صحيحة تماماً ، وقد يكون هو بريئاً من الاشتراك في المؤامرة لكن هذه البراءة تقف عند مجرد « الجهل » ليس إلا . اذ لو كان ذلك الانسان ذا الضمير الحي والعدالة المطلقة ، والليبرالية المتحررة كما حاول وصف نفسه لما رضي بالأمر الواقع في حينه ، واستهواه اغراء « المنصب الجديد » الذي عرضه عليه « كوكس » ، وهو وزارة الداخلية بالوكالة ، فسكت على مثل هذا الحادث الذي لا يجوز له ان يسكت عليه لا من ناحية عامة تمس ضميره وعدالته وليبراليته ، ولا من ناحية خاصة تصيب مسؤوليته المباشرة كمستشار لوزارة الداخلية يفترض فيه ان يكون اول من يعرف بحادثة من هذا النوع بحكم منصبه. فتجاهله فيها — كما تجاهله كوكس فعلاً — امتهان لكرامته كانسان وكموظف مسؤول قبل ان يكون امتهاناً لضميره وعدالته وليبراليته . أما التذرع بأن كوكس وحده هو المسؤول عن هذا العمل فستار يحاول به ان ينقذ نفسه من المسؤولية وان يلقيها على سواه اذ ان مجرد قبوله بالمؤامرة بعد وقوعها واستمراره في

العمل بعدها اشراك له في المسؤولية قطعاً . ولعل كوكس كان خبيراً ، بحقيقة ما في نفسه من مظاهر الضعف امام اغراء المناصب ، فأقدم على انتدابه لوزارة الداخلية بالوكالة ليشبع فيه هذا الغرور ، ويرضي تلك المطامع .

وهناك نقطة اخرى لا يسعنا المرور بها مر الكرام ، وهي ادعاء فيلبي ان كوكس قد اخفى عنه المؤامرة قبل وقوعها مخافة ان يقوم بتحذير السيد طالب وإحباطها . اعتقد ان هذه مغالطة كل المغالطة اذ ان الواقع والحقائق تنفي هذا الادعاء . فهو موظف في امبراطوريته البريطانية ولا يعقل مطلقاً ان يفضل مصلحة صديقه الشخصية على مصلحة امبراطوريته اذا كانت هذه المصلحة تقضي باتخاذ تلك الخطوة ، لاسيما وقد اقمنا الدليل في الفقرة السابقة على ان ضميره وعدالته وليبراليته ، لم تكن كلها من النوع الذي يفرض عليه ان يقف ذلك الموقف الحازم الذي يزعمه مبرراً لاخفاء المؤامرة عنه .

وهكذا انتهت هذه القصة بفيلبي، يتربع على مقعد وزير الداخلية راضياً هانئاً . وببلاغ يصدره السير بيرسي الى الشعب يشرح فيه اسباب اعتقال السيد طالب ، ومنها تهديده، وهو الوزير المسؤول، باسم النقيب رئيس الوزراء واسم امير ربيعه والشيخ سالم الخيون باشهار السلاح في وجه بريطانيا ..

وأخذ نفوذ الحزب المؤيد لفيصل يشتد ويقوى بعد اعتقال السيد طالب ، وبعد ان اسفرت جرترود بيل في احاديثها العلنية والخاصة عن حقيقة نواياها في تأييد ذلك الجانب . ويقول فيلبي ان شقة الخلاف بينه وبين جرترود اخذت تتسع يوماً بعد يوم .. « وفي ذات يوم وبعد جلسة طويلة عقدها مجلس الوزراء طلب الي النقيب الشيخ ان اتأخر لأنه كان يريد التحدث الي شخصياً . وعندئذ بادرني بقوله : « هل تعرف شيئاً عن هذا ؟ » ووضع في يدي برقية صادرة عن جدة، موقعة من جعفر ابو التمن المبعد هناك لاشتراكه في ثورة العراق ، وهذا نصها : « ابحر سمو الشريف فيصل اليوم الى البصرة . اعدوا الاستقبال اللائق » .

« وقلت للنقيب .. « لا . لا اعرف شيئاً » . وطلبت الاحتفاظ بالبرقية

قائلاً انني سأذهب فوراً لمقابلة كوكس ، وأعود لابلغه ما يقوله .. ومضيت الى دار المندوبية ووجدت كوكس مستعداً لمقابلتي .. قلت : « ان الأسواق تعج بالشائعات عن ان فيصل قد ترك جده في طريقه الى البصره ، فهل لهذه الانباء اية صحة ؟ » .. ورد كوكس بقوله : « اؤكد لك يا فيلبي انني لا اعرف شيئاً عن الموضوع ، ولم اتلق اية معلومات عنه » . ثم عرضت عليه البرقية قائلاً : « اذن قد يهمك الاطلاع على هذه » ، وعاد الى التأكيد بأنه لا يدري شيئاً عن الموضوع ، ثم مضيت الى النقيب أبلغه » .

ونقلت اسلاك البرق بعد يومين ، برقية لوكالة رويتر ، تعلن ان المستر تشرشل سيفضي ببيان هام عن سياسة بريطانيا في الشرق الأوسط في الثاني عشر من حزيران . واعلن هذا في الموعد المحدد ، عزم الحكومة البريطانية على الاستعاضة عن الحكومة المؤقتة في العراق ، بادارة جديدة تقوم على اساس جمعية وطنية منتخبة على ان يتم ذلك في غضون الاشهر المقبلة ، على ان تتولى هذه الجمعية ترشيح حاكم عربي ترضى به البلاد ، وانشاء جيش للدفاع الوطني . ومضى المستر تشرشل يقول : « وليس في نيتنا إكراه الشعب العراقي على قبول حاكم معين ، وستطلق الحرية التامة ، في البحث والافصاح عن الرأي سواء اكان ذلك في أمر انتخاب الحاكم او انتخاب الجمعية الوطنية . ولما كانت الدولة المنتدبة قد تكبدت نفقات باهظة . فلا يمكنها والحالة هذه ان تتغاضى عن مسألة حيوية هذا شأنها . وتقضي طبيعة الحال باتجاه رغبتنا الى انتخاب افضل المرشحين . ولا شك عندنا في ان العراقيين سيضعون الحكمة رائداً لهم ، في انتخاب من يريدون بارشاد السير بيرسي كوكس الذي نثق به كل الثقة » .

ومضى المستر تشرشل يقول : « وقد علمنا ان فيصل يتجه الآن إلى العراق . ليقدم نفسه الى الشعب كمرشح للعرش المنتظر . وقد ابلغنا الأمير فيصل عن أحر تمنياتنا في نجاحه . وكلنا أمل في ان شعب العراق سيقدر تمام التقدير ، هذه الفرصة المتاحة له لتحقيق أهدافه لاسيما واننا على ثقة بأن فيصل اذا

انتخب ، كان انتخابه حلاً يضمن للعراق مستقبلاً سعيداً ناجحاً .

يتضح من هذا البيان ، الذي ألقاه المستر تشرشل في مجلس العموم أن الحكومة البريطانية كانت قد حزمت أمرها على ان يكون فيصل هو ملك العراق. وان خطاب تشرشل هو بمثابة ايحاء من الناحية الاولى الى العراقيين بأن ينتخبوا فيصلاً : وانذار من الناحية الثانية بأنهم اذا لم ينتخبوه فان الحكومة البريطانية قد تعيد النظر في سياستها ، وفي هذه الفرصة التي أتاحتها للشعب العراقي على حد تعبير المستر تشرشل ، وهو في الوقت نفسه أي بيان المستر تشرشل ، توجيه للسير بيرسي كوكس، المندوب السامي في العراق ، وموظفيه بأن يعملوا على انجاح فيصل . لكن بريطانيا جرياً على عادتها في التعلق بالمظاهر لا تريد أن تقول انها هي التي تريد ان تفرض فيصلاً وان الشعب هو الذي سيقرر انتخابه بمحض إرادته وحريته . وهذا ما حمل فيلبي على محاولة اهتبال الفرصة ، أي فرصة التظاهر المصطنع الذي تبديه حكومته ، ليحول بين فيصل وبين الوصول الى العرش . لأن وصوله يعني تقوية نفوذ الهاشميين ، واضعاف نفوذ ابن السعود مما يخالف وجهة نظره في المخطط الذي يراه افضل سياسة لبريطانيا في الشرق العربي ، وهي السياسة التي تقوم على ان ابن سعود خير لبريطانيا في تنفيذ سياستها وحماية مصالحها في الوطن العربي لأنه رجل المستقبل والقادر على هذا التنفيذ .

يضاف الى هذا ان فيلبي . أصبح يعتقد جازماً ان موضوع ملكية فيصل اختبار لامكانياته الشخصية ، وقدرته على توجيه سياسة امبراطوريته ، ومحك لهما لاسيما بعد ان تسلط عليه الغرور كل التسلط إثر المواقف التي سبق لنا شرحها ، في موضوع النزاع بين الحسين وابن سعود حول خورمة ، وصدق نظرياته وآرائه واضطرار الحكومة البريطانية الى الرجوع عن سياستها الثابتة وقبول وجهات نظره . وهو غرور اعتقد اعتقاداً جازماً ، انه لعب دوراً كبيراً في حياة فيلبي المقبلة . فأراد الآن ان يثبت من جديد لحكومته انه ابعد نظراً ، وأصدق فراسة من معسكر خصومه الهاشميين الذين يتزعمهم لورنس

وجرترود بيل . فنسي أو تناسى انه لا يواجه الآن خصماً ضعيفاً وإنما خصماً قوياً شديد المراس ، عنيد الرأي ، يتمثل في شخص المستر تشرشل نفسه الذي تبنى سياسة لورنس وآراءه وأهدافه .

على كل حال أراد فيلبي ان يجرّب حظه هذه المرة ، وان يغتنم فرصة اضطرار بريطانيا الى التظاهر بأنها ستعطي للعراقيين المجال لابداء رأيهم بحرية في ملكهم المنتظر ونظامهم المقبل. فأخذ يؤكد سراً وعلانية ان فيصل لا يحظى إلا بتأييد اقلية الشعب ، وان الغالبية تريد الجمهورية بينما كان خصومه يؤكدون وفي طليعتهم جرترود بيل ، التي ذكرت في « رسائلها » التي نشرتها في كتاب فيما بعد ان « علماء الشيعة » وهم قوة قوية ، لها وزنها وشأنها في العراق . اصدروا بياناً يؤكدون فيه ان البلاد لا ترضى عن الاستقلال التام بديلاً في ظل ملكية يقوم عليها أحد أنجال الشريف . كما اعتمد خصومه على برقية سبق لويلسون المندوب السامي بالوكالة سابقاً ان بعث بها الى حكومته . يذكر فيها أن العراق يرضى بفيصل ولكنه لا يرضى بعبد الله ملكاً » .

وقد جاء قول ويلسون هذا بعد المؤتمر التاريخي الذي عقد في العمارة في اعقاب الثورة العراقية الكبرى والذي حضره بالاضافة الى ائمة الشيعة وعلمائهم الاجلاء . قادة الثورة العراقية . الذين فرضوا بثورتهم التي كلفت بريطانيا عشرات الالوف من القتلى ، وملايين الجنيهات على الحكومة المنتدبة إصدار بيانها المعروف بعزمها على ان يصبح العراق بلداً حراً مستقلاً . وأن يقوم على رأسه نظام يختاره الشعب العراقي . وقد اتخذ المؤتمرون في هذا الاجتماع التاريخي . قراراً برفض ملكية عبدالله التي اقترحها الانكليز . وتأييد ملكية فيصل الذي يريده الشعب . على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان فيصل كان لا يزال قائماً على عرش سوريا . مما يشير الى رغبة متأصلة عند العراقيين في توحيد البلدين في ظل ملكية فيصل .

ومع وجود هذه الحقائق التاريخية فلا نستطيع ان نتجاهل حقيقة أخرى وهي ان طبقة المتنفذين والحكام — وأنا بالطبع استبعد منها طبقة العلماء ورجال

الثورة ــ كان يهمها أولاً وقبل كل شيء ارضاء بريطانيا والسير في ركابها وتحقيق مشيئتها. وتفسر لنا هذه الظاهرة اقبال الكثيرين على تأييد فكرة الجمهورية في البداية ، لأنهم كانوا يرون فيلبي الداعية لها ، وهو يمثل بالنسبة اليهم رأي بريطانيا الرسمي ، فلما استمعوا الى بيان تشرشل ، وشهدوا بأعينهم حقيقة اتجاه السياسة البريطانية في تأييد فيصل انصرفوا عن فكرة فلبي ؛ لتأييد الفكرة الجديدة وأخذوا يعملون سراً وعلانية لتأييد ملكية فيصل ؛ يضاف الى هذا ان عدداً كبيراً من رجالات العراق المخلصين ، كانوا قد عملوا مع فيصل في حملته إبان الثورة العربية ، وكانوا من أشد انصاره ومؤيديه .

ومن هذا يتبين ان فيلبي بعد ان ايقن باستحالة تحقيق ما يريده ، وهو ان يعهد بعرش العراق إلى احد الامراء من آل سعود لأنه ادرك أن شيعة العراق لا يمكن ان يرضوا بأمير وهابي ملكاً عليهم ، اتجه الى تأييد الجمهورية إذ أنها الوسيلة الوحيدة التي يمكن لها ان تستهوي العراقيين ؛ وان تحول بين فيصل وبين الوصول الى العرش . وهو كل ما يريده فيلبي ويعمل على تحقيقه .

وتهيأ الجو لاستقبال فيصل ، وعهد الى جعفر باشا وجرترود بيل ، بتأليف لجنة تشرف على الاستعدادات لاستقباله في العاصمة ، وفقاً لتوجيه كوكس نفسه . وفي وسع السلطات العسكرية والمدنية في البصرة مع جالياتها التجارية الضخمة ؛ ان تعد له استقبالاً كريماً حافلاً . وعرض فيلبي على كوكس ان يذهب الى البصرة ليشترك في الاستقبال . ممثلاً للحكومة ولدار المندوبية . فقبل هذا العرض شاكراً ، ويقول فيلبي انه استقل القطار الى البصرة وفي كل محطة من المحطات التي يمر بها القطار . انهالت عليه الاسئلة من المتصرفين والقائمقامين والمستشارين البريطانيين . يسألونه عما يجب ان يفعلوه بصدد الاستقبال ، وعن أوامره في هذا الصدد فكان يرد عليهم قائلاً : « لا أوامر رسمية لدي ، وعليكم ان تقرروا ما تعملونه بأنفسكم ، ففيصل قادم الآن كمرشح للملك لا كملك ، وعليكم ان تحافظوا على حرية الانتخابات عند وقوعها . وستنظر وزارة الداخلية في هذا الأمر وتترك لممثلي الشعب المنتخبين

تقرير شكل الحكومة القادمة ، واختيار رئيس الدولة . ولابد انكم قد قرأتم خطاب تشرشل ، وعرفتم ما يريد ، ولكن الحكومة البريطانية لن تتدخل ، قط في حرية الاقتراع .

ويمضي فيلبي قائلاً : « اما بالنسبة الى المستشارين البريطانيين ، فكنت اقول لهم اعيدوا على الناس ما قلته لكم ، ولا تبذلوا أي ضغط لا لهذا الجانب ولا لذاك ، وعليكم ان تستقبلوا القطار الخاص عند وصوله ، ولكن تجنبوا اقامة اية مظاهرات رسمية فهذا من شأن الشعب نفسه بمحض حريته القيام بها » .

هذا الموقف الذي يوحي بالحياد ، ينطوي في حقيقته على العداء لاسيما إذا اخذنا بعين الاعتبار أن فيلبي قد خالف بمنعه المظاهرات الرسمية ، التعليمات الصريحة التي اقرها مجلس الوزراء ، الذي هو احد اعضائه ، فقد نص قرار مجلس الوزراء على وجوب الاحتفال بقدوم « سمو الامير فيصل والقيام بما يليق بعظمته من التفخيم والتبجيل من قبل الحكومة الوطنية » .

ووصل الطراد البريطاني « نورث بورو » الى ميناء البصرة ، وخرج فيلبي في زورق بخاري يرافقه كبار الموظفين المدنيين والعسكريين لاستقباله . وبدا فيصل على ظهر الطراد في ملابسه العربية الجميلة ، والى يمينه كينهان كورنواليس وعدد من رجال حاشيته ومن زعماء الثورة العراقية العائدين ، وفي مقدمتهم هادي المكوطر ، ونور الياسري ، ومحسن ابو طبيخ . ويقول فيلبي انه نقل الى الأمير تهنئة المندوب السامي ، والحكومة المؤقتة بسلامة الوصول ، وتحياتهما اليه ، لكن الاستقبال رغم رسميته كان خالياً من الحماسة . وانقضى اليومان التاليان في ولائم وحفلات استقبال ومظاهر حفاوة ، ثم استقل الجميع القطار في الطريق الى بغداد . وعندما وصل الى الناصرية ، في الساعات المبكرة من الصباح ، لم يكن في الاستقبال إلا المتصرف ومستشاره البريطاني ولفيف صغير من الموظفين الرسميين . وكانت الحالة مماثلة في السماوة والرميثة والديوانية . ولم يلق ملك الغد استقبالاً حافلاً إلا في الحلة ، حيث كان من المقرر ان يقضي الجميع ليلة واحدة . ولم يكن من المستغرب ان يتخذ الاستقبال هذا الشكل

الفاتر تنفيذاً لتعليمات فيلبي المشرف على شؤون وزارة الداخلية .

ويقول فيلبي ايضاً : « وكنت صريحاً مع فيصل عندما طلب مؤازرة الموظفين البريطانيين في ترشيحه للعرش ، لأنه انما جاء بدعوة من الحكومة البريطانية . فقلت له ان من الواضح تماماً ان الحكومة البريطانية تريده ملكاً في العراق ، فهذا ما قاله تشرشل واوضحه ، وقد اقلته الى العراق طرادة بريطانية ، ولكن الانتخابات يجب ان تكون حرة ، فالتعليمات قد صدرت بهذا المعنى الى جميع الموظفين البريطانيين في البلاد ، واضفت انه اذا كان يريد كسب أصوات الأهالي في البلاد على اساس انه مرشح بريطانيا فإن أمله في النجاح سيكون ضعيفاً . »

« وتكدر فيصل وبدا بعد العشاء متعباً . واقلتنا السيارات في اليوم التالي الى النجف لنحل ضيوفاً على كبار علماء الشيعة في المدينة المقدسة . وقد استقبلنا بحفاوة زائدة ، واعدت لنا مأدبة ملكية فاخرة . وقد ابتعدت انا وكورنواليس عن فيصل بكل حكمة وتبصر لنفسح له المجال للتعامل مع المتعصبين بطريقته الخاصة ، ولينفي الانطباع العام القائل بأنه مرشح بريطانيا المسيحية . وسافرنا في اليوم التالي الى كربلاء حيث اصبت بالملاريا التي جعلتني طريح الفراش نحواً من عشرة أيام نقلت اثناءها الى الحلة ، حيث جاءت زوجتي لتعني بأمري ، ولتنقل اليّ تفاصيل الاستقبال الذي جرى لفيصل في العاصمة » .

ويبدو ان فيصلاً قد استاء من حديثه الأول الى فيلبي ونقل استياءه الى كوكس عند وصوله الى بغداد ، لاسيما وانه قد سمع كما تروي جرترود بيل في رسائلها ان كوكس يقف موقف الحياد من ملكيته وانها وغاربيت يؤيدانه ، بينما يؤيد فيلبي الجمهورية . وتضيف قائلة : وقد تأثر فيصل وأخذ يتساءل لماذا لا تومئ الحكومة البريطانية الى الشعب العراقي برغبتها في انتخابه .

وعندما عاد فيلبي الى بغداد ذهب لمقابلة كوكس الذي بدأ بسؤاله عن صحته ثم شرع يحدث فيلبي حديثاً جدياً ، فقال له : « يبدو انك لم تكن على علاقات طيبة بفيصل في هذه الرحلة ، وقد شكا اليّ بمرارة من موقفك منه خلال الرحلة .

وقد اكد لي انه لن يبقى في البلاد إلا اذا تأكد تماماً من موقف جميع الموظفين البريطانيين وتأييدهم له تأييداً صادقاً » . ويستطرد فيلبي في وصف هذه المقابلة فيقول .. « وقلت لكوكس لا ادري كيف يتوقع فيصل منا هذا الموقف ، مع علمه بوجود أوامر رسمية ، هي أوامرك ، تتعلق بالانتخابات ، ولم اسمع بأن هذه الأوامر قد الغيت او طرأ عليها أي تعديل . وقد اكدت اكثر من مرة للنقيب وغيره عزمنا على الحفاظ على وعودنا لهم . ولاريب في ان فيصل قد ادرك انه اذا سارت الانتخابات سيراً حراً ، فان فرصه في النجاح فيها ضئيلة للغاية . وبالطبع فقد اعربت له عن رأيي هذا بكل صراحة » . ورد كوكس قائلاً : « اعرف ذلك ، ولكنني واثق من انك تدرك الآن ان الحكومة البريطانية تريد فيصلاً .. » فقلت : « أجل اعرف ذلك. وقد اتضحت لي هذه النتيجة منذ أمد طويل ، على الرغم من جميع تأكيداتك المعاكسة لي . وان ما لا استطيع فهمه هو لماذا تصر الحكومة اذا كانت تريد فيصل حقاً على هذا الموقف من اجراء انتخابات زائفة ، ولا تقوم بتعيينه ملكاً مباشرة وبصراحة . فقال كوكس « افهم ما تعنيه ، ولكنني لا استطيع ان ارى طريقة للتوفيق بين موقفك وبقائك في منصبك » . فقلت على الفور : « إذا كان المطلوب مني ان ازيف الانتخابات ، فلا أشعر بأية رغبة في البقاء في منصبي ، واذا أسميت لي الآن من سيخلفني فسأخرج من حضرتك لتوي ، لاسلمه مهام المنصب » . وقال كوكس .. شكراً يا فيلبي .. انا آسف لتعذر عملك معنا ومساعدتنا .. وتبادلنا الحديث بعد ذلك عمن سيخلفني .. وكان كورنواليس هو المرشح الافضل ، ولكن تعيينه في مثل هذا الظرف ، وهو النصير الأول لفيصل ، سيفضح الموقف تماماً . فتم القرار اخيراً على تعيين تومسون مساعد مستشار وزارة المالية ، وخرجت من مكتب كوكس لاسلمه مهام منصبي فوراً ..

« ومضيت الى زوجتي اقول لها .. لقد استقلت .. وسرعان ما انتشر النبأ في كل مكان من المدينة ، وقبيل المساء جاءت جرترود بيل تقول « جاك .. انا آسفة لسماع هذه الانباء » ، فردت زوجتي عليها بضراوة قائلة « كلا ، انك

لست بآسفة » . وعندما خرجت زوجتي من الغرفة ، طيّبت خاطر جرترود واعربت لها عن سروري للخلاص من هذا الموقف المزعج .

« وكانت زوجتي تتوقع ان تضع طفلاً بعد بضعة اشهر ، فوافق كوكس على بقائها في منزلنا الى ان تلد ، ومنحني اجازة ثلاثة اشهر اقضيها في ايران ، وهكذا انتهت علاقتي الرسمية بالعراق وكوكس ، أما قانون الانتخاب الذي تعبنا في اعداده فقد احيل الى سلة المهملات ، وبدلاً من الانتخاب المزمع اجراؤه ، نظم كوكس استفتاء حول سؤال واحد وهو : هل ترغبون في ان يحكمكم فيصل ؟ . وقد رد نحو من ٩٦,٥ في المائة على هذا السؤال بالايجاب . وشهدت زوجتي في الثالث والعشرين من آب عام ١٩٢١ ، تتويج فيصل ملكاً على العراق . بينما كنت اتمتع باجازتي في ايران » .

وهكذا خرج فيلبي من مسرح العراق .. خرج فاشلاً في تحقيق غايته ، ومضى ليختفي عن مسرح الاحداث في الوطن العربي ، لأن اليد الخفية التي تحرك الممثلين من وراء الستار شاءت له ان يخرج وان يختفي ولأن المشرفين على توجيه سياسة الامبراطورية كانوا لا يزالون يؤمنون بأن الأسرة الهاشمية هي التي يجب ان يعهد اليها بتنفيذ سياستهم في اجزاء الوطن العربي ، ولأن خلق هذا العرش الجديد لفيصل في العراق سيقضي على آمال السوريين الذين كانوا لا يزالون يحلمون بعودة فيصل ملكاً الى بلادهم ، فيخلق نوعاً من الاستقرار من هذا الجزء من العالم .

٦

الوهّابي في خدمة الهاشميّين

ويشاء القدر ، أو تشاء اليد الخفية المحركة ان يعود فيلبي الى الظهور على المسرح العربي ، ولكن في دور غير أدواره الطبيعية. انه دور الوهابي الذي يعمل في خدمة الهاشميين . ولكن اذا تعمق الانسان في درس هذه المرحلة الجديدة من حياة فيلبي خرج منها بنتيجة معاكسة تماماً ، لما يبدو في ظاهرها . فقد نشأت امارة هاشمية جديدة في الطرف الجنوبي الشرقي من سوريا الطبيعية ، وقد تبنّت بريطانيا هذا الانشاء وأقره المستر تشرشل في مؤتمر القاهرة ، الذي تحدثنا عنه في فصل سابق لغايات شتى لعل أهمها خلق دويلة جديدة عازلة بين مملكة الحسين في الحجاز ، التي لاحكم مباشرلها عليها ، إلا بقدر ما تتيحه لها مساعداتها المالية للحجاز ، وعناد الحسين وتصلبه وإصراره من الناحية الثانية وبين سوريا التي ضمها الفرنسيون بموافقة حلفائهم الانكليز الى المناطق الواقعة تحت انتدابهم بعد ان اسقطوا عرش فيصل ، والتي لم ينفك ابناؤها عن المطالبة بحريتهم واستقلالهم. ففر منها كبار رجالاتها والعاملين في حقل سياستها ليضعوا الخطط لتحرير وطنهم من نير الفرنسيين .

وعندما هبط عبدالله بلدة معان حاملاً راية الثورة العربية وحوله رهط قليل من رجاله ، سارع هؤلاء المجاهدون السوريون الى الالتفاف حوله . فقد

اوحى اليهم بأنه سيعمل على استرجاع العرش الذي اضاعه أخوه فيصل في دمشق ، وانهم سيكونون دعامة هذا العرش ، والمحررين لبلدهم. فأخذوا يشدون من ازره ليقيموا امارة شرق الاردن التي سارع الانكليز الى تبني انشائها لاغراض تختلف عن أغراضهم ، وأهداف تتباين تماماً عن اهدافهم . وهكذا قامت في ربوع عمان امارة الاردن ، التي خيل للمخلصين العرب انها ستكون منطلق الثورة العربية الجديد لتحرير الوطن العربي ، وارغام بريطانيا وحليفتها فرنسا على احترام العهود التي اعطيت للعرب في الماضي ، ولكنها سرعان ما انقلبت بفضل دهاء بريطانيا وسذاجة القادة العرب الذين آمنوا من جديد بصدق نوايا الانكليز ، وتقلّص احلام عبدالله للقبول بامارة صغيرة زائفة في هذه البقعة من الارض ، لتصبح اداة من ادوات تنفيذ سياسة بريطانيا الاستعمارية في الشرق العربي . وقد قدر لفيلبي ان يلعب الدور الأول على هذا المسرح في عملية التحويل التي افضنا في شرحها .

ذهب فيلبي الى بلاد فارس وتجوّل عدة اشهر في ربوعها بعيداً عن حلبة السياسة ومعتركها ، ثم عاد الى بغداد في منتصف شهر تشرين الأول عام ١٩٢١ فرأى فيصل يتربع على عرشها . وكان المفروض بعد انتهاء اجازته ان يعود الى حكومة الهند ، التي كان لا يزال يعتبر أحد موظفيها ، ولكن اليد الخفية كانت ترتب له أمراً آخر . فقد كان لورنس الذي انتدب للعمل مؤقتاً كمعتمد سياسي بريطاني في الاردن خلفاً لابرامسون (الموظف الكبير في حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين) ، نتيجة الخلاف الذي اصطرع واشتد اواره بين رجالات العرب في عمان ، وعلى رأسهم رشيد طليع ، وعادل ارسلان ورفاقهما ، وبين ابرامسون ، لا يريد البقاء في هذا المنصب الثابت في عمان لضئالة شأنه بالنسبة اليه ، ورغبته في عدم التقيد بالعمل في زاوية صغيرة من زوايا الوطن العربي . فرشح فيلبي لهذا المنصب ، نظراً للعلاقات الوثيقة التي تربط بينه وبين ابن سعود ، عدو عبدالله الأول ، وقاهره في معركة ترابة عام ١٩١٩ .

ويقول فيلبي انه تلقى نداءً هاتفياً من كوكس فور عودته الى بغداد . فلما مضى لمقابلته ، اطلعه هذا على برقية تلقاها من وزارة الخارجية البريطانية تقول ان لورنس كبير معتمدي بريطانيا موقتاً في شرق الاردن يريد ان يعفى من منصبه وانه يقترح فيلبي خلفاً له ، وان وزارة الخارجية توافق على هذا الاقتراح وترجو من كوكس عرض المنصب على فيلبي شريطة ان يسافر بالطائرة فوراً الى عمان اذا وافق ، للاجتماع الى عبدالله ولورنس ، على ان يسافر منها الى القدس لزيارة السير هربرت صمويل المندوب السامي البريطاني ، ثم يغادرها الى لندن في اسرع وقت ممكن لمقابلة المسؤولين في وزارة الخارجية ، وتلقي تعليماتهم النهائية ، واضافت البرقية ان تأكيد التعيين متوقف على موافقة جميع الفرقاء المعنيين .

ويمضي فيلبي قائلاً : « وسألني كوكس عن رأيي في هذا العرض ، فقلت لتوي .. بالطبع أنا موافق .. فقال كم يسرني ذلك فمن المؤسف ان تعود الى الهند بعد كل هذه التجارب التي مررت بها في هذه البلاد .. والآن متى يسعك ان تسافر .. قلت فوراً ، اذا شئت يا سيدي ؟ قال .. سأبلغك عندما تكون الطائرة معدة لنقلك الى عمان . أما دورا (زوجة فيلبي) فلا تقلق عليها وسنعني بأمرها الى ان تستطيع اللحاق بك في عمان .. ارجو لك حظاً سعيداً .

« وحملتني طائرة عسكرية الى عمان بعد يومين ، وكان لورنس في استقبالي في المطار ، فأخذني فوراً الى مضارب الامير عبدالله .. وتفاهمنا منذ البداية : وقال عبدالله .. نحن نعرف ما عملته لابن سعود ، وإذا عملت لي مثل ما عملته له فسأكون ممتناً لك كل الامتنان .. وحقاً كان عبدالله محدثاً لبقاً ساحراً يمتاز بذوق ادبي رفيع .

« وسافرت في اليوم التالي الى القدس حيث قابلت المندوب السامي السير هيربرت صمويل ، وكانت المقابلة تدعو حقاً الى الارتياح ، فقد اطلعني صمويل على ان الأمور قد ساءت في العام الماضي في شرق الاردن الى حد كبير ، واصبحت مصدر ازعاج له ، مما اضطره الى استدعاء لورنس لتقويم الاوضاع

واصلاحها ، وقد استقرت هذه الاوضاع الآن . وقلت لصمويل انني لا ارى ما يمنع استمرار الهدوء في البلاد اذا تركنا العرب يصرّفون شؤونهم بأيديهم واحتفظنا بحق التوجيه ليس إلا . واضفت ان تجاربي في العراق والبلاد العربية قد ارشدتني الى أن هذا خير سبيل يتبع .. وهكذا قفزت الحاجز الثالث ومضيت الى لندن لمقابلة المستر تشرشل .

« ورأيت عند تشرشل استعداداً كلياً لاصلاح ما لحق بي من غبن واجحاف في العراق . وقد تكون الاضطرابات التي وقعت في شرق الاردن هي التي اتاحت للحكومة البريطانية الفرصة من جديد ، لاعادة استخدامي على الرغم من دعوتي الجهرية ، الى منح العرب استقلالهم . وأنا لا اشك في ان لورنس كان يدعو الى نفس الدعوة ، ولكنه كان خاضعاً لفكرة تسلطت عليه كل التسلط . وهي ان مستقبل العرب يجب ان يخطط في ظل حكم هاشمي ، أما أنا فما كنت قط لأومن هذا الايمان . وقد اثبتت الأيام صحة رأيي . ولكني كنت في هذه الآونة على استعداد لمساعدة هذه الزاوية الصغيرة من بلاد العرب في التطور للوصول الى مرحلة الاستقلال ، على الرغم من وقوعها في ظل بحكم هاشمي .

وقدم لي المستر تشرشل كل التأكيدات التي احتاج اليها . فادارة الانتداب على فلسطين وشرق الاردن ، على الرغم من وضعها في يد شخص واحد هو المندوب السامي ستكون منفصلة تمام الانفصال ، ولن تطبق الفقرات المتعلقة بالصهيونية في صك الانتداب على شرق الاردن بحال من الاحوال . واذا توقفت البلاد عن ان تكون مصدر ازعاج لجميع جيرانها (والفرنسيون في سوريا هم المعنيون طبعاً) . فان الحكومة البريطانية على استعداد للسماح لها بأن تتطور في ظل حكم ذاتي قائم فيها . وسأعمل أنا تحت اشراف السير هيربرت صمويل مستقلاً كل الاستقلال عن حكومة فلسطين كمعتمد بريطاني في البلاد ، مع منحي الصلاحيات الكاملة لتقديم المشورة للأمير عبدالله وحكومته بالطريقة التي أراها متفقة مع مصلحتهما . ولم يكن في وسعي ان اعترض على اية نقطة

من النقاط التي اوردها المستر تشرشل . فغادرت حضرته مقتنعاً ، وكان هو راضياً بدوره من موقفي الهادئ المستكين » .

وهكذا اجتاز فيلبي العقبة الأخيرة في طريق تثبيت تعيينه ، في منصبه الجديد ، وعاد الى القدس فوصلها في الثامن والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٢١ ليعقد اجتماعاً نهائياً مع المندوب السامي بحضور لورنس لوضع المخطط النهائي لعمله في شرق الاردن .

ويصف فيلبي هذا الاجتماع في الصفحة ٩٣ من كتابه « اربعون سنة في الصحراء » : قائلاً : « ضم الاجتماع بالاضافة الى السير هيربرت ؛ ولورنس وشخصي كلاً من السير ويندهام ديدس السكرتير العام لحكومة فلسطين ، وريتشموند مساعد الحاكم المدني ورونالد ستورس حاكم القدس وابرامسون المعتمد البريطاني السابق . وكان موضوع بحثنا السياسة التي يجب ان نتبعها في شرق الاردن ومختلف الشؤون المتعلقة به . وقد قام لورنس بالشطر الأكبر من الحديث باحثاً نقطة اثر اخرى ، وهو يتلو من ورقة في يده كان قد ضمنها الاقتراحات التي بعث بها الى وزير المستعمرات وكنت ارقب باهتمام صدى احاديث لورنس في نفوس المجتمعين . ورأيت المندوب السامي ينفجر عند سماعه احدى النقاط . فيفاجئ لورنس قائلاً : ان هذا الرأي يختلف تماماً عن الرأي الذي سبق له ان عرضه عليه قبل اسبوع او اسبوعين . فقال لورنس « حقاً ؛ ولكنني بدلت رأيي منذ ذلك الحين » . واتضح لي انني عندما كنت في لندن ، اتلقى تعليماتي من المستر تشرشل ، كانت هناك مؤثرات محلية تعمل في اللحظة الاخيرة للحيلولة دون تثبيت دعائم شرق الاردن كدولة مستقلة تحت حكم الامير عبدالله . ولكن لورنس كان يعمل ضد هذه المؤثرات ولم يتطرق الى ذهني ذرة من الشك في ان آراءه هي التي ستتغلب في النهاية .

وحقاً فقد تغلبت آراء لورنس. فقد تركنا الاجتماع دون اتخاذ اية قرارات ، وان كان قد اصبح من المفهوم ان الأمير عبدالله سيظل مشرفاً على ادارة شؤون بلاده ، وان أياً من الضباط البريطانيين لن يرسل الى لوائي الكرك وعجلون



نيلبي في ملابسه العسكرية في عام ١٩١٩ في الاسكندرية مع صهره

للاشراف عليهما بعد ان كان المعتمدان البريطانيان قد سحبا منهما قبل اشهر . وقد استطعت ان افهم ان ديدس، وريشموند ، كانا يؤيدان اشراف بريطانيا الكامل على ادارة شرق الاردن ، وان كان المندوب البريطاني لا يؤيدهما كل التأييد في هذا الرأي . أما لورنس فكان يرى حتى عهد قريب وجوب زوال حكم عبدالله مهما كان الثمن ، ولكنه بدّل رأيه اخيراً وأصبح يعتقد ان في وسع بريطانيا اعطاء النظام الحالي فرصة جديدة للحياة . ويعتقد لورنس ان الحكومة المحلية ستوافق على ان يتولى ضابط بريطاني قيادة القوات الاحتياطية العسكرية وغيرها من قوات الدرك والشرطة في البلاد . وسيكون هذا الضابط بمثابة مدير للأمن العام ، وله مقعد في مجلس الوزراء . وكان يرى ايضاً ان حكومة شرق الاردن ، اصبحت في وضع يمكنها من تسليم الافراد المسؤولين عن الهجوم الذي وقع مؤخراً على الجنرال غورو على الحدود السورية » .

يتضح من هذه الأقوال الصريحة ان بريطانيا اقلقها ان تصبح امارة شرق الاردن الناشئة مقر المجاهدين السوريين الذين يخلقون المشاكل للانتداب الفرنسي في بلادهم ، والذين يهاجمون غورو المندوب السامي الفرنسي ، فأخذت تهدد الامير عبدالله وتخيره بين ضياع عرشه وبين التخلي عن هؤلاء المجاهدين ، وتسليم المطلوبين الى الفرنسيين في سوريا . وانها في حالة قبوله لمجال الاختيار الثاني ، تريد ان تفرض عليه ضابطاً بريطانياً يتولى قيادة جميع القوات العسكرية والشبيهة بالعسكرية في البلاد . ويكون في عين الوقت عيناً على مجلس الوزراء ينقل الى حكومته كل ما يدور فيه . ويقف حائلاً دون تنفيذ أي امر يهدد مصالح بريطانيا او يتعارض مع سياستها واتجاهاتها حتى ولو كان هذا الأمر يتعلق بالفرنسيين في سوريا لا بالانكليز في فلسطين .

فماذا اختار الامير عبدالله ؟ هل اختار ضياع عرشه ، او القبول بهذا العرش رغم القيود الجديدة التي فرضت عليه.. إن التاريخ يشير الى انه ارتضى الأمر الثاني ، وسرعان ما رأينا رجالات سوريا من امثال رشيد طليع ، وعادل ارسلان ، ورفاقهما يغادرون الأمارة الجديدة.. وتتوقف الاردن عن ان تكون



صورة تاريخية لعبد العزيز آل سعود عام ١٩٢٠ عندما كان سلطاناً لنجد .
وقد أخذت الصورة في العجير حيث اجتمع مع السير برسي كوكس

منطلق الثورة العربية .

وانتهى مؤتمر القدس ، وعاد فيلبي ولورنس الى عمان التي وصلاها في المساء . ويروي فيلبي انهما مرا بالطريق ، بأريحا التي وقفا يتفرجان على آثارها ، وبمعسكر الخيالة للقوة الاحتياطية عند الشونة حيث اجتمعا الى هاوز مساعد بيك باشا ، وببلدة السلط ، حيث قذف أطفالها سيارتهما بالحجارة.

وعندما وصلا عمان حل فيلبي ضيفاً على بيك ، في دارته القائمة على مقربة من المدرج الروماني ، الى ان يتم اعداد دار الاعتماد نهائياً لاقامته بعد ان يرحل عنها لورنس ، وبعد ان ينقل ابرامسون ما كان له من متاع فيها . ويقول فيلبي انه صمم منذ اللحظة الأولى على العثور على بيت مناسب له ولعائلته التي ينتظر وصولها في وقت قريب . ولكن البيت الوحيد الصالح آنذاك في عمان ، التي لم تكن تعدو في حجمها قرية كبيرة ، كان يحتله الامير عبدالله الذي « تفضل فأخلاه له ، وانتقل الى الخيام في جبل ماركه يعيش فيها الى ان يتم بناء قصر رغدان » .

ويتحدث فيلبي عن الجالية البريطانية في عمان في ذلك الحين ، فيقول انها كانت تضم بيك ، المفتش العام للقوات الاحتياطية التي اصبحت تعرف فيما بعد بالجيش العربي ، والتي لم يكن عددها يتجاوز آنذاك قوة كتيبة واحدة ، تنفق عليها الخزينة البريطانية مائة وخمسين الف جنيه في العام ، يساعده هاوز ولان كيركبرايد ، احد الشقيقين المعروفين بهذا الاسم ، واللذين يجيدان العربية لنشأتهما في مصر ، مع والدهما الذي كان يشغل منصباً في مصلحة الجمارك المصرية ، وقائد الطيران غوردون . ويقول فيلبي انه مضى فور وصوله الى عمان بالسيارة مع مساعده كيركبرايد ، ولورانس ، الى مطار « ماركه » ، ليقابل نائب ماريشال الجو بيفي بورتون ، الذي كان قد وصل لتوه من بغداد حاملاً معلومات جمة عن عائلة فيلبي ، وعن الأوضاع السياسية في العراق . وكان بورتون هذا في طريقه الى القاهرة .

ويمضي فيلبي فيقول ، انه عاد الى دار الاعتماد حيث وجد ابرامسون يحزم

امتعته استعداداً للرحيل الى فلسطين ، فابتاع فيلبي منها بعض الاثاث بما قيمته ثلاثين جنيهاً ، وورث عنه الدائرة بموظفيها وملفاتها ، وفي طليعة هؤلاء الموظفين شخص من اصل سوري يدعى (اسعد افندي) ، كما ورث عنه سيارة فورد مكشوفة ، وسيارة فورد أخرى مغلقة ، وسيارة ثالثة تتولى نقل البريد ، وجواداً عربياً .

وفي صباح اليوم التالي قام فيلبي يرافقه لورنس وابرامسون بزيارة الامير عبدالله ، وبعد تبادل المجاملات في حفل رسمي علني ، اختلى الامير بهم ، في مكتب خاص ، فقدم اليه فيلبي أوراق اعتماده على شكل رسالة موجهة اليه من المندوب السامي تعلن تعيينه معتمداً بريطانياً في شرق الاردن ، كما استأذنه ابرامسون بمغادرة البلاد . واقيمت مأدبة حضرها عادل ارسلان السكرتير العام للحكومة ، وحامد باشا الوادي كبير المرافقين العسكريين وعوني عبدالهادي المستشار السياسي . وكان الحديث الذي ساد المأدبة يومها ، عن انتصار ابن سعود على ابن الرشيد ، واحتلاله حائل . وبعد الغداء جرت عدة مباريات في الشطرنج .

وطاف به لورنس على مختلف الدوائر ، وفي مقدمتها محطة السكة الحديدية في عمان ، حيث تعرف الى مديرها بيل الأمريكي ، ويصف فيلبي الأيام التالية على الشكل الآتي : « تركت جميع الأعمال في يد لورنس الذي على الرغم من تأكيده لي ، بأنه قد سلم جميع السلطات اليّ ، كان يجد من العسير عليه ، ان يظل بلا عمل . فهو يريد ان يواصل العمل ، طالما انه في عمان ، ولم يكن لدي مانع في ذلك مطلقاً . فهو ممتاز في عمله . وأنا شديد الاعجاب بروحه الواقعية . وقد نقل الينا بيل ، ان النار قد اطلقت على القطار بين محطتّي نصيب والمفرق في الشمال ، فقرر لورنس فوراً ان نمضي مع القطار يوم الجمعة المقبل في سيارتين مدرعتين من سيارات القوة الجوية الملكية الى المفرق ، حيث نطوف المنطقة بسرعة ، ونتحدث الى الرعيان فيها لنستعلم عن مطلقي النار ، الذين هم على الغالب من قبيلة بني خالد . وبحثنا مع بيل ايضاً في موضوع الاصلاحات التي يجب القيام بها في الخط الحديدي بين محطتّي الحسا ومعان

في الجنوب » .

وتعرف فيلبي في منزل بيك في المساء ، الى مظهر باشا رسلان ، رئيس الحكومة المحلية ، الذي جاء يرافقه الامير عادل ارسلان . فقدم الامير الى فيلبي رد الامير عبدالله على رسالة المندوب السامي ليحملها ابرامسون معه في اليوم التالي ، كما قدم لابرامسون علبة سكائر فضية هدية من الامير تقديراً له على اعماله في شرق الاردن .

ويروي فيلبي انه زار مظهر باشا في مكتبه في الصباح ، وتحدث اليه نحواً من نصف ساعة عن شؤون الاردن بصورة عامة ، ثم وصل لورنس فانتقل الحديث الى موضوع الكرك ، العاصية على الحكومة ، والتي ترفض دفع الضرائب لها ، واتفقوا جميعاً على ان هيبة الحكومة يجب ان تفرض عن طريق تقوية القوات المسلحة التي يتعذر عليها القيام بأي عمل جدي قبل مضي بضعة اشهر ، من بدء عملية التقوية . وذكر مظهر باشا ان لواء عجلون بدأ يدفع الضرائب واقترح ان يتولى بيك قيادة الدرك والشرطة ايضاً ، وان يكون مسؤولاً أمام مظهر نفسه بعد ان يعزل من قيادتها ، السيد رشدي الصفدي الذي اتهمه مظهر بعدم الكفاءة ، كما اقترح ان تكون الحكومة المركزية في يد مجلس للنظار ، يرئسه هو ويعمل تحت اشراف الأمير وادارته ، وقال انه اعد ميزانية للحكومة قدرت الواردات بنحو من مائة وخمسين الف جنيه ، وخفضت النفقات الى هذا الحد وخصصت للامير نفقات شهرية لا تعدو الالف جنيه . وسلم مظهر باشا في نهاية الاجتماع الى لورنس مسودة كتاب تعتزم الحكومة ارساله الى المندوب السامي يتضمن رأي الأمير في الدستور الذي يراه صالحاً للبلاد.

ويتحدث فيلبي عن هذا الدستور المقترح فيقول : « وكانت لي بعض الاعتراضات الطفيفة على بعض التعابير الواردة في هذا الدستور التي لولاها وكان مظهر باشا نفسه قد انتبه لما فيها من خطأ ، لكان في الامكان رفعه بلا معارضة الى السلطات العليا . ومن جملة التعابير التي اعترضت عليها في مشروع الامير قوله في ديباجته « عملاً بالصلاحيات الممنوحة الي من جلالة والدي

الملك » ، وقوله في مكان آخر « بما في ضمنها حماية حقوق البلاد العربية عامة وسوريا خاصة » . ويتضمن المشروع الاعتراف بالامير رئيساً للدولة على ان يعهد بالسلطات التنفيذية الى مجلس من النظار أوالمستشارين ، على ان تتولى توجيهه في الوقت المناسب في ادارة شؤون الدولة هيئة منتخبة تملك صلاحيات تشريعية كاملة واستشارية . ويشترط المشروع ايضاً على المعتمد البريطاني ان يرجع في كافة الأمور الى رئيس مجلس النظار الذي يعود بدوره الى الامير عندما يرى ضرورة لذلك . وكان المشروع في وجه عام نتيجة تفكير عميق ودقيق ، ورغبة في اقامة الدولة على اسس سليمة . وتقرر ان ينقل لورنس الى مظهر باشا وجهات نظرنا في مشروع معدل للدستور .

« ومضى لورنس الى الامير عبدالله بعد الغداء ليبحث معه مختلف المواضيع ، وعند عودته سلمني رسالة سرية موجهة من الامير الى لورنس بمناسبة زيارته القريبة المتوقعة الى جدة لبحث موضوع فلسطين وغيره من المواضيع مع الملك حسين بالنيابة عن الحكومة البريطانية . وقالت الرسالة انه بالنظر لاحتلال ابن سعود لحائل فإن على الحكومة البريطانية ان تحذر ابن سعود من القيام بأية حركة ضد القرى والقبائل الحجازية الواقعة بين جبل شمر ، وسكة حديد الحجاز ، كقبائل الحويطات وجهينة والفجره وبني عطية وقرى الحنكيه وحائط وحويط ، وخيبر وتيمة . وأعرب لورنس عن اعتقاده بأن الملك حسين لن يقبل بأي صلح مع ابن سعود إلا إذا تخلى هذا عن خورمة وترابه ورانية وبيشا الى الهاشميين » .

ولكن هل يرضى ابن سعود بمثل هذه الشروط ؟ وهل يخرج من أراض احتلتها قواته بحد السيف ، وبعد معارك مريرة ؟ ان فيلبي يرى رأياً يختلف عن رأي لورنس . بل يؤمن أن ابن سعود لن يتراجع شبراً واحداً عن ارض يحتلها ، بل سيعمل على ضم المناطق المتنازع عليها الى مملكته نهائياً ولا سيماتلك الواقعة في اقصى الجنوب ، في رانية وبيشا ، والتي لم يكن الوهابيون قد سيطروا عليها بعد . وهو يجهر للورنس برأيه هذا فيعارضه ويصر على عدم اضاعة الوقت . ويقترح ان يتم تخطيط الحدود بصورة نهائية بين الحاكمين العربيين المتنافسين ،

على ان تضم منطقة الجوف ، التي استولى عليها ابن‌سعود أخيراً ، من ابن الرشيد الى شرق الأردن التي يجب ان تمتد حدودها حتى الطرف الشمالي من صحراء النفود الكبرى . واكد لزميله فيلبي انه عند عودته الى انكلترا سيعمل على اقناع السلطات بتخويله برقياً صلاحية تخطيط الحدود النهائية مع ابن سعود . ورحب فيلبي بالفكرة كل الترحيب لا لأنه كان يريد توسيع رقعة الهاشميين الذي يعمل معهم ، بل لأنه رأى فيها فرصة لتجديد اتصاله بابن سعود .

أما بالنسبة الى حدود شرق الاردن مع الحجاز ، فقد كان من رأي لورنس أن على شرق الاردن ان تضم معان والعقبة اللتين كانتا لا تزال الان خاضعتين للحجاز وفيهما قوة من جيش الشريف . وقال ان على الامير عبدالله ان يطلب هذه المناطق من والده حالما يتم اصلاح الخط الحديدي بين عمان ومعان .

وسافر ابرامسون وكيركبرايد الى القدس في الثلاثين من تشرين الثاني ، وبذلك نقص عدد أفراد الجالية البريطانية في العاصمة الاردنية الناشئة .. وفي نفس اليوم تعرف فيلبي الى فؤاد سليم الذي يقول بأنه « كان عقيداً في القوة الاحتياطية ، وكان مع آخرين قد حكم عليهم الفرنسيون بالاعدام لغارتهم على مركز عسكري فرنسي ادت الى قتل اربعة عشر جندياً فرنسياً وأسر آخرين سرعان ما اطلق سراحهم . وقد كانت الغارة كما يروي فيلبي بسبب اعتداء فرنسي وقع على قرية درزية حاول فيه الفرنسيون اغتصاب فتاة درزية . فلما هب شقيقها يدافع عنها قتلوه » .

وكانت علاقات البريطانيين في هذه الفترة على أحسن ما يرام بالفرنسيين ، إذ كان البريطانيون يعملون على مقاومة كل حركة تحررية في سوريا . وتثبيت دعائم الحكم الفرنسي فيها . ولعل ابلغ دليل على ما نقول هو ما قامت به سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين من تسليم الزعيم السوري الثائر المعروف ابراهيم هنانو الى الفرنسيين ، على الرغم من مجيئه الى القدس آمناً مطمئناً ، يحمل رسالة من الامير عبدالله الى المندوب السامي البريطاني فيها . وقد اثار هذا الحادث ثائرة الشعب العربي في كل مكان وفي طليعته اخوان هنانو الذين كانوا

يعملون في خدمة حكومة الأمير ، على اعتبار انها منطلق الثورة العربية ومحط آمالهم .. ويروي فيلبي ايضاً ، انه عندما جاء الى عمان كان هناك طلب فرنسي بتسليم عدد من السوريين المتهمين بمحاولة اغتيال الجنرال غورو . وكان لورنس قد تعهد للمندوب السامي في اجتماع القدس باقناع الأمير باعتقالهم وتسليمهم ؛ وكان عليّ ان انفذ هذا الوعد الذي خلفه لورنس .

« لكن شيئاً من هذا لم يحدث ، لأن بين الاشخاص الذين طلب الفرنسيون تسلمهم عدداً من الموتى والأطفال ، وبينهم ايضاً عدد كانوا في سوريا بينما كان البعض يحملون هويات مزورة » .

ويروي فيلبي عن هذه الفترة بعض الاحاديث فيقول : « وجاء غالب باشا الشعلان ، ومظهر باشا رسلان لمقابلة لورنس ؛ بينما دعوت أنا صبحي بك الخضراء للغداء معي ؛ وكان من مرافقي الملك فيصل السابقين . وقد عرض هذا مقترحات معينة عن الوسائل التي يجب اتخاذها لاصلاح الجهاز الحكومي في البلاد ، على الرغم من اعترافه بصعوبة هذا الاصلاح في ظل الاوضاع السائدة . ومع ذلك فقد اعرب عن رأيه في ان مجيء الأمير زيد بن الحسين شقيق عبدالله الاصغر ، وهو ما يتوقعه الجميع ؛ سيؤدي الى تحسين الاوضاع لاسيما وان عبدالله سيذهب في زيارة طويلة للندن . وكان من رأيي أن من واجبنا دعم حكومة مظهر باشا ، لأنني كنت ارى فيها اداة لتحسين الاوضاع . وتحقيق الاهداف المشتركة لا تقل عن اية أداة اخرى اهمية وشأناً .

« ويبدو لي ان الجو كان مفعماً بالمؤامرات والدسائس . فقد اكد لي صبحي الخضراء انه لن يقبل أي عرض للعمل في الحكومة الاردنية مهما كان العرض مغرياً . وجاء بيك باشا ، ليقطع علينا مناجاتنا .

« وقمت بعد ذلك بزيارة الشريف شاكر بن زيد . مستشار عبدالله في شؤون العشائر في دارته القائمة على جبل عمان والمطلة على الوادي . وتحدثنا عن مختلف المواضيع التي تناولت البادية ، ونجد ، والعشائر ، والدين ، والصيد والقنص وغيرها من المواضيع المماثلة . وقد دهشت من قوله لي ان الشراكسة

الذين يقيم بعضهم في عمان هم اكثر الطوائف الاسلامية تعصباً » .

وانقضت الأيام التالية في رحلات وجولات طاف فيها فيلبي مع لورنس بأجزاء مختلفة من البلاد ، منها مضارب بني حسن في منطقة المفرق ، ومستنقعات الازرق في شرق البلاد ، وقصر الحرانه والمشتى في البادية ، واتصلا هناك بجماعات من البدو من قبيلة الرولا كانت قادمة في طريقها من الجون لتقوم بغزو جبل الدروز وغير ذلك من الحوادث البسيطة التي لا شأن كبير لها ، في موضوع كتابنا هذا الذي يتعلق باقامة الممالك ، وتنفيذ سياسات الامبراطوريات .

وتلقى لورنس بعد أيام برقية من وزارة الخارجية تخوله ان يوقع معاهدة انكليزية حجازية على ضوء الخطوط التي وضعها ، على ان ينوب الأمير عبدالله عن والده الملك حسين في توقيع هذه المعاهدة . ووقع الامير ولورنس في الثامن من كانون الأول النسخ العربية والانكليزية من هذه المعاهدة في احتفال رسمي مهيب ، واصبحت تفتقر الى إبرام الملك حسين والملك جورج لتصبح نافذة المفعول لفترة تمتد سبع سنوات .

ومن الجدير بالذكر ان هذه المعاهدة على الرغم من اعتبارها استمراراً للحلف العسكري الذي كان قائماً بين بريطانيا والشريف منذ أيام الثورة العربية ، لم تتضمن نصاً يلزم بريطانيا بالدفاع عن ممتلكات الشريف في حالة وقوع عدوان عليها من ابن سعود ، أو من الادريسي حاكم عسير : مما يشير بوضوح الى قيام نية بريطانيا المبيتة في ان لا تصبح طرفاً في أي نزاع يقوم في الجزيرة العربية : ووجود هدف بعيد يرمي الى زوال دولة الهاشميين في الحجاز . وهو الزوال الذي عمل فيلبي على تحقيقه لبلاده كما سنرى في فصل لاحق ، على الرغم من تظاهره بأنه كان يعمل خلافاً لرغبة حكومته .

ولو كانت نية بريطانيا صادقة في الحفاظ على عرش الحسين في الحجاز منذ البداية لضمّنت هذه المعاهدة نصاً باقدامها على نصرته في حالة الاعتداء عليه . ولا ريب في ان مثل هذا النص كان كافياً في ذلك الحين لالزام ابن السعود حدوده ومنعه من الهجوم على الحجاز ، كما وقع فيما بعد مخافة ان يجد نفسه

فجأة في حالة حرب مع بريطانيا ، ولما اكتفت في هذه المعاهدة بالنص على المساعدة « بكافة الوسائل السلمية الممكنة » .. لكن هذه المعاهدة التي ذهب اورنس من عمان الى جده لضمان ابرامها من الملك حسين لم تبرم قط ولكنها كانت السبب في رحيل لورنس اخيراً عن عمان .

وقد منيت مهمة لورنس في جدة بالفشل لان الملك حسين كما يؤكد فيلبي رفض الاعتراف بالوطن القومي اليهودي في فلسطين ، وهو الثمن الذي طلبه البريطانيون للمعاهدة التي تحدثنا عنها ، وعاد لورنس بخفي حنين مغادراً الجزيرة العربية لآخر مرة في حياته .

ويتضح من قول فيلبي هذا ان ما رضي به الابن قد رفضه الوالد. فكان هذا القبول وذلك الرفض سببين في الاطاحة بعرش الوالد في الحجاز وتثبيت دعائم عرش الابن في الاردن ، وهي حقيقة تاريخية دللت عليها الوقائع والاحداث التالية .

ويتضح من هذه التطورات المهمة في هذه الحقبة ايضاً ان بريطانيا التي اقامت عرش فيصل في العراق قبل فترة وجيزة ، هي نفسها التي قضت على عرش والده الحسين في الحجاز ، وحكمت عليه بالزوال منذ وضعها تلك المعاهدة التي تجاهلت فيها ادراج أي نص يلزمها بالدفاع عسكرياً عن مملكة الحسين ، على الرغم من تظاهرها بالحياد ومعارضتها لفيلبي المعروف بهواه السعودي ، كما سيجري بحثه في فصل لاحق .

غادر لورنس شرق الاردن . ولكن شبحه ظل يلاحق فيلبي مدة طويلة على حد تعبيره. فقد سجل هذا في يومياته ، بتاريخ الثامن من كانون الأول ، الفقرة التالية :

« تركني سفر لورنس متسلماً لزمام الأمور بصورة كاملة في البلاد ، كما خلف لي فراغاً هائلاً كان من الصعب عليّ ان املؤه. فهو يعرف كل انسان في هذه البلاد والكل يعرفونه . وكان الكثيرون قد عملوا معه ابان الحركات العسكرية التي اشرف مع فيصل على قيادتها اثناء

الحرب الكونية . وليس هناك من مجال للشك في انه قد خلف وراءه تبدلات كبرى في الوضع ، احدثها في الشهرين القصيرين اللذين عمل فيهما في عمان . فقد قلب الصورة العابسة المتشائمة الى صورة ضاحكة متفائلة واقام حكومة محلية اخذت تعمل في البلاد بنعومة ويسر وسهولة . وتمكن خلال اقامته القصيرة من ترويض عبدالله ، ليصبح في الظاهر الحاكم الطيّع الذي يريده لورنس . ولاريب في ان هذه امكانيات عظيمة ، أراها في منظار الحوادث في هذه اللحظة . ولم يبق أمامي من مشاكل إلا تنظيم القوات الاحتياطية لتتخذ شكلها النهائي ، وتسوية مشكلة الذين تطالب فرنسا بتسليمهم كمتهمين في محاولة اغتيال الجنرال غورو .

« وكان كل ما سلمنيه لورنس عند سفره بعض الوثائق السرية : بينها نسخة مطبوعة لمراسلات مكماهون والشريف حسين قبل الثورة العربية ، وقصاصة ورق صغيرة عليها بعض الحسابات يبيّن فيها انفاقه نحواً من مائة الف جنيه ، في هذه الفترة القصيرة ، بينها عشرة الاف كتب أمامها « ضائع أو مفقود » . ومن الغريب انه عثر بعد فترة قصيرة في رمال العقبة على صندوقة صغيرة مطمورة في الارض تضم المبلغ : ويبدو انه وضعها هناك لاسباب تتعلق بالسلامة .

« وعندما سافر لورنس كان عمر امارة شرق الاردن ثمانية اشهر . فقضيت سنتين ونصف السنة اعمل بالتعاون مع بيك في وضع دعامتها وانقاذها من متاعبها ومشاكلها . ولم يكن الطفل الصغير الذي سلمته فيما بعد الى السير هارولد كوكس ، يبشر بحياة طويلة هنية . ولكن هذه الحياة امتدت الى أيام كيركبرايد وغلوب . وفي غضون ذلك كان حلم لورنس في رؤية الراية الشريفية تخفق فوق البلاد العربية قد تحطم على صخرة ابن سعود ، ولم يبق من هذا الحلم إلا تماثيله القائمة في العراق والاردن ، تحاول الخلاص من قبضة بريطانيا . وقد صدرت مؤخراً نشرة عربية

وطنية ، ربطت بيني وبين لورنس وبين تغيير خريطة الشرق العربي ، وانني لاعترف اننا قد نكون لعبنا دوراً معيناً في هذه الحقبة المنسية » .

لاريب في ان فيلبي كان متواضعاً كل التواضع في هذا الاعتراف البسيط . فهو يعرف قبل غيره انه وزميله لورنس قد لعبا دوراً اكثر من « معين » في هذه الحقبة المنسية ، إذ على الرغم من صدور الأوامر عن لندن ، كانت هذه تستوحي أوامرها من المعلومات والتوجيهات التي يبعث بها اليها امثال لورنس وفيلبي ، وأولهما يمثل المعسكر الهاشمي من العاملين في خدمة الامبراطورية ، وثانيهما يمثل المعسكر السعودي على الرغم من ان الضرورة قد قضت بوجوده الآن مع الهاشميين . ولاريب في ان فيلبي يدرك اكثر من غيره أن الدول العربية وهي الناشئة آنذاك ، لم تكن قد شبّت على الطوق بعد ، ولم تتوفر لها اسباب معارضة ما تريده بريطانيا منها ، لاسيما وان الميدان كان خالياً لبريطانيا من كل منافس . فهي الدولة المسيطرة على شؤون الشرق العربي ، وهي الموجهة لسياساته والمحركة لما يدور على مسرحه من وقائع وحوادث .

على كل حال ، اصبح فيلبي بعد سفر لورنس السيد المطلق المسموع الكلمة المرهوب الجانب . فكان يكثر في هذه الآونة من لقاء الامير ، ويوحي اليه بالالهام ، والوحي والتوجيه . وقد رأى فيلبي بثاقب بصيرته ، ان الوضع يتطلب من بريطانيا اذا رامت استقرار الأمور في البلاد تركيز جميع الصلاحيات في يد واحدة . هي يده ، واضفاء صفة الاستقلال في الشؤون الداخلية على الاقل ، على الحكومة الاميرية . مع إدراكه ان في وسعه ان ينفذ وهو في عمان . كل ما تريده بلاده دون حاجة الى بث المستشارين والموظفين الانكليز في ربوع الامارة . فسحب جميع المعتمدين من مختلف المدن والبلاد ، وبعث بهم الى القدس ليكونوا تحت تصرف المندوب السامي فيها ، ولم يحتفظ في عمان إلا بألان كيركبرايد الذي عهد اليه بمساعدته في دار الاعتماد .

وبعد نحو من اربعة اسابيع انضم اليه في عمان الميجور باتن ، كمساعد اول له ، وشرع يعمل معه في تنظيم جهاز دار الاعتماد . وفي الوقت نفسه اعدّ

المنزل الذي منحه إياه الأمير لاستقبال زوجته العائدة من لندن بعد أسابيع قليلة .

ويعترف فيلبي في كتابه « أيام عربية » ، انه تلقى تهنئة شخصية من المندوب السامي من هذه الفترة على البداية الطيبة التي بدأها والتي رفعت عن كاهل المندوب ما كان يشعر به من خطر في شرق الاردن يهدد أمن فلسطين وسلامتها وهدوءها واستقرارها ، والتي أدت الى تحسن العلاقات الدبلوماسية مع الفرنسيين في سوريا ، على الرغم من اصرار هؤلاء على وجوب تسليم المتهمين بمحاولة اغتيال الجنرال غورو . ويضيف فيلبي انه تمكن من تصفية الجو بصورة نهائية اثر زيارة قام بها لدمشق في نيسان عام ١٩٢٢ ، يرافقه فيها بيك باشا ، وزوجته وأطفاله ، واكملها الى بيروت حيث اجتمع الى المفوض السامي الفرنسي ورئيس دائرة استخباراته القومندان كانونجي الذي اعرب لفيلبي عن ارتياح فرنسا للنظام الجديد الذي قام في شرق الاردن . ولم تمض بضعة أسابيع على هذه الزيارة ، حتى كان القومندان ارنو الحاكم الفرنسي في درعا . والمسيو دي لوري ، العالم في الآثار ، يزوران فيلبي في عمان فيلقيان منه ومن الأمير الحفاوة البالغة . فكانا بذلك اول فرنسيين يزوران الأمارة التي اعلن عبدالله عند مجيئه اليها انه سيتخذ منها قاعدة للهجوم على الفرنسيين في سوريا ، وتحرير البلاد منهم ، ودللا بمجيئهما وبحفاوة الأمير بهما ، على نجاح فيلبي كل النجاح في مهمته في ترويض عبدالله وتحويل شرق الاردن الى مجرد أمارة صغيرة خاضعة للنفوذ البريطاني كل الخضوع .

ويقول فيلبي ان الأمير عبدالله ، قضى الشتاء ذلك العام في مضارب اقامها في شونة نمرين حيث الدفء ، والمناخ الطيب . وكانت هذه المضارب تغص بسيول الضيوف الذين يفدون على الشونة من كل مكان ليتمتعوا بكرم الأمير وحسن وفادته . ويضيف فيلبي ان الأمير حبيب لطف‌الله ، سفير الملك حسين المتجول في العالم ، أقام مضارب له على مقربة من مضارب الأمير حيث كان يلقى الضيوف ويرحب بهم ، ويشترك معه في اكرام مثواهم شقيقته السيدة ايلين سرسق . وقد كان رونالدستورس والمندوب السامي ، والسكرتير العام

ويندهام ديدس ، كثيري التردد على الشونة لزيارة الأمير في مضاربه . كما كان يؤمها ايضاً نوري الشعلان شيخ مشايخ الرولا ومثقال بن فائز شيخ مشايخ بني صخر .

ويسهب فيلبي في الحديث عن البارزين من البريطانيين الذين توافدوا في هذه الفترة على البلاد لزيارة البتراء التي تمكن فيلبي بمعونة شركة توماس كوك للسياحة من تنظيم الرحلات اليها وتأمين راحة كبار الزائرين . وكان في طليعتهم اللورد ملنر وزوجته وروزيتا فوربس ، واللورد بيل وكريمته دوريس ، وانجيلا تروتر واللورد كيلانين ، والسير اليكزاندر كنيدي المهندس الذائع الصيت ، الذي ذهب الى المدينة الاثرية ليحاول رسم خريطة لها تضم مقابرها ومعابدها ، وآثارها .

وفي صيف عام ١٩٢٢ انتهى عهد المستر تشرشل في وزارة المستعمرات وخلفه الدوق ديفو نشاير ، كما وقع تبدل في جهاز الحكم المحلي في شرق الاردن ، فقد استدعى الامير عبدالله علي رضا باشا الركابي ليخلف مظهر باشا رسلان في رئاسة مجلس النظار . وبدأ جهاز الحكم في الامارة الناشئة يسير سيراً مضطرداً نحو الامام . فقد أربت واردات الدولة على المائة الف جنيه في السنة ، كانت تكملها الحكومة البريطانية بمعونة سنوية تبلغ الثمانين الفاً . ينفق منها الأمير نحواً من ثلاثين الفاً ، على ديوانه وحاشيته . ولم يكن هذا المبلغ المحدود ليسد حاجات الامير وسخائه وكثرة انفاقه . فلجأ الى الديون وانتشرت في البلاد شائعات كثيرة عن وقوعه تحت طائلة الدين . وأراد رئيس النظار الجديد زيادة مرتبه بحيث تتفق الزيادة مع مكانته الشخصية والرسمية . وهكذا اصبحت المشاكل المالية اهم ما يشغل الحكومة .

ووقعت في هذه الفترة حادثة ادت الى توتر الجو بين المندوب السامي والامير . فقد عيّن الأمير السيد جميل المدفعي من رجالات العراق البارزين متصرفاً للواء الكرك خلفاً لرفيفان المجالي . وعندما وصل نبأ تعيينه الى المندوب السامي ، ثار غضباً وأبرق الى فيلبي يطلب منه ان يحتج رسمياً الى الامير على هذا التعيين

بالنسبة الى شخص ادانته احدى المحاكم العسكرية البريطانية وقضت عليه بالاعدام لاشتراكه في ثورة تلعفر العراقية عام ١٩٢٠ . ويقول فيلبي انه ابرق الى المندوب السامي يعتذر عن امكان التدخل في مثل هذه القضية المحلية التي هي من صميم اختصاص الحكومة الاردنية ، ويؤكد استعداده على أي حال لتقديم اية مذكرة خطية يود المندوب السامي ان يبعث بها . ويمضي فيقول :

« وليس في وسع اية حكومة عربية ان تعترف بشرعية حكم تصدره محكمة اجنبية على أي من قادة حركة استقلالية ، واضفت ان هذا الرجل قد منح ابان الحرب الكونية ؛ وسام الصليب الحديدي ، اعترافاً ببسالته في القتال ، وان الحكومة البريطانية لم تقم بأي اجراء لشطب اسمه من قائمة الذين انعم عليهم باوسمة الشرف .

« ولم يبعث السير هربرت صمويل بأية رسالة ، لأحملها بدوري الى الامير وسرعان ما عم الهدوء والاستقرار لواء الكرك الذي كان معروفاً بكثرة الاضطراب بفضل السيد جميل المدفعي الذي عاد فيما بعد الى العراق ، ليصبح عضواً في البرلمان ، ويؤلف الوزارة مرتين او ثلاثاً . واني لأذكر ان دار الاذاعة البريطانية ذكرت في احدى المرات التي ألفّ فيها الوزارة ابان الحرب الكونية الثانية ، بأنه رجل يتمتع بسجل حافل من التعاون الودي مع السلطات البريطانية . وفي وسعي ان ادعي لنفسي شرف توجيهه في هذا الطريق » .

واثار الركابي باشا في هذه الآونة قضية وادي السرحان ومنطقة الجوف ، الواقعتين على حدود الاردن الشرقية . فقد كان ابن سعود ، في شهر آب من عام ١٩٢١ ، قد نفذ وعده لبريطانيا فغزا بلاد ابن الرشيد ، واحتل حائلاً عاصمته واسر جميع الذكور من آل الرشيد ، ونقلهم الى الرياض . وأخذ منذ ذلك الحين يعمل على توطيد اقدامه في المنطقة الشمالية المسماة بالجوف . وهي من الاراضي التي كانت تابعة لابن الرشيد ، والتي تعتبر مسقط رأس قبيلة الرولا التي يتزعمها نوري الشعلان . وكان نوري هذا الذي آثر البقاء في دمشق قد عهد بادارة المنطقة الى حفيده سلطان ، بينما عهد الى ابن عمه محسن بادارة

وادي السرحان ، جاعلاً من « قريّات الملح » ، مركزاً له .

وكان نوري الشعلان على استعداد لقبول سيادة الامير عبدالله على هذه المنطقة شريطة ان يتحمل هذا مسؤولية الدفاع عنها ضد الوهابيين . ويقول فيلبي ان الأمير عبدالله ، شاوره في الموضوع ، وعهد اليه بدراسة المنطقة لاتخاذ القرار المناسب . وفكرت بريطانيا في غضون ذلك في مدّ سكة حديدية عبر الصحراء تصل بلدة معان في الاردن بمدينة بغداد او مدينة البصرة . وأوفدت الميجور هولت من رجال السكة الحديدية العراقية الى الاردن للقيام بالدراسات اللازمة . ويمضي فيلبي فيقول : « وخيل الينا ان في وسعنا اصابة عصفورين بحجر واحد ، وقررت ان امضي برفقة هولت الى الصحراء . فاستأذنت صمويل ، وخرجنا الى الصحراء وقد ارتدينا لباس الاعراب . ومعنا نحو من عشرين جندياً يقودهم كبير مرافقي الامير ، غالب باشا الشعلان . وقضينا ليلتين في مضارب الرولا في منوا على مقربة من الكاف ، حيث جرت مساومات شديدة مع محسن الذي كان يتوق الى الانفصال عن نوري أو سلطان ، والذي كان يطلب منا الاعتراف بزعامته للقبيلة ، ودفع الأموال له . وكان الوضع غريباً كل الغرابة ، ولكن الدبلوماسية تغلبت في النهاية وغادرنا المضارب ومعنا ممثل لمحسن ، يتظاهر بارشادنا ، بينما هو في الحقيقة يرقب بالنيابة عن سيده أعمالنا .

« وكنا بعد ظهر ذلك اليوم نقترب من آبار البيضة ، ولكننا سرعان ما بدلنا طريقنا واتجهنا الى كركر . عندما رأينا الآبار من بعيد ، وقد احتلتها جماعات كبيرة من الناس يبدو عليها طابع العداء . وعندما وصلنا الى الجوف بعد اسبوع تبيّن لنا ، اننا قد نجونا ذلك النهار بأعجوبة من الوقوع في ايدي الجيش الوهابي ، الذي داهم في تلك الليلة مضارب محسن في منوة ، ثم تراجع الى البادية ، بعد معركة ضارية ناقلاً معه الكثير من الاسلاب والابل ، والشياه . ويبدو ان الجوف نفسها كانت هادئة في ظل دوجان العبد الحاكم المخلص لسيده نوري . أما في واحة سكاكا ، فقد كان الأمر مضطرباً كل الاضطراب ، وكان

علينا ان نقوم بدورة كبيرة قبل الوصول الى القلعة التي يقيم فيها سلطان ، تجنباً من الوقوع في ايدي العناصر الثائرة المؤيدة للوهابيين ، والتي يتولى قيادتها ابن موبشر .

« ولم يمض شهر واحد على هذه الزيارة حتى كانت منطقة الجوف بأسرها ووادي السرحان قد رفعت الراية الوهابية بعد ان سارع محسن الى الرياض يؤدي فروض التجلة والاحترام لسيده الجديد ابن سعود .

« على أي حال تبين لنا ان مشروع السكة الحديدية غير عملي ، فقررنا اكمال السير عبر الصحراء الى بغداد ، وكنت قبل اشهر قد اعربت عن رغبتي في زيارة بغداد ، في رسالة بعثت بها الى كوكس وجرترود بيل ، فجاءني الرد منهما بالترحاب البالغ ، في أي وقت اشاء فيه اجتياز الصحراء . وخيل الي الآن ان الفرصة مواتية لزيارتهما زيارة مفاجئة ، ومضينا في طريقنا الى جديدات عرعر ، ومنها الى الاخيضر ، فكربلاء . وعند وصولنا الى هذه المدينة ابرقت الى كوكس بانباء وصولنا ، وقد جاء الرد موجهاً الى الميجور هولت على الشكل التالي : إذا أردت المجيء وحيداً الى بغداد فمرحباً بك ، أما رفيقك فيجب أن لا يأتي ، وسنعد له طائرة تنقله من الرمادي الى عمان . وبالفعل جاءت الطائرة فنقلتنا الى عمان » .

ولم يمض نحو من شهر حتى تكهرب الجو في شرق الاردن ، فقد تواردت الانباء عن غزو الوهابيين للبلاد . وبدأت وفود اللاجئين تؤم عمان ، قادمة من زيزة وام العمد ، اللتين غزاهما الوهابيون وقتلوا كل من فيهما من رجال ونساء وأطفال . ويقول فيلبي انه كان آنذاك في السلط ، ولكن ماكوين قائد الحامية البريطانية سارع بارسال الطائرات والسيارات المدرعة لمواجهة الوهابيين الذين اركنوا الى الفرار ، فطاردتهم السيارات المدرعة ، مسافة بعيدة في الصحراء .. ثم يقول .. « وعندما ذهبت في السيارة في اليوم التالي ، رأيت آثار الزيمة ، بادية في صفوف طويلة من قتلى الوهابيين .. »

هذا هو فيلبي الوهابي الهوى وصديق عبدالعزيز ، يشرف على الحملة



فيلبي يرافق الامير فيصل آل سعود عند زيارته لمدينة كاردف في انكلترا عام ١٩١٩



صورة تاريخية لفيلبي في عمان عندما كان معتمداً بريطانياً في عام ١٩٢٢ .
ويبدو في الصورة وراء اللورد ميلنر الذي يقف الى جانب الامير عبد الله . ويبدو في طرف الصورة الركابي باشا رئيس نظارة امارة شرق الاردن

البريطانية التي ردت الوهابيين عن عمان عاصمة الأمير الهاشمي ، ويكون مسؤولاً عن اطلاق النار عليهم من الطائرات والسيارات المدرعة مما اوقع بهم مئات الاصابات من القتلى والجرحى .. حقاً انه يدعي في كتبه انه كان في السلط عندما جاء الوهابيون وان ماكوين هو الذي اصدر الأمر ، ولكن كم تبعد السلط عن عمان ، ثمانية وعشرون كيلو متراً على اكثر تقدير .. ولا ريب في انه ادعى التغيّب عن عمان في كتبه التي صدرت جميعها وهو يعمل مع السعوديين وفي بلادهم وخدمتهم ليبرئ نفسه من تهمة إصدار الأوامر بقتلهم اثناء هجومهم على شرق الاردن ، الذي بلغوا ابانه أبواب عمان .

لكن كيف يمكن للوهابي الهوى ان يفعل ذلك ؟ انها مصلحة امبراطوريته قبل كل شيء ، وقد اصطدمت هذه المصلحة في ذلك الحين بصداقته للوهابيين فآثر المصلحة ، وان ادى عمله هذا الى قتل المئات من جنود صديقه عبدالعزيز ..

أما ذريعة التغيب في السلط فحجة واهية لا يقبل بها أي انسان عاقل ، اذ لا يعقل ان يتغيب المعتمد البريطاني عن عمان المهددة بالغزو الوهابي في وقت كانت الشائعات فيه قد انتشرت في كل مكان عن هجومهم على شرق الاردن ، وكانت أفواج اللاجئين من قرى الجنوب تتوافد الى عمان ، هاربة امام الغزاة ، الا اذا كان هذا المعتمد بالذات قد اصدر أوامره التي نفذت بحذافيرها ، والتي اطمأن الى نجاحها قبل مغادرته لعمان التي يعتزم مسبقاً اتخاذها ذريعة للتنصل أمام ابن سعود من مسؤولية اطلاق النار على رجاله ، لانه يعرف سلفاً ان دوره على مسرح الجزيرة العربية لم ينته بعد ، وانه سيعود الى تمثيل دور البطولة عليه .

ويبدو ان ابن سعود قد اكتفى بما وقع ، وانه على اثر الاحتجاجات التي جاءته من بغداد ، اذ ان كوكس كان المولج بشؤون ابن سعود ، أمر رجاله بالانسحاب من الحدود الاردنية والكف عن تهديد سلامة شرق الاردن وامنه . ويقول فيلبي ، ان ابن سعود كان اكثر حكمة من تهديد ما وضع يده عليه عن طريق الجري وراء السراب او الاشباح . وقبل نهاية العام نفسه اجتمع مرة ثانية بكوكس في العجير ، ليبحث معه في الاوضاع الناشئة على حدود بلاده الغربية

والشمالية مع الممالك الهاشمية الثلاث . وقد اسفر البروتوكول الذي تم توقيعه في العجير ، عن الاعتراف بابن سعود سلطاناً على نجد وملحقاتها .

ولعل اجتماع العجير قد رمز الى ناحية اكثر خطورة ، فقد قضى على المواقف التاريخية السابقة التي كانت تحول دون تذليل الطريق امام منح امتيازات للتنقيب عن البترول في الجزيرة العربية ودارت المفاوضات لهذه الغاية بين ابن سعود والميجور فرانك هولمز ، ممثل الشركة الشرقية العامة . وكان هولمز هذا ، قد اجرى مفاوضات مماثلة مع شيخ البحرين ، وتمكن بفضل اجتماع العجير من الحصول على امتياز للتنقيب في جميع المناطق الشرقية من المملكة العربية السعودية مقابل الفي جنيه ذهباً في السنة . وقد استمر العمل سنتين متعاقبتين دون الوصول الى نتائج ايجابية ، واضطر ابن سعود الى وقف الامتياز بعد ان امتنعت الشركة عن دفع ما طلبه ابن سعود من الاقساط المترتبة لثلاث سنوات متعاقبة . اما امتياز البحرين فقد تناقلته ايد متعاقبة الى ان وصل اخيراً الى شركة ستاندارد اويل اوف كاليفورنيا ، الامريكية بعد ان رفضته جميع الشركات البريطانية ، وتمكن علماء طبقات الارض التابعون لهذه الشركة من اعلان تأكدهم من وجود البترول بكميات تجارية في جزيرة البحرين .

واقترحت وزارة المستعمرات البريطانية في نهاية عام ١٩٢٢ ، اعترافاً منها بالتطور الناجح الذي حققته شرق الاردن في طريق الاستقرار ، ان يذهب الامير عبدالله الى لندن في زيارة رسمية ، ليبحث مع السلطات المختصة في الوسائل التي تؤدي الى تطوير الاوضاع السياسية والاقتصادية لامارته . وتضمنت حاشية الأمير الركابي باشا وولده ، وعدداً من الموظفين والخدم ، والمستر فيلبي والمستر هاوز ، وبعض المرافقين العسكريين . ويقول فيلبي عن هذه الزيارة انها سارت سيراً مرضياً ، وان الامير طاف بالقسم الاكبر من انحاء بريطانيا ، كما اجتمع الى الدوق ديفونشاير ، وكبار موظفي وزارة المستعمرات ، كما تناول الشاي مع المستر تشرشل وعقيلته والعشاء مع اللورد بيل ، كما اقام اللورد كرزون مأدبة سخية تكريماً للضيف .

واجتمع الأمير الى الملك جورج الخامس والى امير ويلز ولي العهد ، والبارون روتشيلد المالي اليهودي المعروف ، وويكهام ستيد ، وكثير من الشخصيات الاخرى .

وبدأت الشائعات تنتشر في البلاد بعد عودة الأمير منذرة بهبوب العاصفة. ويبدو ان اساليب الركابي باشا ، وشدته لم تكن تعجب الكثيرين ولا سيما من قبائل البدو الذين كانوا يجدون ان من الصعب عليهم اطاعة أوامره الصارمة .

وفي هذا الجو المحموم من الشائعات ، وقع حادث ادى الى توتر العلاقات بين الأمير وفيلبي . فقد وصلت الانباء الى فيلبي ، بأن عمال الامير بدأوا في تخريب اثار الفسيفساء الرومانية في عمان . ومضى هذا ليرى بنفسه صحة هذه الانباء ، فرأى ان اعمال التخريب قد اشرفت على النهاية تقريباً ، وان ما تم تحطيمه من الفسيفساء ، لا يمكن اصلاحه بحال من الأحوال . وقد اشتد ألم فيلبي ، كما يقول ، عندما علم ان الأوامر قد صدرت عن الامير نفسه ، ليحاول اعداد المكان ليبني فوقه مسجداً يخلد تاريخه . ويمضي فيلبي قائلاً : « ومضيت تواً الى بيتي ، ووجهت رسالة اتهام خطيرة الى الأمير بعثت بها تواً الى القصر ، اتهمه فيها بتشويه سمعته عن طريق تهديم ما بناه القدماء منذ اكثر من اربعة عشر قرناً ، وظل صامداً مع الزمن ليضفي على عمان عظمة التاريخ وجماله ، لبناء مسجد في المكان لا يستطيع ان يعيش سنوات طويلة . وبالفعل ، فقد تهدمت المئذنة من جراء الحفرة الارضية التي وقعت عام ١٩٢٨ .

« وقد ثار الامير عبدالله عند تسلمه هذه الرسالة من المعتمد البريطاني وبعث بسيل من برقيات الاحتجاج الى المندوب السامي ، بتحريض من الركابي باشا حتماً ، الذي كان قد نفد صبره من تكرر رفضي زيادة المخصصات التي تدفعها الحكومة البريطانية لبلاده . وسارع السير هربرت بالمجيُ لتهدئة المياه الثائرة ، ولكنه اصيب بالذهول ايضاً مما رآه من خراب لحق بالآثار الخالدة . وعفى الزمن على هذه العاصفة التي سرعان ما انطفأت دون ان اعتذر او اسحب رسالتي . وعادت العلاقات الطبيعية الى ما كانت عليه بيني وبين الأمير » .

لكن الانفجار الشعبي سرعان ما وقع ، اذ كانت الأمور تسير في البلاد سيراً غير طبيعي . وفي عصر ذات يوم كان فيلبي يجلس في حديقة منزله يتناول الشاي مع بعض الضيوف عندما سمع لعلعة الرصاص في شوارع البلدة ، ورأى جموعاً من الخيالة تندفع في طريقها . ولما سأل عن سبب هذه الضجة ، قيل له انها مظاهرة يقوم بها بعض شيوخ قبيلة العدوان مع رجالهم ، كانوا قد جاءوا الى عمان لتوجيه انذار نهائي الى الأمير ، ثم عادوا الى مضاربهم خارج العاصمة في هذه المظاهرة الصاخبة ليلقوا الرعب والفزع في قلوب أهل المدينة . ويقول فيلبي انه ادرك خطورة الوضع ، وابلغ ماكوين قائد القوة الجوية البريطانية في عمان ، بأن يكون متأهباً لكل طارئ . وكانت خطوة الثائرين الثانية ، ايفاد من يحمل انذاراً نهائياً ثانياً الى فيلبي بعدم التدخل في النزاع القائم بين العدوان والامير ، وهددوه إن تدخل بالشكوى ، الى المندوب السامي والى « الحكومة البريطانية العظيمة ، التي يكنون لها كل احترام » . وقد وقع على هذه الرسالة سلطان بن عدوان ، الذي اعلن انه سيزحف على عمان ، وينقذ البلاد من عبدالله وحكومته . ومضى فيلبي يقول : « وكان ردي قصيراً حازماً اذ اكدت له انني سأدافع عن الامير والحكومة ضد كل عمل ، اعتبره مخالفاً للاوضاع الدستورية . وقلت انني اتلقى أوامري من الحكومة البريطانية وحدها لا منه ولا من امثاله . ثم قلت : واذا زحفت على عمان فستجد القوات البريطانية في انتظارك لتلقنك درساً » .

وشاهدت طائرة استطلاعية صباح اليوم التالي ، زحوف العدوان وهي تنتشر على الجبال المحيطة بعمان في طريقها الى العاصمة ، تتقدمها الخيالة . وأخذت السيارات البريطانية المدرعة تذرع الطرق المؤدية الى عمان جيئة وذهاباً بينما مضى فيلبي الى المطار يرافقه ولده (كيم) ليرقب العملية من الجو . وسرعان ما تأهبت الطائرات بمحمولها من القنابل ، واستقل فيلبي طائرة القيادة مصدراً أوامره بعدم القاء قنبلة واحدة إلا بأمر منه . وفي غضون ذلك هاجم نحو من عشرين فارساً من فرسان العدوان سيارة مدرعة بريطانية على

طريق صويلح ، فأطلقت السيارة نيرانها عليهم ، واباد تهم عن بكرة ابيهم وبينهم مجيد ، الابن الأكبر للشيخ سلطان . وأخذت جموع العدوان الزاحفة ترقب هذه الطائرات ، وهي تحوم فوقها . وتحيط بها من كل جانب ، فبان عليها التردد ثم سرعان ما بدأت بالتراجع عن العاصمة .

ويقول فيلبي .. « وظلت الطائرات تحوّم فوق رؤوسهم لترغمهم على الاسراع في التراجع ، الى ان زال الخطر نهائياً عن العاصمة . وعدنا الى عمان فوجدت الأمير في القصر وقد بان عليه الانهاك والقلق ، بعد ليلة قاسية من الخوف كان يعد نفسه في غضونها مع رجال حاشيته للفرار ، في حالة وقوع الخطر الماثل . فطمأنته واكدت له ان الطائرات ستواصل مطاردة الفلول المنهزمة . ولم يمض طويل وقت حتى كان سلطان بن عدوان قد بعث برسول يطلب المغفرة وعندما تلقى اشعاراً بالامان جاء الى القصر ليقدم ولاءه وخضوعه للامير : وهكذا انتهت هذه الحادثة المفزعة .. »

وهكذا انقذ فيلبي عرش عبدالله الذي كان مهدداً بالسقوط في كل لحظة . انقذه للمرة الثانية من غزوة العدوان ، بعد ان كان قد انقذه في المرة الأولى من غزوة الوهابيين ، فأثبت هذا الوهابي الهوى كما يصفونه ، اخلاصه في خدمة الهاشميين لا حباً بهم ، ولا تعلقاً بعبدالله ، وانما اخلاصاً منه لامبراطوريته التي كانت سياستها تقوم على بقاء امارة عبدالله في شرق الاردن ، وتوطيد دعائمها ، لا على اساس انها منطلق الثورة العربية ، كما أراده لها بناتها من جماعة الرعيل الأول ، بل على اساس انها الامارة الخانعة ، التي تنفذ لبريطانيا رغائبها وأهدافها وسياساتها .

وقبيل وقوع هذه الحوادث الخطيرة ، كان ابن السعود يقضي اياماً في الهفوف في مقاطعة الاحساء ، فانتشرت الشائعات عن مرض خطير لحق به ، حتى ان بعضها تحدث عن وفاته . وقد استغرق وصول هذه الشائعات الى الخارج بعض الوقت ، وقلب ناقلوها انباء المرض الى الوفاة . ويقول فيلبي انه كان يجول بمحض الصدفة في الآثار الفارسية الواقعة في جبل القلعة في عمان ،

عندما رأى رجلاً دلت ملامحه على أنه من النجديين . وتحدث اليه فيلبي . فذكر هذا انه من الاحساء ، وانه قد جاء منها قبل أيام حيث كان ابن السعود مريضاً ، ثم شفي وعاد في صحة وسلامة الى الرياض . ومضى فيلبي يقول : « وكم كانت دهشتي شديدة عندما تسلمت بعد بضعة أيام برقية من المندوب السامي السير هيربرت صمويل ، يقول فيها ان حكومة جلالته قد طلبت اليه استطلاع رأي فيلبي في احتمالات الوضع في وسط الجزيرة العربية ، نتيجة وفاة السلطان . فأجبت على الفور ، بأن لدي من المعلومات الموثوقة ما يشير الى ان ابن سعود في حالة صحية طيبة ، وانه ما زال على قيد الحياة . ولذا فأنا لا ارى ضرورة لبحث الاحتمالات المترتبة على وفاته » .

قصة غريبة ولا شك ، يكاد لا يصدقها العقل ، يريد فيلبي في ظاهرها أن يبدي جهل دوائر المخابرات البريطانية ، وبراءتها واشباع غروره الشخصي باطلاعه على الحقائق . وهو الانسان البعيد .. فهل من المعقول ان تعتمد بريطانيا في سياسة امبراطوريتها على الشائعات ، وان ترسم خططها ، ومشاريعها على ضوء هذه الشائعات ؟ وهل من المعقول ان لا يكون لبريطانيا في طول الجزيرة العربية وعرضها من تعتمد عليه في تزويدها بالانباء الصحيحة في ذلك الحين ، الذي كان اهتمامها بالجزيرة العربية فيه لا يدانيه اهتمام آخر . ثم أليس في وسع معتمديها المنتشرين في الجزيرة العربية من جدة الى الكويت ، الى البحرين ، ان يزودوها بالحقائق ، مع العلم بأن البحرين لا تبعد كثيراً عن ساحل الاحساء الذي قيل ان ابن السعود قد مرض فيه ومات . ثم هل من المعقول ايضاً ان يستند فيلبي في موقف رسمي كالذي وقفه في برقيته للمندوب السامي على مجرد رواية عابرة استمع اليها من أعرابي عثر عليه بمحض الصدفة في خرائب عمان ؟

انها اسئلة تثير الشكوك في صدق الرواية كلها ، ومن اساسها ، ولكنها ان صحت وافترضنا صدق الجزء الأول منها ، وهو برقية المندوب السامي ، اثارت امامنا مسئلة اكثر اهمية ودقة ، وهي مسئلة رد فيلبي . اذ ليس في

وسع موظف كبير مسؤول كفيلبي يتلقى سؤالاً من حكومته بشكل رسمي عن طريق رئيسه المندوب السامي ، ان يتخذ مثل هذا الموقف الحازم في نفي الشائعة كلياً ، استناداً على رواية عابرة من بدوي مجهول . ولا ريب ، ان صحت الرواية في أن فيلبي لم يكن يستند على تلك الرواية الهزيلة وانما على معلومات موثوقة تصل اليه من السعودية بطرقه الخاصة ، وفي ان حكومته كانت تعرف هذه الحقيقة فسارعت الى تلقي المعلومات الصحيحة من منابعها الاصلية الصادقة .

وبدأت الحكومة البريطانية تفكر في الاشهر التالية ، بوجوب تسوية المشاكل العربية على اسس ثابتة دائمة . وكان لورنس قبل مجيئه الى عمان في صيف عام ١٩٢١ وقبل مجيء فيلبي الى المسرح الجديد قد قضى نحواً من شهرين في جده يحاول اقناع الملك حسين بالموافقة على الخطوط العامة للسياسة التي رسمتها بريطانيا للشرق الاوسط ، ولا سيما الجزء المتعلق منها بالمشاريع الصهيونية في فلسطين . ويقول فيلبي : « ان لا الرشوة ولا التهديد قد اثمرا في حمل الرجل العجوز على تغيير موقفه المعارض لسياستنا بصورة عامة في جميع ربوع المنطقة . وفي النهاية أحس لورنس باليأس وغادر جده بعد ان اوصى الحكومة البريطانية بقطع المعونة المالية عن الحجاز ، والتخلي عن حسين ليقطف ثمار صلابته وعناده . ولكن لورنس كان الآن قد اختفى عن المسرح منذ امد بعيد ويبدو ان موظفي وزارة المستعمرات قد نسوا كل ما وقع ، واعتبروا ان جميع المشاكل الحيوية الجوهرية ما زالت عرضة للبحث والنقاش . واقترحت الوزارة عقد مؤتمر في الكويت ترئسه بريطانيا في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٢٣ لبحث جميع القضايا ذات العلاقات المتداخلة بشؤون العراق وشرق الاردن والحجاز ونجد .

وكانت الفكرة رائعة في حدّ ذاتها ، ووافق ابن سعود وفيصل على الاشتراك في المؤتمر ، أما عبدالله فقد اظهر بعض التردد في الاشتراك ، منتظراً اتضاح موقف والده الذي عارض الفكرة معارضة عنيفة في البداية ، ولكنه ما لبث أن لان بعد الكثير من النقاش ، ووافق على ان يمثل في المؤتمر ، وسرعان ما

حذا ولده عبدالله حذوه . واختير الكولونيل نوكس، رئيس المحاكم السابق في البصرة والمعتمد السياسي سابقاً في الكويت ، رئيساً للمؤتمر . وتركزت الآمال على احتمال نجاح المؤتمر عندما وصلت فجأة رسالة مفاجئة من لندن تتضمن التوجيهات التي يجب ان يقرها المؤتمر ، والتي تتوافق مع السياسة البريطانية . وقد تجاهلت وزارة المستعمرات الملاحظات التي ابديتها على هذه التوجيهات فقد اقترحت وجوب قيام الرئاسة بدور حيادي كل الحياد ، متحرر من كل توجيه ، والا فإن الفشل سيكون مصير المؤتمر ، لا سيما اذا اصر الرئيس سلفاً على فرض حل ، لا يمكن لابن سعود ان يوافق عليه . فقد تضمنت التوجيهات مثلاً اعادة منطقتي خورمة وترابة الى الحجاز وهما المقاطعتان اللتان سبق لابن سعود ان احتلهما بالقوة في عام ١٩١٩ ، على ان يأخذ ابن سعود بدلاً عنهما قريات الملح ووادي السرحان على الحدود الاردنية ، وهي المناطق التي اصبحت تحت اشرافه ان لم يكن احتلاله الكلي منذ عام ١٩٢٢ . وقلت اناقش الموضوع لماذا يتخلى ابن السعود عن منطقتين يمتلكهما مقابل اراض يستطيع ان يحتلها عسكرياً غداً اذا أراد ؟ هذا هو جوهر القضية ، بالاضافة الى بعض النقاط الاخرى ذات القيمة الثانوية . واكدت لوزارة الخارجية ان فشل المؤتمر سيؤدي الى نتائج خطيرة ، لاسيما وقد اوقفنا دفع المعونات المالية التي كنا ندفعها منذ ايام الحرب لابن سعود وللملك حسين ، ولم يعد في وسعنا استخدام هذا السلاح للسيطرة على اصدقائنا العرب والزامهم بموقف الهدوء . وانهيت مذكرتي الى وزارة المستعمرات معرباً عن اعتقادي الثابت الذي لا يتزعزع بأن فشل مؤتمر الكويت وهو متوقع بالنسبة للشروط التي نفرضها ، سيحمل ابن سعود ورجاله من الوهابيين على مهاجمة الحجاز في غضون ستة اشهر . وبالفعل فقد فشل المؤتمر بعد عدة اشهر من النقاش الذي لا جدوى منه دون الوصول الى نتيجة وذلك في الثالث من نيسان عام ١٩٢٤ » .

وكان الملك حسين في غضون ذلك اعترافاً منه بالخدمات التي قدمها فيلبي لولده عبدالله قد انعم عليه بالوشاح الاكبر من وسام الاستقلال : بينما منح

وسام النهضة من الدرجة الأولى لبيك باشا . ويقول فيلبي ان وزارة المستعمرات التي ادهشها هذا الانعام المفاجئ اشارت على الملك جورج بأن لا يسمح لفيلبي ورفيقه بحمل الوسامين .

ويعزو فيلبي هذا الانعام الى رغبة الملك حسين في تأكيد سيادته على شرق الاردن ، التي كانت انباء نقمة شعبها على ولده عبدالله ، وعدم رضاه عن السياسة التي يتبعها قد وصلت اليه .

ويبدو ان هذا الشعور الشعبي العارم ضد عبدالله والذي بدا في ثورة العدوان قد حمل حكومة فلسطين وعلى رأسها السير هربرت صموئيل ، المندوب السامي المعروف بتنفيذه للسياسة الصهيونية على محاولة اهتبال الفرصة وفرض السيطرة المطلقة على الامارة تمهيداً لضمها الى فلسطين ، وشمولها بسياسة الوطن القومي اليهودي. ويبدو ان الأمير عبدالله نفسه كان يساعدها، جهلاً منه، على تنفيذ هذه السياسة ، اذ أنه بدلاً من توجيه رسائله واتصالاته الى وزارة المستعمرات التي تقرر ان تكون هي المشرفة على شؤون شرق الاردن ، كان يوجه هذه الرسائل وهي تتناول كل صغيرة وكبيرة من شؤون البلاد الى حكومة فلسطين التي شجعها هذا الاستخذاء والضعف ، فحملها على محاولة التوسع في فرض سلطانها على بلاده .

ويقول فيلبي انه قاوم بكل قوة وحماس مظاهر هذا السلطان وانه عندما اقامت الشرطة الفلسطينية مركزاً لها على الطرف الاردني من جسر المجامع الواقع على نهر الاردن ، احتج على ذلك احتجاجاً شديداً ، وطالب بسحب رجال الشرطة من الاراضي الاردنية ، فجاءه الرد بأن المركز اقيم لمجرد « دوافع صحية » ، وانه لا يعني أي اعتداء على السيادة الاردنية . ويروي فيلبي انه بعد بضعة اسابيع من هذا الحادث احتلت السلطات الفلسطينية مركز الحمة ، على الجانب الاردني من نهر اليرموك ، ورفعت العلم البريطاني عليه ، فأمر بيك باشا بايفاد قوة عسكرية كبيرة اعادت احتلال الموقع وقامت بانزال العلم البريطاني عنه لترفع بدلاً منه العلم الاردني .

وأخذ الوضع يتأزم بين فيلبي وسلطات القدس حتى وصل ذروته. ولم يكن فيلبي مدفوعاً في هذا ، الا باعتقاده بأن هذه الأعمال التي يقوم بها بعض المسؤولين في الحكومة الفلسطينية لا تعتبر تعبيراً عن السياسة البريطانية الرسمية ، وانما بدافع اهواء شخصية او عامة لعل ابرز ما فيها تحقيق بعض الاهداف الصهيونية في شرق الاردن . وكان فيلبي في صموده منسجماً مع الرأي الذي يحمله والذي يعتقد انه السبيل الصالح لخدمة امبراطوريته ، واثقاً من انه لا يعارض في موقفه هذا السياسة العليا التي توجهها اليد الخفية في لندن ..

فماذا كان يعني فيلبي بهذه المواقف ؟ أهو اكثر تأييداً لاستقلال العرب منه اخلاصاً لبلاده وامبراطوريته ؟ كلا والف كلا ، وان حاول هو في كتاباته الايحاء بمثل هذه الفكرة . ولكنه بوصفه المعتمد البريطاني في عمان ، كان قد تلقى تعليمات من المستر تشرشل عندما كان وزيراً للمستعمرات تتعلق بالوضع في الامارة التي يمثل بلاده فيها ، وقد شرحنا هذه التعليمات في حينه . ولم يتلق منذ ذلك التاريخ ما يناقضها او يخالفها على شكل تعليمات رسمية صريحة ؛ فجاءت محاولات السلطات في فلسطين مناقضة صريحة لما يحمله من تعليمات ؛ ولذا فقد بات واجب المنصب ، يحتم عليه بالاضافة الى ما يراه من رأي ، اتخاذ هذا الموقف المعارض لنوايا موظفي حكومة فلسطين ، والذي يحاول ان يجعل هو منه دليلاً على حبه للعرب واخلاصه لاستقلالهم .

وفي هذه الآونة بالذات احتدم الخلاف بينه وبين الركابي باشا . فقد كان هذا دائب المطالبة بزيادة ما تدفعه بريطانيا لشرق الاردن من معونة مالية . وكان فيلبي عاجزاً عن تلبية طلباته ، لأن لندن ترفض هذه الزيادة . وهدد الركابي فيلبي ذات يوم بأنه سيتخطاه وسيبحث الموضوع مع المندوب السامي . فقال له فيلبي : « أنت حر ، اذهب حيث تشاء » . ويمضي فيلبي فيروي هذه الحادثة قائلاً : « وابرقت الى صمويل ، اوصيه برفض بحث الموضوع مع الركابي . ولكن هذا استقبله بذراعين مفتوحين معتقداً أن حسن معاملته للركابي يضمن له السيطرة التي يريدها على شؤون شرق الاردن . ويبدو ان

الأمير لم يكن قد خوّل الركابي الذهاب الى القدس ، فانحاز الى جانبي وأبرق الى رئيس وزرائه يستدعيه ، ولكن هذا رد بقوله : « في وسع سموك ان تجد رئيساً جديداً لوزارتك ، اذ انني لن اعود . لقد استقلت » . وقد ردّ عبدالله .. « لقد استعجلت هذه الاستقالة » .. ومنذ هذا التاريخ توقف الركابي باشا عن ان يكون الموجه لمصائر الاردن ، وتولى ابراهيم هاشم رئاسة الوزارة خلفاً له . ويقيناً كان الركابي اقدر الرجال الذين عملوا مع الامير عبدالله ، ولكنه كان انساناً طموحاً ، ذا نزعة ديكتاتورية ، وكنت اجد نفسي دائم الاصطدام به ، خلال اقامتي في شرق الاردن » .

هذه هي رواية فيلبي عن استقالة الركابي ، وغيابه عن مسرح الحياة السياسية في الاردن . أما رواية الذين عاشوا هذه الحقبة في الاردن وعاصروها ، فتختلف كل الاختلاف عن رواية فيلبي . فقد ذكر لي احدهم وهو ممن اثق بصحة كلامه ، وصادق رأيه ، أن الخلاف بين الركابي وفيلبي لم يكن على شؤون مالية ، كما حاول فيلبي تصويره ، بل على شؤون اعمق بكثير من ذلك ، تتناول الاتجاهات القومية والسياسية المحلية . فقد كان الركابي يريد ان يمارس صلاحياته كرئيس دولة مستقلة تمام الممارسة ، ولاسيما في القضايا الداخلية ، بينما كان فيلبي يدس انفه في كل صغيرة وكبيرة من الشؤون ويحاول فرض رأيه ووجهة نظره على الحكومة الاردنية . وعندما كان الخلاف يستعر بين الرجلين كان الركابي يمضي الى الأمير عبدالله الذي غالباً ما وقف الى جانب المعتمد البريطاني . وكان فيلبي يعتمد على سلاح المعونة المالية التي تدفعها بريطانيا لامارة شرق الاردن ، لفرض ارادته على الحكومة . وقد سبق لنا ان اقتطفنا فقرة تشير الى ايمانه بقوة هذا السلاح من أقواله عند الحديث عن الخلاف بين ابن سعود والحسين . ولما كانت الحكومة الاردنية لا تستطيع بمواردها المالية الخاصة الاستغناء عن هذه المعونة ، ضاق الركابي ذرعاً بفيلبي وحاول اثارة الموضوع مع مرجعه وهو المندوب السامي ، آملاً منه بأن يقف هذا المندوب موقفاً اكثر انصافاً واعتدالاً من فيلبي ، فسافر الى القدس ليبحث

المشاكل كلها مع المندوب . وما هاله الا ان يرى الطعنة تأتيه من خلفه من الأمير الذي يحكم الركابي باسمه ، ويعمل على توطيد امارته وحكمه ، فآثر ان يستقيل وان يتسرع في هذه الاستقالة » على حد تعبير الأمير نفسه ، لان الكيل قد طفح معه .

واني لعلى ثقة لو أن الموضوع قد اقتصر على ناحية المعونة المالية في حد ذاتها ، لما احتاج الأمر الى استقالة الركابي لمجرد تلقيه تلك البرقية ، يضاف الى هذا ما عرف دائماً عن وجود خلاف مستمر بين الأمير ورئيس وزرائه ، ذلك لأن الأمير كان ينقم على الركابي اعتداده بشخصيته وقوة شكيمته وصلابته في آرائه . مما لا يتفق وشخصية « الإمّعة » التي يريدها الأمير على العمل معه دائماً ليفرض عليها رأيه .

فاستقالة الركابي والحالة هذه لم تنجم عن موضوع المعونة المالية ، وانما نجمت عن الخلافات العميقة الجذور بينه وبين الأمير اولاً ، وبينه وبين فيلبي ثانياً . وبغياب الركابي عن مسرح السياسة الاردنية انطوت صفحة من تاريخ شرق الاردن ، كان من المأمول ان يلعب فيها دوراً قيادياً في الشؤون العربية ، لتخلفها صفحة اخرى من الاذعان الكامل لرغبات المعتمد البريطاني وإرادته ومشيئته .

وأعلن الملك حسين في كانون الأول من العام نفسه ، عزمه على زيارة شرق الاردن ، وانتشرت الشائعات في البلاد تقول ان الملك الشيخ يعتزم خلع عبدالله عن الامارة ، وتعيين ولده الاكبر علياً خلفاً له . وكان هذا في ذلك الحين منشغلاً في المدينة في محاولة لاعادة تسيير الخط الحجازي بينها وبين معان ، ذلك الخط الذي لحقت به اضرار جسام إبان الثورة العربية ، واقتلعت بعض خطوطه ، وهدمت جسور عدة ، من التي يسير عليها الخط . وكان من المقرر ان يصل علي في القطار الأول الذي سيسير على هذا الخط بعد السنوات الطويلة من الانقطاع ، الى محطة معان ، في نفس الوقت الذي يكون فيه والده الحسين قد وصلها بطريق البحر الى العقبة ، ومنها بطريق السيارات الى معان . ولكن

التنفيذ كان اصعب من التخطيط ، ولم يصل القطار ، إلا بعد عدة أيام من وصول الحسين ، لكن وصوله كان على كل حال حدثاً يستحق التسجيل والتقدير.

ويروي فيلبي : أنه مضى مع الأمير شاكر بن زيد وعدد من الفرسان الى العقبة عن طريق نهر الاردن فشاطئ البحر الميت فوادي عربة ، ووصل الملك حسين ، بعد وصول مستقبليه ببضعة أيام على ظهر « يخته » اليوناني الأصل المسمى « بالرقمتين » ، وكان بين المستقبلين ايضاً الأمير حبيب لطف‌الله ، وجمهور كبير من وجوه البلاد واعيانها .

ويقول فيلبي : ان الملك حسين رفض ان يستقل السيارة من العقبة الى معان ، وامتطى صهوة « البغل » الذي جاء به على ظهر اليخت من الحجاز . وكان من الرائع ان يقطع هذا الشيخ البالغ من العمر خمسة وسبعين عاماً مسافة الخمسة والسبعين ميلاً التي تفصل بين المدينتين على ظهر بغله هذا . ويمضي فيلبي فيقول : « وعندما حطت بنا الرحال في القويرة بين العقبة ومعان ، استدعاني الملك حسين الى خيمته ليتحدث الي حديثاً طويلاً كله عذوبة ورقة . وعندما انتقل الحديث الى ابن سعود قال : « اسمع ، ليس هناك من خلاف بيني وبين ابن سعود . ألسنا جميعنا من العرب ؟ انني اعتبره واحداً من اولادي وانت صديقه وصديقي في وسعك ان تكون رسولي اليه . وانني لأقبل اية تسوية ترضاها انت » .. وقلت لنفسي يا للغرابة ، لقد تغير الرجل عن ذلك الانسان الاوتوقراطي ، المتعجرف الذي عرفته في جده . وبدا لي ان حقده قد اتجه من منافسه العريق ، الى اولاده الذين خانوه ، وتنكروا لقضيته ، ولا سيما فيصل » .

« وفي طريقنا الى معان . جرى لي حديث طويل مع حبيب لطف‌الله ، وكان ثائراً على ابن سعود ، يحاول الحط من شأنه .. وقال : الا ترى ، ان ليس للعرب من امل الا في ظل جلالته . انك لن تندم ، اذا انضممت الى جانبه الذي سينتصر في النهاية . انظر الي .. انني امير ، وثري ، وسفير » .

وانتقل الملك حسين وحاشيته من معان الى عمان في القطار ، وجرى له

استقبال منقطع النظير ، كان على رأسه عبدالله ، مما اثلج قلب الرجل الشيخ فرحاً وسروراً . ويقول فيلبي ان الاستقبال كان مثالياً ، لأن الشعب كان يتوقع ان يكون الملك الشيخ قد جاء لانقاذه من ولده عبدالله ..

ويقول فيلبي : « ولم ارَ ضرورة للتدخل في التطور الطبيعي للمسرحية ، بينما كان صمويل ، وديدس ، عبر نهر الاردن يتساءلان عمّا تعنيه ، وعمّا ستكون النهاية . لقد اعربا عن قلقهما من سير الاحداث ، اذ ادركا عجزهما عن فرض أي سيطرة على شرق الاردن إبان وجود الحسين فيها » ..

ولكن نهاية المسرحية ، كانت من نوع آخر لم يتوقعه احد من المسؤولين البريطانيين . فقد انتهى عهد الخلافة الاسلامية في القسطنطينية بعد ان اعلن مصطفى كمال الغاءها . واصبحت الفرصة متاحة امام الحسين لاعلان نفسه خليفة للمسلمين ، وانشغلت اسلاك البرق بين مكة وعمان ، واجتمع علماء مكة واختاروا ملكهم خليفة على المسلمين ، فقبل جلالته البيعة ، وبدأت البرقيات تنهال من جميع مدن الحجاز وقراه ، مهللة للخليفة الجديد ، وتردد الصدى في العراق وشرق الاردن ، وجاءت الوفود من كل مكان وفي طليعتها الملك فيصل الذي جاء من العراق لمبايعة الحسين بالخلافة .

ووقفت الحكومة البريطانية في مطلع الأمر موقف المرتبك الحائر ، ثم ما عتمت ان ابرقت لجميع موظفيها المعنيين تحذرهم من أي عمل أو قول ينطوي على الاعتراف بلقب الحسين الجديد . أما العالم الاسلامي خارج نطاق حكم الاسرة الهاشمية ، فقد وقف موقف المتردد أو المعارض ، على الرغم من الحقيقة الواقعة ، وهي انه كان اجدر بالخلافة من أي ملك أو حاكم عربي أو اسلامي :

وادت هذه التطورات الى تبدل الاوضاع بالنسبة الى شرق الاردن نفسه . فقد اصبح علي ، ولي عهد الخلافة ، ولم يعد من الممكن تعيينه اميراً على عرش ثانوي كعرش الاردن خلفاً لعبدالله ، وهكذا تقرر بقاؤه ، وادرك صمويل كما يقول فيلبي « ان واجبه الأول يقضي عليه بتشديد قبضته على الامارة

فور مغادرة الحسين لها » .

واشتد الخلاف بين فيلبي وبين حكومة فلسطين على موضوع ادارة الخط الحجازي في شرق الاردن ، فالحكومة الفلسطينية تريد ان تسيطر سيطرة كلية على هذا الخط ، وان تتولى ادارة سكك حديدها ، الاشراف عليها بينما عارض فيلبي في ذلك ، وأصرّ على ان تبقى ادارة الخط الحجازي مستقلة عن حكومة فلسطين ، وهو ما أقدم على تنفيذه فعلاً .

وأبرق فيلبي الى المندوب السامي بالحادث ، وألحق البرقية برسالة مطولة شرح فيها جميع عوامل الاحتكاك التي نشأت بينه وبين المندوب في الاشهر الستة الماضية ، واكد انه لا يستطيع الا أن يرى ميلاً الى توسيع سيطرة حكومة فلسطين لتشمل شرق الاردن ، مما يتعارض مع السياسة التي اعلنها الدوق ديفونشاير مؤكداً سياسة سلفه المستر تشرشل .

ويقول فيلبي في رسالته هذه : « وفي مثل هذه الأحوال لا استطيع ان اظل مرتبطاً بهذا الانقلاب الرجعي في السياسة ، وارى نفسي مضطراً الى تقديم استقالتي ، على ان تعتبر سارية المفعول من تاريخ موافقة جميع الفرقاء المعنيين بعد سفر الملك حسين . واني لأرى ان جميع محاولاتي لخدمة سياسة حكومة جلالته قد اصطدمت في السنوات الاخيرة بالتبدلات الطارئة في هذه السياسة التي أراها متعارضة مع مصالح جميع الفرقاء المعنيين ، ولذا فقد توصلت بكل أسى واسف الى قرار بانهاء علاقاتي بالحكومة كلية ، لانطلق حراً من جديد في انتقادي لسياستها على النحو الذي أراه ضرورياً . واكون ممتناً كل الامتنان اذا نقلتم الى السلطات المختصة عزمي على الاستقالة من خدمة حكومة الهند ، اعتباراً من تاريخ انتهاء الاجازات التي استحقها بالنسبة الى خدماتي الماضية » .

اذن ، فقد استقال فيلبي ، ولم يقتصر في استقالته على تخليه عن منصبه كمعتمد سياسي لبلاده في شرق الاردن ، بل عن العمل بصورة كاملة في حكومة الهند كلها ، فما الذي دهاه حتى اقدم على هذا العمل ؟ هل هي مجرد ثورة عاطفية عاصفة نجمت عن هذه الخلافات التي اتسمت بطابع الحدة بينه

وبين رئيسه المندوب السامي البريطاني في فلسطين ، أو انها وليدة تفكير دقيق وخطة مدبرة ، وتطلع الى المستقبل . اعتقد انها الأمران معاً ، فهو ثائر على المندوب السامي ، وعلى الوضع في شرق الاردن ، وكثرة تدخل موظفي الحكومة الفلسطينية فيه ، وهو ناقم لكرامته الشخصية ومركزه ، وغروره .. لكنه من الناحية الثانية آمن بأن دوره في الاردن قد انتهى ، وان عليه ان يقوم بدور جديد ، لاسيما بعد التطورات غير المنتظرة التي وقعت في الشهور الاخيرة ، والتي أدت الى اعلان الحسين نفسه خليفة على المسلمين .

لقد رأينا بريطانيا تعارض في هذه الخلافة منذ البداية ، ولكنها لا تستطيع اعلان معارضتها . اذ ان هذا الاعلان سيؤدي الى تردي علاقاتها لا مع الحسين فحسب ، بل مع الدول الهاشمية الاخرى ، ونعني بها العراق والاردن . وقد بدت هذه المعارضة في تلك التعليمات السرية التي بعثت بها الى وكلائها ومندوبيها في مختلف انحاء العالم الاسلامي ليحولوا دون الاعتراف بخلافة حسين وقد اسفرت هذه التعليمات عن وقوف مسلمي الهند ، وهم الغالبية في العالم الاسلامي موقفاً سلبياً ، من موضوع الخلافة . وسرية هذا الموقف تتطلب ان يكون الرجل الذي سيعهد اليه بمحاربة خلافة الحسين ، والقضاء على سلطانه الزمني والديني معاً رجلاً لا يحمل اية صفة رسمية .

لقد حكم الحسين على دولته بالزوال ، باعلانه الخلافة فتقرر منذ تلك اللحظة أن يزول عرش الحجاز ، إذ ان زواله لا يترك مجالاً للحسين لممارسة سلطانه كخليفة للمسلمين . ولاريب في أن ابن سعود هو الرجل الذي يجب ان يتولى ازالة ذلك العرش ، وليس هناك من بريطاني اقرب الى قلبه من فيلبي ، صديقه الحميم . ولكن الدور الجديد يتطلب من فيلبي ان يكون مقرباً ايضاً من قلوب الهاشميين يولونه ثقتهم ويضعون فيه بعض ايمانهم ، وليس هناك من سبيل افضل الى اكتساب هذه الثقة ، من التظاهر بمظهر المدافع عن عرش الهاشميين في الاردن ، واتخاذ موقف الرجل الذي يضحي بمنصبه ومكانته في سبيل حماية هذا العرش ، وسلطانه ونفوذه واستقلاله ..

وهكذا استقال فيلبي .. ويقول هو عن نفسه ، بأنه « خدم هدفه في المحافظة على هدوء الامارة مدة ثلاث سنوات ، وعلى حسن علاقاتها بجيرانها في فلسطين وسوريا . وعلى الرغم من سورات الأمير وشهواته ، فقد مضيت بالبلاد في طريق الاستقلال ، الحقيقي الفعّال الذي كان بامكانه ان يضطرد في السير على اسس سليمة ، لولا ان السير هربرت صمويل وحكومة فلسطين قد رأيا فيه تطوراً لا يتفق مع أهدافهما النهائية ، فأخذا يحرضان الامير عبدالله على معارضتي والوقوف في طريق توجيهي وارشادي .

« وقبلت استقالتي على الفور ، وغادرت عمان في السابع عشر من نيسان ترافقني عائلتي الى حيفا لنستقل منها الباخرة الى انكلترا . وكان الملك حسين وابنه الأمير علي ، قد غادرا شرق الاردن التي عاد الهدوء يسودها من جديد .

« وفي يوم الرحيل ، ذهبت الى قصر الأمير لأودعه ، فدار بيننا حديث طويل امتد عدة ساعات . كان الامير اثناء هذه المقابلة ودوداً ، ولكنه لم يكن يدرك ما يخفيه المستقبل له في طياته . وقلت للامير : « لقد عملت جهدي في ان اشتغل من اجلك . ولم تكن لي رغبة منذ مجيئي الى هنا سوى توطيد دعائم سلطانك ، على اسس ثابتة ، كأمير مستقل في دولة مستقلة . وعلى الرغم مما حصل بيننا من خلافات طبيعية منتظرة احياناً ، فقد كنت صديقك وزميلك على الدوام ، وستجد ان خلفي سيكون سيداً لك مهما كان في اسلوبه من الصداقة ، واني لآسف ان احلامي بتأسيس دولة عربية في شرقي الاردن لم تتحقق ، وقد لا تتحقق ابداً . فاذا كان ذنبي هو ذاك ، فاني استميح العذر والعفو من سموك » .. قلت هذا ومضيت من حضرته مستئذناً بالسفر . وقد انقضى واحد وعشرون عاماً منذ ذلك اليوم وليس في وسع احد أن يزعم ان شرق الاردن قد نعم طيلة هذه المدة بالاستقلال الذي نعم به في الفترة القصيرة التي قضيتها هناك ..

« وفي نفس تلك الليلة ، أقام سلاح الطيران البريطاني حفلة رقص ساهرة وداعية ، على شرفنا . وبعد العشاء ألقيت كلمة وداع قصيرة ، شكرت فيها

ماكوين وضباطه ورجاله على تعاونهم في مهمة شاقة عسيرة ثم قلت .. « انني أشبّه نفسي وزوجتي .. بفأرين يهربان من سفينة تشرف على الغرق . فقد تزدهر شرق الاردن فيما بعد ولكنها لن تكون البلد المستقل ، الذي املت في ان يكون » . وفي الصباح التالي أدت ثلة من حرس شرف الجيش العربي التحية لي عندما أخذت القطار من محطة عمان لأمضي من خدمة الحكومة لآخر مرة الى حياة الحرية» .

هذه هي نهاية فيلبي في امارة شرق الاردن ، ولا ريب في انه كان مخلصاً للبلاد التي عمل فيها على الرغم من هواه السعودي ضمن الحدود التي لا يتعارض فيها هذا الاخلاص مع واجباته كأحد بناة الامبراطورية البريطانية ودعائمها .

وأود في ختام هذا الفصل ان اقتبس من مذكرات الملك عبدالله ما يقوله عن اخلاص فيلبي للبلاد التي يعمل فيها قال الملك :

« كنا في جلسة في احدى الليالي ، وطلب احد الموجودين ان يكتب كل من حضر المجلس جملة ادبية ، فكتب المستر فيلبي بيت عبيد بن الابرص المشهور ..

ساعد بأرض ما دمت فيها ولا تقل انني غريب ..

« وهذا شاهد على اخلاصه . ولقد كان اخلاصه للملك عبد العزيز بن سعود يكاد يفوق اخلاصه لملكه وبلده . وقد سافر معي الى لندن في السفرة الأولى ، ولم يأل هناك جهداً في القيام بواجبه . ولقد كان بيننا احياناً ما يكدر صفو الوداد لصلف يبدو منه ، ولقد كان هنا يوم شرف الوالد المرحوم شرقي الاردن وحين البيعة بالخلافة ، ولقد حرض الناس وحضهم عليها » .

إذن فقد خالف فيلبي باعتراف الملك عبدالله تعاليم حكومته وأخذ يدعو الناس الى مبايعة الحسين بالخلافة على الرغم من معرفته باعترافه في كتبه ، بأن هذا العمل يتعارض مع سياستها . واذا كان فيلبي كما يقول الملك عبدالله ، قد اخلص للملك عبد العزيز اكثر من اخلاصه لملكه وبلده ، فهل اخلص كذلك

الى الملك حسين الى هذا الحد الذي يحمله على التنكر لتعليمات حكومته ومعارضة سياستها وهو المشرف على تنفيذها في الاردن .

يقيناً ان فيلبي ، تظاهر بذلك ليحقق غاية ابعد مدى ، وهي اكتساب ثقة الهاشميين ، وقد تمكن من تحقيقها كما بدا في مذكرات الملك عبدالله ، وذلك استعداداً للدور الجديد الذي سيمثله على مسرح الجزيرة العربية ، في القضاء على عرش واقامة عرش آخر ، وهو ما سيكون موضوع الفصل التالي من هذا الكتاب .

٧

زوال مملكة

انتهت الآن صفحة من حياة فيلبي وانطوت لتبدأ صفحة جديدة من هذه الحياة الطويلة الحافلة ؛ فقد غاب عن المسرح ، ذلك الموظف الذي يتبع وزارة الهند حيناً ، ووزارتي الخارجية والمستعمرات احياناً ، والذي اقتصر دوره حتى الآن على الادوار الثانوية والرئيسية اخيراً ، ليعود اليه ذلك المغامر الذي تحرر من قيود الوظيفة الظاهرية وان لم يتحرر من ارتباطاته باليد الخفية الموجهة ليقوم بأدوار البطولة فيهدم الممالك ويقيم الاخرى ، ويشترك في معارك التنافس على البترول والسيادة ، وينفذ سياسات الامبراطوريات ويوطد دعائمها ، وهو في كل ذلك بعيد كل البعد عن منافسات المناصب وأوامرها ونواهيها ، يعمل بتحرر وانطلاق ، وقد اتاح له دوره الجديد ان يكون الانسان الموجه اكثر منه منفذاً أو أداة طيعة تسخر وفق السياسات القلّب التي تتغير بين عشية وضحاها ، وتتبدل من حين الى حين .

أجل ، لقد اضحت شخصية فيلبي بعد الادوار الكثيرة التي مثلها على اكثر من مسرح وفي اكثر من عاصمة عربية ، اضخم من ان يضمها اطار الوظيفة ، فانطلقت من عقالها وتحررت عن هذا الاطار ، دون ان تتحرر عن الخطوط الفنيّة العريضة التي رسمتها ، لتصبح تعبيراً جديداً يعكس قدرة اليد الخفيّة

وجبروتها وصولتها في عالم السياسات التي تقرر من وراء ستار ، والتي تلعب بمقدرات الدول والشعوب ، فتقيم منها ما تشاء وتحطم ما تشاء وفق مصالحها واهوائها ..

أجل ، غادر فيلبي عمان في اجازة طويلة في نيسان عام ١٩٢٤ كمقدمة لتقاعده من العمل في خدمة الحكومة . وبعد ان اطمأن الى رحيل عائلته بحراً من ميناء حيفا في طريقها الى ارض الوطن ، غادر فلسطين الى حلب ، ليقوم بأول جولة له في حياته في انحاء تركيا . وكان من المقرر ان يلتقي في اضنه بالسير اوريل ستين الذي تعرف اليه في شرق الاردن عندما زار هذا البتراء وجرش وغيرهما من الأماكن الاثرية قبل ان يبدأ جولة مماثلة في الاراضي السورية .

ولم يكن السفر في قطارات سكة حديد الشرق في تلك الأيام بالأمر المريح الممتع الذي اصبح عليه الآن . فقد كانت القطر تخلو من عربات النوم والطعام وتفتقر الى وسائل التدفئة والراحة . والتقى الرجلان على مقربة من اضنه ، وتحدثا في عربة القطار عن الرحلات العظيمة التي قام بها ستين في أواسط آسيا ، حيث تعلم اللغة التركمانية ، التي تشبه الى حد ما اللغة التي يتحدث بها الاتراك في بلادهم .

وقضى الرجلان بضعة أيام في أضنه ينزلان في فندق حقير ، لعل حقارته تتجلى في ان الغرفة التي نزلا فيها كانت تضم ثمانية اسرة . ولعل فيلبي تعمّد في اظهار هذه الحقيقة ، التأكيد على ما كان يلقاه السائح في تلك الأيام من عناء في الرحيل والتجوال من بلد الى بلد .

ومضى الرجلان من اضنه الى قونية ، بعد ان عبرا جبال طوروس حيث قضيا نحواً من اسبوع . يدرسان فيها اثار السلاجقة ويزوران قبر العلامة جلال الدين ابن الرومي .

وافترق فيلبي عن رفيقه في اسكيشهر على ان يلتقيا ثانية في موعد حدداه في بودابست ، واتجه فيلبي الى انقره بينما ارتحل زميله الى استامبول . ويقول

فيلبي ان عاصمة مصطفى كمال الجديدة ، لم تكن تعدو آنذاك ، القرية التي كانت عليها منذ قرون عدة منذ أيام الامبراطور اوغسطس الذي شيد مدرج انقره المعروف . وكان مصطفى كمال قد شيد له قصراً في جناق آيا ، الضاحية القريبة من انقرة بينما شيدت الى جوار الفندق الذي يحل فيه عمارة ضخمة تضم المجلس الوطني ، كانت باستثناء محطة السكة الحديدية ، البناية الكبيرة الوحيدة في انقرة . ويمضي فيلبي فيقول : « وعندما عدت الى زيارة انقره بعد احد عشر عاماً ، رأيت فيها مدينة من أجمل المدن العصرية التي رأيتها في حياتي » .

وانتقل فيلبي من انقرة الى استامبول ، ليرى معالمها التي وصفها « بالمعجزات » ، ثم واصل سيره الى بودابست حيث طاف به رفيقه ستين على جميع الأماكن التي يجب ان يراها في العاصمة المجرية التي ولد فيهاستين قبل ان يرتحل الى لندن ليكتسب الجنسية البريطانية ، ويصبح من الرجال البارزين في الامبراطورية .

ووصل فيلبي اخيراً الى لندن ، ليطمئن على شؤون اسرته وليبدأ التفكير في مستقبله . لاسيما وان اجازته لا تنتهي قبل ايار من عام ١٩٢٥ ، عندما يصبح موظفاً محالاً على التقاعد . ويقول فيلبي : « وكان الراتب التقاعدي الذي سأتقاضاه بعد خدمة طالت ستة عشر عاماً ، يبلغ سبعمائة جنيه في العام يذهب نصفها تقريباً لتسديد بعض الديون المتأخرة ، ولدفع اقساط المنزل الذي ابتعته ليكون مأوى دائماً للأسرة » .

ويمضي فيلبي فيقول .. « وفي غضون ذلك اتضح لي ان ثمة مجالات متعددة استطيع ان اتجه اليها . فقد تولى حزب العمال الحكم لاول مرة في تاريخه ، وكانت مواقف رمزي مكدونالد السابقة من قضية الهند تتفق مع ميولي وآرائي، وأملت في ان سياسة الحكومة الاستعمارية الجديدة ستتخذ صورة اكثر تحرراً ، تنطبق مع النظريات التي أؤمن بها ، ولكن سرعان ما بدا لي ان توماس وزير المستعمرات العمّالي الجديد ، لم يكن الا صورة جديدة عن اسلافه من امثال تشرشل والدوق ديفونشاير وايمري من وزراء المحافظين . وكنت اكثر من

الأستماع الى الاحاديث في الشؤون الداخلية ، وخيل الي أن ما اريده حقاً ، هو ان اصبح عضواً عن حزب العمال في مجلس العموم . وقد ظل هذا الحلم يراودني منذ ذلك الحين ، وظل الأمل الوحيد الذي لم يتحقق طوال حياتي لسبب بسيط واحد وهو ان حزب العمال والناخب البريطاني لا يهتمان بشيء سوى المشاكل الداخلية ، وان الحزب لن يقامر بترشيح شخص ليست له من المؤهلات إلا نظرة متحررة تجاه مشاكل الشعوب المستعمرة في العالم . ولكن موضوع اقتحام الندوة البرلمانية كان احتمالاً ممكناً على أي حال في ذلك الحين ، لو انني ركزت جهودي على تحقيقه ، ولكنني لم اركزها .

« ولكنني وجدت نفسي الآن حراً ، لتنفيذ مشروع كنت قد فكرت فيه منذ امد بعيد ، وتركزت فيه مطامعي منذ عام ١٩١٨ . فقد وصلت في ذلك العام الى وادي الدواسر المشهور ، فكنت اول اوروبي يصل اليه ، وتطلعت منه الى مشارف تلك الصحراء المفعمة بالاسرار في جزيرة العرب ، والمسماة بالربع الخالي ، التي لم تطؤها قدم انسان بعد . ولقد غادر ريتشارد بيرتون مصر في عام ١٨٥٣ باحثاً عن الوصول الى نفس النتيجة ، ليجد عند وصوله الى المدينة ان القبائل العربية المسيطرة على الصحراء آنذاك تحول دون قيامه بهذه المغامرة . وفي غضون الثمانين سنة التالية وصل عدد من الرحّالين الى أطراف الربع الخالي ، ولكنهم ارتدوا عنه خائفين وجلين . ووصل جيرالد ليشمان في عام ١٩١٢ ، الى الرياض قادماً من بغداد ، وقد اعتزم القيام بهذه الرحلة ، ولكنه عدل عن رحلته هذه ، بأمر من الملك عبدالعزيز الذي بعث به الى ساحل الاحساء الذي كان لا يزال في ظل الحكم التركي . وبعد سنتين زعمت الكونتيسة ميليتور ، انها قطعت الصحراء العربية من المدينة الى زلفى في وسط الجزيرة العربية ثم عادت الى المدينة لتصدر كتابها « عبر الصحاري الداخلية من المدينة » فجاء منطلقاً للخيال اكثر منه تصويراً للوقائع . وقام الميجور شيزمان في عام ١٩٢٤ بمحاولة اكثر جدية لاكتشاف الربع الخالي ، فكان اول اوروبي يصل الى واحة جبرين الواقعة على عتبة الربع . ولكن الصحراء العذراء ظلت عاصية

على خاطبيها ، فردتهم خائبين واحداً اثر آخر ، متيحة لهم التطلع من بعيد الى بعض مفاتنها وباعثة في نفسهم الأمل بأنها لن تستسلم الا للخاطب المقدام » .

وبدا لفيلبي الآن ان الوقت قد اصبح مناسباً لقيامه بهذه المغامرة لاسيما وان عامل الزمن قد اصبح يهدد بأن يلعب دوره ، فتقوم الطائرة بما عجزت عنه اقدام الانسان او وسائط نقله البدائية . واعتقد فيلبي انه خير من يستطيع أن يقوم بهذا العمل بوصفه صديق ابن سعود الصدوق ، الذي لن يضن عليه بالعون والمساعدة . ولكن مثل هذه الرحلة تحتاج الى المال الوفير ، وفيلبي خالي الوفاض منه ، فجاءته النجدة في صورة روزيتا فوربس ، الرحالة البريطانية المعروفة التي كانت تبحث الآن عن اماكن جديدة تقوم باكتشافها ، بعد مغامراتها في الكفرة في الصحراء الليبية التي برهنت فيها على قدرتها على تحمل اعباء رحلات الصحاري الشاقة والتي تفتح الصحافة أبوابها لها ، نظراً للشهرة التي حصلت عليها في عالم الاكتشاف والتجوال من ناحية ، ولوجود عنصر المرأة « الرومانطيقي » الذي يستهويها لما يبعثه في نفوس القراء من اغراء على التتبع .

جاءت روزيتا لتعرض على فيلبي القيام برحلة مشتركة الى الربع الخالي الذي لم تطأه قدم اوروبي بعد . وقد وافق فيلبي على العرض بحماس ، شريطة ان تؤمن روزيتا النفقات اللازمة لمثل هذه الرحلة . وكان من السهل عليها ان تدبر هذا الأمر ، فقد كانت الجزيرة العربية في ذلك الحين ، ولاسيما بعد اسطورة لورنس ، تستهوي الصحافة البريطانية ، وكان قيام امرأة بمثل هذه المغامرة ، قصة رومانطيقية تستحق اكياساً من الذهب . وهكذا وافق اللورد بورنهام على تخصيص مبلغ اربعة آلاف جنيه باسم صحيفته « الديلي تلغراف » لهذه الغاية.

وتقرر ان تقوم روزيتا بكتابة المقالات المثيرة عن الرحلة الى الصحيفة ، على ان يقوم فيلبي فيما بعد ، بوضع الكتاب « الجدي » عنها . وتقرر ايضاً ان تبدأ الرحلة في تشرين الأول المقبل ، فيقطعان الربع الخالي في شتاء عام ١٩٢٤ — ١٩٢٥ .

لكن الحظ خان فيلبي هذه المرة عشية البدء بالرحلة . فقد نقلت الصحف في مطلع شهر ايلول عن وقوع تطورات خطيرة ، تنذر بهجوم الوهابيين على الحجاز . ولم تكن الفترة التي حددها فيلبي لبدء هذا الهجوم بستة اشهر ، اذا ما فشل مؤتمر الكويت ، كما رأينا في الفصل السابق ، قد انقضت بعد .

أجل لقد فشل المؤتمر في شهر نيسان . وأعلن فشله توقع هبوب العاصفة المنتظرة . ولم ينقض شهر آب حتى كانت زحوف الوهابيين تهاجم شرق الاردن. وفي مطلع شهر ايلول ، بدأ الهجوم الحقيقي على الحجاز الذي سبقته هجمات على حدود العراق ، وقرية القسطل في شرق الاردن ، لصرف الاهتمام عن اتجاه الهجوم الرئيسي . ولم تمض بضعة أيام حتى كانت جيوش ابن سعود تحتل الطائف ، فتقتل أهلها عن بكرة ابيهم ، بعد ان فرّ عنها الامير علي ، تاركاً المدينة لتلقى مصيرها المرعب . وحاول الأمير علي الصمود في جبال الحدة ، لكن الوهابيين احرزوا انتصاراً ساحقاً فتح الطريق الى مكة التي سقطت في ايدي الوهابيين في مطلع شهر تشرين الأول ، بعد ان فرّ منها الملك حسين وحكومته . فأذعن الملك الشيخ لسخط الجماهير ، ورعب الشعب ولمشيئة القدر ، وتنازل عن العرش لولده علي الذي اصبح ملكاً على الحجاز ، فلعله ينقذ ما يمكن انقاذه ، ولعل تنازل الحسين يحمل ابن سعود على العدول عن المضي في تنفيذ مشروعه لاحتلال الحجاز .

وهكذا غادر الحسين ميناء جدة ، على ظهر باخرة بريطانية ترافقه عائلته وصناديق ذهبه التي قيل انها اربت على الخمسة عشر صندوقاً على حد تعبير كثير من المؤلفين البريطانيين ليحل العقبه منفياً من البلاد التي احبها ، وعاش فيها ، وليقضي ما تبقى من حياته اسير الانكليز الذين ساعدوه في البداية عندما تولى عرش الحجاز ، ثم كان لهم الأثر الاكبر في انزاله عنه .

وهكذا انقلبت خطط فيلبي وروزيتا رأساً على عقب ، ويتحدث فيلبي عن هذا الموضوع في كتابه « اربعون سنة في الصحراء » فيقول : « كانت الحكمة تقضي علينا بإلغاء مشروعنا ، لكن سقوط الحكم الشريفي الفوري

سيؤدي من الناحية الثانية الى نجاحه ، أو على الأقل الى عدم تزايد مصاعبنا . ولم يكن في وسعنا ان نتصور الهدوء الذي سيلي هبوب العاصفة وانفجارها ، وكنا قد قطعنا شوطاً بعيداً في تنفيذ المشروع ، مما اغرانا بالمضي فيه وعدم التراجع . فقررنا سواء اكنا على خطأ أو صواب المضي ، على الرغم من ان الظروف الجديدة اقتضت منا ان نحيطه بالسرية الكاملة . فبالنظر الى حراجة الوضع السياسي في الجزيرة العربية ، كان من المتعذر علينا ان نأمل في ايـة مساعدة من الحكومة البريطانية ، ان لم نأمل في معارضتها ، وهو ما اثبتت الأيام التالية ، وقوعه فقررنا تبعاً لذلك ان نسافر على انفراد كل الى مكان فتذهب روزيتا مع خبير الخرائط ، الى البحرين لتنتقل منها الى القطيف على ساحل الاحساء لمقابلتي فيها ، وأذهب انا الى الحجاز .

« وساعدني السير ارنولد ولسون الذي كان يحتل آنذاك ، مركزاً مرموقاً في شركة البترول ، الانكليزية الفارسية ، في الحصول على مكان في احدى بواخر الشركة الى بندر عباس ، على الساحل الفارسي الجنوبي . وغادرت لندن في الخامس عشر من تشرين الاول ، لابدأ تلك المغامرة العظيمة ، على الرغم من ان بندر عباس ، كان آخر مكان اريد ان اذهب اليه .

وعندما وصلنا الى بور سعيد وصلت الى مسامعي انباء توقع احتلال مكة في كل لحظة ، وتفاءلت كل التفاؤل اذ ادركت ان احتلال الوهابيين لمكة سيؤدي الى انتقال ابن سعود اليها ، ليشرف بنفسه على الاوضاع في الحجاز ، وكان هدفي الاول ان اجتمع الى الرجل ، وان احصل منه على الاذن اللازم للبدء بالرحلة . وسنكسب وقتاً ثميناً اذا تمكنت من الحصول على هذا الاذن بسرعة ، وسافرت براً من الحجاز الى ساحل الاحساء لمقابلة روزيتا ، للبدء بالرحلة . ولهذه الاسباب كلها فقد عرضت على الدكتور ناجي الاصيل ، ممثل حكومة الحجاز في لندن ان يسمح لي بالسفر الى جدة ، وان احاول بوصفي صديقاً للفريقين التوسط بينهما للوصول الى حل سلمي للنزاع لاسيما وقد تنازل الملك حسين عن العرش وغادر الحجاز .

« وكان الملك علي الذي ارتقى العرش في الخامس من تشرين الأول في وضع غريب جعله يتعلق بأي خيط من خيوط الأمل ، فوافق فوراً على اقتراحي الذي قدمته بكل ما لدي من سلامة نية وطوية . وقد جاءت الانباء ونحن في بورسعيد تقول ان احتلال مكة قد تم بصورة سلمية بعد ان انسحب عنها الملك علي الى جدة ، وقيل ان الهجوم على جدة كان منتظراً في كل لحظة ، وتضاعف أملي في ان أصل اليها ، لأرقب النهاية المحتومة .

« وكان من العسير علي أن اجد باخرة تقلني من بور سعيد الى جدة ، فوافق قبطان الباخرة التي حملتني من انكلترا على المرور على مقربة من جدة شريطة ان ارتب زورقاً يحملني منها الى الميناء . وأبرقت الى جدة طالباً ارسال الزورق ، ثم غادرت بورسعيد قبل ان اتلقى الرد ، ووصلنا الى الساحل الحجازي صباح الثامن والعشرين من تشرين الأول وبدا قارب في عرض البحر يحاول الاقتراب من سفينتنا وسرعان ما نقلني القارب الى الميناء حيث استقبلت استقبالاً حافلاً ، فمضيت فوراً الى حضرة الملك عليّ الذي اقبل علي يعانقني عناقاً حاراً » .

هذه هي الرواية التي لقي فيلبي الكثير من العناء في وصفها وتأليفها ، حتى تظهر بمظهر القصة المنطقية ، التي تتفق مع العقل ، ولا تخرج عن حدود المنطق . ووقائع القصة صحيحة كل الصحة لكن الخيوط التي تربط بينها خيوط واهية سرعان ما تنهار أمام كل تمحيص وتدقيق .. واستدلال ، يقوم على اساس شطحات فيلبي نفسه في كتاباته واعترافاته .

فقد اعترف فيلبي في اكثر من موضع بأنه حدد ستة شهور بعد فشل مؤتمر الكويت لبدء هجوم ابن سعود على الحجاز ، واذا ما تبينا ان المؤتمر قد فشل في الشهر الرابع من تلك السنة وان الهجوم قد وقع في الشهر العاشر من السنة نفسها ، ادركنا ما في نبوءة فيلبي من توافق ودقة ، حتى في تحديد التاريخ . ولو اقتصر الأمر على توقع الهجوم ، دون تحديد موعده بالضبط ، لقلنا انه مجرد نبوءة تقوم على الاستدلال والاستنتاج .. ولكن هذه الدقة تعني اكثر من مجرد استنتاج .. وهو ما يدلل عليه المنطق كل الدلالة .

واعترف فيلبي في اكثر من مكان ، كما برهنا في الفصول السابقة ، بأن بريطانيا كانت قد قررت زوال عرش الحسين في الحجاز لاسباب عدة ، حاولنا ايضاحها في اكثر من مكان ، فإذا ما أخذنا هذا الاعتراف بعين الاعتبار ، تبيّن لنا ان التخطيط والتوقيت كانا قد وضعا قبل عهد طويل من بدء الهجوم ، بل من استقالة فيلبي من منصبه في الاردن .

ثم نتساءل ، وهذا من حقنا ، لماذا قرر فيلبي القيام برحلته التي كان يحلم فيها كما يقول منذ سبع سنوات ، في نفس الوقت الذي اعلن هو فيه دون غيره أن هجوم ابن السعود سيقع فيه على الحجاز . لاريب في ان فيلبي يدرك كل الادراك ، ان مثل هذه الرحلة ، الخطيرة في كل شيء لا يمكن ان تتم في وقت مضطرب يستعر فيه اوار الحرب في صقع من اصقاع الجزيرة العربية ، وينشغل فيه صديقه ابن سعود في اعظم مغامرة قام بها ويقوم بها في حياته . واذا افترضنا جدلاً ان فيلبي لم يكن واثقاً من ان الحرب ستنشب في الوقت الذي حدده هو دون غيره ، لنشوبها وانه قرر القيام برحلته وهو واقع تحت تأثير الشك في امكان نشوبها ، فلماذا اصّر على المضي فيها بالرغم من انتشار الانباء في كل مكان بوقوع الحرب بين نجد والحجاز ، واحتلال الوهابيين للطائف ومكة ، مع ادراكه باستحالة القيام بها في مثل هذه الظروف ، وهو ما اثبتت الوقائع التالية صحته .

انه يعترف ضمناً ان الحرب لن تطول ، وان انتهاءها بسرعة سيمكنه من القيام برحلته . اذن فهو يعرف مسبقاً نتيجتها التي يصفها هو « بالحتمية » ، ولكن على الرغم من معرفته هذه ، وعلى الرغم من « حتمية النتيجة » نراه يتطوع مختاراً لاصلاح ذات البين ، بين السلطان ابن سعود والملك علي ، ويعرض وساطته ، ولكن على من ؟ على الملك علي ، الضعيف المشرف على الغرق ، الذي يتمسك بأي خيط واه من الأمل قد يعرض أمامه ، وهو لا يذكر شيئاً عن اقتراح يقدمه الى ابن سعود للقيام بدور الوساطة ، مع العلم بأن ابسط قواعد المنطق ، تفرض على الوسيط ان ينال موافقة الفريقين المتخاصمين قبل

الشروع بوساطته . لكن فيلبي يعرف مسبقاً « حتمية » النتيجة ، وان ابن سعود لا يريد اقل من زوال عرش الهاشميين في الحجاز .. وهنا تقف علامات الاستفهام الكثيرة امام المقصود من هذه الوساطة ، في قضية حكم سلفاً على نتيجتها.

ثم .. يتكرم السير ارنولد ولسون ، صاحب المركز المرموق في شركة بترول فارس، بتأمين سفر فيلبي من انكلترا الى مسرح الحوادث، كما يتفضل قبطان الباخرة التي يستقلها بالموافقة على الاقتراب الى اقرب حد ممكن من الساحل الحجازي ليتمكن فيلبي من الانتقال الى الزورق الذي قد يبعث به الملك علي اليه لينقله الى جدة من الباخرة ، وكل ذلك في جو من السرية والكتمان مخافة ان تعارض الحكومة البريطانية في ذهابه الى جدة كما يقول هو ، فاضحاً نفسه من ناحية اخرى عندما قال ، انه أبرق من بورسعيد الى جدة طالباً إرسال الزورق ليقله من الباخرة الى الميناء. ولعله نسي عندما كتب ذلك ان بريطانيا كانت هي المسيطرة عام ١٩٢٤ على مصر، وبورسعيد احدى مدنها ، وان البرقية التي بعث بها لا يمكن ان تفلت من عيون الرقابة البريطانية المفروضة آنذاك على مصر في اعقاب ثورتها ، ان كان فيلبي بحجمه الكبير، قد فلت من رقابتها وأحاط نفسه بسرية وكتمان عن اعين مخابراتها وعيونها المنتشرة في كل مكان .

هذه هي الخيوط الواهية في القصة كلها .. انها تحسر النقاب عن حقيقة لامرية فيها ولاشك ، وهي ان اليد الخفية كانت هي التي حكمت على عرش الحسين بالزوال ، وهي التي اوعزت الى ابن سعود بالهجوم على الحجاز ، أو اومأت اليه بهذا الهجوم . ان رمنا الدقة في التعبير ، وانها هي عينها التي كانت تعرف موعد الهجوم ، فأوعزت الى رجلها فيلبي بأن يستقيل من الاردن ، متخذاً صفة المدافع عن الهاشميين ، ثم رسمت له بقية الخطة التي حاكها هو بكل ما عرف عنه من دهاء وخبرة ومران، ليصل ارض الحجاز في صورة الرجل المغضوب عليه من بلاده ، وليقوم بالدور الذي بقي عليه ان يؤديه وهو الاسراع في الاطاحة بعرش الحجاز .

ونعود الى قصة فيلبي نفسها .. لقد وصل جدة ، ونزل الى شاطئها ،

فاجتمع فور وصوله الى الملك علي ، وبدت له الصورة قاتمة عابسة بالنسبة الى مضيفه فالهجوم الوهابي على الميناء متوقع بين عشية وضحاها . والشعب في البلدة خائف مرتعد ، فقد رأى بعينيه ما حل بأهل الطائف على ايدي الوهابيين . وهو على الرغم من ابتهاجه بخلاصه من حكم الحسين واستبداده في رأيه ، لم يكن ليرغب في التعرف الى الوهابيين . وقد فرّ من البلاد كل قادر على الفرار لينجو من ويلات الحرب ، وليقضي فترتها في ربوع السودان او الارتيريا القريبتين .

وكانت قد تألفت في المدينة في غضون ذلك حكومة شعبية ، لمعالجة الوضع . وكان الملك علي على استعداد لقبول اية تسوية تضمن له البقاء على العرش مهما صغرت البقعة التي يحكمها ، وبدأت الفئات والجماعات المحلية تتصارع في هذا الظرف من الفوضى الضاربة اطنابها في المدينة ..

ويتحدث فيلبي عن هذه الحقبة فيقول : « وكان من المنتظر ان اقوم بدور رئيسي في هذه المسرحية ، ولكن متاعبي سرعان ما بدأت بعد وصولي بساعات قليلة ، فقد تلقيت من المستر بولارد ، قنصل حكومة صاحب الجلالة البريطانية ومعتمدها الرسالة التالية :

« ارجو ان ابلغك يا سيدي ، ان حكومة جلالته عندما نما الى علمها خبر مجيئك الى جدة ، قد امرتني بابلاغك انه بالنسبة الى الاوضاع المضطربة في أواسط الجزيرة العربية ، فإنها لا يسعها ان تسمح لك بالدخول الى داخل الجزيرة . اكون ممتناً إذا اشعرتني بوصول هذا الكتاب اليك » .

« وكانت الحكومة البريطانية قد ابلغت كلاً من الملك علي والسلطان ابن سعود ، قبل وصولي بأيام قليلة ، بأنها لم تسمح لي بالمجيء ، وانني غير مخول بالتفاوض باسمها . فأيدت الحكومة بابلاغها هذا ما سبق لي ان اعلنته من ان مهمتي شخصية محض ، ولا تحمل أي طابع رسمي . وقد اضحكني جداً ان استقبل الآن كفرد عادي ، بأذرع مفتوحة ، في نفس المكان الذي رفضت فيه قبل سنوات خمس كممثل رسمي للحكومة البريطانية مخوّل بالتفاوض

لايجاد تسوية سلمية للنزاع القائم بين الملك حسين والحاكم الوهابي . ولو كان الحسين معقولاً انذاك لما ترك ولده وخليفته الآن « اعزلاً أمام اعدائه » ، ولظلت سياسة بريطانيا المؤيدة للاشراف باقية دون تعديل رغم ما كان يوجه اليها من انتقادات مرة . ومن الغريب ايضاً ان يكون اكثر هؤلاء النقاد شدة وحدة ، هو الصديق الوحيد الذي وجده الهاشميون عند الحاجة على استعداد لمد يد المعونة في ساعة المحنة . والأغرب من كل هذا ، ان تشرع الصحف الاسلامية في مهاجمة هذا الصديق ، واتهامه بأنه عميل بريطاني متستر ، بينما تواصل الصحف البريطانية الرجعية وصفه بالنهاز للفرص الذي يحاول الدخول الآن الى المسرح الذي خرجت بريطانيا منه يائسة قانطة . وأود هنا ان أقول ان سياسة الحياد المطلق التي اتبعتها بريطانيا قد كلفت مدينة جدة غالياً اذ فقد فيها ما يربو على الخمسة والعشرين الفاً ، ذهبوا ضحية المرض والجوع والشقاء في سنة كاملة من الحصار ، انتهت وقد ركع أهل المدينة يتوسلون طالبين الماء ، وباحثين حتى عن الشعير أو العلف ليأكلوه بدلاً من طعام الانسان ».

انها تتمة الصورة بل الفصل الجديد من المسرحية ، وعلى الرغم من العبارات التي نقلتها والتي تنضح بالألم ، والاتهام ، والحملات الشديدة ، لكنها لا تكفي لاعطاء الحكم بالبراءة ، وان كانت ذريعة لتخفيف الحكم .

ومن المحتمل ان يكون قد نشب هناك خلاف في الرأي بين فيلبي وبين الجالسين في لندن ، حول توقيت نهاية الحرب ، فقد كان في وسع بريطانيا ان تفرض هذه النهاية التي أرادتها وخططت لها بسرعة ، وقبل ان تتعرض مدن الحجاز لمثل هذه الكوارث من المذابح والحصار والمجاعة ، ولكنها لا تريد ذلك ، لأنها لا تود ان تظهر أمام من تبقى من اصدقائها الهاشميين في بغداد وعمان ، بمظهر المسؤول عن زوال دولتهم في الحجاز ، ولو نظرت بعيداً كما نظر فيلبي ، لأدركت ان من الخير انهاء الحرب بالسرعة الممكنة ، تجنباً لويلاتها وكوارثها ، وان ما تخافه من ضغائن في عمان وبغداد ، لا تلبث ان تذوب وتنسى أمام العروش والتيجان ، كما اثبتت الأيام صحته وصدقه .

وكانت النتيجة « حتمية » على حد تعبير فيلبي ، فقد اتضحت نتيجة المعركة منذ البداية ، وكان موضوع تسوية سلمية أمراً مستحيلاً ، إلا على أساس شرط واحد ، رفض الملك علي ومستشاره التفكير فيه ، حتى ارغموا في النهاية عليه فلقد تقرر مصير عرش الهاشميين في الحجاز ، ولم يكن في وسع اية قوة بشرية انقاذه ، ومع ذلك فقد خيل للفريق تحسين الفقير ، قائد الجيش الهاشمي ان بوسعه انقاذ عرش مولاه .

ويقول فيلبي : « كان القائد العسكري مغتراً بالدور الذي لعبه في معركة خط شطالجة في البلقان ، ابان الحرب الكونية ، وخيل اليه ان في وسعه ان يصمد امام الجيوش الوهابية البالية السلاح على حد تعبيره ، فطاف بي بالمراكز الدفاعية التي اقامها بالاشتراك مع رئيس مهندسيه التركي الاصل نورس بك ، حول المدينة .

« أما حاكم المدينة عبدالله علي رضا ، فقد اعرب لي عن أمله الشديد في نجاح وساطتي ، مؤكداً شكه في استحالة الدفاع عن المدينة بهذه القوات المأجورة التي جمعها الفريق تحسين من العاطلين عن العمل في سوريا وشرق الاردن . أما قريبه قاسم زينل ، فقد ابلغني بكل صراحة ان الأمل الوحيد للحجاز يقوم في انتصار الوهابيين الكامل ، وهو انتصار كان يعمل لتحقيقه بكل ما عنده من نشاط ، مما قاده الى المحكمة بتهمة الخيانة العظمى . فأدين وصدر عليه الحكم بالاعدام ، ولكن هذا الحكم لم ينفذ قط . أما القوة الفعلية في تأمين الدفاع عن المدينة فقد تجمعت في يد محمد الطويل ، الرجل العريض الثراء ، ووزير المالية الذي كان ينفق ثروته بسخاء ، دفاعاً عن العهد الهاشمي . وقد ظل مخلصاً لقضيتهم حتى النهاية .

« ولم أشعر في البداية بالرغبة في معارضة رغبة الحكومة البريطانية التي ابلغت الي بواسطة القنصل ، مخافة ان تثأر الحكومة مني ، فتقطع عني الراتب التقاعدي الذي لم اكن قد بدأت بتسلمه بعد ، لأنني كنت حتى ذلك الحين لا أزال في مرحلة الاجازة ، ولو اقدمت الحكومة على طردي من الوظيفة ،

لحرمت من راتب التقاعد فيما بعد .

« يضاف الى هذا كله ، ان ابن سعود لم يكن قد اتجه الى مكة بعد . وقد اصدر أوامره الى قائده المشهور خالد بن لؤي ، بعدم القيام بأية حركة هجومية جديدة باتجاه جدة . ولذا فقد نصحت الملك علي بالامتناع عن القيام بأي عمل عسكري . انتظاراً لما يصلني من رد على رسالتين بعثت بهما الى خالد والى ابن سعود ، اقترح فيهما ان اجتمع بأي منهما ، في اي وقت يختارانه لبحث الوضع وبعد اربعة أيام تلقيت الرد الثاني من خالد :

« من خالد بن لؤي بن منصور ، الى السيد المحترم فيلبي . لقد تلقينا رسالتك ، وفهمنا محتوياتها ، أما الرسالة الثانية فسنبعث بها بالسرعة الممكنة الى السلطان عبدالعزيز حفظه الله . وستتلقى مع رسالتي هذه رسائل سلموها الى القناصل . انها تطلب ازاحة علي بن الحسين من جده ، او عزل رعاياهم عنه ، نظراً لمحاولاته مقاومتنا ، ومقاومة رعايانا ، ووقف المؤن الينا ، واثارة قبيلة حرب علينا . انني في انتظار ردّك وردّهم ، والصلاة والسلام على النبي محمد وآله وصحابته .

(عـام ١٣٤٣ هجري) .

« وعلى الرغم مما في هذه الرسالة من تهذيب ، إلا أنها لم تكن مشجعة بالنسبة للملك علي ، ووجهة نظره ، مع انها تركت الباب مفتوحاً أمام مفاوضات مقبلة . وبدا ان كل شيءٍ متوقف على وصول ابن سعود الى مكة . لكن علياً ومستشاريه استغلوا فرصة الهدوء ، فأخذوا يحصنون المدينة ويعدونها لحصار طويل . لقد ذاب جيش الملك حسين في الهواء ، منذ المعركة الأولى ، وكان قائده السابق صبري باشا المهندس البغدادي الأصل اول من فر من الميدان . وفي غضون ذلك كانت الجهود تبذل في شرق الاردن وفلسطين وسوريا ، لتسجيل المتطوعين للعمل في جيش الشريف ، ومعظم هؤلاء كانوا من المغامرين الذين لم يسبق لهم أي تدريب . وحاول الأمير عبدالله في شرق الاردن مساعدة أخيه بقدر امكانياته . لكن هذه المساعدات لم تكن مجدية ، ولا نابعة عن القلب ،

لاسيما وان السلطات البريطانية كانت تعمل على عدم تشجيع التطوع في البلاد الواقعة تحت انتدابها ، ومع ذلك فقد استمرت عملية التطوع ، ولكن على نطاق غير مجد وغير نافع ، لاسيما وان الأموال لم تكن متوفرة لدفع رواتب هؤلاء المتطوعين » .

ويبدو ان الملك علي قد شعر بنوع من الاطمئنان لهذا الجيش الجديد الذي حشده داخل المدينة ، ولهذه التحصينات الدفاعية التي اقامها القائد الجديد على شكل قوس يمتد من البحر الى البحر ، حول الميناء تدعمه الاسلاك الشائكة ، واعشاش المدافع ، والمدافع الرشاشة والالغام .

واقيم في الرابع عشر من تشرين الثاني عرض عسكري في المدينة ، ووقف الملك علي على شرفة قصره حيث تلقى تحية جنده الذين اشتركت معهم فصائل من البدو ، على ظهور الابل . أما القوة النظامية فلم يكن عدد افرادها ليربو على الالف جندي ، ومع ذلك فقد أحس أهل جدة بشيء من الاطمئنان ، وعادت الابتسامة الى وجوههم بعد ان غابت عنها طويلاً ، واعتقدوا ان التاريخ سيعيد نفسه ، وان مدينتهم التي صمدت للوهابيين في مطلع القرن التاسع عشر ، رغم اجتياحهم لجميع انحاء الحجاز ، ستصمد من جديد .

وكانت حكومة الملك حسين قبل أمد طويل ، قد ابتاعت بواسطة الجنرال السير فوستر نيولاندز ثلاث طائرات وكان من المعروف ان هذه الطائرات هي الآن في طريقها الى جدة . وكانت الحكومة البريطانية قد فرضت حظراً على تصدير الاسلحة الى أي من الفريقين المتحاربين بحجة الحياد المصطنع الذي اتخذته ، ولكنها لم تستطع الحيلولة دون إرسال هذه الطائرات التي تم شراؤها منذ زمن بعيد .

ويقول فيلبي أنه حاول اقناع الملك علي بوقف استفزاز الوهابيين بهذه الاستعدادات العسكرية ، وبتحريض قبيلة حرب ، ومنع المؤن من الوصول الى مكة ، ولكن محاولاته لم تؤد الى نتيجة مثمرة ، ولكنه تمكن اخيراً من اقناعه بأن يرسل رداً الى خالد بن لؤي يقترح فيه عليه الاجتماع به في أي

مكان يختاره للبحث في عقد هدنة موقتة .

واقترح فيلبي ان تضمن الهدنة الموقتة اعادة فتح طرق المواصلات بين جدة ومكة ، وتبادل الاتجار بينهما مما يستفيد منه الفريقان ، ويؤدي الى عودة الحياة العادية . وقد ايده في رأيه هذا الشيخ فؤاد الخطيب وزير خارجية الحكومة الهاشمية الذي كان قد عاد مؤخراً من بعثة الى طهران لتهدئة الحكومة الفارسية التي اضطربت من جراء التطورات الاخيرة في الحجاز . وقد جاء الى جدة مع الشيخ فؤاد الكاتب العربي المعروف وفيلسوف الفريكة امين الريحاني ، ليعمل ايضاً بحكم صداقته مع ابن السعود ، في اعادة السلام الى ربوع الجزيرة . وسرعان ما انضم الى هذين الوسيطين وأعني بهما فيلبي وامين الريحاني ، وسيط ثالث هو السيد طالب النقيب ، جاء من اوروبا حيث كان يقضي حياة مترفة ، بعد فترة قصيرة في المنفى في سيلان .

ويصف فيلبي هذه الحقبة فيقول : « ولقد برهن مجيء طالب على انه كان ترياقاً ثميناً لمعالجة الروح الاستفزازية التي اخذت تظهر بشدة وعنف في أقوال اعضاء الفريق المؤيد للحرب والذين كان الملك علي قد اخذ يكثر من الاصغاء اليهم مدفوعاً برغبته اليائسة في رؤية الوضع يعود الى ما كان عليه بفضل القوة العسكرية . لقد كان سليم الطوية الى الحد الذي يصل درجة السذاجة . فقد ادى تأخر ابن السعود في الوصول الى الحجاز ، الى تساؤل الكثيرين عما اذا كانت قوة الوهابيين ليست من الأمور المبالغ فيها . على العموم ، كانت غالبية الشعب متفائلة في وجهة نظرها ، ولكن كان ثمة فريق صغير من الانهزاميين الذين يريدون انتصار ابن السعود وزوال الاسرة الهاشمية التي لا يرون فيها أي موضع للأمل في المستقبل . وكان البديل الوحيد الظاهر للعهد القائم قيام ادارة وهابية . ولذا لم يضع زعماء هذا الفريق الوقت في اقامة اتصالات مع الوهابيين وتزويدهم بالاخبار . لقد كانت اللعبة خطرة كل الخطورة ، وكان فشل الملك علي وحكومته في سحق هذه الحركة في بدايتها ، دليلاً على ضعفهما وعلى افتقارهما للتأييد الشعبي . وقد برزت في هذه الحركة اسرة من اعرق اسر جدة ، وكان من

الغريب ان يظل احد رجالها ، وهو الحاج عبدالله علي رضا ، قائمقاماً لجده طيلة مدة الحصار . وعلى الرغم من انه لم يكن مشتركاً في المؤامرة نفسها ، إلا أنه لم يكن يخفي رأيه في ان مصلحة الشعب يجب ان تكون مفضلة على مصلحة الأسرة الحاكمة ، وانه اذا كان السلام متوقفاً على مغادرة الملك علي للبلاد ، فيجب ان يغادرها ، بينما كان قريبه قاسم زينل العضو السابق في مجلس المبعوثان التركي والوجيه البارز في جده يتولى زعامة المنشقين على العهد » .

وكان الحزب الوطني هو الذي ارغم الملك حسين على التنازل عن العرش ، وهو حزب يضم وجوه البلاد واعيانها . وكان الأمل السائد في ان ابن السعود سيرضى بهذا الحل ، ويقبل بتسوية سلمية لقضية الحجاز ، فلما اتضح الآن ان ابن السعود لا يريد ان يتراجع عن المكاسب التي حققها ، بدأت الانقسامات في صفوف الحزب نفسه ، فقد ظل الشيخ محمد الطويل مديرالجمارك والخزينة مع اصدقائه على اخلاصهم للعهد الهاشمي ، وكانوا يطلبون سلاماً قائماً على الشرف . وتولى قاسم زينل ، من الناحية الاخرى قيادة حركة داخل الحزب تطالب باعادة النظر في سياسته .

وقد حملت هذه الحركة جماعة العسكريين على قطع الاتصالات بين جدة ومكة ، ووقف العلاقات التجارية بينهما ، اذ ان هذه العلاقات كانت تستخدم كستار لاخفاء اتصالات اخرى ذات طابع سياسي بين جماعة قاسم زينل وبين الوهابيين .

وتكهرب الجو في جدة ، ولاسيما بعد الحكم على قاسم زينل واتباعه الاربعة ، بالاعدام . فقد اصر تحسين الفقير قائد الجيش ووزير الحربية على وجوب تنفيذ الحكم ، ولكن الملك علي سرعان ما اصدر أمره بالعفو عنهم . ويقول فيلبي ان كلاً من المتهمين قد دفع ثمناً لهذا العفو ، وان الثمن كان ألفي جنيه تبرع بها كل منهم لمشروع الدفاع عن المدينة .

وجاءت الانباء من الرياض تقول ان ابن سعود قد غادرها في طريقه الى الحجاز ، واتضح ان اللحظة الحاسمة في التقرير بين الحرب والسلام قد دنت .

وأخذ الجو يتأزم في المدينة ، وتناقلت الانباء ايضاً ان خالد بن لؤي بعد الأوامر التي أصدرها بوقف الاتصال بين جدة ومكة ، قد اعلن حالة الطوارئ ، ووضع جيشه في حالة الاستعداد خارج العاصمة .

وتلقى الملك علي برقية من والده الملك حسين الذي كان لا يزال مقيماً في العقبه يطلب اليه فيها ان يحافظ ولو على قطعة صغيرة من الارض ، التي انبتت الثورة العربية . ويقول فيلبي ان الشيخ فؤاد الخطيب أعد رداً على البرقية اضحك الجميع بما فيهم الملك علي نفسه ، فقد ذكر ان الدفاع لا يمكن ان يؤمن « إلا إذا تكرم جلالة الملك الوالد بارسال مبلغ من المال ، من صناديق الذهب المكدسة لديه والتي نقلها معه عندما غادر الحجاز » . ويقدر فيلبي هذا المبلغ بثمانمائة الف جنيه استرليني ذهباً ، وفرّها من مساعدات بريطانيا له أيام الحرب وبعدها ، ومن رسوم الحج .

وبدأت طلائع القوات الوهابية تقوم بعمليات استكشافية باتجاه جده ، فاقتربت ذات مرة من المراكز الأمامية لقوات الشريف في رغامة التي تبعد سبعة أميال عن جدة وجاء قائد المركز ليروي انتصار رجاله البالغ عددهم نحواً من مائة وخمسين على ثلاثين من الهجّانة الوهابية . وتمكن احد الأشراف من الفرار من مكة والوصول الى جدة ، فروى ان خالد بن لؤي يعد قوة كبيرة لاحتلال آبار الوزيرية القريبة من رغامة . وقرية بريمان الواقعة على مقربة من جدة .

ويقول فيلبي في هذه المرحلة أن السلطات العسكرية الشريفية بعثت تستشيره في امكان قيام الطائرة القديمة البالية التي تملكها باستطلاع فوق المنطقة فكان رده ان « ليس من شأنه تقديم المشورة في الشؤون العسكرية الخالصة وان كل ما يهمه هو اجراء المفاوضات لعقد الصلح » .

انه موقف ينسجم كل الانسجام مع هوى فيلبي السعودي ، ومع حقيقة مهمته في جدة ، فهو لم يأت اليها لنصرة الملك علي ومساعدته في الحرب ضد خصمه ابن السعود، وانما جاء ليعمل على الاسراع في النهاية « الحتمية ».

واذا لم يكن حقاً يهتم بالشؤون العسكرية فلماذا كلف نفسه قبل أيام ، كما رأينا قبل قليل، عناء الطواف بتحصينات الدفاع التي اقامها الجيش الهاشمي عن المدينة، والاطلاع عليها ، الا اذا كانت غايته الاطمئنان على انها لن تصمد امام الهجوم الوهابي المنتظر ، وإلا اذا كانت له غايات أخرى قد نتحدث عنها فيما يلي من احداث .

ويتحدث فيلبي عن حادث الطائرة فيقول : « وسمعت في ساعات الصباح الباكر ، صوت الطائرة وهي تحوّم في السماء وتطلعت اليها من النافذة ، ورأيتها تتجه نحو بريمان في الطريق الى عصفان ، ثم تختفي وراء التلال باتجاه وادي فاطمة ، والحدة والبحرة ، لتعود بعد قليل الى قاعدتها . وخيل الي ان الوهابيين لو رأوا الطائرة وسمعوا بها ، كما ثبت فيما بعد انهم رأوها ، إذ زعم طيارها الروسي شيريكوف ، انه حلق فوق مكة لاعتبر الوهابيون ذلك عملاً من أعمال التحدي والعداء . وكنا في الليلة السابقة قد تناولنا طعام العشاء مع الملك، وفي معيته لفيف من كبار موظفيه، ودار الحديث اثناء العشاء حول فكرة ارسال الطائرة في جولة استطلاعية في سماء مكة ، وهي الفكرة التي اقترحها الفريق تحسين وزير الحربية . وقد بلغني شيريكوف انه تلقى أوامر بإلقاء بعض المنشورات على مدينة مكة وعلى عدد من مضارب البدو حولها . ولما كان موضوع المفاوضات لا يزال معلقاً لم يبت فيه ، فقد اعربت عن رأيي في ان هذا العمل يعتبر منطوياً على الحمق والطيش . وبدا لي ان جميع الحاضرين قد ايدوا رأيي ، فقد كان الفريق تحسين غائباً عن المأدبة ، ولكنه ما عتم بعد مغادرتي ان جاء ليقدم تقريراً الى الملك عن الاوضاع العسكرية. ويبدو ان الملك قد وافق اخيراً على اقتراح ارسال الطائرة ، فقد اعتقدوا أن مجرد رؤية الوهابيين للطائرة سيخيفهم ويرعبهم ..

« وجاءني رسول من محمد الطويل، في نفس اليوم، يقول ان الخطأ لن يتكرر، واقترح عليّ ان اقدم في المستقبل مشورتي خطياً مخافة أن تكرر الاخطاء. ولكنني رفضت ذلك ، قائلاً ان ما اقدمه من مشورة هو لمنفعتهم على اعتبار انهم

يريدون السلام حقاً . واذا كانوا يرفضون هذه المشورة فهذا شأنهم لا شأني ، وعليهم ان يتحملوا مسؤولية النتائج . واذا كانوا عازمين حقاً على الحرب ، فليس هناك من مبرر لبقائي للقيام بالمفاوضات .

« وزارني فؤاد الخطيب نفسه في المساء ليقول لي ان قضية الطائرة كانت خطأً كل الخطأ ، وليؤكد لي ان هذا الخطأ لن يتكرر . واغتنم الفرصا اليشكو الي من موقف الحياد الذي تقفه الدول الاجنبية في شخص ممثليهة لموجودين في جده . فذكر ان القنصل البريطاني بولارد قد امتنع عن مقابلة الملك منذ ثلاثة اسابيع ، على الرغم من ان الملك قد استدعاه . أما القنصلان الفرنسي والايطالي ، فقد كانا اكثر كياسة من زميلهما البريطاني . وقد قصدا الملك علي لزيارته مع قائدي اسطوليهما اللذين زارا جدة مؤخراً ، وهو ما تجاهل قائد الاسطول البريطاني القيام به عندما جاء الى الميناء في السادس عشر من الشهر نفسه وتجاهل اطلاق التحية المدفعية المعتادة . واضاف فؤاد الخطيب ان الممثلين الاجانب يواصلون الاتصال بالقائد الوهابي في مكة زاعمين لانفسهم هذا الحق ، ولكنهم يمتنعون عن اطلاع حكومة الملك علي على فحوى هذه الاتصالات » .

انه موقف ينسجم تمام الانسجام مع السياسة البريطانية التي تريد زوال عرش الحجاز . انها تتظاهر بالحياد في شخص قنصلها العام ، ويمتنع ممثلها حتى عن زيارة الملك الذي ما زال من الناحية الدولية رأس الدولة التي يمثل بلاده فيها ، بينما يواصل الاتصال بقائد القوات الغازية لبلاده . دون ان تعرف الحكومة فحوى هذه الاتصالات وكنهها . بينما يواصل فيلبي في الوقت نفسه تثبيط العزائم ، واضعاف روح المقاومة عن طريق النصائح التي يقدمها ، لتعجيل النهاية المحتومة ..

حقاً انه لموقف يفضح حقيقة النوايا والاهداف .. وقد ادركت الحكومة الهاشمية اخيراً حقيقة هذه النوايا ، كما جاء على لسان وزير خارجيتها في أحاديثه لفيلبي ، ولكنها كانت اضعف من ان تتخذ أي اجراء من أي نوع كان

فهي لا تستطيع ان تطرد القنصل البريطاني الذي يتصل باعدائها من بلدها ، ولا تستطيع ان تحول بين الاسطول وبين المجيء الى الميناء ، كما انها لم تتبين بعد حقيقة مهمة فيلبي القابع في وسطها الذي يحضر مجالسها ، ويطلع على أسرارها وينتقد وسائل دفاعها ، بحجة التوسط بينها وبين ابن السعود ، التي لم نره يقوم بصددها حتى الآن بأي عمل جدي ، سوى تلك الرسالة التي بعث بها الى ابن السعود والتي لم يتلق عليها رداً حتى الآن ، وهي وساطة ظاهرية ، صرفته حتى عن الهدف الذي ادعى انه جاء الى جدة لتحقيقه ، وهو القيام برحلته الى الربع الخالي على الرغم من انقضاء اكثر من شهرين على وصوله .

أما وصول الاساطيل البريطانية والفرنسية والايطالية الى الميناء ، وتجولها على مقربة منه ، فلم يكن القصد منه مساعدة حكومة الملك علي أو تأييدها ، او بث الطمأنينة في قلوب أهل جدة الخائفين ، وانما كان انذار الوهابيين بعدم التعرض لأهل جدة بالقتل والذبح عند احتلالهم للمدينة ، لأن فيهم عدداً كبيراً من رعايا هذه الدول . ولا ريب في ان الاتصالات التي قامت بين القناصل وبين القائد الوهابي كانت تنطوي على تأكيد هذه الناحية . وهي أمور كانت تتطلب بالبديهة اخفاءها عن مسامع حكومة الملك علي وانظارها .

ورغب فيلبي الذي لم يكن له شأن في القضايا العسكرية في ان يطلع على المناطق التي ستدور فيها رحى المعارك المقبلة ، وعرض رغبته هذه على الفريق تحسين الفقير الذي استجاب لها بكل سذاجة . فطاف فيلبي بالتحصينات الدفاعية في نزلة اليمانيه وآبار غليل ، وقرية بني مالك والرويس . ويقول فيلبي انه شعر اثناء طوافه بروح من القلق وعدم الاطمئنان تسيطر على مضارب بني حرب في السهل الواقع بين المدينة وهذه الحصون ، على الرغم من ان الملك علي كان قد وزع على هؤلاء البدو تلبية لنصيحة الشريف ناصر ، كميات كبيرة من الذخيرة التي سرعان ما باعوها الى الوهابيين في جدة .

وأرى أن من واجبنا ان نضع هنا الكثير من علامات الاستفهام أمام هذه الرغبة في زيارة المواقع العسكرية ، والاطلاع على أحوال البدو وحقيقة

عواطفهم ، لاسيما من رجل صرّح هو نفسه بأنه غير مهتم بالشؤون العسكرية ، وانه لا يهمه الا التوسط لإحلال السلام بين الفريقين المتحاربين .

وتلقى الملك علي في هذه الفترة برقية من السلطان ابن السعود مؤرخة في السابع عشر من تشرين الثاني ، ارسلت عن طريق البحرين ، وكانت موجهة الى الشريف علي ابن الشريف حسين .. وهذا نصها :

« انني لأجلك شخصياً كل اجلال ، ولكن معاملة والدك لأهالي نجد وغيرهم من المسلمين ، هي التي حملتني على اتخاذ هذه الخطوة التي اتخذتها . واذا كنت حقاً ترغب في السلام ، وتجنب اراقة الدماء ، فعليك ان تغادر الحجاز وان تنتظر قرار العالم الاسلامي . واذا قرر المسلمون عودتك ، او تعيين شخص آخر ، فسنقبل بقرارهم بكل سرور . أما اذا ظللت في الحجاز فإن مسؤولية ما سيحدث ، لن تقع على كتفي .

التوقيع عبد العزيز : سلطان نجد » .

ويتضح من هذه البرقية ، ان ابن سعود لم يكن ليرضى عن انهيار عرش الهاشميين في الحجاز بديلاً . أما القول بالحكم للمسلمين فهذه ذريعة لا تستند الى اساس ، اذ لا معنى للتحكيم الا عندوجود الخلاف . أما بعد انتهائه وسيطرة الأمر الواقع ، فلايظل هناك مجال لأي تحكيم وانما المجال كل المجال للأمر الواقع . ولو كان ابن سعود يريد حقاً تحكيم المسلمين . لوقف بالخلاف عند الحد الذي وصل اليه ، وهو احتلاله لجزء كبير من الحجاز ، يضم مكة المكرمة وفيها اقدس ما يتطلع اليه المسلمون ، وترك علياً فيما تبقى له من البلاد ، ثم اتفق معه على اختيار لجنة من كبار رجالات المسلمين تقضي في الخلاف بينهما وفقاً لما تراه في مصلحة المسلمين . ولكن ابن سعود كان قد حزم أمره على زوال عرش الهاشميين ، وكان فيلبي قد ادرك هذه النتيجة الحتمية ، فجاء متستراً بستار الوساطة التي لا مجال لها مطلقاً ليعجل بالنهاية المحتومة ، ويجنب

البلاد بقدر الامكان الضحايا التي تترتب على احتلال الوهابيين لها .

ويروي فيلبي هذه القصة الغريبة : « حلمت بعد ظهيرة ذلك اليوم الذي وصلت البرقية فيه ، ان الملك علي قد جاءني بنفسه ليقول لي بأنه اصبح مقتنعاً ، بأن القول الفصل في الخلاف سيكون للسيف . وانه قرر تبعاً لذلك الزحف على الوهابيين وعندما استيقظت من قيلولتي ، قيل لي ان الشيخ فؤاد الخطيب اوفد رسولاً يسأل عما اذا كان بامكانه ان يزورني. وقد جاء بالفعل يحمل البرقية ، وينقل الي عين العبارات التي سمعتها من علي في منامي. وقد خالفته وجهة نظره في فهمهم للبرقية ، وحذرته من ان اية حركة عسكرية مهما كانت استعداداتهم الحربية لن تكون في صالح العهد الهاشمي . واكدت له ان البرقية بما فيها من تهذيب في لهجتها ودقة في صياغة عباراتها ، لا تستبعد مطلقاً احتمال المفاوضات. وعندما مضيت في المساء لحضور مجلس الملك ، وجدته يائساً قانطاً يغلب عليه التشاؤم . وقد نصحته نصيحة صادقة ، بأن يذهب بنفسه الى ابن سعود ليبحث الوضع معه ، وجهاً لوجه ، ولكنه ردّ عليّ ، بأنه لن يلقي بنفسه في عرين الاسد ، مع ثقتي المطلقة بأنه لو ذهب الى هذا العرين لكان اميناً مطمئناً ، ولسمح له بالخروج منه والعودة الى جدة سليماً ، فيما اذا رفض شروط الأسد . لقد كانت الطريقة المثلى لانهاء النزاع ، أما الطريقة الثانية فهي التفاوض عن طريق الرسل . أما التفكير بالهجوم على الوهابيين بتلك القوة العسكرية التعيسة المتوفرة في جدة ، فقد كان جنوناً مطبقاً وسيتعذر الدفاع عن المدينة في حالة وقوع هجوم جدي عليها » .

هل هي نصيحة صديق أو عدو ؟ سؤال يقف حائراً على اللسان . ان ما يطلبه فيلبي الى علي ، الذي استقدمه واستقبله مفتوح الذراعين ، هو ان يقبل بالشروط التي يفرضها ابن السعود ، وهو يدرك ، أي فيلبي ، قبل غيره ان اقل ما يطلبه ابن السعود هو خروج علي من الحجاز وانهيار العرش الهاشمي . ومن هذا يتضح ان فيلبي كان يستعجل النتيجة « الحتمية » ، وكان يسعى في حالة رفض الملك علي لشروط ابن السعود ، الى انهيار جبهته الداخلية انهياراً تاماً ،

وهي جبهة حاول هو بنصائحه التي تحمل طابع الانهزامية اضعافها اكثر من مرة ، إذ ان مجرد مضي الملك علي الى معسكر خصمه طلباً للتفاوض ، كان كافياً للقضاء على ما تبقى من قوة في الروح المعنوية بين أهل جده وجيش الشريف . ولو كان فيلبي ناصحاً اميناً حقاً لاقترح وسائل اخرى لعل منها استثارة العالم الاسلامي للوساطة بين الخصمين ، عن طريق أو آخر ، أو وساطة عصبة الأمم التي كانت قد ظهرت الى حيز الوجود آنذاك ، أو ناشد الدول الكبرى التدخل للوساطة واجراء التحكيم على الرغم من التزامها موقف الحياد الظاهري .

وفي غضون ذلك ، كانت الاضطرابات قد بدأت تذر قرنها داخل المعسكر الشريفي . فقبيلة حرب ، وغيرها من القبائل البدوية الأخرى التي حصلت على السلاح والذخيرة من حكومة الشريف أخذت تحاول اللعب على الحبلين والاتصال بالوهابيين ، وهذا ما وقع بالفعل بالنسبة لأمير رابغ اسماعيل بن مبيريك ، الذي اوفد الرسل الى خالد بن لؤي ، مؤكداً له اخلاصه لقضية الوهابيين ، وأمد ابن السعود فعلاً بالمال والعتاد .

وشقت القنفذه ، الميناء الواقع الى الجنوب من جده عصا الطاعة ايضاً ، فأعلن قائد حاميتها انضمامه الى معسكر الوهابيين وخير رجاله بين العودة الى جدة ان أرادوا أو الى الانضمام الى صفوف الوهابيين . وهكذا عمت الفوضى جميع ربوع الحجاز ، مما حمل بعض أفراد قبيلة حرب على المطالبة بالاستقلال . فما كان من الوهابيين إلا أن وجهوا اليهم ضربة قاصمة لم يفيقوا منها ابداً .

وكان ابن السعود إبان هذه الاحداث كلها يسير الهوينا في طريقه الى الحجاز فأوفد رسله الى المدينة المنورة طالباً استسلامها على ان تسلم الحامية جميع اسلحتها ومعداتها وذخائرها ، وجهاز ارسالها اللاسلكي ، ومستودعاتها الحربية الى قائده في المنطقة صالح بن عقيل الشمري ، الذي كان قد وصل على رأس قوة بدوية الى الحنكية .ووعد ابن السعود مدينة الرسول الاعظم مقابل هذا الشرط ، بالأمان والنجاة من النهب والسلب والقتل. ونقل قائد حامية المدينة

هذه الرسالة الى الملك علي مؤكداً له عزمه على المقاومة ، وقدرة المدينة على الصمود لحصار طويل .

ووصلت في تلك الاثناء الى جده الطائرات البريطانية الثلاث التي سبقت الاشارة اليها يرافقها طيار روسي آخر ، لكن هذه الطائرات كانت خالية من اية قنابل او أسلحة او معدات نتيجة تقيد بريطانيا بحيادها الذي اعلنته .

وجاءت الانباء تحمل توجه بعثة من مسلمي الهند الى جدة ، للعمل على احلال السلام ، ترافقها بعثة من الهلال الاحمر المصري .

ويتحدث فيلبي في كتابه « اربعون سنة في الصحراء » عن هذه الأيام العصيبة فيقول : « ذهبت الى التكنات ، لزيارة نورس بك المهندس التركي ، وكنت ادرس معه خططه الدفاعية عندما سمعنا صوت طلقات نارية من بوابة مكة . كانت ثلة من هجانة قبيلة حرب ، جاءت لتروي غزوة ناجحة قامت بها على فئة عسكرية من القبيلة نفسها كانت قد انضمت الى الوهابيين بقيادة الشيخ عواد الضويبي الذي قاد هجوم الاخوان على شرق الاردن في الصيف الماضي ، فأسره البريطانيون وما عتموا ان اطلقوا سراحه وقد اثقلوه بالعطايا والهبات ليعود الى الانضمام الى الوهابيين ، وبعد أيام قليلة قام الوهابيون بهجوم مقابل ، ابادوا فيه جماعة كبيرة من رجال حرب المؤيدين للاشراف . وهكذا بدا ان الاحداث تسير نحو ذروة الحدة والاشتعال .

« وادى وصول السيد طالب النقيب في الخامس والعشرين من تشرين الثاني الى بدأ مرحلة بارزة في تطور الحركة الرامية الى عقد الصلح . وكنت بحكم صداقتي الوطيدة السابقه معه ، قد اقنعته بخير السبل التي نتبعها ، للاتصال بابن سعود . ويبدو ان السيد طالب لم يكن قد تخلى بعد عن احلامه الشخصية في الحكم في العالم العربي ، وهي احلام بدت لي وهمية خيالية . لقد كان على اتصال بمختلف العناصر في شرق الاردن ، وقد طلب اليه ، ان يقبل رئاسة الوزارة في الامارة خلفاً للركابي باشا ، ولكنه كما ذكر لي رفض العرض ، قائلاً انه لو عرض عليه منصب الامير نفسه خلفاً لعبدالله لما قبله . ويقال ان

الكولونيل سايمز ، الذي كان قائماً بأعمال السكرتير العام آنذاك في غياب السير جيلبرت كلايتون وبيك باشا ، قد زاراه في الاسكندرية حيث كان يقيم ، وعرضا عليه امارة شرق الاردن . ويقال ان بيك باشا رجاه بأن لا يذهب الى جدة للمساعدة في مشروع الصلح ، وفهمت منه ان مشروع ابعاد الأمير عبدالله عن عرش الاردن ، كان يقصد منه تهديده لارغامه على ابعاد العناصر السورية من الامارة وفي مقدمتها الامير عادل ارسلان . واكد لي السيد طالب ان اعتدال الجنرال كلايتون ، قد تغلب في النهاية وان عبدالله ظل في مكانه بعد ان وقع أوامر ابعاد السوريين »

هذه هي الرواية التي نقلها فيلبي على لسان السيد طالب ، فماذا نستخلص من هذه الرواية .. اولاً ان بريطانيا كانت قد حكمت كما قلنا على عرش الهاشميين في الحجاز بالزوال ، وانها كانت تعارض في كل وساطة بين الملك علي والسلطان ابن السعود ، باستثناء وساطة فيلبي التي هي ادرى الناس بحقيقتها ، وان كانت تتظاهر ايضاً بمعارضتها لها ؛ وثانياً ان تفكيراً جدياً قد ظهر عند المسؤولين البريطان بتصفية عرش الامير عبدالله في الاردن ، ولكنه ما عتم ان زال هذا التفكير على اثر اذعان الامير لارادة بريطانيا وابعاده المجاهدين السوريين من بلاده ، مما قضى نهائياً على فكرة ان تكون شرق الاردن منطلقاً للثورة العربية ولتحرير سوريا .

ويمضي فيلبي في حديثه عن السيد طالب فيقول : « وكان طالب قد زار دمشق ايضاً ، حيث استقبل استقبالاً رائعاً ، لكن السلطات الفرنسية سرعان ما طلبت اليه بكل هدوء وكياسة ان يقصّر أمد زيارته. وقابل طالب في هذه الزيارة وولتر سمارت ، قنصل بريطانيا العام ، فوجده شخصاً ودوداً ، وخيل اليه أنه قد استعاد مكانته لدى السلطات البريطانية التي سمحت له بالعودة الى البصرة ، بعد انتهاء الانتخابات البرلمانية ، ولكنه مصمم عند عودته على اقناع احد النواب من انصاره ، بالاستقالة ، ليحل محله ، وليعود الى حياة بلاده السياسية . واكد لي السيد طالب ان مجيئه الى الحجاز كان يستهدف في الدرجة

الأولى الحصول على مساعدتي في وصوله الى عرش الاردن . فهو يقترح ان اقابل ابن سعود ، وأن اقنعه بأن يصارح بريطانيا بأنه — أي ابن سعود — لا يستطيع التسامح بوجود عدوه عبدالله ، في امارة شرق الاردن في ظل الحماية البريطانية ، وان يقترح تعيين السيد طالب الذي سيتخلى له ، طواعية عن وادي السرحان وقريّات الملح ، ويسمح له بممر يربط بلاده بسوريا بصورة مباشرة . واعرب السيد طالب عن اعتقاده بأن الحكومة البريطانية سترحب بهذا المشروع بالنظر لمشاكلها مع الامير عبدالله . وانني سأصبح في هذه الحالة ، المعتمد البريطاني في عمان ؛ وقد امتنعت عن الافضاء له بوجهة نظري في ان هذا العرض لا يغريني ، اذ انني حزمت امري على الارتباط بابن سعود والبقاء في الجزيرة العربية التي تستهويني كل الاستهواء » .

انها قصة تكشف حقاً عن اشياء كثيرة . انها تكشف اولاً عن حقيقة الوسيط الثاني الذي جاء به الملك علي ، لمساعدته ونجدته . فقد رأينا قبلاً حقيقة فيلبي ، وها نحن نرى حقيقة السيد طالب الذي لم يأت باعترافه حباً بالملك علي ولا رغبة في مساعدته ، وإنما جاء ليضمن مساعدة ابن سعود في تحقيق اطماعه في الوصول الى عرش شرق الاردن ، واثقاً من ان ابن سعود هو المنتصر ، وان بريطانيا التي ساعدته بصورة غير مباشرة على تحقيق هذا النصر ، لن تخالف له رأياً ، حتى ولو كان في هذا الرأي تطويح بعرش جديد .

وثمة ناحية اخرى كشف عنها هذا الحديث ، هي قرار فيلبي في ان يظل الممثل البطل على المسرح الجديد الذي اختاره ، وهو مسرح الجزيرة العربية التي يسيطر عليها صديقه ابن سعود ، سيطرة كاملة لا ينافسه فيها منافس .. وهي ناحية ان دلت على شيء فإنما تدل على تغلب الهوى السعودي اخيراً ، في العاصمة البريطانية ، وعند اليد الخفية بالذات ، على الهوى الهاشمي .

وفي غضون ذلك أخذ الوضع يتطور بسرعة ، مع اقتراب موعد وصول ابن السعود الى الحجاز . وتلقى فيلبي في اليوم الأول من كانون الأول ، عن طريق القنصلية البريطانية رسالة مختومة بالشمع الاحمر ، هي الرسالة التي

ينتظرها منذ أمد طويل من ابن سعود . وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم – سلطنة نجد وملحقاتها . الرياض في ٢٤ ربيع الأول ١٣٤٣ . من عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود الى صديقنا المحترم المستر فيلبي . بعد التحية .. لقد تسلمت بيد المسرة رسالتك التي بعثت بها الي من جده ، وكانت الحكومة البريطانية ، قد كتبت الينا قبل ذلك ، حول زيارتك الى جدة ، تقول انها زيارة غير رسمية .

« والآن بصدد ما تقوله عن الوساطة بيننا وبين الشريف علي ، فإن الموضوع من اوله الى آخره ، متوقف على رأي العالم الاسلامي ، الذي يقف كله معارضاً معارضة قوية لابناء الحسين ، كما وأود ان اذكرك بما تعرفه عن الجهود التي بذلتها لاحلال السلام والتفاهم مع شريف مكه . سنصل بمشيئة الله قريباً الى مكة ، وسنجتمع بك بكل تأكيد ان شاء الله ، لتبادل الرأي. نرجو لك العافية والسلام ...

صديقك المخلص ... الختم » .

ويقول فيلبي .. « ولم اكد انتهي من قراءة هذه الرسالة ، حتى كان فؤاد الخطيب يدخل الى غرفتي ، وهو يحمل رسالة موجهة من ابن سعود الى « اهالي جدة جميعاً » . وكانت هذه الرسالة مع رسالتي ، ورسالة ثالثة موجهة الى القناصل ، قد وصلت معاً الى القنصل البريطاني عن طريق رسول خاص . ولم يقم القنصل البريطاني بنقل الرسالة رسمياً الى الحكومة الحجازية مما اثار ابلغ الاستياء عند الحكومة الهاشمية . ولم تكن الرسالة تعدو وعد الشعب بالأمان والسلام والطمأنينة ، شريطة تخلصه من الملك علي . وان المسؤولية . في حالة العجز ، تقع على عاتق الشعب نفسه . ولم تكن الرسالة الموجهة الى الشعب ، مشجعة على الاطلاق ، ولكنني حاولت تهدئة خاطر الشيخ فؤاد ، وبعث الطمأنينة في نفسه ، بابراز الوعد القطعي بمقابلتي . الذي تضمنته رسالة ابن سعود الي .

« ومضى الشيخ فؤاد يحمل رسالتي الى الملك علي ، ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى دعيت لحضور جلسة طارئة لمجلس الملك الخاص . ودار نقاش طويل ، حول ما يجب ان يفعله القناصل بالرسالة الموجهة الى الشعب ، وما يجب ان تفعله الحكومة ، واقترح بعضهم اعادة الرسالة دون فتحها ؛ واقترحت أنا أن يرد الملك علي على الرسالة بوصفه زعيماً للشعب ؛ وان يحاول ترضة ابن سعود بدلاً من استفزازه . واكدت ان المفاوضات يجب ان تكون الهدف النهائي للحكومة ؛ مهما كان الثمن ، ولم اخف اعتقادي بأن ليس من الغريب ان يقف ابن سعود هذا الموقف ، لاسيما وان اصدقاءه في جده يطلعونه على حقيقة الوضع فيها ، ويوحون اليه بأن الشعب على استعداد للثورة على الحكومة . وقد ايد عدد من الحاضرين رأيي وفي طليعتهم الشريف محسن كبير أشراف جدة .

« وعقد القناصل اجتماعاً في نفس اليوم ، ولم يصلوا الى نتيجة فقرروا الرجوع الى حكوماتهم . وكانت رسالة ابن السعود اليهم ، تقترح عليهم اتباع احدى طرق ثلاث لضمان سلامة الرعايا الاجانب ، اولاها ارسالهم الى مكة حيث تضمن سلامتهم ، او جلاؤهم بحراً عن الميناء ، أو حشدهم جميعاً في ناحية واحدة من المدينة ؛ على ان يبلغ ابن سعود بموقع هذه الناحية .

« واستدعى بولارد القنصل البريطاني في جدة ، وجوه الجالية البريطانية الى اجتماع غير رسمي لبحث الوضع . وبعد ان بحث الموجودون في الوسائل المختلفة التي قد يلجأ اليها ابن سعود ونتائجها ، خيرهم القنصل بين أحد امور ثلاثة اما الجلاء عن الحجاز نهائياً على نفقتهم الى بلادهم ، اوالرحيل موقتاً الى جزيرة قمران على نفقتهم ايضاً مع تعهد الحكومة البريطانية بتأمين المأوى والماء لهم مجاناً ؛ او الاكتفاء بجلاء النساء والاطفال ، وحشد الرجال في دار القنصلية في حالة وقوع الهجوم . واكد القنصل ان الحكومة البريطانية لا تعتزم مطلقاً ومهما حدث ، ان ترسل قوات عسكرية لحمايتهم ، أو ان تتحمل أية مسؤولية عن هذه الحماية . وقد طلب ممثلو الجالية مهلة يوم واحد للتفكير ،

ثم عادوا وقرروا ابلاغ بولارد بأنهم سيظلون حيث هم في حماية الحكومة الحجازية » .

وتلقى فيلبي في اليوم الأول من كانون الأول ، رسالة من القنصل البريطاني بولارد ، ينذره فيها بأن الطرد من خدمة الحكومة ، والحرمان من التقاعد ، هما النتيجة الطبيعية لتجاهله أوامر الحكومة السابقة بعدم السفر الى الداخل . ويقول فيلبي انه ذهل لهذه الرسالة ، فبعث على الفور برد يؤكد فيه انه لم يتلق أوامر من هذا النوع ، وان كل ما تلقاه تحذير من الحكومة بأنها لن تسمح له بالسفر الى الداخل، وطلب من القنصل أوامر صريحة ثابتة في هذا الصدد . وقابل فيلبي في اليوم التالي بولارد ، وقال له انه يرجوفي حالة استدعاء ابن سعود له للقياه ، ان يرفع هذا الحظر على حريته ، لأن هذا الحظر يتعارض مع سياسة الحياد التي اعلنتها الحكومة البريطانية .

ويعترف فيلبي أنه في هذه المقابلة طلب اليه القنصل البريطاني ان يستغل المفاوضات التي يقوم بها مع ابن السعود ، بالنيابة عن علي ، لصرف اهتمام صديقه ، عن تخريب السياسة البريطانية في شرق الاردن والعراق ، وانه أي فيلبي ، احتج على موقف بريطانيا التي تعمل على احباط جميع الجهود ، لحقن الدماء في الحجاز ، وعلى تهديدها له بحرمانه من تقاعده الذي لا يستطيع ان يستغني عنه .

يتضح من هذه الأقوال ، ان الحكومة البريطانية تبنت سياستين اولاهما رسمية ظاهرة ، وهي تقول بالحياد . وثانيتهما خفية ، وهي تعمل على انهاء العهد الهاشمي في الحجاز . وهذه السياسة الخفية لا تختلف مطلقاً عن الهدف الذي يعمل فيلبي على تحقيقه ، والذي اثبتناه بالوقائع وبأعمال فيلبي وأقواله . اذن فما هو الخلاف ، ان وجد مثل هذا الخلاف بين اراء فيلبي وسياسة حكومته الذي يحملها على تهديده كما يقول ، بالفصل من الخدمة والحرمان من الراتب التقاعدي .. لا أرى خلافاً على الاطلاق ، من ناحية الجوهر ، وان كان قائماً على الوسيلة ، فالحكومة تريد في الظاهر ، ان يكون القتال ، هو

القول الفصل في النزاع بين ابن سعود وعلي ، وهي واثقة من نتيجته ، لأنها عملت كل شيء لتحقيق هذه النتيجة ، وهو يريد ان ينتهي النزاع بصورة ودية تحقن الدماء ، وتؤدي الى زوال عرش الهاشميين وسيطرة ابن سعود على البلاد بكاملها ، دون حاجة الى قتال وحرب . فهل يستحق هذا الخلاف مثل هذا التهديد : اللهم ، إلا اذا كانت الغاية منه المبالغة في اضفاء صيغة العمل الفردي على جهود فيلبي ومحاولاته ، وهو ما اردنا اظهاره منذ بداية هذا الفصل من الكتاب .

ونقل فيلبي انباء هذا التهديد بالطبع ، الى الحكومة الشريفية ، لتزداد ثقة به ، وليوطد اقدامه معها . ويقول هو ، انه اتفق مع الشيخ فؤاد الخطيب على ان خير وسيلة للتغلب على هذه العقبة ، هي عقد الاجتماع بصورة سرية ، وان الشيخ اكّد له ان الحكومة الشريفية ، ستضمن له راتباً تقاعدياً يعادل الراتب الذي ستقطعه الحكومة البريطانية في حالة إصرارها على موقفها .

ويمضي فيلبي فيقول : « ولم يكن بوسعي ان اعتمد على هذا الوعد ، وان اترك مصير عائلتي في مهب الرياح ، وآثرت ان انتظر التعليمات النهائية التي سيحملها اليَّ بولارد بعد استشارة الحكومة . وعندما اجتمعت في وقت لاحق بالملك علي ، اعلن هذا انه سيحتج اشد الاحتجاج على الحكومة البريطانية ، اذا أصرت على موقفها من حرمانه من خدماتي بالنسبة الى المفاوضات المقترحة . وعندما غادرته ذلك المساء ودعني والدموع تترقرق في عينيه ، شاكراً لي مجيئي لمساعدته في وقت حاجته . وقام شيريكوف الطيار الروسي في اليوم التالي بتجربة احدى الطائرات الجديدة ، فتبين له عدم صلاحها لأية أعمال عسكرية ، وعندما هبط بها ، ارتطمت بالارض فتحطمت بعض اجزائها . وخسر سلاح الملك علي الجوي ، ثلث قوته العسكرية » .

ووصل ابن سعود في الخامس من كانون الأول الى مكة المكرمة ، ترافقه حاشية ضخمة مؤلفة من ثلاثمائة رجل . وبعد بضعة أيام ، استدعي فيلبي والسيد طالب الى القصر لتسلم رسالتين وردتا منه . وكان امين الريحاني الوسيط

الثالث ، قد تلقى رسالة ثالثة ، قال فيها ابن سعود ، انه بالنسبة الى الظروف الراهنة ، فليس في استطاعته استقباله . وتلقى قناصل الدول رسالة رابعة تقول ، انه في حالة هجوم الوهابيين على المدينة ، فليس هناك ما يدعو الى فزع الاجانب والأهلين ، شريطة ان يأووا جميعهم الى بيوتهم .

وكانت رسالة ابن سعود الى فيلبي ، تتضمن الاعراب عن ترحيبه بمقابلته في البحرة اذا شاء ، لبحث أية مواضيع شخصية ، أما بالنسبة الى الوضع في الحجاز ، فقد حزم السلطان أمره على ترك الموضوع في ايدي العالم الاسلامي وعلى الاصرار بوجوب مغادرة علي للبلاد ، مضيفاً ان التدخل في هذا الأمر ليس من مصلحة ابن سعود ولا من مصلحة فيلبي .

وتضمنت رسالته الى السيد طالب ، نفس المعنى تقريباً مع دعوته بصورة شخصية وودية لزيارة مكة المكرمة ان شاء الذهاب لمقابلته فيها .

واترك لفيلبي وصف الموقف بعد وصول هذه الرسائل ، قال : « ومضى الجميع يقرأون هذه الرسائل ، فتركت على الفور جواً من الألم والتشاؤم واليأس . وأعلن الشيخ فؤاد ، ان الأمل قد انهار وانه لم يبق الا القتال حتى النهاية المرة ، ولكن السيد طالب لامه بعنف على قوله هذا ، واتهمه بأنه سيكون أول من يهرب عندما ينشب القتال . واتفق على ان لا ضير مطلقاً من قبول السيد طالب للدعوة ، والذهاب الى مكة ، فقد يؤدي ذهابه الى تلطيف الجو ، ان لم يؤد الى اقناع ابن سعود بالتفاوض ، قبل امتشاق الحسام . وانتهى الاجتماع عند هذا الحد ، بعد ان اخذ فؤاد صوراً عن جميع الرسائل لسجلاته كما ادعى ، ولإطلاع بولارد عليها ، كما أعتقد . وعندما عدت مع السيد طالب الى قصره في الكندرة ، حيث كنت احل ضيفاً عليه منذ أيام ، شرعنا في اعداد ردينا على الرسالتين . وقد قلت في رسالتي ان الغرض الرئيسي من زيارتي له تحقيق الوعد الذي قطعته له ، قبل أمد طويل من التطورات الحالية ، وبحث بعض القضايا الاقتصادية التي سبق لي ان بحثتها مع وكيله في البصره ، عبداللطيف المنديل ، والمتضمنة احتمال منح امتياز للتنقيب عن البترول في الاحساء . واكدت انني

تمكنت من المجيء الى جدة بفضل صداقتي للملك علي ، آملاً في ان اجتمع اليه في اقرب وقت ممكن بعد ان قرأت نبأ في الصحف ، بأنه متوجه في طريقه الى الحجاز . واكدت اخيراً رغبتي في عدم اقحام نفسي في قضايا ، هي من شؤون المسلمين ، ولكن هدفي هو خدمة قضية العرب بأقصى ما استطيع من قوة.

« وأعد السيد طالب ، رده على الرسالة معرباً عن قبوله الدعوة لزيارة مكة ، ثم مضى لمقابلة بولارد لاستشارته ، وسؤاله عما اذا كان في وسعه ان ينتهز الفرصة القادمة ، ليضغط على ابن السعود ، ليصر على وجوب اخراج عبدالله من الاردن ، وتعيينه بدلاً منه . وقد فهمت ان نصيحة بولارد له ، كانت مشابهة لنصيحتي قبل أيام ، عندما حاولت تثبيط عزيمته ، في هذا الاتجاه . واكد بولارد له ، أن أي تدخل من الخارج ، سيقضي على كل أمل له ، في الوصول الى عرش الاردن هذا اذا كانت الحكومة البريطانية تفكر جدياً في مثل هذا الاحتمال ، الذي ستبحثه معه إبان زيارته المقبلة لبريطانيا » .

وبدأ أهل جدة يتوقعون نشوب الحرب بين عشية وضحاها . وأخذت العناصر المعادية للهاشميين ، ترفع رأسها من جديد ، وشرع قاسم زينل ، الذي عفا عنه الملك علي قبل أقل من شهر ، يجهر برأيه في ان مغادرة الملك علي للبلاد ، هي الحل الوحيد للمشكلة ، وحتى محمد الطويل حاكم المدينة ، الذي لم يتزعزع ولاؤه قط للهاشميين ، أخذ يشعر الآن ، بأن اللعبة قد انتهت وان مصير عرش الهاشميين محتوم . وكان هذا لا يزال يأمل ، في امكان الوصول الى حل سلمي ، يستعاض به عن القتال . ولهذا الرجل قيمته ووزنه . فلقد كان العنصر الفعّال ، في ارغام الملك حسين على التنازل عن العرش ، اعتقاداً منه بأن هذا التنازل ، سيحل المشكلة مع ابن سعود ، ويحفظ للملك علي ، عرش الحجاز ، وكان من الواضح لكل انسان في جدة ان موقف هذا الرجل الآن هو الذي سيقرر مصير الملك علي .

أما الشيخ فؤاد الخطيب ، فيقول فيلبي ان الخوف تسلط عليه ، اكثر من أي انسان آخر في المدينة ، فجعل موقفه ادعى الى عدم الاستقرار ، فهو ينصح حيناً بالمقاومة واحياناً كثيرة بالتريث والصبر « متطلعاً دائماً الى مستقبله . وقد اسرّ لي ذات يوم بأنه لو تلقى عرضاً من ابن سعود او من امارة عسير ، لتخلّى عن منصبه ومضى يشق طريقه من جديد . واكد لي مرة ثانية ان احتلال ابن سعود نهائياً للحجاز ، سيكون في مصلحة الشعب نفسه ، على الرغم من ان علياً لا جريرة له ، وانما وقعت عليه جرائر والده والآخرين . وكثيراً ما اختلفت معه حول آرائه في البدو ، فهو يحتقرهم ويزدريهم ويعرب عن احتقاره هذا بأقسى العبارات والالفاظ ، بينما كنت ارى ، ان خير ما في الطبيعة العربية ينبع من ثقافة الصحراء ، وان ما يبدو على البدو من فوضى ، ما هو الا ثمرة مباشرة لقرون طويلة من سوء إدارة حكامهم » .

ويتحدث فيلبي عن الباقين من رجال الملك علي ، فيقول ان الشيخ عبدالله سراج ، رئيس الوزراء الاسمي ، لم يكن اكثر من مجرد رمز ، يفتقر الى الخبرة الادارية ، والافكار الابداعية ، بينما كان الشريف محسن ، المسؤول عن شؤون العشائر ، ضعيف الشخصية مما حمل العشائر نفسها ، على الاتصال بالسعوديين .

ومضى فيلبي يقول : « أما الشخص الوحيد من حاشية علي ، الذي كان ذا رأي ، ويعرف ما يفعله ، فهو الفريق تحسين الفقير رئيس اركان الجيش . وكان يمضي في تنفيذ خططه دون أن يأبه بآراء زملائه من اعضاء الحكومة . لقد قرر الدفاع عن جده ، وطرد الوهابيين من الحجاز ، وتنفيذاً لرأيه هذا فقد اوفد شيريكوف بطائرته في السادس عشر من كانون الأول ، على الرغم من قرار مجلس الملك الخاص ، ليقذف بالقنابل على مواقع الوهابيين في الحدة والبحرة ، وعلى الرغم من أن هذا العمل لم يؤد قط الى اضعاف امكانيات الوهابيين العسكرية إلا أنه اعتبر عملاً عدوانياً قضى على كل أمل في قيام محادثات للسلام بين الفريقين .

« وقد زارني تحسين باشا في اليوم التالي ، يرافقه عدد من الضباط ، بينهم ضابط وصل حديثاً ، هو رمضان شلاش ، كان قد لعب دوراً بارزاً في الثورة على الفرنسيين في سوريا ، (كان قائد الثورة السورية في منطقة دير الزور) وتناول الحديث عملية القصف الجوي الاخيرة ، فأعربت عن وجهة نظري بصراحة ، على الرغم من احتجاج زائري ، ومقاطعتهم لي . وقد قلت لهم ان الخيار بين الحرب والسلام ، أمر مصيره متروك اليهم ، وانني لما كنت قد جئت الى جدة ، املاً في الوصول الى حل سلمي ، فلا يبقى مجال لبقائي في الحجاز بعد اختيارهم سبيل الحرب . واكدت لهم انني سأطلب الاذن من الملك بالرحيل . وبدا لي ان عملية القصف الجوي قد وقعت ، دون أمرمنه ، إذ أنه كان لا يزال يعلق بعض الآمال ، على ردود ابن سعود على رسائلنا . وعلى الرغم من تأخر هذه الردود ، فإن عدم عودة الرسول حتى الآن يشير الى انها ستأتي . ومضيت أقول لهم .. وقد تكون محتويات الردود ، واضحة منذ الآن ولما كانوا قد اختاروا الطريق الاعنف فعليهم ان يتحملوا كل النتائج ، وان يصمدوا كرجال .

« وقد ردّ عليّ تحسين قائلاً ، انه منذ البداية ، كان يدرك عدم وجود تسوية سلمية ، وان تأخر ابن سعود ، ما هو إلا لكسب الوقت لحشد قواته للهجوم المقبل . فقد نقلت اليه دوائر استخباراته ، تحركات واسعة للوهابيين في وادي فاطمة ، وان ابن سعود قد اصدر أوامر مشددة بعدم مغادرة مكة ، وهدد كل من يغادرها بالموت . وقد بعث اليه احدهم من جده ، يقول ان تحصيناتنا في الجناح الشرقي ضعيفة . فعزم على الهجوم من هذه الناحية ، وحشد قوات ضخمة ، ولكن قبائل البدو الموالية لنا تمكنت من انزال افدح الخسائر بهذه القوات فبلغت خسائره نحواً من ستمائة رجل . على أي حال نحن على استعداد لكل طارئ .

« ولم يكن تحسين يحاول خداعي ، أو خداع نفسه ، لقد كان جاداً في قوله ، ولكنه كان مخطئاً في تقديراته واعتباراته . وكان من الغريب حقاً ان

يتأخر ابن سعود ، هذه المدة الطويلة ، في محاولة امتحان جهاز الدفاع عن جده ، مما اوحى للكثيرين بأن قواته لم تكن كافية وانه ينتظر وصول نجدات جديدة . ومثل هذا الرأي يبرر وجهة نظر تحسين في وجوب الاسراع بالمعركة ، قبل ان تصل النجدات الى ابن سعود . لكنني كنت ارى ان مشكلة ابن سعود سياسية اكثر منها عسكرية ، فهو غير واثق من موقف الدول الاجنبية على الرغم من حيادها المعلن ، وهو يخشى تدخل هذه الدول بحجة حماية رعاياها . وكان لهذا يرى ان بوسعه الانتظار بعض الوقت ، على الرغم من عدم اطلاعه تماماً على حقيقة ضعف الموقف في حامية جدة وتحصيناتها الدفاعية » .

حقاً لقد اخطأت حكومة الملك علي التقدير ، وكيف لا تخطئ ، وهي الملأى بالانتهازيين ، والانهزاميين ، والباحثين عن الحظ ، ان لم نقل عن الذهب . فقد كان على هذه الحكومة ان تختار أحد سبل ثلاثة منذ البداية ، إما ان تقبل على المعركة ، قبل ان تكمل استعدادات السلطان ابن سعود ، وتترك للسلاح أن يقرر مصيرها ، أو تعهد الى دول ذات قيمة ، أو اشخاص لهم وزنهم في العالمين العربي والاسلامي . بالقيام بدور الوساطة بدلاً من الاعتماد على امثال فيلبي والسيد طالب ، ولكل منهما هوى وغرض ، كما سبق وبينّا ، أو أن تشعر بعجزها منذ البداية عن الصمود ، أمام هجوم الوهابيين ، فتحل القضية حلاً مباشراً بينها وبين ابن سعود، يقوم على اساس قبولها بشروطه مهما اشتط بها ، فتكون بذلك قد وفرت على شعبها المزيد من الآلام والويلات . اما التعلق بحبال الهوى . وتركيز آمال شعب وحكومة على رسالة يبعث بها فيلبي أو السيد طالب ، أو الفيلسوف الريحاني ، فمضيعة للجهد والوقت ، ومهزلة ما بعدها من مهزلة .

ومضى السيد طالب الى الملك علي ينذره بأنه سيعود الى مصر في حالة استئناف عمليات القصف الجوي ، فما كان من هذا الا ان اذعن للتهديد ، واتفق اخيراً على ان يعود السيد طالب وفيلبي والريحاني الى الكتابة من جديد ، الى ابن السعود في محاولة اخيرة لتجنب الحرب . ويقول فيلبي انه رفض

الكتابة ، بينما بعث الآخران برسالتين ، فذكر طالب انه سيغادر جده في الواحد والعشرين من كانون الاول ، إذا لم يتلق رداً قبل هذا التاريخ .

ويسهب فيلبي في الحديث عن الليلة الاخيرة التي قضاها في ضيافة السيد طالب في قصره في الكندره ، اذ قرر العودة في التاسع عشر من الشهر نفسه الى المنزل الاول الذي حل فيه في جدة . ويصف ما احتسياه من أقداح الويسكي ، وما طعماه من الكافيار ، في الوقت الذي كانت اعصاب من استدعاهما لنصرته ومساعدته تتحرق قلقاً وهلعاً ، فكان هذا الوصف خير دليل يقوم على حقيقة الوساطة التي قام بها هذان الرجلان لانقاذ عرش الملك علي من الانهيار .

ها هو فيلبي يقول .. « وبعد ان طافت بنا أقداح الويسكي عدة مرات بدأ السيد طالب يؤنبني على استدعائه الى جده ، للقيام بمهمة فاشلة ، واعلن انه سيعتزل العمل في السياسة ، وينزوي في مصر أو اوروبا ليعيش في هدوء وسلام . وقلت له ان ابتعاده عن المسرح السياسي سيقضي نهائياً على كل طموح له ، في العودة الى الميدان ، فرد مشيراً ، الى ما أحاط بحياتي من خيبة وفشل بسبب معارضتي الدائمة لسياسة حكومتي ، ومؤكداً انني لو لم أتبع هذا السبيل لكنت الآن مندوباً سامياً في مكان ما ، وانهى حديثه ناصحاً أياي بالتخلي عن العمل في السياسة العربية » .

وطلعت صحيفة بريد الحجاز ، في اليوم التالي ، تقول ان الطائرة الشريفية قد ألقت على مكة المكرمة منشوراً من الملك علي الى أهل مكة . يدعوهم فيه الى التمسك بالصبر ، والعروة الوثقى ، واداء أدوار البطولة ، اذ انه عازم على الهجوم لتحريرهم من الحكم الوهابي . ويقول فيلبي ، ان هذه الرسالة كانت بمثابة « الحكم بالموت » على العهد الهاشمي ، على الرغم من ان الملك علي قد اكد لفيلبي وغيره انه لا يعلم شيئاً عنها ، وانها طبعت ووزعت دون معرفته او اذنه .

اية حكومة هذه ، وأي وضع لا يعرف فيه رئيس الدولة المسؤول ما يقوم به بعض رجال حكومته ، من أعمال قد تقرر مصيره ، ومصير عهده وبلاده ،

وكيف يمكن لهذه الحكومة الضعيفة المتفسخة ان تصمد أمام قوة هائلة يقودها رجل واحد كإبن سعود ، اجمع الكل على اعتباره أقدر من انجبته الجزيرة العربية في عصرها الحديث واكثرهم ذكاء ودهاء ..

وأدرك فيلبي ان النهاية قد اقتربت ، وان ما كان يعمل لتحقيقه منذ وصولة الى الحجاز قد شارف على التنفيذ ، فعزم على مغادرة جدة ، في اقرب فرصه ممكنة ، متجهاً الى عدن حيث يستطيع لقاء زميلته روزيتا فوربس التي ملت الانتظار حتماً هذه الاشهر الطويلة ، ليبحث معها في خططهما المقبلة لعبور الربع الخالي . وجرت محاولات عدة لاقناع فيلبي بالبقاء ، ولكن النهاية « الحتمية » غدت الآن على مرأى من كل انسان ، ولم يعد ثمة سبيل لأية امكانية في ايجاد تسوية سلمية لمشكلة الحجاز ، فخسر فيلبي بذلك الذريعة التي كان يعتمد عليها في تبرير بقائه في جده ، ولم يعد ثمة مناص من مغادرته لها .

واحتاج الملك علي في هذه الآونة الى المال ، للانفاق على الدفاع وعلى رواتب الجنود ، فشرع يجمع التبرعات من الاهلين فتبرع قاسم زينل بألف وخمسمائة جنيه ومثلها من عائلة بناجه ، والف من محمد الطويل ومثلها من عبدالله علي رضا ، وجمع من بقية الاهلين نحواً من خمسة الاف جنيه وتمكن بذلك من دفع رواتب الجنود المتأخرة .

وفي هذه الاثناء جاءت ردود ابن سعود ، وكانت رسالته الى فيلبي على النحو التالي :

« تحياتي وحبي . لقد جاء البريد من جده . ولم تكن فيه رسالة منك . آمل ان يكون السبب في عدم كتابتك خيراً لا شراً . آسف كل الاسف لعدم تمكني من لقائك ، لأن الأعمال الكثيرة تحتم عليّ البقاء حيث أنا ، ولكنني آمل ان تمكنني الظروف من لقاء صديقنا المستر فيلبي قريباً ، إذ لا غنى لنا عن نصائحه ومشورته . نرفق طياً نسختين من جريدة ام القرى لتقرأها وتتسلى بها » .

وأعربت رسالة ابن السعود الى السيد طالب ، عن الأسف لما يعتزمه من سفر سريع ، وعن الأمل في مواصلة الاتصال به حيثما حل . وذكرت ان وجوه مكه ، قد طلبوا اليه تأجيل الاجتماع المقترح ، الى وقت اكثر ملاءمة ومناسبة . أما رسالته الى الريحاني : فقد كررت الاعراب عن الاعتذار عن لقائه شخصياً ، واقترحت ايفاد من يمثله لمثل هذا اللقاء . وكان الشخص المقترح هو الحاج حسين العويني ، التاجر اللبناني المقيم في جدة انذاك (دولة الرئيس الحاج حسين العويني فيما بعد) ، وقد غادر جدة في اليوم التالي يحمل رسالتين من الريحاني وفيلبي . ويقول فيلبي ان رسالته تضمنت ابلاغ ابن السعود عزمه على الرحيل عن جده ، والاعراب عن الأمل في اللقاء في وقت آخر عندما يكون اقل عملاً من الآونة الحاضرة .

ويقول فيلبي ، ان الملك علي ، شرفه بزيارته في الثالث والعشرين من كانون الاول ، ثم ذهبا معاً الى قصر السيد طالب ، حيث انضم اليهما محمد الطويل ونورس بك . وقد اعلن هذا وهو دماغ الجيش المفكر ، انه اذا سافر فيلبي وطالب . فسيسافر هو ايضاً . لأن الوضع العسكري اصبح يائساً .. ومضى فيلبي يقول .. « وأعلنت للملك علي ، انه في حالة عودة العويني دون نتيجة مرضية ، فإن السبيل الوحيد هو ان يوفد الملك علي بعثة من وجوه جدة وكبرائها لبحث القضية مع ابن سعود ، على ان يترك القرار النهائي بصدد السياسة التي يجب ان تتبع الى حين عودة الوفد ، وعلى ضوء نتائج مهمته . ويبدو ان هذا الرأي الذي اعلنته كان يحمله كل واحد من الموجودين . ولكنه لم يكن ليجرؤ على التعبير عنه . فقد سارع محمد الطويل الى تأييدي . واقترح ان يتألف الوفد منه ومن قاسم زينل ومحمد ناصيف وعثمان باعثمان . وكان من رأيه ان الوفد يجب ان يمنح الصلاحيات لعقد الصلح بأي ثمن ، بشرط واحد ، وهو ان يظل علي ملكاً .

« وكانت هذه المقابلة آخر تدخل لي في جلسات الحكومة ، فقد عاد العويني من مكة في الرابع والعشرين يحمل معلومات ادت الى ابعادي وابعاد

طالب عن استشارات القصر وجلساته السرية . فقد خيل للجميع ان وساطة امين الريحاني ستؤدي الى الصلح الذي اصبح وشيكاً ، وقد عهد اليه والى الشيخ فؤاد الخطيب باعداد التفاصيل . وسيطرت على المدينة موجة عارمة من التفاؤل ، على الرغم من ان علياً وحده ظل الرجل الذي يسيطر عليه القلق ، مخافة ان تكون التضحية به ، هي الثمن المطلوب للصلح . وعاد الرسل يحملون رد الريحاني على رسالة ابن سعود الشفويه ، ومعه رسالتان من محمد الطويل الى اصدقائه في مكة ، وامتلأ الجو بالدسائس والمكائد والمؤامرات ، ووقعت لسوء الحظ طريح الفراش في السادس والعشرين من الشهر نفسه ، فقضيت ما تبقى من أيام السنة في السرير اعاني من الدوزنطاريا ، وعادني بعض الاصدقاء ، كما اشرف على علاجي الاطباء وبينهم الدكتور خالد الخطيب ، الذي سبب لي التهاباً في الذراع الذي حقنني فيه بالايميتين .

« وخيل الي ان خير وسيلة هي ان أخرج من جدة في اسرع وقت ممكن ، فغادرتها في الثالث من كانون الثاني عام ١٩٢٥ في طريقي الى عدن . وفي اليوم التالي بدأ ابن سعود قصفه للميناء ، فسقطت القنبلة الأولى على دار القنصلية البريطانية ، وعلى مقربة من فراش بولارد الذي كان قد غادره قبل قليل » .

وهنا قد يتساءل الانسان ، ما هي المعلومات التي حملها الحاج حسين العويني ، من مكة الى جدة ، فحملت حكومتها على ابعاد فيلبي . والسيد طالب النقيب عن مشاوراتها واجتماعاتها وجلساتها السرية . لقد حاولت ان أحصل على هذه المعلومات من الحاج حسين نفسه ، فدولته والحمدلله ما زال حياً يرزق ، ولكنني لم استطع وان كان في وسع كل انسان ان يخمّن هذه المعلومات تخميناً لا يبعد به عن جادة الصواب والحق ، إذ ان الوقائع السابقة واللاحقة ، اثبتت ان فيلبي وطالب لم يكونا قط يعملان طيلة هذه المدة في الوساطة لمصلحة الملك علي وحكومته ، وانما لمصالحهما الخاصة ومصالح أخرى ابعد مدى من الوساطة .

وسافر فيلبي الى عدن ، حيث واجهه الجنرال سكوت ، حاكم المستعمرة

بأمر آخر من الحكومة البريطانية يحظر عليه الدخول الى الجزيرة العربية من بابها الخلفي هناك . واجتمع فيلبي في عدن الى روزيتا فوربس ، ومصورها السينمائي ، فتلقت بدورها أمراً مماثلاً من الحاكم البريطاني . وهكذا مات مشروعهما لاجتياز الربع الخالي ، وهو في المهد ، وافترقا في عدن ليعود هو الى انكلتره ، ولتسافر هي الى الحبشه في جولة استكشافية .

وطال حصار جدة عدة اشهر دون جدوى ، وحلّ الصيف فانسحب ابن السعود عنها بقواته الى مكة بعد ان عقد مع الملك علي هدنة صيفية مؤقته . ويؤكد فيلبي انه كان في وسع الوهابيين ان يقتحموا المدينة بالقوة في أي وقت ، ولكن ابن السعود كان يحول دون ذلك مخافة « ان يقبل الاخوان على ذبح الكفرة من المواطنين الاوروبيين ، ولم يكن في وسعه ان يستفز الدول الكبرى على هذا النحو العنيف . فترك للمجاعة والاوبئة ، ان تنفذ خلال اشهر الصيف ما عجز هو عن تنفيذه ، لاسيما وقد جفت المياه ونفدت الأطعمة وانعدم كل معين . »

وبعثت الحكومة البريطانية بالسير جيلبرت كلايتون ليقابل ابن السعود في وادي فاطمة ، لتقرير علاقاتها به بشكل نهائي ، قبل استئناف معركة جدة عند حلول الخريف ، ادراكاً منها بأن هذه المعركة ستكون الفاصلة . وعقد كلايتون مع ابن السعود معاهدة البحرة التي استعيض بها عن معاهدة العجير والتي وضعت الحدود النهائية للسلطنة الوهابية التي اتسعت بالنسبة الى كل من العراق وشرق الاردن .

وأقام فيلبي عدة أشهر في انكلترا ، حصل في غضونها على بطاقة صرفه نهائياً من خدمة الحكومة ، وعلى تقاعده الذي يستحقه ، وشرع في كتابة مقالات لصحيفة الديلي تلغراف عن الوضع في الحجاز ، ليؤدي عن طريقها الدين الذي تراكم عليه من جراء فشل مشروع اجتياز الربع الخالي .

وبدأ فيلبي يفكر في هذه الآونة في مستقبله ، وفيما سيعمله ، بعد ان انتهت مهمته في الحجاز ، وان كانت صفحة جديدة منها ، ستظهر عما قريب .

وعرضت عليه بعض الصحف البريطانية ، ان يذهب الى الريف في المغرب ، ليتولى تزويدها بأنباء الثورة التي اعلنها الامير عبد الكريم الخطابي ، كما عرضت عليه احدى الصحف ان يقوم برحلة بحرية يبحث فيها عن الاطلانطيد الضائعة (جزيرة الاطلانطيد في الميثولوجيا اليونانية) .

وجاءته النجدة التي انقذته من هواجسه وقلقه بصورة لم يكن يتوقعها . ففي ذات يوم كان يمر في شارع الدوق في سان جيمس ، عندما حياه « الملاك المنقذ » على حد تعبيره قائلاً .. « هالو .. فيلبي ، كنت في هذه اللحظة افكر فيك ، واتساءل ، عن المكان الذي استطيع ان اعثر عليك فيه ، تعال معي ، لنتناول الغداء » .. كان هذا الملاك هو المستر فيشر ، ومضى الرجلان الى نادي السيارات الملكي ، حيث تناولا الغداء ، ووضعا اسس الشركة الشرقية المحدودة التي سجلها فيلبي في جدة في العام التالي ، والتي لا تزال تدر أرباحها على المساهمين فيها ، وهي شركة سيتناول الحديث عنها وعن ما شابهها من مشاريع تجارية مماثلة فصل آخر من هذا الكتاب .

لكن مشروع هذه الشركة بالذات هو الذي أتاح لفيلبي العودة الى الجزيرة العربية في خريف عام ١٩٢٥ . فقد كان من المعروف ان ابن سعود ، هو المنتصر في معركة جدة ، وان نهاية العهد الهاشمي في المدينة اضحت قضية أسابيع معدودة ، ولذا فقد أراد فيلبي ان يستأنف اتصاله بابن سعود ...

وكيف يمكن له ان يعود ، والمدينة ما زالت في يدي الملك علي وحكومته . إذن فليعد الى وسيلته السابقة التي استعان بها في السنة الماضية ، وهي عرض التوسط من جديد . وكان الملك علي ، من السذاجة بحيث قبل هذه الوساطة ثانية ، كما كان على درجة كبيرة من اليأس ، حتمت عليه التعلق بحبال الأوهام والخيال ، لاسيما وقد اثارت أعمال الوهابيين في مكة والمدينة التي احتلوها ايضاً ، وهدمهم للاضرحة والمزارات موجة عارمة من الاستياء في العالم الاسلامي ، مما حمل ابن سعود على دعوة بعثة فارسية الى المجيء الى الحجاز لزيارة الاماكن المقدسة والتثبت من المزاعم التي انتشرت في الخارج .

ويقول فيلبي انه تمكن من ارسال كتاب سري الى ابن سعود ، عن طريق رئيس البعثة طالباً السماح له بلقائه . وما عتم ان تلقى عن نفس الطريق رد ابن السعود الايجابي عليها ، مقترحاً ان يذهب بطريق البحر الى رابغ ، التي كانت في ايدي الوهابيين الآن ، لتنقله بعثة سعودية الى الشميسي ، وهي اقرب نقطة الى مكة المكرمة ، يستطيع غير المسلمين الوصول اليها .

ويقول فيلبي الذي كان قد وصل جدة قبل قليل .. واصفاً هذه المقابلة التاريخية التي تحسر النقاب عن اشياء كثيرة تمت الى موضوع كتابنا بصلة وثيقة . ما يلي : « عرضت الموضوع على الملك علي ، فرحب به كل ترحاب ، واعرب عن استعداده لمساعدتي لاسيما وقد بدأ يدرك الآن ، ان انقاذه من الوضع الذي وصل اليه ، اصبح يتوقف على معجزة ، وكنت قد تلقيت انذاراً جديداً من القنصل البريطاني ، فور وصولي الى جدة ، يحظر عليّ محاولة الدخول الى داخل البلاد ، مع التهديد والوعيد المعتادين . ولكنني مضيت في وضع الخطة اللازمة لرحيلي بمنتهى السرية والتكتم .

« وسارت الأمور وفق الخطة التي وضعتها بفضل اخلاص اصدقائي من العرب . فقد غادرت منزلي في سكون الليل وهدوئه ، تاركاً الأنوار مضاءة في غرفتي ، لأوحي بأني موجود فيها كالمعتاد ، وانتقلت مع متاعي الى رصيف الميناء . حيث ابحرت في زورق صغير باتجاه الشمال ، على مرأى من طراد هولندي . كان ربانه يقيم تلك الليلة ، حفلة ساهرة تكريماً لرجال السلك السياسي في الميناء .

« وقضيت ثلاثة أيام ، في القارب الشراعي الصغير ، اصارع البحر ، الى ان وصل بنا الى رصيف رابغ ، حيث كان موظف الجمارك الوهابي في انتظاري فقادني الى البلدة الصغيرة حيث رحب بي المسؤول الوهابي عن إدارتها . وكان سعد اليميني ، قد وصل على رأس ثلة من الجنود لتتولى حراستي الى مكان الاجتماع في الداخل .

« ووصلنا بعد بضعة أيام الى الشميسي ، بعد ان مررنا بعصفان ، التي

دارت فيها اعنف معارك الحرب .

« وجاء ابن سعود من مكة بالسيارة ، فكان اول اجتماع لي به منذ عام ١٩٢٠ ، وقضينا النهار نستعرض ما وقع في هذه السنوات الطويلة من احداث، وتفاصيل الوضع الذي يواجهه الآن في جدة . وبدا لي تصميمه على انهاء الحرب بأسرع وقت ممكن ، وأكد لي انه بعث يطلب النجدات من نجد لتحقيق هذه الغاية ، فوصلته قبل أيام وعلى رأسها ولده الامير فيصل . وكان قد بعث بقسم من قواته الى المدينة المنورة بقيادة ولده الثالث الامير محمد ، فاحتلتها . أما القسم الرئيسي فسيزحف بعد أيام الى جدة . وقلت له ان جدة من الناحية العسكرية . عاجزة عن الصمود طويلاً ، كما اكدت له ان غالبية أهلها ، يريدون نهاية سريعة لهذا الوضع اليائس ولهذه الآلام التي يعانونها .

« وبينما كنا نتحدث داخل الخيمة ، سمعنا صوت طائرة تحوم فوق المكان ، ودلفنا الى الخارج نتطلع اليها وهي سامقة في كبد السماء ، تقوم برحلة استطلاعية للوضع حول مكة . وقال ابن سعود « لو عرف الطيار اننا هنا ، وان باستطاعته ان يكسب الحرب بمجرد قنبلة واحدة يقذف بها علينا ..!!

« وكثيراً ما تذكرت قول ابن سعود هذا ، على مر السنين ، ومع مضي الأيام التي كانت تغيّب واحداً اثر آخر . من الابطال الذين لعبوا على مسرح السياسة العربية السنوات الطوال ادواراً هامة ، من امثال الحسين بن علي ، وفيصل ولورنس وجرترود بيل وهوغارث وكوكس والويلسونيين وجعفر العسكري وطالب ونقيب بغداد واللورد كرزون ومونتاغو ، وغيرهم من ذوي الوزن الاقل قيمة ، ولم يبق منهم الا ابن السعود ، وأنا ، نعيش بعد هذا العهد ثلاثين عاماً ، نتذكر انتصاراتنا وامجادنا الماضية .

« وافترقنا على ان نلتقي بعد قليل في جدة . فعدت الى رابغ ، حيث لم ارغب في العودة فوراً الى جدة لأنقل الى ملكها علي ، نبأ المصير المحتوم في كل لحظة . وقررت ان امضي الى بور سودان حيث انتظر هذه النهاية .. فمضيت اليها في مركب شراعي ، يقل حمولة من الاسماك المجففة ،

والجلود .. ووصلتها بعد نحو من اسبوع » .

هذه هي القصة التي يرويها فيلبي نفسه ، وهي قصة تنطق عن حقيقة مهمة ، وتكاد تفضحها فضيحة لا ينفع معها ستار ، ولا تصنع .

فقد ذهب وسيطاً ، موفداً من الملك علي ، الذي ذلل له كل العقبات ومهد له سبيل السفر ، ولكنه يرفض العودة الى من اوفده ، لانه يعرف ان المصير محتوم ، وان جدة ستسقط بعد أيام في يد صديقه ابن سعود . وكان حرياً به ان يعود ، وان يبلغ علياً فشل وساطته ، واصرار ابن سعود على الهجوم على المدينة في اقرب وقت ممكن ، هذا لو صفت نيته وصدقت طويته في الوساطة التي اتخذ منها ستاراً يخفي بها حقيقة أهدافه ونواياه .

وهو يعترف ايضاً ، انه ابلغ ابن سعود ، بضعف الجهاز الدفاعي عن المدينة ، وبرغبة الشعب في الخلاص من الوضع بأسرع وقت ممكن ، وهي معلومات عسكرية ، يعتبر الافشاء بها في أيام الحروب جريمة يعاقب عليها بالاعدام.

وهو يعترف ايضاً ، وبصورة غير مباشرة ، بأنه قد حرض ابن السعود على الاقدام على الهجوم ، فوراً ودون ابطاء ، مؤكداً له ان المدينة لا تستطيع الصمود أمام هذا الهجوم ، اذا حزم أمره عليه . مما يشير الى ان غاية فيلبي الأولى والاخيرة ، من مجيئه الى جده ، في هذا العام والعام الذي سبقه. كانت الاسراع في تقرير مصير العرش الهاشمي في الحجاز .

فهل كان فيلبي يعمل لمصلحته الشخصية في هذا الموضوع . أو كان منفذاً لارادة يد خفية تحركه ؟ ان كل الظواهر تشير . كما اوضحنا في اكثر من مكان ، وكما تبيّن من موقف بريطانيا ، الى ان سياسة فيلبي في هذا الاتجاه كانت منسقة مع سياسة حكومته . ولاريب في انه جمع بين الغايتين . ارضاء هواه السعودي ، وتحقيق ارادة اليد الخفية عندما عمل ما عمل . ومثّل ذلك الدور البطولي على مسرح الحرب الحجازية .

وفي الثالث والعشرين من شهر كانون الأول من عام ١٩٢٥ ، استسلمت جدة اخيراً لابن سعود . فقد نجحت الخطة العسكرية التي وضعها ، فحشد قواته في مكة المكرمة ، استعداداً للزحف ، وشرع في ارسال الوحدات الاستطلاعية لسبر اغوار جهاز المدينة الدفاعي .

وعندما كانت احدى هذه الوحدات تتقدم في الطريق الرئيسية الممتدة من مكة المكرمة الى جدة ، شاهدت سيارة تقترب منها ، من الاتجاه الثاني ، وهي تحمل الراية البيضاء . وفي السيارة كان نائب القنصل البريطاني يرافق رسولاً اوفده الملك علي ليعرض الاستسلام ، بضمانة من بريطانيا .

ووافق ابن السعود فوراً على الشروط المقترحة ، وهي ان يغادر الملك علي وأفراد اسرته . ومن شاء من اتباعه المدينة أحراراً ، قبل دخول الوهابيين على ان لا يسمح للاخوان المتعصبين بدخول المدينة .

واقر هذا الاتفاق في اليوم التالي في اجتماع شهده ابن السعود والمعتمد البريطاني . وغادر الملك علي ، الميناء في نفس اليوم ليقضي ما تبقى من حياته في المنفى ، بينما دخل ابن السعود من الناحية الاخرى ليكمل احتلاله للحجاز ، باستثناء مقاطعاته الشمالية التي تضم العقبة ومعان والشوبك والتي ألحقت بأمارة شرق الاردن ، فظلت مصدراً للنزاع والخصومة بين ابن السعود وجارته شرق الاردن مدة طويلة .

وعاد فيلبي الى جدة بعد نحو من اسبوع أي في اليوم الأول من شهر كانون الثاني عام ١٩٢٦ ، ليجد صديقه عبدالعزيز وقد احتل المدينة ، ورفع فوقها رايته الوهابية لتخفق لأول مرة في التاريخ مع أعلام الدول الكبرى الممثلة في جدة . وليرى صديقه الآخر ، الدكتور الدملوجي . وقد اصبح قائماً بأعمال وزير الخارجية يتولى الاتصال مع ممثلي الدول الاجنبية .

وهكذا انتهى صراع امتد نحواً من ثماني سنوات ، ولم يمض اسبوع واحد ، حتى أعلن علماء الحجاز ورجالاته المجتمعون في حرم الكعبة المشرفة المناداة

بعبد العزيز ابن سعود ملكاً على الحجاز ونجد ، وليكون الاتحاد السوفياتي اول دولة أجنبية تعترف بالوضع الجديد .

وكان فيلبي ، أول من نقل الى العالم عن طريق برقية بعث بها الى صحيفة التايمس اللندنية ، النبأ التاريخي بقيام المملكة العربية السعودية ، التي تضم مملكة الحجاز وسلطنة نجد .

٨

فيلبي المستشار

أما وقد استقر الوضع في الجزيرة العربية ، بعد زوال عرش الهاشميين في الحجاز ، وصفا الجو للملك عبدالعزيز ، يوطد فيها سلطانه ، ويقيم فيها دعائم مملكته الفتية على اسس ثابتة راسخة ، فقد حزم فيلبي امره على البقاء في السعودية والعيش في ظل صديقه وكنفه ، يمحضه النصح ويقدم له المشورة ، وهو في ذلك يخدم غرضاً ذا ثلاث شعب : اولاها خدمة بلاده وامبراطوريته عن طريق توثيق أواصر الصداقة بينها وبين المملكة العربية السعودية ؛ وثانيتها خدمة نفسه وضمان المستقبل والعيش الهنيء له ولأسرته ؛ وثالثتها خدمة صديقه عبدالعزيز ، ودعم سلطانه واعلاء كلمته .

وسواء أظل فيلبي على ارتباطاته باليد الخفية ، في بلاده في هذه المرحلة الجديدة من حياته ؛ او لم يظل ، وان كنت اعتقد ان مثل ذلك الارتباط لا يمكن ان يحل عراه . وان ضعف اتصاله فترة من الوقت ، بسبب عدم وجود ظروف تستدعي بقاءه على نحو ما كان عليه من الوثوق والشدة ، فإن الدور الجديد الذي قدر لفيلبي ان يلعبه هو دور الموجه الناصح ، بل دور المستشار في الشؤون السياسية والعلاقات الخارجية . وليس من المعقول حتى لو افترضنا انتهاء العلاقة الرسمية بين فيلبي وحكومته ، ان يكون اكثر اخلاصاً للملك

عبدالعزيز منه لمليكه وبلاده ، وإلا كان مطعوناً في ولائه ووفائه ووطنيته .

والمعروف ان فيلبي ظل حتى اليوم الأخير من حياته يحمل الجنسية البريطانية ، وكان في وسعه لو أراد ، ان يكتسب الجنسية العربية السعودية منذ امد طويل ، ولكنه آثر ان يحافظ على جنسيته الحقيقية ، ليظل ولاؤه لبلاده ووطنه يحتل المقام الأول في عواطفه ومشاعره وأعماله . وهو والحالة هذه مشير ناصح صادق ، طالما أن مصلحة بلاده لا تتعارض مع مصلحة الملك عبدالعزيز وبلاده ، أما اذا تضاربت المصلحتان ، كما وقع فعلاً ، في حادث عدوان الانكليز على البريمي ، تذبذب ولاؤه وتأرجح ، وان واصل محاولاته لاصلاح ذات البين بين وطنه الأصلي ووطنه الجديد .

ولن اسرد في هذا الفصل ، تاريخ حياة فيلبي الطويل في حقبة الثلاثين عاماً ، التي انقضت بين توطيد دعائم المملكة العربية السعودية وبين اخراج فيلبي منها ، طريداً شريداً ، فهذا موضوع يخرج عن نطاق محتوى هذا الكتاب الذي لم استهدف فيه منذ البداية تأريخ حياة فيلبي ، او تتبعها يوماً بعد يوم ، وانما اردت منه ابراز الدور الكبير الذي لعبه هذا الرجل في حياة الوطن العربي حقبة من الزمن ..

* * *

على كل حال استقر الأمر لابن السعود ، في الحجاز ، وكان الاتحاد السوفياتي ، اول دولة كبيرة اعترفت بالوضع الجديد ، كما كان بعد اربع سنوات أول دولة رفعت تمثيلها السياسي في جدة ، من رتبة القنصلية العامة ، الى مرتبة المفوضية ليصبح كريم خان حكيموف أول وزير مفوض في المملكة العربية السعودية فيحتل ، مركز عمادة السلك السياسي . وما لبثت بريطانيا وغيرها من الدول ان حذت حذو الاتحاد السوفياتي بعد ان ثبت لها ان ما كان يبثه خصوم ابن السعود عن حكمه من دعاوى العنف والارهاب لم يعدُ حد الشائعات المغرضة التي لا تستند الى اساس ..

ويتحدث فيلبي عن هذه المرحلة فيقول : « وقد تمكن ابن السعود الذي

لم يسبق له أية اتصالات اجنبية مع أية دولة باستثناء بريطانيا وتركيا من ان ينسجم مع مجموعة الدول التي اصبحت ممثلة لديه ، وقد اذهل العالم الذي كان يتوقع منه ، ومن عهده اتباع طريقة متعصبة في الحكم ، بما اقدم عليه من السماح بإدخال السيارات الى بلاده لتسهيل نقل الحجاج بين مكة والمدينة ، بشكل واسع النطاق ، ما كان ليوافق عليه حتى الملك حسين الذي كان يعتبر تقدمياً ، في رأي الغرب ، لأنه كان يفترض ان التنقل السريع والمريح ، امتياز خاص للأمراء . ومن الحق ان يقال انه بعد وصوله الى الحجاز ، أمر بمصادرة جميع ما في البلاد من مخزون التبغ والدخان ، واتلافه ، وعندما قيل له ان هذا الأمر سيلحق ضرراً ، بالتجار يربو على المائة الف جنيه ، لم يتردد لحظة واحدة في سحب هذا الأمر ، وان ظلت الأوامر صارمة في منع المجتمع الوهابي من التدخين » .

ولكن مهمة الملك ابن سعود الشاقة في هذه الفترة كانت في تبديد مخاوف العالم الاسلامي ، ومواجهة انتقاداته ، ولاسيما في مصر والهند ، بصدد النظام الذي يجب ان يتبع في الحجاز ، ومدنه المقدسة . ولم يكن يسعه تجاهل رغبات المسلمين نظراً للدور الكبير الذي تلعبه رسوم الحج في تأمين موارده المالية . ووجه الدعوة لتأمين هذه الغاية ، الى جميع البلاد الاسلامية ، لإيفاد من يمثلها الى مؤتمر اسلامي عام يعقد في موسم الحج في السنة الأولى من انهيار حكم الهاشميين في الحجاز . وعندما التأم شمل المجتمعين ، في مكة المكرمة عرض عليهم استعداده للتنازل عن حكم الحجاز ، لأي حاكم يختاره المسلمون ، شريطة ان يضمن العهد الجديد سلامة الحجاز والحجاج والاماكن المقدسة . وبالطبع لم يكن هناك اقتراح من أي نوع ، وكان الملك عبدالعزيز يدرك سلفاً ان مثل هذا الاقتراح لن يقدم ، فأصبح بعد ذلك الحاكم المطلق للحجاز ، لا ينازعه في حقه أي منازع ، بإجماع رأي المسلمين وموافقتهم .

وكان ابن السعود في غضون ذلك يوثق علاقاته ، وهذا طبعاً بمشورة فيلبي ، بالجاليات الاجنبية المقيمة في جدة من دبلوماسية وقنصلية وتجارية ، وكان يكثر

من التّرداد على المدينة في زيارات قصيرة ، فيتعرف على من فيها من اجانب ، ويقيم لهم مآدب وحفلات جماعية ، يباحثهم إبانها في مختلف القضايا والشؤون من محلية ودولية .

ويقول فيلبي انه في مثل هذه المناسبات لم يكن يفارق الملك مطلقاً . بل يواظب على حضور مجلسه في قصر الكندرة خارج جده ، الذي اتخذه الملك مكاناً لسكناه ، الى ان تم بناء القصر الأخضر ، الذي اصبح مقره الرسمي ، عند وجوده في العاصمة الدبلوماسية .

ويروي فيلبي حادثة معينة تشير الى انه لم يكن يقتصر على القيام بدور المستشار ، وانما كان يتعداه الى دور مدير المراسم والترجمان ، وغيرهما من الادوار . فهو يقول : « ودعا الملك ذات يوم قبطان البارجة البريطانية « انتربرايز » وضباطها ، والمعتمد البريطاني ، وموظفي دائرته ، الى مأدبة اقامها بمناسبة اعتراف الحكومة البريطانية ، به ملكاً على الحجاز . واستدعاني الدكتور عبدالله الدملوجي ، لمساعدته في اعداد الأماكن على المائدة . وكان المدعوون يناهز عددهم المائة والعشرين ، وبينهم عدد من كبار موظفي حكومة الملك ، وافراد عائلته ، ووجوه جده ، وكبار التجار البريطانيين في المدينة . وكانت نصيحتي ان يتفرق الضيوف البريطانيون على المائدة ، وفقاً لرتبهم ، وان يجلس واحد من العرب بين كل بريطانيين ، لكن الملك رفض هذا الاقتراح لمخالفته تقاليد الضيافة العربية ، وأمر بأن يجلس الضيوف البريطانيون على رأس المائدة على جانبيه ، كل حسب رتبته ومقامه ، ثم يتلوهم وجهاء جدة ، فموظفو الحكومة فالامراء في نهاية المائدة . وأمر بأن اجلس انا معهم بين احد اشقائه واحد اولاده .

« وامتلأت المائدة بما عليها من لذيذ المآكل ، ومختلف أنواعها ، وساد جو من الصمت على المأدبة ، لم يكن ليقطعه الا همسات من هنا وهناك ، وسرعان ما عيل صبر الملك ولم يستطع احتمال هذا الجو الصامت أمداً آخر ، فصاح بأعلى صوته .. « اين فيلبي ، ليأت الى هنا ، فأنا لا استطيع ان اتحدث الى

هؤلاء الناس بدونه » . وهكذا انتقلت الى رأس المائدة ، وحشرت نفسي في مقعد بين الملك والقبطان . وقضيت ما تبقى من المأدبة في الترجمة بدلاً من الاكل . واستمرت العملية في فترة تناول القهوة في غرفة الجلوس ، وسرعان ما ذاب جو الرسمية الذي احاط بالمأدبة في بدايتها دون الاستعانة بأي شراب سوى اللبن « الشنينه » ، والماء القراح ، والقهوة العربية » .

ان هذه الصورة التي يرسمها فيلبي للمأدبة ، تلقي ضوءاً على المكانة التي اصبح يحتلها عند ابن السعود ، فهو اقرب الى قلبه من وجوه جده ، ومن وزرائه وموظفيه ومستشاريه . انه يعتبره واحداً من افراد اسرته ، فيأمر بجلوسه بين الأمراء ، وهو يقوم للملك بأكثر من دور واحد ، فهو مستشاره الذي يثق برأيه ، وهو ترجمانه الذي يعتمد عليه .

ويمضي فيلبي فيقول : « وكم كانت دهشة القبطان وضباطه كبيرة عندما عادوا الى بارجتهم ، فوجدوا ان جميع بحارة البارجة كانوا ابان المأدبة ينعمون بالخراف المحشوّة ، واطايب الطعام والفواكه التي بعث بها اليهم ابن السعود .. هذه هي طبيعة الصحراء ، وهذا هو كرمها ، فالمضيف لا ينس رجال ضيفه وخدمه وأفراد حاشيته . وقد اقام قبطان الباخرة حفلة شاي انيقة في اليوم التالي شهدها عدد من الأمراء وكبار رجال الدولة والوزراء ووجوه المدينة » .

وكان فيلبي في غضون ذلك قد حصل على اذن من الملك بتأسيس شركته التجارية ، والبدء بأعماله في جده ، وهو ما سيكون موضوع بحثنا في فصل لاحق . فسافر الى بريطانيا لانهاء الخطوات اللازمة المتعلقة بتأسيس الشركة ، كما يدعي ، وان كانت حقيقة رحلته ، تتعلق بسفرة قام بها في هذه الآونة الى لندن الامير فيصل آل سعود على رأس بعثة رسمية لبحث كافة المشاكل السياسية مع الحكومة البريطانية بالنيابة عن والده ، وبالطبع كان فيلبي دائم الاتصال بالأمير اثناء هذه الزيارة ، لا يكاد يفترق عنه لحظة واحدة ، ثم عاد معه الى جده بعد زيارة لفرنسا وهولنده .

ويتحدث فيلبي عن هذه المرحلة فيقول : « وعندما عدت الى جدة ،

وجدت ان جوردان ، الذي كان لا يزال قنصل بريطانيا العام ومعتمدها في جدة ، يتفاوض مع الملك عبدالعزيز ، في مكان على مقربة من المدينة لعقد معاهدة جديدة ، توضح معاهدة البحرة ، والحدة ، التي وقعت قبل استكمال احتلال ابن السعود للحجاز . وكانت الحكومة البريطانية ، تريد تنظيم علاقاتها المقبلة مع ابن سعود على اسس جديدة ، لم يكن الملك ليقبل بها ، مما حمله على قطع مفاوضاته مع القنصل ، قائلاً ، انه في المستقبل سيرفض بحث القضايا الدبلوماسية الهامة مع صغار موظفي السلك القنصلي . وقد ادى هذا الموقف الى وصول السير جلبرت كلايتون في اشهر الصيف الأولى من عام ١٩٢٧ ، يرافقه جورج انطونيوس وكينهان كورنواليس ، وغلوب ، لاستئناف المفاوضات التي انقطعت .

« واستقر الملك في قصر محمد ناصيف ، في جدة ، معرباً عن استعداده للبقاء مدة طويلة في المدينة، واستعداده للوصول الى تفاهم كامل مع بريطانيا على اساس اعترافها بسيادته واستقلاله التامين ، دون اية شروط . وبدا أنه لم يكن على استعداد لقبول أي من الامتيازات التي كان العهد الهاشمي السابق ، قد منحها للأجانب عامة والأوروبيين خاصة في الحجاز . ويبدو ان التعليمات التي كانت عند الجنرال كلايتون ، لم تكن لتخوله المضي الى الحدود التي يطلبها الملك ، الذي كان يستدعيني في المساء ، لحضور جلساته بصورة منظمة ، والاشتراك في مشاوراته . وقد تمكنت من تكوين صورة صحيحة عن التقدم الذي حققته حتى تلك اللحظة ، وبدا لي ، ان هذا التقدم كان سلبياً ، وان حرارة الصيف الآخذة في الازدياد ، ما كانت لتصلح من مزاج المتفاوضين ، وان المفاوضات محكوم عليها بالفشل ، الا اذا عدل أحد الفريقين من موقفه . وبدا لي ان اياً من الفريقين ، لم يكن راغباً في ذلك . ووصلت المفاوضات الى ازمة عنيفة حادة ، عندما بعث اليّ الملك ذات صباح ، فلما جئته بادرني قائلاً : اسمع ، ان اصدقاءك يبالغون في ما يطلبونه ، في وقت واحد ، وليس في وسعي اقناعهم بالتزام جانب المنطق والعقل ، وأرى ان استمرار المفاوضات مضيعة

للوقت ، وقد قررت انهاءها ، ومغادرة جدة الى الطائف ، ولكنني اريد ان يعرف العالم بأسره ، السبب الحقيقي في انقطاع المفاوضات . وقد اعددنا مسودة الكتاب الاخضر الذي يشمل ملخصاً وافياً لما دار في تلك الجلسات ، من مفاوضات ، كما يشمل تفاصيل ما تطلبه بريطانيا ، والاسباب التي تحملنا على رفضها . خذ ، هذا هو النص العربي ، واريد منك ان تنقله الى الانكليزية في اسرع وقت ممكن ، حتى نتمكن من طباعته بالعربية والانكليزية ، في وقت واحد ، أي في يوم انتهاء المؤتمر . هذا كل ما استطيع ان افعله في مثل هذه الظروف ، واترك لله جل شأنه ان يفصل في ما بيننا » .

« وقضيت يومين في ترجمة الوثيقة المستفيضة المطوّلة ، التي تقع في نحو من عشرين صفحة ، واعتقد ان الملك قد اطلع كلايتون على نسخة من ترجمتي في آخر اجتماع خاص عقده مع الملك ، وان اطلاعه هذا حمله على رجاء الملك بعدم نشره ، اذ تأثر بالحجج المنطقية التي حشدتها الحكومة السعودية ، والتي تحمل اتهاماً صادقاً صريحاً للسياسة البريطانية تجاه البلاد العربية . ورجا كلايتون من الملك ، ان يوافق على تأجيل المؤتمر ، بدلاً من انهائه ، مفهماً اياه انه سيسافر الى لندن ، للضغط على حكومته ، لتبديل سياستها تبديلاً جذرياً تجاه الموضوع كله .

« وقد وافق الملك ، فوراً على هذا الاقتراح ، واقيمت مأدبة تشير الى انتهاء المؤتمر بصورة موقته ، وغادر الملك جدة الى الطائف ، بينما سافر كلايتون وأفراد بعثته بحراً الى مصر . وغادرت جدة مع البعثة في طريقي الى لندن ، للقيام بمفاوضات تتعلق بشركتي الجديدة ، لأعود في الخريف مع زوجتي الى جدة » .

وعادت بعثة كلايتون الى جدة ، بعد بضعة ايام ، من رجوع فيلبي ، لتستأنف مفاوضاتها مع الملك ابن سعود ، وقد اتخذت موقفاً اكثر ليناً ومهاودة ، وسرعان ما دارت المباحثات في جو ودي لتنتهي في وقت قصير بتوقيع معاهدة جدة التي اعترفت بريطانيا فيها اعترافاً اصيلاً شاملاً بالسيادة المطلقة للحكومة

السعودية ، ونصت على عدم تدخل بريطانيا في أي شأن من شؤون الحجاز ، على الرغم من ملحق للمعاهدة تضمن بعض الرسائل المتبادلة بين كلايتون وابن السعود حول مواضيع معينة تتعلق بالمصالح المشتركة ، كمشكلة الرقيق ، والتصرف بممتلكات الرعايا البريطان ومعظمهم من الهنود اثناء مواسم الحج . وقد تعهد الملك عبدالعزيز في هذه الرسائل باتباع سياسة معينة قبلت بها بريطانيا واعربت عن قبولها في الرسائل التي بعث بها كلايتون الى الملك .

وزالت بهذه المعاهدة ، الامتيازات التي كان الاجانب يتمتعون بها في الحجاز والتي كانت تعتبر مساساً مباشراً باستقلال البلاد وسيادتها ، فوضعت اسس العلاقات التي ظلت قائمة بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا مدة طويلة ، وهي علاقات تنطوي على الصداقة .

وهنا ، قد نتساءل ما هو الدور الذي لعبه فيلبي في هذه المفاوضات وفي عقد المعاهدة . انه حتماً دور غير رسمي ، اذ لم يكن فيلبي عضواً لا في الوفد السعودي المفاوض ، ولا في الوفد البريطاني المفاوض . ولكنه كان يشير على ابن سعود من وراء ستار بما يعمله . وقد ادت مشورته الى تصلب ابن سعود ، والى اقناع كلايتون بوجهة نظره ، فعمل هذا بدوره على تغيير موقف الحكومة البريطانية الرسمي . ولعل رحيل فيلبي مع بعثة كلايتون ، في نفس الباخرة بعد تأزم المفاوضات في المرحلة الأولى ، لم يكن بقصد التفاهم على شركته التجارية كما قال : بل للاشتراك مع كلايتون في اقناع حكومته بأن خير سبيل تتبعه في علاقاتها مع ابن السعود ، يجب ان ينطوي على صداقة دائمة ، تقوم على اساس التفاهم والمساواة ، لا على اساس الاستعباد والاخضاع من ناحية والاذعان والخنوع من الناحية الاخرى .

وقد فضح فيلبي نفسه والدور الذي قام به ، عندما علق على هذه المعاهدة في الصفحة ٢٦٢ من كتابه « ايام عربية » عندما قال : « وقد تعرضت هذه الصداقة التي خلقتها المعاهدة الجديدة للمحك والتجربة ابان الحرب الكونية الثانية ، فصمدت لهما مما حمل المستر ونستون تشرشل على ان يفوه بالعبارة

التالية عندما اجتمع بابن سعود عام ١٩٤٦ في اوبرج الفيوم ، بعد مؤتمر يالطه ، اذ قال : « انه لشرف عظيم لي ، وسرور ما بعده من سرور ، ان اجتمع الى الرجل ، الذي برهن حقاً على انه صديق في وقت الشدة والضيق » . وكان في امكان ابن سعود بالطبع ان يبادله نفس هذه العواطف . ومن الجدير بنا ان نقول ؛ انه في الوقت الذي عانت فيه بريطانيا وامريكا الكثير من المتاعب لتكييف اوضاع الشرق الاوسط لمجهودهما الحربي الطويل ، كانت المملكة العربية السعودية الدولة الوحيدة في العالم العربي التي لم تسبب للحلفاء أي قلق او ازعاج . وقد مضى على الحكومة البريطانية نحو من عشر سنوات طويلة بين عامي ١٩١٧ و ١٩٢٧ وهي عاجزة عن ادراك عظمة ابن السعود واهمية هذه العظمة لمصالحها ، وقد فشلت في تفهمها ذلك . وحبطت جهودي في هذا السبيل . ولكن دهاء كلايتون ، وكياسته ، وتأثيره السحري على اوستن تشمبرلين ، كلها امور ادت الى تحقيق المعجزة . واذا كانت قد وقعت لنا مشاكل وخلافات مع ابن سعود ، خلال السنوات السبع عشرة الماضية ، وهي ليست حتماً من صنعه ، فقد كنا نعرف دائماً اين نقف ، مع ذلك الرجل ، الذي كان يستهدف شيئاً واحداً ليس الا ، وهو خير قومه العرب ، مدركاً ان سعادة بلاده وازدهارها ، مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالتوافق القائم بينه وبين بريطانيا العظمى وامبراطوريتها » .

اذن ، فقد تحقق لفيلبي حلمه اخيراً ، بإقامة عهد من الصداقة الوطيدة بين بلاده وبين عبد العزيز ، وانحصرت مهمته الآن ، بعد ذلك التبدل الجذري في سياسة بريطانيا تجاه الملك عبدالعزيز ، الى المحافظة على هذه الصداقة التي كان يعتقد انها في مصلحة بلاده ، بقدر ما هي في مصلحة صديقه . وجاء قوله في هذه الفقرة ، كاشفاً لحقيقة المهمة التي كان يقوم بها طيلة المدة السابقة ، والتي حاول اخفاءها ، حيناً تحت ستار الوساطة ، وحيناً آخر تحت ستار التجارة.

ولكن هذه العلاقات الطيبة ما عتمت أن اصطدمت بأزمة من اعنف الازمات في السنتين التاليتين ، فقد كانت الحدود بين المملكة السعودية وبين العراق قد

خططت بشكل يضمن وجود مناطق محايدة ، لا تخضع لأي من الدولتين الجارتين ، كما نصت اتفاقية الحدود على عدم اقامة مراكز عسكرية في المناطق الواقعة على بعد خمسة اميال من طرفي الحدود . ولكن حكومة العراق ، ما لبثت ان خالفت هذه الاتفاقية باقامة مركز عسكري في البصيّه ضمن المناطق المحظورة لتستخدمها قوات الصحراء ، التي كانت في هذا الحين تحت قيادة غلوب . وهاجمت قبائل المطير الوهابية بقيادة فيصل الدويش ، المركز المذكور فسارعت السيارات المدرعة والطائرات البريطانية الى الاشتراك في القتال ، مطاردة قبائل الدويش .

واحتج الملك عبد العزيز على هذا الاعتداء على اراضيه ، وعلى بناء القلعة المشار اليها ، ولكنه اصدر أوامره في الوقت نفسه الى فيصل الدويش وسلطان بن بيجاد ، بالانسحاب من الحدود ، وان يتركا له تسوية الموضوع بالطرق الدبلوماسية . ولكن الزعيمين الوهابيين رفضا اطاعة الأوامر ، واتهما الملك عبدالعزيز باهمال فروضه الدينية والتفاهم مع الكفرة . ولقد كان هذا الموقف عصياناً مسلحاً من الزعيمين الوهابيين ، اللذين لم يكونا حقاً يريدان العصيان . ولكن عبدالعزيز ما كان ليتسامح في هذا الموقف مهما كانت الدوافع اليه ، فحشد جيشاً ضخماً سار به ، لقتال الدويش وصاحبه ، فهزمهما في معركة سبيلة التي جرح فيها فيصل الدويش . وجيُ به الى الملك مثخناً بالجراح فعفى عنه.

وفي غضون ذلك ، كان عبدالله ، شقيق الملك يهاجم حصن الاخوان في المزاحمية ، فاحتله وهدمه ، ولم يبقِ على منزل فيه ليكون عبرة للاخوان الآخرين . وأسر سلطان بأيدي قوات عبدالعزيز ، ونقل الى السجن في الرياض ، وبدا ان الأمر قد انتهى عند هذا الحد . ولكن فيصل الدويش سرعان ما شفي من جراحه ، وقاد قواته من جديد ليهاجم الحدود العراقية فيمنى بالهزيمة من جديد على ايدي القوات العراقية تدعمها الطائرات البريطانية في معركة دبدبة . وقد استسلم الدويش للانكليز ، رغبة منه في تجنب مواجهة ملكه عبدالعزيز . وبدا أن الملك فيصل كان على اتم استعداد لمنحه حق اللجوء السياسي في العراق ،

املاً في استخدامه ضد ابن سعود في المستقبل . ولكن عبدالعزيز أصر على ان يسلم الدويش اليه بوصفه ثائراً ، وقد وافقت السلطات البريطانية على ذلك شريطة أنِ لا يعدمه الملك عبدالعزيز . فأودع فيصل الدويش في السجن مع سلطان حيث قضيا نحبهما بعد بضع سنوات . وهكذا انتهت هذه الحرب غير الرسمية مع العراق ، وتمكن عبد العزيز من اخماد اخطر تحد من صفوف « الاخوان » ، لهيبته وسلطانه .

واقترحت بريطانيا على كل من فيصل وعبدالعزيز ، ان يجتمعا لوضع حد للنزاع الطويل بين الاسرتين الهاشمية والسعودية ، فاجتمع الملكان في عام ١٩٣٠ على ظهر المدمرة البريطانية لوبين ، في الخليج العربي بحضور المندوب البريطاني السامي الجديد في العراق ، السير فرنسيس همفريز .

ويقول فيلبي ، ان دوره في جميع هذه الاحداث لم يتعد دور المراقب عن كثب الذي يزود الصحف البريطانية والمصرية بأنبائها . فقد كان في هذه الفترة قليل الاتصال بالملك الذي كان يقضي معظم وقته في قلب الجزيرة العربية ، بينما ظل فيلبي في جدة يطلع على الانباء اولاً بأول من الامير فيصل نائب الملك في الحجاز ووزير الخارجية، والدكتور الدملوجي نائبه في وزارة الخارجية ومساعده الجديد فؤاد حمزه .

ويقول فيلبي ايضاً انه اشتغل في هذه الحقبة من الزمن في إصدار عدد من الكتب التي وضعها ، وفي مقدمتها كتاب « الجزيرة العربية الوهابية » ، وكتاب « الجزيرة العربية » و « تاريخ هرون الرشيد » ، و « اسطورة ليخمن » ، التي وضعها مستنداً على رسائله ويومياته والمستندات الاخرى التي وضعها اقرباء ليخمن تحت تصرفه .

ويتحدث فيلبي في كتابه « ايام عربية » ، عن المجتمع الأوروبي في جده ، في هذه الايام ، فيقول انه كان مزيجاً غريباً من مختلف الجنسيات ، بعضهم يعمل في الحقل الدبلوماسي والبعض الآخر في الحقل التجاري .. ويقول : « واذكر انني اقمت مع زوجتي في الثامن من كانون الثاني عام ١٩٢٨ ، حفلة

استقبال ، لنحو من سبعين شخصاً ، بمناسبة الذكرى الثانية لارتقاء الملك عبدالعزيز عرش الحجاز ، كانوا يمثلون ثمان وعشرين جنسية مختلفة . وكان الانكليز والهولنديون ، يحتلون المرتبة الأولى من ناحية النسبة العددية بين هذه الجاليات ، بينما احتل الايطاليون المرتبة الثالثة . »

وكانت المملكة السعودية في غضون ذلك قد بدأت بتعيين ممثلين دبلوماسيين لها في الخارج ، فبعثت الشيخ حافظ وهبه وزير المعارف ، اول وزير مفوض في لندن ، والشيخ فؤاد حمزه وزيراً مفوضاً في باريس ، ثم عينت قائمين بالاعمال لها في كل من القاهرة وبغداد ودمشق .

واعتنق فيلبي الاسلام في عام ١٩٣٠ ، وهوما سيكون موضوع بحثنا في فصل خاص ، واصبح بعد هذا التاريخ حراً في التجول في جميع انحاء المملكة العربية السعودية ، يرافق الملك في غدواته وروحاته . ويقول فيلبي انه قضى العشر سنوات التالية قريباً من الملك كل القرب ، يعمل في الحقل التجاري الذي اختاره لنفسه ، وفي التجول في انحاء الجزيرة العربية ليصبح اكبر مستكشف اوروبي في شؤونها وصحاريها .

وابتاع فيلبي دارة جميلة في مكة المكرمة ، بنيت على الطراز التركي ، واقام على مقربة من الملك عبدالعزيز ، الذي كان يقضي الاشهر الطوال في عاصمة الحجاز . وبعد اشهر رافق الملك في رحلته الطويلة بالسيارات عبر صحاري نجد الى الرياض . التي لم يكن قد رآها بعد منذ عام ١٩١٨ ، والتي وجد انها لم تتغير كثيراً عما كان يعرفه فيها . وحل ضيفاً على الملك في قصره الملكي .

ويتحدث فيلبي عن هذه الفترة من حياته فيقول : «كنا نقوم احياناً بجولات نخرج فيها عن حدود المدينة الغربية ، فنتوغل بعيداً في الصحراء ، طلباً للصيد والقنص . وكان الملك قد شيد له قصراً صيفياً في البديعة ، في وادي البطين ، حيث كنا نخرج اليه كل مساء بالسيارات لنجلس في الصحراء ونتحدث ثم نتناول العشاء، قبل ان نعود الى المدينة في برودة المساء. حقاً لقد كانت حياة

ناعمة هنيئة ، وكانت ثمة مشاغل عدة تحتل من اهتمامي الشيء الكثير ، وفي ذات يوم كاد فؤادي يقفز من مكانه هياجاً وحماساً عندما قال لي الملك بلهجته الهادئة المعتادة .. « لاريب في انك تحب ان تزور الربع الخالي . حسناً ستقوم بهذه الزيارة ، وقد كتبت لعبدالله بن جلوي ، ليعد لك جماعة ترافقك في رحلتك هذه » . ولكن هذه الزيارة لم تتم بسرعة كما توقعت ، ولم يكن في وسعي ان اشير الى الموضوع ، ومرت الأيام والاسابيع ، وأنا اعيش في الم صامت ، الى ان بدأنا نستعد لرحلة الحج والمضي الى مكة . ولم استطع معرفة ما حدث مما ادى الى تأجيل الرحلة ، وان كنت قد خمنّت بأن ابن جلوي قد كتب الى الملك يعلمه بأن الظروف غير مواتية للقيام بالرحلة .

« وخيل الي ان في وسعي الانتظار ، لاسيما وان الملك هو الذي اثار الموضوع ، ولكن بعد وصولنا الى مكة ، اطلعني الامير عبدالله شقيق الملك على نبأ نشرته احدى الصحف المصرية ، يقول ان برترام توماس ، قد قام بأول اجتياز للربع الخالي ، فقد غادر مدينة ظفار على المحيط الهندي ، واجتاز صحراء الربع الى الدوحة في قطر . حقاً لقد كان عملاً رائعاً ، فقد كنت انا اول من اوحى لبرترام ، بالقيام بهذه المحاولة ، اذ كان يعمل في عام ١٩٢٤ ، مساعداً لي في عمان ، عندما عرض عليه منصب جديد في مسقط ، فشجعته على قبوله ، قائلاً له ان هذا المنصب ، سيتيح له امكانية اجتياز الربع الخالي ، وها هو بعد ستة أعوام ، يحقق ما كنت اعتزم انا القيام به ، وكأن قول الشاعر العربي قد صدق عليه ..

اعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

« وعندما علم الملك بما اصابني من يأس وخيبة امل ، عمل على ان يطيّب خاطري ، مع ثقتي الاكيدة ، بأنه انزعج كل الانزعاج لرحلة توماس ، التي تم الشطر الاكبر منها في ممتلكاته دون اذن منه . وكنت واثقاً على كل حال من ان فرصتي ستحين قريباً ، لا سيما وان ما كتبه توماس عن رحلته ، قد دل على انه لم يكتشف مدينة الوبر الخرافية ، التي كانت دائماً مدار احلامي » .

وأدّى فيلبي في ذلك العام فريضة الحج لأول مرة في حياته ، وكان نقص عدد الحجيج الذين امّوا الديار المقدسة في ذلك العام سبباً في إدراك الحكومة العربية السعودية للأزمة الاقتصادية الخانقة التي أخذت تخيّم على العالم . فقد ادى تناقص عدد الحجاج القادمين من الهند ، واندونيسيا التي كانت تسمى آنذاك جزر الهند الشرقية ، الى انخفاض عائدات الحكومة السعودية من خمسة ملايين جنيه في العام الى مليونين . وكادت الأزمة المالية الخانقة تشل جهاز الدولة السعودية ، فاقترح فيلبي على الملك في مجلسه الخاص ان يأمر بمنع تصدير الذهب الى الخارج ، وان يصدر أمراً بتأجيل دفع الديون الخارجية (الموراتوريوم) مع التعهد بدفع فائدة قدرها خمسة في المائة على الاقساط المتأخرة . وقد وافق الملك على المشروعين ، واصدر أمره بتنفيذهما ، كما اصدر أمراً آخر بالتوفير في مختلف اجهزة الحكومة ودوائرها .

ويتضح من هذا ان دور فيلبي تعدى المشورة في الشؤون السياسية الى الشؤون المالية والاقتصادية ، ولعل هذا كان الحافز له على تشجيع الملك عبدالعزيز على منح بعض الامتيازات للتنقيب عن البترول والمعادن الاخرى في المملكة . واني اترك لفيلبي نفسه رواية الدور الذي قام به في هذا الميدان قال : « وبدأ القلق يستحوذ على الملك عبدالعزيز ، وبدأت ارى معالم اليأس تتسلط على نفسه ، فتضعف من حيويته ومن تفاؤله . وكنت في ذات يوم استقل السيارة الملكية في معيته في جولة قمنا بها بعد الظهيرة ، عندما انطلق يتحدث عن آمال بلاده واوضاعها . فأعرب عن قلقه ، بأن ضعف موسم الحج في السنة التالية سيؤدي الى كارثة اقتصادية تحل بالبلاد ، بالنظر الى عدم وجود اية موارد اخرى لها . وانتهزت الفرصة فقلت « ليس ثمة من داع لليأس ، شريطة ان تكون على استعداد للسعي بدلاً من مجرد الاتكال على مشيئة الله لانقاذك ، اذ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . فأنت تنام على كنوز مدفونة في الارض ، ثم تشكو من الفقر ، بينما لا تحاول القيام بأي عمل لاستغلالها » . فقال .. « ماذا تعني » .. قلت « اعني ان بلادك ملأى بالكنوز الدفينة من نفط وذهب ،

وانت عاجز عن استغلالها بنفسك ، ولا تسمح في الوقت نفسه للآخرين باستغلالها نيابة عنك . » فقال وقد بدا عليه الجهد : « اسمع يا فيلبي .. لو وجدت من يدفع لي مليون جنيه الآن ، فإنني سأمنحه كل ما يريده من امتيازات في بلادي ».. فقلت: « ان هذه الامتيازات تساوي اكثر من هذا المبلغ بكثير ، واذا كنت تعني حقاً ما تقول ، فأنا اعرف رجلاً يستطيع ان يساعدك . لقد جاء لزيارتك قبل عدة سنوات ، ولكنك رفضت ان تقابله . وهذا الرجل موجود في القاهرة الآن ، واذا حددت لي الموعد الذي ستكون فيه في جده ، فسأبرق اليه ، وانا اضمن لك انه سيجيء . انه على استعداد للتضحية بإحدى عينيه في سبيل لقائك » .. وكانت هذه هي الطريقة التي جاء بها شارل كرين الى جدة في ايار عام ١٩٣١ ، والتي اسفرت عن تقديمه مهندسه المشهور تويتشل الذي عمل له في البحث عن المعادن في اليمن من قبل ، ليكون تحت تصرف الحكومة السعودية مدة ستة اشهر ، للبحث عن امكانيات البلاد المعدنية . ومن هذه البداية المتواضعة الصغيرة ، تطورت صناعة الزيت في المملكة العربية السعودية التي غدت من اغنى الصناعات في العالم ، كما تطور البحث عن الذهب في الحجاز ، بالاضافة الى عدد من المشاريع الزراعية الاخرى التي اقيمت في البلاد » .

ماذا نستنتج من هذا الحديث ، الذي يسجله فيلبي على نفسه بمحض اختياره وبكل هذه الصراحة . نستنتج شيئاً واحداً ، وهو ان فيلبي الذي خدم اغراض الامبراطورية ذلك الردح الطويل من الزمن ، قد اتسعت اتصالاته في هذه الفترة التي قضاها في المملكة العربية السعودية ، بعيداً عن خدمة الحكومة ، فأصبح اداة نشيطة في ايدي الشركات الاحتكارية الكبرى التي تشرف بالاشتراك والتعاون على استغلال البترول والمعادن الاخرى في اكثر من جزء من اجزاء العالم ، وانه كان دائم الاتصال بهذه الشركات وبممثليها ، ويعرف ما تريده من المملكة العربية السعودية . ولو لم يكن له هذا الاطلاع الواسع ، لما عرف ان السيد كراين موجود في القاهرة ، وعرف العنوان الذي يستطيع الاتصال

به فيه ، وقرر للملك عبدالعزيز ما يريده هذا الرجل بكل دقة وضبط ، وذلك في حديث عارض لم تسبقه اية مقدمات .

ولو كان فيلبي حراً في تصرفاته ، وغير مرتبط بالتزامات وواجبات تجاه مصادر خفية يعمل لها ، في خارج البلاد ، ليس اقلها شأناً اليد الخفية التي توجه مصير الامبراطورية ، ولو كان صادق النصح لصديقه الملك عبد العزيز ، وادرك ما يعانيه من ضائقة مالية واقتصادية ، لما دفع به دفعاً الى احضان ذلك الرجل وحده ، بل لاتاح له بمشورته وبالاتصالات التي قد يجريها بالنيابة عنه ، سبيل الاتصال ، بأكثر من شركة واحدة ، في اكثر من قطر في العالم ولاسيما في الاقطار غير المشتركة في الشركات الاحتكارية وفتح امامها أبواب المنافسة الحرة الشريفة ، للحصول على الامتيازات التي تريدها ، وتطمع فيها في المملكة السعودية ، فيضمن بذلك لصديقه الملك عبدالعزيز ، اكبر ربح ممكن ، ويضعه في موضع المتحكم الذي يملي شروطه املاء بدل ان يكون في موضع المتضايق الذي يضطر الى قبول ما يفرض عليه من شروط .

ويصبح فيلبي عضواً دائماً من اعضاء بلاط الملك عبدالعزيز وبطانته ، فهو يشترك في جميع مجالات النشاط التي يقوم بها البلاط ، وهو يساهم في رحلات الصيد والقنص التي يقوم بها الملك ورجاله في الدهناء وغيرها من الصحاري النجدية ، لكنه لم ينفك لحظة واحدة عن التفكير في مشروعه العظيم ، في اجتياز الربع الخالي . وبدأ في هذه الفترة يعد العدة للقيام برحلته الكبرى التي سنتحدث عنها في فصل لاحق ، والتي شرع فيها في مستهل عام ١٩٣٢ .

وارتحل فيلبي في صيف ذلك العام الى انكلترا ، بالطريق البري مسافراً عن طريق بيروت فدمشق فحلب ، فتركيا ، فالقارة الأوروبية ، الى ان وصل الى انكلتره ، حيث ألقى سلسلة من المحاضرات في الجمعية الجغرافية الملكية ، وغيرها من الجمعيات العلمية ، كما حضر مع زوجته حفلة تخرج ولده كيم من جامعة كمبردج ، يحمل شهادتها ، وأخذ يستعد لاصدار كتابه الضخم « الربع الخالي » متحدثاً عن تجاربه ، وما مر به في هذه المرحلة المهمة من حياته . فقضى

معظم صيف ذلك العام وخريفه مع اسرته ، في دارة جميلة تقع على الشاطئ البريطاني عند بورثور ، لهذه الغاية ، أما ولده كيم فقد بدأ بالطواف في اوروبا استعداداً للبدء بالعمل الصحفي الذي نذر نفسه له .

وعاد فيلبي مع زوجته في نهاية الخريف الى جده ، بنفس الطريق البري ، فارتحلا عبر بلجيكا وهولنده والمانيا والنمسا والمجر والبلقان واستامبول ، واستقلا منها الباخرة الى الاسكندرية ، ومنها الى القاهرة فالسويس ، ليستقلا الباخرة الى جده .

وعندما وصل الى الحجاز ، وجد برقية في انتظاره من المستر لوميس ، نائب رئيس شركة « ستاندارد اويل كاليفورنيا » ، يعرض عليه فيها ان يعمل على اقناع ابن سعود بمنح الشركة امتيازاً للتنقيب عن البترول ، في المملكة السعودية ، بعد ان تمكنت من العثور عليه في البحرين ، ويخوله التفاوض باسم الشركة مع الملك عبدالعزيز .

ويقول فيلبي انه شرع فوراً في مفاوضاته مع الملك ووزير ماليته الشيخ عبدالله السليمان ، وبعث برد الى المستر لوميس الذي اوفد المستر هاميلتون احد مستشاري الشركة والمهندس تويتشل للبدء في المفاوضات الرسمية في شهر كانون الثاني من عام ١٩٣٣ .

ويبدو ان فيلبي قد آلمه ان تحصل الشركة الامريكية على الامتياز ، وان تحرم منه شركات بلاده التي لم تكن حتى تلك اللحظة قد ابدت اهتماماً كبيراً ، بموضوع البترول في السعودية ، فبعث الى صديق له يعمل في شركة الزيت الانكليزية الفارسية ، يبلغه بالتطور الجديد ، ويقترح ان توفد الشركة من يمثلها ، للتفاوض مع الملك ومنافسة الشركة الامريكية . فأوفدت الشركة بالفعل المستر لونغريغ ، وهو من اصدقاء فيلبي القدامى ، كما جاء الميجور فرانك هولمز ، ليتفاوض باسم الشركة الشرقية العامة للبترول ، وهي الشركة التي حصلت في الماضي على امتياز شمل المملكة السعودية بأسرها ، مقابل اجر وهمي ، ولكنها سرعان ما تخلت عنه لانها فشلت في الحصول على البترول ،

اذ ان بحثها عنه لم يكن جدياً . واتضح بعد ايام ان الميجور هولمز ، لم يكن اهلاً للاشتراك في السباق التنافسي ، فارتحل عن البلاد ، بينما ظل لونغريغ متردداً محجماً في مفاوضاته بسبب القيود التي فرضتها الشركة فيمقرها عليه . وهكذا بدا أن الشركة الامريكية ، وحدها هي الموجودة في الميدان .

ويقول فيلبي انه شهد في مطلع شهر ايار ، عدداً من الجلسات التي عقدها مجلس الملك الخاص في مكة المكرمة ، والتي وضعت فيها مسودة الاتفاق مع الشركة الامريكية ، ثم بدأ المجلس يناقش هذه الاتفاقية بنداً بنداً الى ان اقرها في صيغتها النهائية . ويستطرد فيلبي قائلاً : « وتقرر توقيع الاتفاقية في صباح اليوم التالي بصورة رسمية ، ومضيت الى المفوضية البريطانية لوداع الوزير رايان ، بمناسبة رحلتي المقبلة الى انكلترا ، فوجدته ما زال واثقاً من ان لونغريغ سينجح في السباق ، ويحصل على الامتياز ، مدعوماً بكل ما تملكه المفوضية البريطانية من قوة ، وعندما ابلغته ان الاتفاقية ستوقع في اليوم التالي ثار غضباً .. »

ولكن الاتفاقية وقعت في اليوم التالي ، وقد وقعها وزير المالية بالنيابة عن الحكومة ، والمستر هاميلتون بالنيابة عن الشركة . وهكذا حصلت الولايات المتحدة على هذا الامتياز الذي قدر له ان يلعب فيما بعد دوراً كبيراً ، في الاوضاع السياسية وان يصرف المملكة السعودية عن ارتباطاتها ببريطانيا لتحل محلها الولايات المتحدة . فما هو دور فيلبي في هذا الموضوع ..؟

لقد كان فيلبي يود حتماً لو حصلت احدى شركات بلاده على الامتياز ، فهو على الرغم من ارتباطه بالشركة الامريكية الذيدلل عليه وصول البرقية التي اشرنا اليها قبل قليل ، والاتصالات السابقة التي تحدثنا عنها ، يود لو تمكنت شركة بريطانية من الصمود في ميدان المنافسة ، مع الشركة الامريكية . وقد دفعه ميله الطبيعي هذا ، الى الكتابة الى شركة الزيت الانكليزية الفارسية . كما اعترف هو نفسه بهذا الاتصال . فلما جاء مندوب الشركة المذكورة ، وايقن ان التعليمات الموجودة لديه ، لا تمكنه من الصمود أمام المنافس الامريكي القوي تبين له انه مهما أوتي من نفوذ وسلطان لا يستطيع ان يقنع ابن السعود بعدم

الموافقة على العرض الامريكي ، وترقب ما قد يتمخض عنه اخيراً المبعوث البريطاني ، والا فانه سيكشف بصورة واضحة جلية عن حقيقة دخيلته ، ويحسر النقاب عن تلك الصداقة التي يدعيها للملك السعودي ، فتظهر زائفة تتهاوى أمام المصالح ، لاسيما وانه كان يعرف تمام المعرفة الضائقة المالية التي أخذت بخناق المملكة السعودية من جراء تناقص عائدات الحج كنتيجة للأزمة الاقتصادية التي تسود العالم والتي ادت الى انخفاض عدد الحجاج عاماً بعد عام . ولكنه ، وعلى الرغم من هذا الادراك ، نراه في اللحظة الاخيرة يسر الى الوزير المفوض لبلاده بالعزم على توقيع الاتفاقية في الغد ، متخذاً من سفره القريب ذريعة لزيارته ، ووداعه ، فلعل المعجزة تقع على يدي هذا الوزير ، فيحقق ما شعر هو بالعجز الفاضح عن تحقيقه .

ولم يحل عام ١٩٣٣ ، حتى كان الملك عبدالعزيز يضع الحل اللازم لمشكلة دستورية تتعلق بمستقبل الحكم في بلاده ، وهي مشكلة ولاية العهد . فقد أراد ان يضع حداً لكل شكوك تثور حولها ، لما يمكن ان تؤدي اليه هذه الشكوك من تأثير على اوضاع البلاد السياسية. فأصدر في هذا العام مرسوماً ينص على انه بناء على المذكرات التي قدمها وزراؤه ، فقد قرر تسمية ولده الاكبر ، الأمير سعود ، الذي كان انذاك في الرابعة والثلاثين من عمره ولياً للعهد ، وان يتقدم بهذا الترشيح الى الشعب ، لمبايعته ، جرياً على الاعراف والتقاليد . ويقول فيلبي انه شهد البيعة بنفسه في الحرم المكي الشريف ، عندما تلقى الأمير فيصل نيابة عن اخيه سعود . يمين الولاء . ويضيف فيلبي ان المبايعين الذين كان هو احدهم ، قد امتدوا صفوفاً طويلة لمصافحة الامير فيصل ، وعندما وصل فيلبي بادره الأمير قائلاً : وانت ايضاً ؟ قلت أجل ، بوصفه المرشح لخلافة المسلمين وامارة المؤمنين .

وغادر فيلبي الحجاز الى الاسكندرية في ايار عام ١٩٣٣ ، ليبحر منها الى جنوا ، في نفس الباخرة التي اقلت الملك فيصل الاول ، في طريقه الى سويسرا للعلاج. ويروي فيلبي انه تحدث ابان هذه الرحلة الى الملك فيصل الاول ، فأعرب هذا عن

ارتياحه لما طرأ في السنوات الاخيرة على العلاقات بين بلاده والمملكة العربية السعودية من تحسن ظاهر ، واكد له تطلعه الى عهد من التعاون الودي بين البلدين.. ولكن القدر لم يشأ ان يطيل في حياة فيصل فقد توفاه الله في ذلك العام. ولكن الأسس القوية التي اقام علاقات بلاده عليها مع السعودية ، قد ظلت على قوتها ، رغم ما طرأ على العرش العراقي من تبدلات .

وفي هذه الآونة ايضاً ، وقع تطور خطير في العلاقات بين العربية السعودية وجارتها اليمن. فقد بدأت العلاقات في التوتر بين هذين البلدين المستقلين ، منذ امد طويل ، يرجع عهده الى احتلال الملك عبدالعزيز بلدة ابها وجبال عسير في عام ١٩٢٠ . وعندما فرض ابن السعود حمايته على امارة الادارسة في وهاد عسير وسهولها ، في عام ١٩٢٦ ليعود الى ضمها عنوة الى مملكته ، ازدادت حدة التوتر بين البلدين ، وأصبحت تنذر بتفجر الحرب بينهما في كل لحظة .

وقد توقع فيلبي في كتابه « تاريخ الجزيرة العربية » الذي اصدره في عام ١٩٣٠ ، نشوب الحرب المسلحة بين الدولتين في المستقبل القريب ، كما تنبأ بانتصار وهابي ساحق . ووقعت في عامي ١٩٣١ و ١٩٣٢ ، حوادث وخلافات في مدينة نجران ، وفي قرى الحدود القريبة منها ، مما بعث القلق في نفس ابن السعود ، اذ ان هذا كان يرفض قبول ادعاءات الامام يحيى في السيادة على نجران ومنطقتها ، وان كان لا يعارض في منحها نوعاً من الاستقلال الذاتي .

وقامت قوات الامام في عام ١٩٣٢ ، باحتلال جزء من منطقة نجران ، وقامت بتخريب بعض بساتين النخيل التي يملكها انصار ابن سعود . فأوفد الملك عبدالعزيز بعثة الى صنعاء للتفاوض مع الامام يحيي ، والوصول معه الى اتفاق حول مشكلة الحدود في منطقة نجران . ولكن الامام تصلب في موقفه ، واصر على وجهة نظره في ان ارض نجران جزء لا يتجزأ من اليمن ، وان لا حق لابن السعود فيها .

وعاد فيلبي من لندن في أواخر عام ١٩٣٣ ليجد ان الملك عبد العزيز قد حشد قواته ، وعهد بقيادة المنطقة الجبلية الوعرة الى ولده سعود ، والمنطقة السهلية في تهامة لولده فيصل . ولم يحل مطلع شهر آذار عام ١٩٣٤ ، حتى كان الملك عبدالعزيز يوجه انذاراً نهائياً الى الامام ، يطلب فيه منه سحب القوات اليمانية من منطقتي نجران وفايفة في فترة حددها باسبوعين . وتصلب الامام في موقفه ونشبت الحرب بين الدولتين في الخامس من نيسان عام ١٩٣٤ ، عندما اجتاز فيصل بقواته حدود تهامة متجهاً الى الجنوب .

ولم يتمكن الملك سعود ، وكان آنذاك اميراً ، من احراز أي تقدم في المنطقة الجبلية لوعورة مسالكها ، وسهولة الدفاع عنها ، وانعدام طرق المواصلات فيها مما يصبح معه من العسير ، وصول المؤن والذخائر . أما الأمير فيصل ، فقد واصل زحفه في السهل الساحلي جنوباً حتى احتل ميناء الحديدة ، بعد ثلاثة اسابيع من بدء القتال ، ليجد الاساطيل البريطانية والفرنسية والايطالية في انتظاره في الميناء .

وجاءت الأوامر الى فيصل من ابيه نتيجة تدخل وفد الوساطة الاسلامي ، والدول الكبرى بعدم التقدم الى الجنوب من الحديده ، واعرب الامام عن استعداده للبدء بمفاوضات الصلح التي سرعان ما انتهت بتوقيع معاهدة الطائف في الثالث عشر من ايار ، التي نصت على انسحاب القوات السعودية من الاراضي اليمانية ، مقابل غرامة كبيرة دفعها الامام .

وكادت مفاوضات الصلح تفشل قبل توقيع المعاهدة بيوم واحد ، رغم الجهود الهائلة التي بذلها وفد الوساطة العربي والاسلامي ، الذي ضم بين اعضائه الامير شكيب ارسلان ، والحاج أمين الحسيني وغيرهما ، وذلك بسبب تصلب الامام في موقفه ورفضه الاعتراف بالهزيمة العسكرية ودفع الغرامة .

ويقول فيلبي عن هذه المرحلة في كتابه « ايام عربية » في الصفحة ٣٠٠ ما يلي : « وقرر ابن السعود ، استئناف القتال ، كالوسيلة الوحيدة لتسوية المشاكل ، وكان في الوقت نفسه عازماً على تبرير موقفه امام الرأي العام العالمي ،

عامة والعربي بصورة خاصة . فقرر اقامة وليمة كبرى مساء الثالث عشر من ايار ، تكريماً للوفد اليماني الذي كان يرئسه عبدالله بن الوزير ، على ان يوضح الموقف ايضاحاً كاملاً في نهاية المأدبة . وبحضور ابن الوزير نفسه ، واعضاء وفده ، اقترح ان اقوم أنا في نهاية المأدبة بإلقاء خطاب ، اعرب فيه عن الاسف لهذا التطور المؤلم في اتجاه الاحداث ، واناشد الوفد اليماني ، وبعثة السلام العربية ، القيام بمجهود في اللحظة الاخيرة للحيلولة دون استئناف القتال ، الذي غدا محتوماً .

« وعقدت مع الملك ووزرائه اجتماعاً ، لاعداد خطاب مناسب ، وكانت كل كلمة في هذا الخطاب من املاء الملك عبد العزيز ، يسجلها يوسف ياسين سكرتيره السياسي . لكن هذا الخطاب لم يلق قط ، اذ ان عبدالله بن الوزير ، تلقى في صباح الثالث عشر من ايار تعليمات من الامام بتوقيع المعاهدة . وقد ارتحت بالطبع لهذا التطور ، وشهدت المأدبة التي تم فيها التوقيع ، والتي اعلنت نهاية الحرب .

« ومن المألوف ، بل من الشائع ان يقوم الوزراء باعداد الخطابات لملوكهم ، لكن تجربتي كانت فريدة في نوعها ، وهي ان يقوم الملك باعداد الخطاب الذي كنت سألقيه » .

أما ان قصة هذا الخطاب ، صحيحة وصادقة فهذا مما لاشك فيه ولا جدال ، اذ ان فيلبي ضمنها احد كتبه التي اصدرها في عهد الملك عبدالعزيز . وفي الفترة التي كان فيها من اقرب المقربين اليه . ولم يكن في وسعه ان يفتري في ذلك الحين تلك القصة التي كانت اقرب الى الخيال منها الى الحقيقة .

فلماذا اختار الملك عبدالعزيز فيلبي ، من دون رجاله ومستشاريه ووزرائه لالقاء هذا الخطاب ، في مأدبة تقام للبحث في قضية عربية مجردة ؛ وبحضور مندوبين عن العالم العربي جاءوا للوساطة في النزاع القائم بين الدولتين العربيتين . ان التفسير الوحيد في رأيي ، لهذا الاختيار ، هو رغبة الملك عبدالعزيز ، في الايحاء لخصمه الامام عن طريق مبعوثه ابن الوزير ، بأن لا أمل له مطلقاً في الركون الى مساعدة تأتيه من الخارج ، للصمود أمام الجيش السعودي ، ولاسيما

من بريطانيا ، التي يقوم احد رجالها . الذيعلى الرغم من عدم وجود أي اتصال رسمي له بحكومته ، كان لا يزال يبدو في نظر جميع العرب . وبينهم الامام نفسه ، بأنه مبعوث اليد الخفية التي توجه سياسة الامبراطورية البريطانية بقراءةهذا الخطاب في تأييد ابنالسعود .

وقضى فيلبي بقية العام في الطائف ، مرافقاً الملك عبدالعزيز ومصاحباً له في جولاته ، طلباً للصيد والقنص ، ومطاردة الغزلان . ويقول فيلبي ان حصيلة كل يوم ، من الظباء كانت تبلغ ثلاثمائة تقريباً ، وهي ظباء غريبة الشكل لا تعرفها الا الصحارى العربية . وقد اطلق عليها المتحف البريطاني اسم « الغزلان السعودية » . كما اشتغل في هذه الآونة في اعداد مجموعات من الطيور ، تضم انواعاً غريبة اخرى بينها أنواع من الحجل و « نقار الخشب » .

وقام فيلبي في السنوات التالية برحلات استكشافية على جانب كبير من الاهمية والخطورة ، ستكون موضوع الحديث في فصل لاحق . طاف فيها اجزاء من الجزيرة العربية ، لم يسبق لانسان اوروبي ان زارها او رآها . وكان في الوقت نفسه يغذي الصحف العلمية والجغرافية بمشاهداته وتجاربه في هذه الرحلات النادرة .

ويروي فيلبي في هذه الحقبة من حياته التجربة الوحيدة التي مرت به في حياة الوظيفة الرسمية في المملكة السعودية . فقد عهد اليه الملك عبدالعزيز في عام ١٩٣٩ بالاشراف على جهاز مواصلاته . ولم يستطع أمام الحاف الملك واصراره ان يرفض العرض . ولكنه سرعان ما اصطدم برغبات الامراء الذين يريدون ان يعمل هذا الجهاز لتحقيق رغباتهم . وهكذا لم تلبث الازمة ان انفجرت بينه وبين الامراء ، فوقف الملك الى جانبهم ، وقام فيلبي باعادة مفاتيح المراتب الملكية ، واختام الوظيفة ، الى الملك ، وأسرع الى امارة الخرج ، يقضي فيها اسبوعين في ضيافة الامير عبدالله بن عبدالرحمن ، حتى تهدأ العاصفة .

وفي غضون ذلك ، كانت شركة البترول الامريكية قد قامت بتفجير عدد

من ابار البترول في منطقة الظهران . فسافر فيلبي الى امارة الاحساء ، حيث اقضى بعض الوقت ، يدرس الاوضاع الجديدة المتطورة ، ويبحث مع ألامريكيين المسؤولين ، في مستقبل صناعة البترول في السعودية ، التي أخذت تبشر ، بأنها ستكون من ازهر الصناعات في العالم ..

وفي هذه الفترة ، كانت ثورة فلسطين العربية قد بلغت منتهى الشدة ، والعنف ، مما ارغم الحكومة البريطانية على اعادة النظر في سياستها . فقررت عقد مؤتمر في لندن ، في مطلع عام ١٩٣٩ ، دعت الملك عبدالعزيز ، وغيره من ملوك العرب لحضوره أو ايفاد من يمثلهم فيه . وتقرر ان يرئس الامير فيصل الوفد السعودي ، كما طلب الملك الى فيلبي مرافقته بصورة غير رسمية وكصديق ومستشار ودليل .

وغادر فيلبي جدة في كانون الثاني من عام ١٩٣٩ ، مع الوفد السعودي على الرغم من عدم اشتراكه في جلسات المؤتمر ومناقشاته ، إلا أن الامير فيصل ، كان يواصل اطلاعه على ما يدور فيه ، بينما كانت الحكومة البريطانية تستعين به في ترجمة الوثائق التي تطلبها ولاسيما مراسلات الملك حسين ــ مكماهون . وعلى الرغم من اعتراف الحكومة البريطانية هذه المرة ، بوجود الوعود وشمولها لفلسطين ، وهو أمر أقر به فيلبي في كتابه ايام عربية ، إلا أن الاتفاق كان متعذراً ، لأن بريطانيا اصرت على موقفها بالنسبة للوطن القومي اليهودي . وهكذا فشل المؤتمر ، واصدرت بريطانيا كتابها الابيض الذي تعهدت فيه بشرفها ، بتنفيذ ما فيه من سياسة جديدة ، كان فيها بعض الانصاف للعرب ، حتى ولو رفض العرب واليهود قبولها .

وأخذ الوضع الدولي يسير في طريق التدهور ، فقد ساءت الاحوال السياسية في اوروبا ، وأخذت تنذر بحرب مستطيرة لا تبقي ولا تذر . ولم يمض يوم أو يومان على نشوبها في مطلع شهر ايلول عام ١٩٣٩ ، حتى كان فيلبي يتلقى رسالة برقية من الملك عبدالعزيز يستدعيه فيها للعودة الى السعودية في اسرع وقت ممكن .

ويقول فيلبي : « وبالطبع ، كان هذا هو السبيل الطبيعي الذي يجب ان اتبعه . وفي غضون ذلك ، طلبت الي سلطات المخابرات في وزارة الحرب البريطانية ، ان اذهب الى البلاد العربية ، مندوباً عنها ، وان انقل اليها ردود فعل العرب تجاه الحرب . حقاً لقد كان الاقتراح مغرياً ، فوافقت عليه من ناحية المبدأ ، شريطة ان اصارح ابن سعود بحقيقة مهمتي ، وان لا ارغم على ارتداء الملابس العسكرية ، او أسجل في القوات المسلحة . وبدا لي ان كل شيء يسير سيراً مرضياً في هذا السبيل ، وعلى هذا الاساس ، وطلب الي في نهاية تشرين الأول ، ان اتوقع القرار النهائي ، في غضون يومين بعد وصول بعض كبار الضباط من مصر ، لتستشيرهم وزارة الحرب في هذا الموضوع بالذات . ولكن ما عتم ان قيل لي هاتفياً ، بأن الاقتراح قد ألغي ، وانني اصبحت حراً في اتخاذ الترتيبات اللازمة للسفر الى العربية السعودية » ..

ماذا يقصد فيلبي بهذا الاعتراف الذي جاء نابياً وفي غير موضعه ، في كتابه الذي اصدره ، بعد انتهاء الحرب ؟ لماذا يقول ان دوائر المخابرات في بلاده قد كلفته بتمثيلها في العربية السعودية ، وانه قد وافق على هذا الاقتراح ، مشترطاً بعض الشروط التي لا قيمة لها ، وكأنه نسي ان ضباط المخابرات كل مكان لا يرتدون الملابس العسكرية .

قد نستطيع فهم مقصده الحقيقي ، اذا تذكرنا انه وضع هذا الكتاب في الوقت الذي كان لا يزال فيه يقيم في العربية السعودية ، ويحظى بالمركز الممتاز والعطف الشامل . لقد أراد ان يدفع عن نفسه التهمة التي ظلت متصلة به طيلة حياته : وهي انه يعمل مع اليد الخفية في بلاده . وأراد ان يبرهن للملك عبدالعزيز على ولائه الخالص له ، وتفضيله مصلحته حتى على مصلحة بلاده .

ان اعترافه هذا اشبه ما يكون بالقول المأثور ، الذي كثيراً ما نسمعه في مختلف الظروف والاحوال .. كاد المريب ان يقول خذوني .

ولم يلق فيلبي صعوبة في الوصول الى الجزيرة العربية . ففي منتصف شهر تشرين الثاني ، بدأ رحلته عبر فرنسا وايطاليا الى البندقية ، حيث ابحر منها الى

مصر ، فقضى عشرة أيام في القاهرة ، قبل ان يمضي الى الاقصر ، في زيارة قصيرة ومنها الى الخرطوم حيث قضى عيد الميلاد ، ثم انتقل بالقطار الى بورسودان ، واستقل منها الباخرة الى جدة ، ولم يحل منتصف شهر كانون الثاني ، حتى كان قد انضم الى حاشية الملك عبدالعزيز في الرياض .

ويقول فيلبي ، ان الملك عبدالعزيز توقع منه ان يظل الى جانبه طيلة الحرب ، فقدم له بيتاً جديداً كان يعتزم تقديمه الى احد اولاده في ضواحي العاصمة . واستأنف فيلبي عمله في مجلس الملك الخاص ، وأخذ ينقل اليه الاخبار العالمية عن سير الحرب ، فقد كان الملك كما يروي فيلبي كثير الاهتمام بنتيجة الحرب واثرها على مستقبل الوطن العربي .

ويروي فيلبي ان رشيد عالي الكيلاني رئيس وزراء العراق، ووزير خارجيته نوري السعيد ، قاما بزيارة الملك عبدالعزيز ، في ربيع عام ١٩٤٠ ، للبحث معه ، في القضايا العربية . وكان الملك خارج العاصمة ، في مكان يدعى روضة التنهأ في جوف الصحراء ، وعندما وصل السياسيان العراقيان في التاسع من نيسان ، كان النازيون قد بدأوا في اليوم نفسه بغزو الدانمرك والنروج ، مما اثار عاصفة من الاهتمام والقلق ، في ذلك المعسكر النائي في قلب الصحراء .

ويقول فيلبي ، انه كان اول من نقل الى الملك تلك الانباء السيئة ، اذ استمع اليها في اذاعة برلين الألمانية .. « ووصلت الى خيمة الملك ، وكان يعلق على ما سمعه من انباء . قرأها عليه الذي يتولى الالتقاط من الاذاعات العربية ، ويعرب عن اعجابه بإقدام البريطانيين على بث الالغام حول ساحل النروج . وكنت ايضاً اول من نقل اليه نبأ انسحاب القوات البريطانية من النروج ، وتكهنت بتوقع استقالة حكومة تشمبرلين . وكنت ايضاً اول من ابلغه زحف الالمان عبر هولندة وبلجيكا وشمال فرنسا ، وأصبحت بالنسبة اليه ناقل انباء السوء ، اذ انه كان يتأثر من سماع هذه الانباء السيئة كتأثر البريطانيين انفسهم ، على الرغم من الحقيقة الواقعة من ان جميع رعاياه لم يكونوا يشاطرونه هذا الرأي . ونقلت اليه بعد أيام الانباء السارة بانقاذ ما يزيد على الثلاثمائة والثلاثين

الفاً من الجنود البريطانيين في دنكرك ، فلم يكد يصدق اذنيه في بداية الأمر ، لما كان لهذه الانباء من صدى سار في نفسه . وكنت بعد خمس سنوات في الخامس عشر من شهر آب عام ١٩٤٥ ، أول من نقل اليه ايضاً ، الانباء السارة بانتهاء الحرب ، وعودة السلام ليخيم على ربوع العالم » .

وتحتل الانباء مكانة بارزة في حياة الصحراء اليومية . فعندما يمر أي رجل غريب ، يحييه من يراه بالعبارة المألوفة التالية « شلونك ،ويش العلوم » ، والانباء بالنسبة الى حاكم بلد صحراوي كالعربية السعودية ، اداة لا غنى عنها من أدوات الحكم ، ترتبط بالاستماع الى الانباء وبحثها واتخاذ الاجراءات وفقاً لها . وقد نظم الملك عبدالعزيز جهازاً كاملاً ، من محطات البث والالتقاط من داخل البلاد ، ومجموعة كاملة من الموظفين الذين يقومون على التقاط الانباء الخارجية ونقلها ، وتلاوتها على مسامع الملك ، بحيث يؤمن الاطلاع الصحيح ، على جميع المشاكل الداخلية والخارجية التي يوجه عن طريقها سياسته. وحيثما كان الملك سواء في قصره الرسمي . او مضاربه في الصحراء ، او في عزلته في قصر الحريم ، فهو دائم الاتصال بكل شيءً ، وعلى علم بكل ما يقع في العالم من صغيرة وكبيرة .

ويتحدث فيلبي عن هذه الحقبة من حياته فيقول : « وكنت في غضون تلك الأيام القاتمة من عام ١٩٤٠ ، اقترب بسرعة من ازمة تهدد مصيري ومستقبلي وكياني . فقد اشتركت عملياً في « الحرب لانهاء الحروب » ، وكنت ارقب طيلة العشرين سنة الماضية . المثل العليا التي آمن بها الجيل الذي انتمي اليه ، وهي تنهار أمام سخرية « الرجال الكبار » ، الذين حمل عليهم لورنس ، وكان محقاً في حملته في احدى فقرات كتبه . وقد بذلت كل ما وسعني من جهد لمنع تلك الاسطورة من التحول الى مأساة جديدة تشمل العالم بأسره ، وتنزل به الويل والدمار . وقد اصبحت لا امت الآن الى هذا العالم ، الذي حملته مراراته وخيبة امله ، على اعتبار الحرب ، بجميع ما فيها من مفازع ومخاوف الوسيلة الوحيدة لاحلال السلام . ولم يكن في وسعي ان اقبل بهذه

الفلسفة ، على الرغم من انني لم استطع تجاهل الحقائق المؤلمة ، التي نجمت عن الحرب ، من جراء تطورها . وحاولت ان اسجل في يوميات منظمة جميع وقائع الحرب ، يوماً بيوم ، مطلعاً بالطبع على ظواهرها دون ان يكون لي المام بخفاياها والدوافع التي اخذت تقرر مصائرنا . وكان في وسعي ان اسهم اسهاماً ضئيلاً ، في ذلك النطاق الضيق المحدود في الجزيرة العربية ، في عملية التطور . وكنت اشعر ، ان العرب لا شأن لهم في هذا الصراع الجبار القائم بين الدول الكبرى . ومهما كانت حقيقة النوايا التي كان الافراد يحملونها لتأييد هذا الجانب او ذاك ، فقد كان الحياد السياسة المقبولة للعالم العربي الذي كان يبدي اهتماماً زائداً بتطور الحرب واتجاهها . وكنت اقدر أن في وسعي مساعدة هؤلاء الذين اعيش بين ظهرانيهم على تحليل الاخبار عند وصولها ، تحليلاً واقعياً يستند على الحقائق مشجعاً اياهم على اتخاذ ذلك الموقف من الترفع تجاه الاحداث الدراماتيكية التي كانت تهز العالم بأسره . وكان هذا الموقف بالطبع ، الموقف الوحيد الممكن الذي يستطيعون اتخاذه ، لاسيما اذا اخذنا بعين الاعتبار ان امريكا وروسيا واليابان وغيرها من الدول الاصغر شأناً ، كانت لا تزال تلتزم الحياد .

« ولم يكن موقفي هذا مقبولاً بالطبع لدى بعض الجهات التي سيطر عليها الفزع والخوف من جراء انهيار فرنسا ، واشتراك ايطاليا في الحرب . لكن هذا التطور الجديد ، قطع على كل حال كل اتصال لي بعائلتي المقيمة في انكلترة ، مما اثار قلقي على مصيرها بالنسبة الى تطور الاحداث . ولم يكن في وسعي ان أواصل التمتع بحالة الطمأنينة التي تسيطر على المملكة العربية السعودية . وقررت ان اذهب الى امريكا حيث يكون في وسعي الاتصال بعائلتي على الاقل ، وحيث يمكن لها ان تلحق بي في الوقت المناسب . وحاول الملك عبد العزيز اقناعي بعدم الرحيل ، فلما حزمت امري على الرحيل حذرني من ان الوضع العالمي الراهن لا يسمح لي بما تعودت عليه من حرية في ابداء رأيي مما يعرّض سلامتي للخطر . واضاف ان بريطانيا بلد الحريات ، أخذت تعتقل الناس

وتزج بهم في السجون دون تهمة او محاكمة . وقال الملك « وكل ما أخشاه ، ان يلقوا بك في غياهب السجن ، فأنت تتحدث دائماً بانطلاق وحرية » .
وقلت للملك : « لماذا يعتقلونني ! انك لا تدرك ان انكلترا بلد ديموقراطي لا يزال يحترم حق الانسان في التعبير عن رأيه ». فهتف الملك قائلاً : « الديموقراطية ليس ثمة من مجال لهذه الكلمة في زمن الحرب » .

« على كل حال اصررت على الرحيل وتمكن احد اصدقائي في شركة الزيت الامريكية ، من تأمين مكان لي على ظهر الباخرة « الرئيس ادامز » . من بومباي الى نيويورك . وسافرت الى جدة للحصول على التأشيرات اللازمة، للمرور بالبحرين والهند . وقابلني الوزير البريطاني المفوض ، مقابلة عدائية ، وانتهى الحديث بيننا الى خصام عنيف ، ولكن ذلك الموقف لم يحل دون منحي التأشيرات اللازمة . وعدت الى الرياض ، حيث تناولت عشاء رائعاً مع الملك على سطح قصره ، مع نحو من عشرة من ابنائه بينهم ولي العهد الامير سعود ، الذي حاول للمرة الاخيرة اقناعي بعدم الرحيل . ونقلتني سيارة الملك الخاصة الى الظهران ، ثم غادرت العربية السعودية في السادس والعشرين من تموز الى البحرين ، حيث سافرت في باخرة البريد العادية الى كراتشي .

« وعندما وصلت الى كراتشي في الحادي عشر من شهر آب ، قام رجال الأمن العام الهندي ، على الرغم من التأشيرات التي احملها ، باختطافي ونقلوني بحراً عن طريق رأس الرجاء الصالح الى ليفربول ، حيث اودعت السجن بأمر من السير جون اندرسون بموجب الفقرة (١٨ ب) من قوانين الدفاع . وبعد ان قضيت مدة في سجن ليفربول ، نقلت الى معتقل اسكوت حيث اقمت اربعة اشهر دون ان اتلقى ايضاحاً عن الاسباب التي ادت الى اعتقالي . وواصلت ارسال الاحتجاجات الى المستر هربرت موريسون وزير الداخلية ، ولكن دون جدوى ، الى ان ابلغت ذات مساء بأنني سأظهر امام اللجنة الاستشارية ، وسلمت نسخة من الاتهامات الموجهة الي .

« وتألفت الهيئة التي تولت النظر في قضيتي من أحد كبار المحامين ، ومن

سفير مشهور ، واحد كبار لاعبي الكريكيت ، وقضيت في حضرة اللجنة اربع ساعات اعتبرها من امتع اللحظات التي مرت بي في حياتي الحافلة بالمغامرات . وعندما سئلت عن تهمة وجهت اليّ ، بأنني قلت للسفير الفرنسي في جدة في كانون الثاني عام ١٩٤٠ بأنني لا اعتقد بأن فرنسا ستكسب الحرب ، اعترفت بها . ونفيت التهمة الثانية التي زعمت ان الملك عبدالعزيز قد طردني من بلاده ، وأنه قد منعني من العودة ، وتحديت اللجنة بأن تتحرى صحة هذه التهمة من الملك نفسه . وكانت التهمة الثالثة ، ان غايتي من السفر الى امريكا جمع المال عن طريق القاء المحاضرات التي ادعو فيها الى عدم الاشتراك في الحرب .

« وقد رددت على هذه التهمة بأن في حسابي لدى الحكومة السعودية مبلغ ستة الاف جنيه ذهباً ، رفضت اخذها ، لأنني رفضت قبول مرتب من الحكومة السعودية وان في استطاعتي الحصول على هذا المبلغ عندما اشاء . وكانت التهم الاخرى من هذا النوع التافه السخيف . وأسفرت الجلسة عن إصدار الأمر باطلاق سراحي فوراً ، والغاء الأمر باعتقالي دون قيد أو شرط . وقد اوردت هذا الوصف الكامل عن هذه الفترة من حياتي ، لتطلع عليه الأجيال القادمة التي قد يهمها ان تعرف شيئاً عما يقع من أمور غريبة في انكلتره أيام الحرب » .

حقاً انها لقصة غريبة ، والأغرب منها تلك الاسباب التي يوردها فيلبي نفسه ، لاعتقاله والتي حوكم بموجبها أمام اللجنة الاستشارية . ان هذه التهم لا تكون في حد ذاتها جنحة او جناية يجوز ان يعتقل الانسان بسببها في بلد بدائي من الناحية الديموقراطية . فكيف ببلد عريق في الديموقراطية كانكلترا ، حيث تحترم حرية الفرد الى حد كبير . وقد حاول فيلبي نفسه اخفاء هذه الغرابة بالقول ان اوضاع الحرب ، تستدعي وقوع حوادث غريبة . ولكن انساناً يملك ذرة من المنطق ، لا يستطيع تصديق هذه القصة ، وهذه الاتهامات التي كانت سبباً في اعتقال رجل كفيلبي خدم بلاده طويلاً ، في اكثر من حقل

وميدان ، ووصل في خدمتها الى أعلى الرتب والمناصب ، وتبوأ نتيجة للرحلات والاكتشافات التي قام بها ، والكتب التي ألفها ، مكانة كبيرة في عالم العلم والثقافة . وكان حرياً بالهيئات العلمية التي طالما حاضر فيلبي فيها ، وزودها ببحوثه ومقالاته وآثاره ، وبالصحف الضخمة التي طالما عمل لها ، وزودها بالانباء والتعليقات والمقالات ، ان لا تسكت عن هذا الظلم الفادح الذي لحق بهذا الانسان الكبير .

وقد ذكر لنا فيلبي في مستهل هذا الحديث ان الوزير البريطاني المفوض في جده قابله مقابلة عدائية عند اجتماعه به في جده قبل سفره للحصول على تأشيرات السفر ، وان المقابلة انتهت الى معركة كلامية عنيفة . ولكنه لم يوضح لنا سبب هذا الشجار ، لا في هذا الموضع ولا في غيره من المواضع في مختلف الكتب التي وضعها عن تاريخ حياته ، والتي كان يسرد فيها تفاصيل صغيرة تافهة لا تستحق النقل والتسجيل ، فكيف بحادثة مهمة كهذه . ومن هذا نستطيع ان نفهم ان فيلبي قد حاول اخفاء حقيقة السبب الذي أدى الى الشجار بينه وبين الوزير البريطاني المفوض ، كما حاول اخفاء حقيقة التهم التي وجهت اليه ، والتي كانت السبب في سجنه واعتقاله .

لقد قيل بعد انتهاء الحرب الكونية الثانية بأمد طويل ، ان اتصالاً سرياً قد وقع ابان الحرب بين الملك عبدالعزيز والالمان . لكن هذا الاتصال ، لم يقطع شوطاً بعيداً وانما توقف في مراحله الأولى . فهل كان هذا الاتصال هو السبب الذي حدا بالحكومة البريطانية الى اعتقال فيلبي ؟ قد يكون ذلك ، فمن المحتمل ان يكون نبأ هذا الاتصال قد وصل الى مسامع الحكومة البريطانية ، عن طريق مخابراتها الماهرة والقديرة . وكانت تتوقع ان تصلها تفاصيله من فيلبي نفسه ، بوصفه احد رعاياها المخلصين ، والعامل في تنفيذ اغراض أداتها الخفية .

ويبدو ان الملك عبدالعزيز ، ان صح نبأ هذا الاتصال ، كان شديد التكتم فيه ، والحرص على عدم انتشار انبائه ، لئلا تصل الى بريطانيا . فحرص كل الحرص

على عدم تسرب شيء عنه الى صديقه ومستشاره فيلبي ، الذي كلفه هذا الخطأ الوحيد في حياته غالياً ، فطوح به في غياهب السجون والمعتقلات ، ولم يطلق سراحه إلا بعد ان استطاع البرهنة على جهله الكامل لأية معلومات تتعلق بهذا الاتصال .

اعتقد ان هذا الفرض اقرب الى العقل من تلك التهم السخيفة التي وجهت الى فيلبي والتي اوردها سبباً لاعتقاله . فهو لا يستطيع ان ينكر حقيقة الاعتقال او يخفيها ، لأن هذه الحقيقة قد انتشرت وذاع أمرها ، وعرف بها الكثيرون ، فلم يكن في وسعه ان يتجاهلها ، ولكنه حاول ايجاد المبررات لها ، فجاءت مبرراته ضعيفة واهية لا تقف امام محك المنطق والعقل .

وسواء أصدق هذا الافتراض او لم يصدق ، فإن حقيقة اعتقال فيلبي ستظل سراً دفيناً لا يعرف عنه الا فيلبي نفسه الذي مضى عن هذه الدنيا دون ان يكشف عنه ، والا المسؤولون « الكبار جداً » في الحكومة البريطانية ، الذين يحتم عليهم واقع منصبهم ، وسرية اعمال مخابراتهم ، ان يظل موضوع هذا الاعتقال وأسبابه الحقيقية لغزاً لا يحل .

وقد يقول قائل أن قصة هذا الاتصال تتعارض مع الثناء العاطر الذي اغدقه تشرشل على الملك عبدالعزيز عند لقائه به في الفيوم ، قبيل انتهاء الحرب ، والذي اعرب فيه قائد بريطانيا وزعيمها في أيام الحرب ، عن عظيم شكره « للصديق الذي وقف الى جانب بريطانيا في وقت الضيق » . وهي قصة نقلناها قبل حين الى القراء على لسان فيلبي . ولكن اذا قدرنا أن الاتصال قد تمَّ من جانب واحد ، هو جانب المانيا ، وانه لم يدم طويلاً اذ انقطع بالنظر الى موقف ابن السعود الذي لم يشجعه ، وان الملك عبدالعزيز لم يقم أيام الحرب بأي عمل ظاهري في تأييد بريطانيا يستحق مثل هذا الثناء والاطراء ، كموقف الأمير عبدالله مثلاً الذي اعلن الحرب على المانيا ومن ثم على حليفتها ايطاليا ، ووضع جيشه العربي الاردني تحت تصرف بريطانيا يعمل في خدمتها وفي تأمين مجهودها الحربي . تبيّن لنا ان القصة المشار اليها ، تصبح تأكيداً لهذا الافتراض

الذي جئنا به ، لا تناقضاً معه . ويظل أمر الاعتقال مستنداً الى حقيقة اخرى ، وهي ان المعلومات، عندما وقع الاتصال المشار اليه ، لم تكن قد وصلت بعد الى بريطانيا كاملة وافية لا عن طريق فيلبي ولا عن طريق غيره ، ولكنها ما لبثت ان وصلت بعد ذلك فحملت تشرشل على الاعراب عن ذلك التقدير والاطراء .

على كل حال ، استعاد فيلبي حريته ، ويؤكد هو انه عند خروجه من السجن ، لم يكن يشعر بأية مرارة على بلاده التي اعتقلته ، وانه قدر موقفها تمام التقدير . ولو صح ان تلك الاتهامات التي سردناها ، هي التي كانت السبب في اعتقاله ، كما حاول ان يتظاهر ، لما زالت من نفسه المرارة من الاعتقال بتلك السرعة والسهولة اللتين اشار اليهما .

ويقول فيلبي ان اوضاع الحرب ، لم تعمل على استفزاز مطامحه السياسية القديمة في ان يصبح نائباً في مجلس العموم يشار اليه بالبنان ، وأن يلعب دوراً في حياة بلاده السياسية. فآثر ان يحيا مدة طويلة حياة الهدوء والسكينة مع عائلته ، ولعلها اطول مدة قضاها في رحاب العائلة ، منذ خروجه الى الحياة العملية في عام ١٩٠٨ . على أي حال لم يصبح فيلبي في سنوات الحرب عاطلاً تماماً عن العمل . فقد اشتغل في ترتيب يومياته ومذكراته ، واعداد مسودات الكتب العديدة التي اعتزم إصدارها . وتمكن في عام ١٩٤٣ ، رغم ويلات الحرب ومتاعبها من اصدار كتابه « حاج في بلاد العرب » ، كما اكمل كتابه الضخم « النجود العربية » الذي يقع في زهاء سبعمائة صفحة في عام ١٩٤٤ .

وأعد في عام ١٩٤٤ ــ ١٩٤٥ ايضاً ، كتابه « اصول الاسلام » الذي تحدث فيه عن تاريخ العرب في الثلاثة آلاف سنة التي سبقت ظهور الرسول الأعظم ، واستند فيه على سبعة آلاف مخطوطة حميرية ، اطلع عليها اثناء جولاته في جنوب الجزيرة العربية .

ويقول فيلبي عن هذه الفترة من حياته : « وبين ما اعتزم العمل فيه ، نظرية جديدة توصلت اليها ، تقوم على اساس محاولة ايضاح جذور شعوب كالفينيقيين والعبرانيين . ولكن اهم دراسة قمت بها ، هي محاولتي التوفيق

بين ما جاء في التوراة وما جاء في المخطوطات التي عثرت عليها عن حياة ابراهيم النبي . واني لأرى ان أهل جنوب الجزيرة العربية ، هم اول من اخترع حروف الهجاء ، وانهم كانوا يكتبون ويتحدثون باللغة العربية ، التي تقف والحالة هذه كأقدم لغة تحدث بها الناس في العالم » .

وفي خضم هذه البحوث والدراسات ، لم ينقطع فيلبي عن القيام بالنشاط في المجال السياسي ، وان اقتصر نشاطه على نطاق محدود . فقد شهد في صيف عام ١٩٤١ ، مؤتمراً أعدته احدى جمعيات اوكسفورد لبحث مشاكل الهند . فأيد فكرة قيام الباكستان منفصلة عن جمهورية الهند ، وقد واصل الحديث والكتابة عن هذا الموضوع في السنوات التالية ، مؤيداً وجهة نظر الداعين الى قيام باكستان ، كما واصل الحديث والكتابة ايضاً عن مشاكل بريطانيا في مستعمراتها ، وفي مقدمتها فلسطين والصومال .

ويقول فيلبي ، ان مناقشات الجمعية الفابية في صيف عام ١٩٤١ في دارتنغتون ، قد اقنعته بأن حزب العمال البريطاني لا يقل في سياسته العامة تجاه مشاكل المستعمرات استعمارية ، عن حزب المحافظين ، وانه فقد تبعاً لذلك اهتمامه بالهدنة الانتخابية القائمة بين الحزبين والتي احالت الحياة البرلمانية في بريطانيا الى مهزلة جعلت من اعضاء البرلمان في رأيه « امعات » ، يوافقون على كل ما يعرض عليهم .

ويمضي فيقول : « ولم يكن من المدهش ، ان اجد نفسي والحالة هذه ؛ ابدأ في الابتعاد عن صفوف حزب العمال ، دون ان اخسر عقيدتي في الاشتراكية . ولهذا فعندما قام السير ريشارد اوكلاند والمستر بريستلي ، بإدماج منظمتيهما الاشتراكيتين في حزب واحد أطلق عليه اسم حزب « الثروة المشتركة » ، انضممت اليه بكل ما لدي من حماس ، وأصبحت اميناً لصندوق فرع ويستمنستر . وكانت فكرة الحزب الاساسية تقوم على الحيازة الجماعية للصناعات الاساسية وغيرها من الخدمات العامة في الداخل ، وإتباع سياسة غير استعمارية في الخارج . وقد دللت الانتخابات الفرعية التي جرت في عام

١٩٤٣ ، والتي رشح فيها الحزب الجديد بعض اعضائه ، على ان جماهير الناخبين البريطانيين قد بدأوا يملون من الائتلاف القائم بين الحزبين الرئيسيين في البلاد ، والذي يحملهما على التقدم بمرشحين مشتركين لهذه الانتخابات . وقد تبين بنتائج هذه الانتخابات الفرعية ان نحواً من ٤٥ في المائة من الناخبين كانوا على استعداد للاقتراع ضد الحكومة . ويتضح من هذا ان حزب الثروة المشتركة ، ظل يحمل علم الاشتراكية خفاقاً في الوقت الذي كان حزب العمال قد توقف في أيام الحرب عن دعوته الاشتراكية .

« وكنت في جميع هذه المجالات اقوم بدور متواضع فألقي خطباً انتخابية في اجتماعات الحزب وفي حملاته الانتخابية في مختلف انحاء البلاد ، مركزاً اهتمامي على السياسات الاستعمارية والخارجية التي ستواجه البلاد في الفترة التي ستلي الحرب مباشرة . وعلى الرغم من بعض الانتصارات التي حققناها ، وخسارتنا لبعض المقاعد بأرقام ضئيلة ، اتضح كلما اقتربت الحرب من نهايتها ان حزبنا يفتقر الى القوة المالية اللازمة للحفاظ على وجوده كحزب مستقل ، وان حزب العمال سيتولى القيادة في المعركة المقبلة ضد حزب المحافظين . وهكذا اخذنا نصرف الكثير من وقتنا ومجالات نشاطنا في محاولة الحصول على الأموال اللازمة للحزب ، بدلاً من الانصراف الى حملاتنا السياسية . ورفض حزب العمال اعتبار حزبنا محاولة جدية ، وسرعان ما اثبت الناخب البريطاني تجاهله لكل محاولة تبذل لصرفه عن الاهتمام بالمعركة الضخمة بين الحزبين الرئيسيين . وهكذا سرعان ما رأينا حزب الاحرار ، وقد تجزأ ينهار كمنزل اقيم على الرمال ، بينما اتجه حزب الثروة المشتركة وغيره من الاحزاب اليسارية الصغيرة نحو الافول . ومع ذلك فقد حق لاولئك الذين حافظوا على راية الاشتراكية مرفوعة أيام الحرب ، ان يعتزوا بالانتصار الذي احرزه العمال على قوات الرجعية في اول انتخابات جرت بعد الحرب » .

وانهارت على هذا الشكل احلام فيلبي السياسية في بلاده ، وكان من الطبيعي ان تنهار . فقد صرف حياته خارج هذه البلاد ، ولم يقم لنفسه فيها

أية جذور او قواعد انتخابية تتيح له ان يخوض معركة انتخابية واسعة النطاق ، للفوز بمقعد في مجلس العموم . وتطلع للعودة الى البلاد العربية السعودية التي اصبحت وطنه الثاني والتي لم يعد في وسعه ان يبتعد عنها لأكثر من سبب كما شرحنا في الفصول السابقة من هذا الكتاب ، فارتحل من جديد الى جدة ليقضي فيها ما تبقى من سني حياته .

أجل عاد فيلبي الى جدة بعد ان غاب عنها نحواً من خمس سنوات. فوجد ان البلاد كما قال تنعم بمستوى رفيع من الحياة يسمو على مستوى الحياة في انكلترا نفسها ، ورأى ان سكان الرياض قد ارتفع عددهم في هذه الفترة من ثلاثين ألفاً الى اكثر من ثمانين ألفاً ، وأصبحت البلاد تحتل مكانة رفيعة بين جيرانها من الدول العربية الاخرى .

واترك لفيلبي فرصة الحديث عمّا رآه بعد هذه الغيبة الطويلة ، قال :

« كان ابن السعود نفسه قد وصل الى ذروة شهرته ونفوذه بعد الزيارة الاخيرة التي قام بها لمصر ، حيث اجتمع الى الرئيس روزفلت والمستر تشرشل . وكانت علاقاته مع الولايات المتحدة على احسن ما يرام على الرغم من وجهة نظره في ان امريكا لن تظل عاملاً دائماً في سياسات الشرق الاوسط ، وانما ستظل بريطانيا تلعب فيه دورها الكبير البارز ، لتقف حاجزاً أمام اطماع روسيا السوفياتية » .

ويبدو ان هذا الاعجاب كان متبادلاً بين بريطانيا وبين الملك عبدالعزيز في الفترة الاخيرة من حياته التي تلت الحرب الكونية الثانية مباشرة . وانه قد حمل ونستون تشرشل زعيم بريطانيا العجوز على التفكير بأن يجعل من الملك السعودي زعيماً ، لا ينازع للعالم العربي . فقد روى حاييم وايزمن أول رئيس لاسرائيل في كتابه « التجربة والخطأ » ، انه كان في السنة الاخيرة من الحرب الثانية يعتزم السفر الى الولايات المتحدة فمر بداوننغ ستريت رقم (١٠) ، مقر رئاسة الوزارة البريطانية ليودع المستر جون مارتن ، سكرتير المستر تشرشل الشخصي الذي تربطه اليه علاقات طيبة .

ويمضي وايزمن فيقول : « وبعد ان ودعته قال لي فجأة ان رئيس الوزراء، في الغرفة الثانية وليس لديه الا وقت قصير ، سأنتهزه فأدخلك عليه . وعندما دخلت بادرني تشرشل قائلاً : اريد منك ان تعرف انني قد اعددت ترتيباً خاصاً ، لا يمكنني ان اقدم على تنفيذه الا بعد ان تضع الحرب اوزارها بصورة نهائية . فأنا أريد ان اجعل من ابن سعود سيد الشرق الاوسط كافة ، ورئيس الرؤساء ، بشرط واحد وهو ان يجري تسوية معكم . وسيترتب عليكم ان تحصلوا منه على أحسن ما يمكنكم من شروط . وبالطبع نحن سنساعدكم فليكن حدثينا هذا في طي الكتمان ، ولكن في وسعك ان تبحث الموضوع مع روزفلت عندما تصل الى امريكا .

ويستطرد وايزمن قائلاً : « وبالطبع لم افهم شيئاً مما قاله تشرشل ولكنني كنت قد قابلت قبل بضعة اشهر سنت جون فيلبي ، وقد تكلمنا عن فلسطين ومستقبلها وعلاقاتنا بالعرب . فأفضى الي بتصريح لم افهمه في حينه . قال فيلبي : « انني اعتقد ان قضيتكم لا يمكن حلها الا بشرطين أولهما ان يقوم المستر تشرشل والرئيس روزفلت بابلاغ ابن سعود رغبتهما في تنفيذ برنامجكم . وثانيهما ان عليهما ان يؤيدا سيادته على البلاد العربية ، وان يقدما له قرضاً يمكنه من اعمار بلاده . »

ويمضي وايزمن قائلاً : « وقابلت في امريكا الكولونيل هوسكينز ، من رجال الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية الامريكية ، وممثل روزفلت الشخصي في الشرق الاوسط . ولم يكن هذا من مؤيدينا ولكنه كان معقولاً نسبياً ، وقد قال انه يمكن تدبير شيء في فلسطين اذا اعتدل اليهود في مطالبهم ، وقد تحدث عن هجرة نصف مليون من اليهود الى فلسطين خلال عشرين سنة . وقد قابلته بعد عودته من الشرق الاوسط ، فقال انه قابل ابن سعود ، الذي تكلم عني بلهجة غاضبة ، مفترضاً انني حاولت رشوته بعشرين مليون جنيه ليبيع فلسطين الى اليهود . واضاف هوسكينز ان ابن سعود لن يسمح لفيلبي بالدخول الى مملكته. فلما اخبرت فيلبي بذلك علق عليه قائلاً « كلام فارغ » . والحقيقة

ان العلاقة بين فيلبي وابن سعود كانت اليوم احسن منها في السابق » .

ما هو هذا المشروع الذي كان تشرشل يعده للبلاد العربية عامة ، ولفلسطين خاصة بعد انتهاء الحرب ؟ والذي يظهر في لمحة خاطفة في هذه الفقرة التي اقتبسناها من كتاب وايزمن التي لا يمكننا ان ننفيها ، أو نتجاهلها لأن صاحب الحق الوحيد في نفيها وهو تشرشل ، لم يقم بخطوة كهذه ، رغم اطلاعه على ما جاء في كتاب وايزمن ، وما هو الدور الذي كان فيلبي يلعبه علناً في قضية فلسطين ، والتي حملت السيد موسى العلمي ، مندوب الهيئة العربية العليا لفلسطين وممثلها في فلسطين ، على تقديم مذكرة احتجاج الى الملك عبدالعزيز يذكر فيها باعتراف فيلبي نفسه في الصفحة ٢٠٣ من كتابه « اربعون سنة في الصحراء » ، ان تأييد فيلبي العلني لمشروع تقسيم فلسطين يمكن ان يفسر على انه تعبير عن رأي الملك عبدالعزيز نفسه .

لقد حسر فيلبي النقاب شيئاً عن هذا المشروع ، وذلك الدور في كتابه المذكور في الصفحة ٢١٤ منه عندما قال : « لقد اتهمني اصدقائي السعوديون اكثر من مرة بأنني كنت اسيء تصوير مواقف الملك ابن سعود من مختلف القضايا . ولكنني اود ان اؤكد انني كنت أحسن ايضاحاً لآرائه من كثيرين من مستشاريه الذين كانوا يتظاهرون بأنه يحمل عين الآراء التي كانوا يحملونها هم . ومن الحق ان يقال انه في رسالة بعث بها الى صحيفة التايمس اللندنية في عام ١٩٣٧ ، أعلن عدم ارتباطه وحكومته بالموقف الذي اتخذته مؤيداً لاقتراحات لجنة اللورد بيل بتقسيم فلسطين . ولكن الملك عبد العزيز قد ادرك تمام الادراك ان قضية عرب فلسطين قد بدأت منذ ذلك التاريخ تسير في طريق التدهور ، وها ان مجيء لجنة التحقيق الانكلو – اميركية الى الرياض . تذكره بأن قضية فلسطين قد وصلت الى مرحلة التعرض لقرارات حاسمة . وكان الملك يفضل بالطبع استمرار الانتداب البريطاني ، الى امد غير محدود ، مطلقاً للدولة المنتدبة ، حرية العمل وفق ما تراه في مصلحة شعب البلاد عامة . ولكن هذه الامكانية لم تعد موضوع بحث الآن ، وغدت حتمية التقسيم أمراً لا مناص

منه . فما هو موقفه ؟ انني احتفظ بملاحظة في يومياتي مؤرخة باليوم الواحد والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٤٦ . تقول هذه الملاحظة ان موضوع فلسطين قد بحث في مجلس الملك ، وقد اعلن الملك رأيه بصراحة ، في ان العرب لن يوافقوا قط على التقسيم ، او يقبلوا بأي حق لليهود في فلسطين ، ولكنهم سيذعنون حتماً اذا ما فرضت بريطانيا عليهم التقسيم . ولكن احداث العامين التاليين قد دللت على خطئه في هذا الرأي ، على الرغم من سلامة منطقه . فقد رفض العرب مشروع التقسيم الذي اقرته الأمم المتحدة بعد انتهاء الانتداب ولجأوا الى الحرب ، فأضاعوا عن طريق فساد الاجراءات والعجز ، الكثير من الاراضي التي خصصها لهم مشروع التقسيم .

« وكان انتقال الجزء العربي الذي احتفظ به من فلسطين الى ملكية عبدالله ، أمراً اكثر مما يستطيع الملك عبد العزيز استساغته ، ولكنه في الوقت نفسه وقف موقف البرود من انشاء حكومة عموم فلسطين ، في قطاع غزة الذي يحتله المصريون ، لانه ادرك منذ البداية ، ان هذه الحكومة مقضي عليها بالموت . وهذا ما اثبتته الأيام عندما انتقل وزير خارجيتها (جمال الحسيني) ، الى الرياض ليصبح من مستشاريه ، وليحتل مركزاً مرموقاً كبير النفوذ في عهد خلفه (الملك سعود) .

« وما زلت اعتقد ان الملك عبد العزيز كان سيقبل اقتراحي الذي قدمته اليه ، بتسليم فلسطين كلها الى اليهود مقابل استقلال البلاد العربية كلها ، وضمان اسكان اهلها الذين سيخرجون عنها بطريقة كريمة ، لو عرض عليه بطريقة رسمية ، ولكن هذا العرض لم يقع . وكان ابن سعود كغيره من الزعماء العرب شديد الحساسية بالنسبة للرأي العام . والانتقاد في مشكلة فلسطين ، ولكن الرجال الذين كانوا حوله . والذين كان يثق بهم بصورة خاصة ، كانوا يعرفون وجهة نظره في هذه القضية بالذات . وان كانوا لا يوافقونه عليها ، وكانوا يدركون انه لا يرى فيها ما يستحق ان يحمله على شل العلاقات الطيبة القائمة بينه وبين الغرب . وبالطبع ، لم تكن

هذه السياسة توافق اهواء عدد من وزرائه ومستشاريه ، ولكنهم لو تجرأوا على معارضته علناً فيها ، لما ظلوا في مناصبهم لحظة واحدة » .

هذا ما يقوله فيلبي عن الموضوع ، ولو حاولنا الجمع بين القصتين ، قصة وايزمن وقصة فيلبي ، لاستخلصنا منهما الحقائق التالية :

اولاً : كانت بريطانية تشرشل ، ومعها امريكة روزفلت ، تعدان العدة منذ أيام الحرب لحل مشاكل الشرق الاوسط على أساس مشروع يقوم على انشاء اسرائيل ، وتحقيق احلام الصهيونية . وكانتا تطمعان في الحصول على موافقة الملك عبد العزيز على هذا المشروع ، مقابل اغرائه بتحرير البلاد العربية الاخرى ، وفرض سيادته عليها وجعله رئيساً أعلى للوطن العربي ، واغوائه بقرض يبلغ عشرين مليون جنيه لاعمار بلاده والنهوض بها وتأمين اسكان أهل فلسطين في مختلف ربوع الوطن العربي ، بعد التعويض عليهم .

ثانياً : ان فيلبي ، قد اسند اليه دور الاتصال بابن سعود وجس نبضه ومعرفة رأيه في المشروع ، فإن وافق عليه مبدئياً ، قدم اليه بصورة رسمية ، وان فيلبي قد اتصل فعلاً بابن سعود ، وعرض عليه المشروع ، فعارضه ولم يوافق عليه . وقد فسر فيلبي هذه المعارضة بأنها ناجمة عن تخوف الملك عبدالعزيز من الرأي العام في بلاده وخارجها ، فلما نقل فيلبي الى حكومته . موقف ابن السعود ، وأرفقه بذلك التفسير ، وبتفسير آخر ، بأن الملك سيقبل بالمشروع اذا عرض عليه بصورة رسمية ، قبلت الحكومة البريطانية الحقيقة الأولى التي نقلها ، وهي الرفض ولم تقبل بالتفسيرين الاضافيين .

ثالثاً : ان فيلبي راعى جانب التحفظ والحذر في عرضه المشروع على ابن سعود ، وقد يكون مدفوعاً الى ذلك بأمر من حكومته ، فلم يعلن للملك عبدالعزيز ، ان ما يقترحه عليه ، مكلف به رسمياً من حكومته ، وانما هو مجرد اقتراح أو رأي . وقد خيل للملك عبدالعزيز انه مدفوع

اليه من الصهيونيين ، وهذا ما حمله على الغضب منه والسخط عليه ، كما ظهر من رواية الكولونيل هوسكينز الامريكي الذي قال لوايزمن ان ابن السعود لن يسمح لفيلبي بالعودة الى بلاده .

رابعاً : ان الاتفاق كان كاملاً بين بريطانيا وامريكا على المشروع . وانهما عرضتاه على الصهيونية ممثلة في شخص زعيمها وايزمن ، الذي سعى تشرشل الى مقابلته ، وفقاً لذلك الترتيب الذي أعده سكرتيره المستر مارتن ، وان الصهيونية كانت ترحب بالمشروع كل الترحيب لأنه يحقق لها أهدافها .

خامساً : ان الملك عبدالعزيز ، لم يكن ليوافق قط على سياسة التصلب مع بريطانيا وامريكا تجاه مشكلة فلسطين ، بحيث تتأثر علاقاته الطيبة معهما من جراء هذه السياسة ، وانه ظل مؤمناً حتى اللحظة الاخيرة ، بأن بريطانيا ستحل المشكلة حلاً يكون منصفاً لجميع سكان فلسطين وبينهم العرب طبعاً .

سادساً : ان وزراء الملك عبدالعزيز ومستشاريه ، مع معارضتهم لآرائه في المشكلة الفلسطينية ، لم يكونوا ليجرأوا على الجهر بآرائهم في حضرته ، ولذا فان موقف العربية السعودية من قضية فلسطين لم يتبلور وفقاً لآرائهم واتجاهاتهم .

* * *

أرى ان نكتفي بهذا الجزء من بحث هذه القضية ، وان نعود الى بحث حياة فيلبي في السنوات الاخيرة التي تلت الحرب الكونية الثانية في المملكة العربية السعودية ...

عاد فيلبي ليجد ان الملك عبد العزيز قد بلغ الخامسة والستين من عمره ، وان حالته الصحية قد غدت سيئة الى حد ما ، بعد ان اصيب بداء النقرس وآلام المفاصل ، واضطر الى اقتعاد مقعد يسير على عجلات كمقعد روزفلت .

وأخذ يكثر من الشكوى من الآلام والاوجاع التي تكاثرت عليه ، بينما بدأ يتسامح مع أفراد أسرته وبطانته ، فيغدق عليهم العطايا ، ويأذن لهم بالاغراق في حياة الترف والرفاهية التي توفرت لهم من جراء ازدياد دخل البلاد ووارداتها. ولم يشعر بخطر الترف الذي اخذ يهدد مملكته الا في السنة الاخيرة من حياته عندما دعا ارباب الرأي في البلاد وكبار العلماء ، للتشاور في اصلاح ما وقع في البلاد ، ولكن بعد فوات الأوان .

وكانت المشكلة الكبرى التي واجهها الملك ، في هذا التضخم الذي طرأ على الاسرة المالكة التي غدت تكوّن بمفردها ، طبقة خاصة ، قائمة بنفسها . وكانت لدى رجال الأمن أوامر شفوية ، بعدم التعرض للأمراء ، أو المساس بهم ، مخافة ان تنتشر اخبارهم بين الناس . وعلى الرغم من حجاب السرية الذي اسدل على هذه الاخبار فقد انتشر بعضها ، وكان بينها نبأ حكم الاعدام الذي اصدره الملك على أحد اولاده ، وكاد يشرع في تنفيذه في عام ١٩٥١ . لولا ان استبدله في اللحظة الاخيرة بالسجن مدى الحياة .

أما المشكلة الثانية التي ازدادت نتائجها حدة مع الأيام ، فهي اغراق الملك في سخائه وعطاياه ، وهو كرم عرف عنه منذ أيامه الاولى . ويصف فيلبي هذا الكرم بقوله : « حقاً لقد كانت هذه الفضيلة متأصلة في الملك ، منذ سني عسره وفاقته . ولكن مع تكاثر الأموال والموارد ، وتوقع استمرارها في المستقبل ، اخذ سخاء الملك يفوق كل حدود الحكمة والعقل ، ويبذر بذور الفساد في طريقه . وكان اول المنتفعين من هذا السخاء حتماً ، نساء الحريم والامراء ، ويتلوهم رجال البلاط والحاشية والموظفون . واشتدت الشهوة عند هؤلاء في الحصول على المال ، كلما زاد الملك اغداقاً عليهم في عطاياه ، وبلغت الهبات حداً لم تعرفه اي بلاد في العصر الحديث .

« لكن الملك نفسه لم يبدل طريقته البسيطة في الحياة ، فقد ظلت ملابسه على ما كانت عليه ، وقد ظل على غرامه بانجاب الاطفال حتى اللحظة الاخيرة في حياته ، وان كان آخر اولاده ، قد ولد عام ١٩٤٧ » .

وقام الملك عبدالعزيز بزيارة رسمية لمصر في كانون الثاني من عام ١٩٤٦ . وقد طلب الى فيلبي مرافقته في هذه الرحلة التي استغرقت اسبوعين ، والتي تمتع فيها الملك كل التمتع ، بمظاهر الحضارة التي كانت مصر تغرق فيها في عهد فاروق ، من ترف ، ورفاهية يحياها الملك ووزراؤه ولفيف من كبار الباشوات على حساب الشعب المصري الكادح . ويقول فيلبي ، ان الرحلة التي قام بها الملك عبدالعزيز ، في القطار السريع بين القاهرة والاسكندرية ، هي التي أوحت له بإنشاء خط حديدي يصل بين عاصمته الرياض وبين حقول الزيت في الظهران وموانئ الخليج العربي ، وهو الخط الذي حققه في حياته رغم نصيحة مستشاريه والذي امتد مسافة ستمائة ميل في الصحراء ، فأصبح اداة من ادوات الرخاء الاقتصادي في العاصمة ، اذ حمل البضائع من موانئ الخليج اليها بتكاليف طفيفة ، وكان من نتائجه ان اخذ سكان العاصمة في الازدياد حتى اربى على الثلاثمائة ألف من الناس قبل وفاة الملك .

ويقول فيلبي ان الملك عبدالعزيز ، كافأ فاروقاً على كرمه وحسن ضيافته ، بمرتب سنوي قدره مائتا الف ليرة ذهبية ، استمر الملك في دفعها حتى بعد خلع فاروق وخروجه من مصر بعد ثورتها المظفرة الناجحة بقيادة زعيمها الملهم جمال عبدالناصر . ولم يقطع هذا المرتب بعد وفاة الملك عبدالعزيز ، وانتقال الملك الى ولده سعود ، وانما خفض الى حد كبير وما زال مستمراً ، حتى اليوم ، وان كان البعض يقول انه قد قطع في الآونة الاخيرة .

وعاد الملك عبدالعزيز من زيارته الى مصر ، واتجه فوراً الى الرياض ، ليجد ان رشيد عالي الكيلاني ، زعيم ثورة العراق في عام ١٩٤١ قد لجأ اليها ، طالباً حمايته . وأترك لفيلبي وصف هذا اللجوء . قال : « كنا في مرات في المرحلة الاخيرة من رحلتنا الطويلة الى الرياض ، فرأيت الملك محاطاً بجمهور كبير من وجوه البلاد واعيانها ، الذين تدفقوا من العاصمة لاستقباله والترحيب بعودته . وعندما دخلت خيمة الملك سمعته يقول الى رجل يجلس على مقربة منه « هذا هو فيلبي » ، وعند ما دنوت منه لتحيته قال : « هذا هو رشيد

عالي الكيلاني » . لقد انقضى احد عشر عاماً منذ رأيته لآخر مرة ، ولكنه كان هذه المرة مرتدياً ثياب البدو . وتعانقنا ، وحدثني بعد قليل بقصة هروبه المدهشة من المانيا النازية المغلوبة على امرها ، بمساعدة ضباط المخابرات من الامريكان والانكليز والفرنسيين الذين اوصلوه اخيراً الى العربية السعودية .

« وكان لجوء هذا الرجل المحكوم عليه بالاعدام في بلاده للثورة التي قام بها في عام ١٩٤١ ، عملاً رائعاً ، وقد نعمت بلقياه ، وبصحبته مدة طويلة في السنوات التالية . وكان وصوله بصورة مفاجئة الى باب قصر المربع ، يرافقه شخص واحد ، قد خلق ضجة كبيرة في العالم العربي . وقد ادخل رشيد ومرافقه الى حضرة الملك ، دون ان يعرف بأمرهما أحد ، كما يدخل كل غريب يفد العاصمة . وكان الملك على عجلة من امره ، ولكن سرعان ما استوقفه شيء غريب رآه في ملامح الرجل ، فسأله عمن يكون فقال رشيد عالي : هذا ما سأبوح به لجلالتكم ، بصورة مكتومة . واخليت الغرفة من الناس ، وكشف رشيد عالي عن سره ، وبدا ان الملك قد امتعض لأول وهلة ولكنه سرعان ما اصدر أمره بمنحه حق اللجوء السياسي ، واوعز باعداد مكان لائق بشخصية كبيرة مرموقة .

« وسافر ابن سعود الى مكه ليواجه ما يلي هذا الوضع الجديد من تعقيدات . وقد ابلغت المفوضية البريطانية برقياً بالحادث ، وسارع المستر غرافتي سميث ، الوزير المفوض الى الدوادمي، لمقابلة الملك في طريقه الى مكة ، وبحث الموضوع معه . وعلى الرغم من احتجاجات بريطانيا ، التي لم يكن منها مناص ، فقد ظل رشيد عالي ، ضيفاً مكرماً في الرياض ، يتمتع بالاولوية في المراسم ، دون ان يشترك في أي عمل رسمي ، الى ان توفي الملك عبدالعزيز ونشأ خلاف بينه وبين الملك سعود ، الذي لم يحبه قط ، فارتحل عن الرياض الى القاهرة حيث اقام فيها » .

وجاءت الى القاهرة في هذه الفترة اللجنة الانكلو — امريكية للتحقيق في قضية فلسطين ، للاستماع الى وجهات نظر الدول العربية في القضية ، وكان

من المتوقع ان تنقسم اللجنة الى عدة لجان فرعية ، تسافر كل منها الى عاصمة عربية معينة . ويقول فيلبي انه تعاون مع الملك في اعداد مذكرة الحكومة السعودية ، الى اللجنة المذكورة التي تضمنت تأييد المقاطعة العربية للبضائع اليهودية ، وتنفيذها . وقد تألفت اللجنة من السير جي سنينغلتون ، والمستر مانغهام بولر ، من البريطان والمستر بكستون الامريكي ، بالاضافة الى السكرتير المستر هارولد بيلي .

ويتحدث فيلبي عن مقابلة اللجنة للملك عبدالعزيز فيقول : « لقد كان يوماً شاقاً بالغ الجهد ، بالنسبة الي ، وقد تضمنت حاشية الملك في المقابلة الامير فيصل وحافظ وهبه الوزير المفوض في لندن . وجلس اعضاء اللجنة الى جانبي الملك ، وأمامه مقعد جلس عليه مترجمان ، وسكرتير يتولى تسجيل المقابلة حرفياً . وجلسنا جميعنا في أطراف القاعة . وبعد تبادل التحيات المعتادة ، بدأ العمل الجدي ، على طريقة السؤال والجواب . ولم يكد العمل يبدأ حتى جاء الامير فيصل ، فجلس الى جانبي ، وسألني عن رأيي في سير العمل . وقد رددت عليه بأن العمل لا يسير سيراً مرضياً ، لأن المترجمين لا ينقلان للجنة نصف ما يقوله الملك ، بينما لا ينقلان للملك نصف ما توجهه اليه اللجنة من اسئلة .

« وقد قاطع الامير فيصل ، سير الجلسة ، فهمس في اذن والده الذي امرني بالجلوس في مقعد التراجمة ، وان أقوم بالعمل طيلة ما تبقى من الوقت . وكان من المؤلم ان أرى هذين الفريقين ، يحاولان يائسين التفاهم دون جدوى بسبب عجز من يقوم بدور الترجمة . واعتقد ان السبب في ذلك كان عجز المترجمين عن تفهم أقوال الملك من ناحية ، وعدم معرفتهما بدقائق الموضوع الذي يتوليان الترجمة فيه من ناحية ثانية .

« واستمر العمل عدة ساعات حتى حان موعد صلاة الظهيرة ، وانسحب الملك لادائها ، بينما انتقلنا مع ولي العهد لحضور المأدبة التي اقامها على شرف اعضاء اللجنة . وأقام الملك في المساء مأدبة على شرف اللجنة ، وعندما استأذن

هؤلاء من الملك بالسفر بمناسبة مغادرتهم الرياض في الصباح التالي باكراً ، اقترح الملك عليهم ان يجتمعوا ثانية الى الوزراء ، لمراجعة ما دار حوله البحث في جلسة الصباح . وبعد مناقشات طويلة ، اقترح احد اعضاء اللجنة على الجانب السعودي ، اعداد ترجمة خطية لوقائع الجلسة بحيث تكون جاهزة قبل السادسة صباحاً ، وهو موعد سفر اللجنة .

« وتطوعت بالقيام بهذه المهمة ، ومضيت الى منزلي احمل الاوراق ، أعمل واطبع طيلة الليل ، لأعد اربع نسخ من الترجمة ، وكانت الساعة السابعة والنصف صباحاً عندما انهيت المهمة ، وحمل رشدي ملحس النسخ الى اعضاء اللجنة الذين غادروا الرياض بعد ذلك بقليل . »

ويتضح من هذه القصة ان فيلبي بالاضافة الى ما كان الملك عبد العزيز يشعره به من اهمية ، ويحمله له من اعتبار ، كان يريد ان يتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون البلاد ، ولعل هذه الغريزة التي كانت متأصلة في نفسه ، هي التي اثارت عليه نقمة المحيطين بالملك من وزراء ومستشارين ، ورجال حاشية ، ولكنهم جميعاً كانوا اعجز من ان يفعلوا شيئاً لفيلبي في حياة الملك عبدالعزيز ، لما يعرفونه من حب له وتقدير واعزاز . فلما انتقل الى رحمة الله ، وجاء خلفه الملك سعود ، وهو بدوره من الناقمين على فيلبي كما سنرى فيما بعد ، اتيحت الفرصة لرجال الحاشية للخلاص من هذا الرجل الذي كثيراً ما ضايقهم في الماضي ، ولم يستطيعوا ان يفعلوا شيئاً للخلاص منه .

ويروي فيلبي بعض القصص المثيرة عن انطباعات الملك عبدالعزيز وآرائه في هذه الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية فيقول : « اقتربت أيام شهر آب من النهاية ، واعلن ان محاكمات نورمبرغ ، قد انتهت بعد جلسات استغرقت ٢١٧ يوماً ... وعندما جاء المذيع ليقرأ على الملك ما التقطه من انباء وبدأ بالحديث عن محاكمات مجرمي الحرب في نورمبرغ ، أمره الملك بالتوقف وقال له « لا اريد ان تنقل الي شيئاً في هذا الصدد ، فهذا الموضوع ، يستفزني ، ويقرفني . فليست لهذه المعاملة لعدو مهزوم اية سابقة في التاريخ وفي قصص

الحرب وأساطيرها ، ولا أرى لهذه المحاكمات أي مبرر ، عقلي او قانوني » .

« واستاء الملك ابلغ الاستياء ايضاً ، من الانباء التي وصلته من اعتقال السلطات البريطانية في المانيا لكامل كيلاني شقيق رشيد عالي ، وغيره من العراقيين الذين قضوا مدة الحرب في المانيا، وتسليمها اياهم الى الحكومة العراقية لمحاكمتهم بتهمة الخيانة العظمى . وقد بدا الملك قلقاً من مشاكل ما بعد الحرب وما انطوت عليه من عقوبات وثأر ، وتجاهل الدول المنتصرة للخطر الحقيقي الماثل في انتصار الشيوعية ايضاً ، الذي رآه مؤدياً الى صراع حتمي مكشوف مع الدول الغربية في المستقبل القريب . وكان من العبث ان يقول له انسان : كما كنت اقول احياناً ان العالم قد مل الحرب ، وان مثل هذه الكارثة لن تحل ثانية في المستقبل القريب الا بعد قيام جيل جديد ، لا يعرف شيئاً عن أهوالها وويلاتها .

« وكان من رأيه ان امريكا وحلفاءها يملكون القنابل الذرية ويتفوقون على العالم الشيوعي ، وهو تفوق من السخف ان يتجاهله الانسان ، وانه لهذا يرى ان الحرب واقعة عما قريب . وعندما عارضته في هذا الرأي ، وكان التاريخ اليوم الأول من ايلول عام ١٩٤٦ ، راهنني على ان الحرب واقعة لا محالة ، في الربيع القادم ، وكان الرهان على سيارة جديدة . وقد قبلت الرهان . ولم اذكره فيما بعد انه قد خسره .

« ومع مضي السنوات ، أخذ الحزن يدب الى فؤاده يوماً بعد آخر . فقد صعب عليه ان يفهم عقلية هذا العالم الرأسمالي الذي يصر على اتخاذ موقف ودي من العالم الشيوعي ، رغم ما يشعر به من تفوق في القوة العسكرية ، وعلى الرغم من انه كان معادياً للسياسة الاستعمارية في بلاده ، الا انه كان يحمل الروح الاستعمارية في طبيعته وغريزته ، ولا يرى منها فكاكاً في تحقيق ما يريد » .

هذه هي الصورة التي ينقلها فيلبي لصديقه عبدالعزيز ، في السنوات التي تلت الحرب الكونية الأولى؟ ، وهي صورة تنطق عن نفسها ولا تحتاج الى شرح أو تدليل ، وان كانت تبين بوضوح وجلاء ان صداقة الملك عبدالعزيز للدول

الغربية وفي مقدمتها بريطانيا لم يطرأ عليها أي تبدل ، أو تحويل من جراء ما حملته الحرب الى العالم بأسره ، من افكار جديدة تنطوي على كره الحروب ، والنفور منها ، والدعوة الى تفاهم عالمي يقوم على اساس شرعة حقوق الانسان وميثاق الأمم المتحدة . ويبدو منها ايضاً ، ان الملك الراحل لم يتطور مع الزمن ، ومع هذه الآراء الجديدة ، بل حافظ على كل ما حمله من افكار حملته الى تبوء مركز القيادة في ا لجزيرة العربية قبل نحو من ثلاثين عاماً .

ويقول فيلبي ان الحياة في بلاط الرياض في تلك الأيام عندما كان « الملك لا يزال سيد نفسه وسيد مصيره ، اشبه ما تكون بالطقس في انكلتره ، حياة خاملة بليدة ، تتخللها فترات من الزهو والاشراق . واقام الملك ذات يوم قبيل نهاية شهر ايلول ، مأدبة في القصر ، احتفاء بتوقيع الاتفاق بين شركة الطيران العالمية الامريكية (TWA) وبين الحكومة ، لادارة الخطوط الجوية السعودية . وكان التفاوض قد تم على هذه الاتفاقية بين الجنرال جايلز ، ممثلاً الشركة الامريكية ، والامير منصور ، والشيخ يوسف ياسين ، ممثلين الحكومة السعودية. ولعل اكثر ما يستوقف النظر فيها الرواتب التي ستدفع للموظفين الامريكيين الذين ستعينهم الشركة . وقد نصت الاتفاقية على ان يدفع للطيار الأول مبلغ عشرة آلاف دولار في السنة يضاف اليها مبلغ ألفي دولار كعلاوة اسكان وعلاوات اخرى شخصية وعائلية . أما الطيار الثاني فيتقاضى مبلغ ٧٥٠٠ دولار في السنة مع (١٥٠٠) دولار علاوة اسكان بينما يتقاضى المهندس ستة آلاف دولار يضاف اليها الف اخرى للاسكان .

« حقاً لقد كانت الرواتب سخية كريمة ، لا يبررها ، الا الادارة الصحيحة التي سارت عليها الخطوط منذ إنشائها ، حتى يومنا هذا ، مع العلم ان تخفيضات قد لحقت بالرواتب بعد ذلك التاريخ بالنسبة الى زيادة عدد الموظفين .

« وقد تبع المأدبة الرسمية ، جلسة خاصة للمقربين جداً من اصدقاء الملك ، تناولت الاحاديث فيها مختلف المواضيع وسرعان ما هبطت الى مستوى استخدام الضفادع في جنوب افريقيا لاجراء التجارب على الحمل .. »

وبدأت الاستعدادات آنذاك ، لانتقال الملك وبلاطه الى الحجاز ، لإداء فريضة الحج في السنة المقبلة ، وأخذت الطائرات تنقل حريم القصر الى الطائف ، حيث سيقضي الملك عبدالعزيز فترة من الزمن في مضاربه ، قبل الهبوط الى مكة المكرمة . وكان الرئيس الامريكي ترومان قد خلق نوعاً من الهياج في الاوساط العربية بسبب اقتراحه ، الاسراع في هجرة اليهود الى فلسطين ، ووقف العمل بنصوص الكتاب الابيض ، مما حمل عرب فلسطين على مطالبة الدول العربية بمقاطعة التجارة مع امريكا بينما كانت الانباء تترى من عبدالله السليمان وزير المالية الموجود في امريكا ؛ مشيرة الى نجاحه في اقناع الحكومة الامريكية بتقديم قرض قدره (٣٢) مليون دولار لتمويل مشروع السكك الحديدية في المملكة السعودية .

ويتحدث فيلبي عن فصل الحج في ذلك العام ، فيقول ان الملك ، بدأ يعتمد منذ ذلك التاريخ لأول مرة على السيارات في اداء الفريضة بدلاً من الجمال ، وإن جماهير الحجاج ، سارت على منواله . ولم يكن الموسم في تلك السنة كبيراً ، فقد اقتصر عدد الحجاج على ٦١٣٨٦ حاجاً كان بينهم ثلاثة من اولاد الامام يحي والشيخ مصطفى عبدالرازق ، شيخ الجامع الازهر ، بوصفه اميراً للحج المصري . وضمّت المأدبة التي اقامها الملك في تلك السنة لكبار الحجاج نحواً من سبعمائة شخص يمثلون مختلف الاقطار الاسلامية .

وبعد انتهاء الفريضة ، انتقل الملك الى جده . حيث قضى فيها بضعة أيام ، قابل ابانها الجنرال سبيرز ، واللورد ريشارد ويندهام ، وكبار موظفي شركة الارامكو في الظهران .

واترك لفيلبي الآن مجال الحديث عن حاشية الملك في تلك الأيام اذ يقول : « لقد كانت مشكلة الحكومة السعودية ، ان جميع مستشاري الملك ، باستثناء عبدالله السليمان ، كانوا يرددون دائماً على مسامع الملك ، ما يود ان يسمعه منهم ، لا ما يجب ان يسمعه . وكانوا يفضلون ان يتولى الملك تقديم المشورة اليهم ، عمّا يجب ان يفكروا به او يقولوه ، بدلاً من ان يتولوا هم تقديم

المشورة اليه . وكانوا اذا اختلفوا مع الملك في أي من وجهات نظره ، يؤثرون ان يحتفظوا بآرائهم لأنفسهم دون الاعلان عنها . وكان معظمهم يفضل دائماً ان يقول « نعم » على ان يقول « لا » مؤثرين العيش الرغد في ظله ، وتناول العطايا والهبات السخية . وأرى من واجبي ان اعترف بأن الشيوخ من رجال الحاشية الذين رافقوا الملك نحواً من ثلاثين عاماً ، والذين جاءوا الى العربية السعودية ، لاجئين لا يملكون شروى نقير أو مغامرين ، كانوا قد قضوا سنوات طويلة عجافاً في أيام محنته وضائقته فخدموه بإخلاص وأمانة ، ولكن في وسع الانسان ان يلومهم الآن على الحقيقة الواقعة ، وهي انهم بعد ان حسنت أحوالهم ، وتضخمت ثرواتهم ، اصبحوا يؤثرون مصالحهم الشخصية على ولائهم .

« وكان من الواضح من السياسة الخارجية ان يوسف ياسين وأفراد مدرسته ، على الرغم من استعدادهم الدائم لترجيع صدى آراء الملك في الشيوعية التي كان دائم الحملة عليها . لم يكونوا يحاولون ايجاد سياسة سعودية ثابتة ، تنسجم مع تصميم الملك واصراره على الاحتفاظ في جميع الظروف والأحوال ، ومهما كان الثمن ، بصداقته التقليدية مع بريطانيا ومع حليفته الجديدة ، التي أخذ يعتمد عليها ، وهي امريكا . ولم يكن بالطبع يعارض في التعاون الاقتصادي مع الدول الاخرى كالمانيا الغربية مثلاً ، التي حاول وزير ماليته عبدالله السليمان ادخالها كعنصر منافسة قوي في دعم اوضاع البلاد الاقتصادية .

« اما يوسف ياسين ، الذي كان يتمتع بحكم منصبه ، كمستشار الملك السياسي الخاص . بمكانة سامية عند سيده ، فقد كان يكثر من التدخل في مختلف القضايا التي لا تدخل ضمن دائرة اختصاصه وفي مقدمتها الشؤون المالية ، وقضايا الشركات ، والاعمال الاقتصادية . ولو اقتصرت مجالات نشاطه على خدمة الدولة ، لكان موظفاً لا يقدر بثمن . لكن الكثير من مداخلاته ، كان يوحي بها الحسد والحقد . فقد ظل بمثابة الشوكة في جنب كثير من الشركات الاجنبية العاملة في البلاد التي لو لم تسهم في اعمال الازدهار الاقتصادي ، لما تضخمت ثروته الشخصية التي كان كثير الزهو بها .

« فقد قال لي ذات مرة ، واعتقد ان التاريخ كان عام ١٩٥٣ : انه لو كان يعرف تماماً انني كنت اؤيد المفاوضات مع شركة « ستاندارد اويل كاليفورنيا » لمنح الامتياز لها في عام ١٩٣٣ . لبذل جهده للحيلولة دون منح الامتياز . فلما قلت له « لو قمت بذلك ونجحت ، فماذا كان سيحل بك وبالبلاد ، واين كنتما الآن ؟ لقد ايدت الشركة المذكورة لأنني كنت اعرف ان المفاوضات معها ستؤدي الى خير البلاد ، وكان الملك مطلعاً دائما على وجهة نظري » .. واذكر مرة اخرى ، وفي وقت سابق . انه اتهمني ذات يوم بأنني استغل نفوذي مع الملك ، في محاولة إلغاء اتفاقية معقودة بين شركة بريطانية وبين الحكومة ، لإنشاء طريق المدينة دون ان تتحمل الشركة اية غرامات . مع العلم ان هذه الشركة قد تحملت نفقات وخسائر باهظة ، بسبب العقبات التي كان موظفو الحكومة ومهندسوها ، يضعونها في طريقها .

« لقد عرفت يوسف ياسين اكثر من ثلاثين عاماً ، وكنا في معظم الوقت على أحسن العلاقات الودية ، ولكنني استطيع القول انه ذو طبيعة حسودة . وكان يبدي سخطه دائماً من الثقة التي يضعها الملك فيَّ . ومع ذلك فكثيراً ما كان يلجأ اليّ طالباً العون في قضايا السياسة العليا ، كقضية البريمي مثلاً . وكنت عند حسن ظنه ، فقد سبق لي ان عملت شيئاً في ميدان تخطيط الحدود الجنوبية للمملكة العربية السعودية ، وكان لآرائي وزن في النقاش مع الحكومة البريطانية » .

ماذا نستنتج من كل هذا الحديث ؟ نستنتج اولاً وقبل كل شيء أن التنافس قد بدأ يظهر في السياسات الامريكية والبريطانية في العربية السعودية ، وان هذا التنافس قد اخذ ينعكس على اوضاع مستشاري الملك عبدالعزيز واتجاهاتهم . فبينما ظل فيلبي كما هو متوقع ومحتوم على ولائه لبلاده ، نرى يوسف ياسين وهو صاحب الكلمة المسموعة باعتراف فيلبي نفسه ، يتجه مع التيار الجديد . وأن الملك نفسه رغم إصراره على المحافظة « في جميع الظروف والاحوال ، ومهما كان الثمن » ، على صداقته التقليدية لبريطانيا ، يهتم كل الاهتمام بمصالح

حليفته الجديدة التي اصبح يعتمد عليها في شؤونه المالية ، وهو اعتماد ، يقرر بحكم الواقع ، الكثير من الاتجاهات .

ونستنج ثانياً ، ان التنافس قد بدأ يشتد بين فيلبي ويوسف ياسين وبين الاخير وعبدالله السليمان ، وانه قد اتخذ في بعض مراحله ، صورة الحرب المعلنة ، وهو تنافس ادى في النهاية، عندما حانت الساعة الملائمة، الى ابعاد عبدالله السليمان من وزارة المالية ، وفيلبي نفسه ، من المملكة العربية السعودية كلها ، كما سيرد في مكان لاحق من هذا الكتاب .

ونستنتج ثالثاً وهو الأهم ، ان مستشاري الملك غدوا آلات مسخرة في ايدي الشركات الكبرى ، تستغلهم في قضاء مصالحها ، وتأمين أمورها : وحل مشاكلها الادارية والمالية ، وان التنافس بين هذه الشركات قد انعكس ايضاً على اشخاص المستشارين ، الذين بدأوا يهتمون بجمع الثروات ، وتأمين مصالحهم الخاصة على حساب الدولة التي يعملون فيها .

وقد تركت هذه الآراء المتصارعة ، في جهاز الدولة السعودية ، اثرها في مختلف السياسات العالمية والاتجاهات العربية . ويقول فيلبي ان الملك عبدالعزيز لم يكن في أي يوم من الأيام متحمساً للجامعة العربية ، وان كان من مؤيدي التضامن العربي والاسلامي ضمن نطاق الحدود المعقولة ، على ان لا يستخدم هذا التضامن مطلقاً في استفزاز الغرب أو مهاجمته . وكانت السياسة العامة ، التي وضعها الملك عبدالعزيز كموجه لحكومته في جميع اعمالها : انه على اتم استعداد في جميع القضايا التي لا شأن خاص للسعودية بها ، للسير وفق اهواء ومشيئة الدول العربية الاخرى الاعضاء في الجامعة . أما في القضايا ذات العلاقة الجوهرية بالعربية السعودية ، فقد احتفظ لنفسه دائماً بالحق في العمل ، وفق ما يراه هو خيراً لبلاده ومصلحتها ، على ان لا يتعاون مطلقاً في أي عمل يستهدف مصالح بريطانيا في الممتلكات الواقعة تحت انتدابها او اشرافها او نفوذها ، ولاسيما فلسطين والاردن والعراق . وكان من رأيه ايضاً ، ان مطالبة مصر بجلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس ، قد لا تكون في مصلحة

مصر نفسها . وكان يؤثر في جميع المشاكل التي تهتم بها الدول العربية الاخرى ، الوقوف في موقف الصامت الساكت . وقد ظهر موقفه هذا بجلاء في النزاع الذي قام بين اليمن ومحمية عدن ، حول حضرموت وبعض المشيخات المحمية في الجنوب العربي . ولكن ليس لدى فيلبي من شك ، في انه لو طلبت الحكومة البريطانية منه التدخل والتعاون لحل المشكلة بالطرق السلمية وعن سبيل الوساطة ، لما تردد لحظة واحدة . ولاريب في انه تأثر ابلغ التأثر لأن بريطانيا لم تحاول مطلقاً الحصول على تعاونه ، كما اشتد تأثره ، من موقفها الاستفزازي تجاه البريمي ، وحدود بلاده في الجنوب الشرقي .

وينهي فيلبي كلامه عن سياسات الملك عبد العزيز قائلاً : « ولا ريب في ان قضية البريمي . كانت موضوع كرامة بالنسبة اليه ، كما كانت موضوع رغبة طبيعية في الحصول على الزيت فيها . وعلى كل حال فأنا واثق من ان الملك عبدالعزيز قد توفي ، وهو يشعر بأن اصدقاءه البريطانيين لم يحاولوا قط ، اظهار أي ميل ، لترضية الشكوى الشخصية الوحيدة التي واجههم بها طيلة حياته » .

أنا لا اريد ان اناقش آراء فيلبي في سياسات الملك عبدالعزيز ، فمثل هذه المناقشة ، متروك أمرها الى الذين يتأثرون بها تأثراً شخصياً أو عاماً ، والذين تتناولهم انفسهم في اتجاهاتهم وسياساتهم . ولكنني اود ان اشير الى ان الوقائع التاريخية تؤكد . ان الملك الراحل ، قد ظل على صداقته الخالصة الصادقة لبريطانيا حتى اللحظة الاخيرة من حياته ، ولم يسمح لامريكا التي اضحت تدر عليه مئات الملايين من الجنيهات في كل عام . بأن تحتل المكانةالتي كانت لبريطانيا في نفسه والتي ظلت لها ، حتى الساعة الاخيرة ، على الرغم مما وقع بين العرب وبريطانيا من مشاكل ، في مختلف ربوعهم وامصارهم ، وكانت في مقدمتها مشكلة فلسطين الدامية .

واعود الآن من جديد ، الى نقل ، اقوال فيلبي عن سياسات الملك الراحل تجاه مختلف القضايا العربية .. قال فيلبي : « كان الملك عبد العزيز شديد التأثر

دائماً بما يبدو من خصومه القدماء من الحكام الهاشميين في الاردن والعراق ، من نشاط في ميادين السياسة . وفي ذات يوم حمل أحد سكرتيريه صحيفة سورية ، ذكرت توقع انشاء اتحاد بين الدولتين الهاشميتين . وأدرك الملك فوراً ، ان هذا العمل ان تحقق يجب ان يكون من وحي بريطانيا وصنعها ، فأعرب عن تأثره العميق ، من السياسة الاستعمارية التي تحملها هذه الدولة ، التي كان بحكم صداقته لها ، قانعاً بأن يترك بين يديها مصائر فلسطين والاردن والعراق ، الى الابد ، شريطة ان لا تتحد . وقد جابهني بهذه التهمة ، وطلب الي ان اجيب عليها ، فقلت ان المملكتين الهاشميتين ، حرتان في اتباع اية سياسة تريان انها في مصلحتهما ، لاسيما وانهما مستقلتين وقد اعترف باستقلالهما هذا . وكان اكثر ما حز في نفس الملك عبد العزيز ، ان المشروع نص على ان يكون عبدالله ملك الاردن ، اول ملك للدولة المزدوجة الجديدة ، وان يكون فيصل الصغير ملك العراق ، ولياً لعهده . على أية حال ، لم تكن هناك الا بعض الدلائل التي تبرهن على وجود هذه النية المبيتة بصورة حقيقية ، على الرغم من وجود مشروع كهذا منذ امد طويل . وكان كل ما استطاع الملك عبدالله تحقيقه لتوسيع مملكته ضم الاجزاء العربية من فلسطين اليها ، فأصبحت فلسطين المجزأة ، ومدينة القدس ، المجزأة ايضاً ، نداً في الشرق الاوسط لالمانيا وبرلين المجزأتين » ..

وقام الملك عبدالله ، في صيف ذلك العام ، بزيارة عدوه القديم في الرياض ، فكانت اول مقابلة لهما منذ أمد طويل ، وسرعان ما رد الامير سعود ولي العهد الزيارة له في عمان . ويمضي فيلبي في كتابه « اربعون سنة في الصحراء » ، فيسرد الاحداث التاريخية التي تلت ذلك من مصرع الملك عبدالله . وصدى الحادث في البلاط السعودي ، ومحاكمات المتهمين بقتل الملك ، وصدور الاحكام عليهم بالاعدام ، ومطالبة الملك عبدالعزيز بالتدخل للعفو عنهم ، وما تبع ذلك من أحداث في الاردن ، لا يدخل بحثها ضمن نطاق هذا الكتاب .

ونصل الآن الى المرحلة الاخيرة من حياة فيلبي ، والتي سنتناولها في فصل

خاص من هذا الكتاب ، وهو فصل « الطريد » ، والظروف التي ادت الى خروجه من البلاد ، التي عاش فيها اربعين عاماً . فقد وصلنا به الى تلك الايام التي بدأ عهد الملك عبدالعزيز فيها بالضعف من جراء انهيار حالته الصحية ، وانتقال شؤون الملك ، وادارة سياسة الدولة الى ولي العهد ، الذي اخذ يصرف أمور الدولة ، طيلة السنوات الاخيرة من حياة والده .

وكان نفوذ فيلبي في هذه الآونة بالذات قد ضعف ، مع ضعف الملك ، وأخذ خصومه يتكالبون عليه ، وكل همهم ان يبعدوه نهائياً عن مسرح البلاد السياسي ، ولكنهم كانوا اعجز من ان ينفذوا خطتهم هذه في حياة الملك عبدالعزيز ، على الرغم من انصرافه عن شؤون الدولة ، وأعمال الحكم .

أجل لقد بدأت نهاية الملك عبد العزيز ، تقترب بعد هذا العهد الطويل الحافل بكل شيء من غزوات وحروب ، بطولة وفروسية ، شهامة وكرم ومناورات ، واقامة مملكة جديدة في قلب الجزيرة العربية ، التي لم تعرف منذ أيام الخلفاء الراشدين حكومة قوية في ربوعها الى ان جاء عبدالعزيز ، فأقام دولته التي اصبحت ذات مركز مرموق ومكانة بارزة في الشرق الاوسط كله .

ومع نهاية الملك عبدالعزيز ، اقتربت نهاية الدور الذي مثله فيلبي على مسرح السياسات العربية مدة اربعين عاماً ايضاً ... واتضح له ، قبل غيره ، ان دولته قد دالت ، وان نفوذه قد انهار ، وان أيامه في العربية السعودية اضحت معدودة .

فأخذ ينتظر هذه النهاية وهو يجالد القدر ويصطرع مع القضاء ، متمسكاً بما عرف عنه من عناد وصلابة ، ومتعلقاً بخيوط واهية من الأمل ، الذي سرعان ما هوى ...

٩

جنة الاسلام

هذا هو التعبير الذي اختاره فيلبي ، ليطلقه على المرحلة التي بدأت من حياته باعتناقه الدين الاسلامي فقد آثر فيلبي ، وهو البريطاني الذي طلق حياة الحضارة والمدنية في بلاده ، وفضل عليها حياة البداوة والخشونة في الصحراء . منذ سنوات طويلة ، ان لا يظل غريباً عن المجتمع الذي أخذ يعيش بين ظهرانيه ، وان يقتحم هذا المجتمع اقتحاماً كلياً ، ينغمس فيه ، في حياته وعاداته وتقاليده ، فيتخذ من الاسلام ، وهي ديانة الغالبية المطلقة من سكانه ، ديناً له يقربه من قلوب الذين يعيش بينهم ، ويجعله واحداً منهم في كل شيء ، حتى في عقيدتهم وإيمانهم .

أجل لقد اعتنق فيلبي الاسلام ، وهذا ما تشهد به وثائق المحكمة الشرعية في مكة المكرمة ، كما يعترف به كل من عاش هذا العصر في العربية السعودية . وأصبح سنت جون فيلبي ، الذي ملأ اسمه في يوم ما الاسماع والاذهان في اكثر من بلد وعاصمة ، يدعى بالحاج عبدالله فيلبي ، البريطاني المسلم الذي يعيش في كنف صديقه الملك عبدالعزيز ، وفي ظل رعايته وحماه ، وان آثر هو نفسه ، ان لا يكنى بهذا الاسم خارج حدود العربية السعودية ، واحتفظ باسمه القديم ، في سجلاته الرسمية وجواز سفره ، وعلى صدور الكتب العديدة التي

ألفها بعد دخوله جنة الاسلام .

اجل لقد عاش فيلبي الثلاثين عاماً الاخيرة من حياته مسلماً مؤمناً . يؤدي الصلوات في اوقاتها ، ولاسيما عندما يكون في العربية السعودية ، وينساها اذا ما خرج من أبوابها ، كما يروي الكثيرون من الذين عرفوه معرفة وثيقة واتصلوا به في حياته الطويلة . ويقضي فريضة الصيام حتى في اعنف اشهر الصيف واشدها حراً ولظى ، ويقبل على الحج يؤدي فريضته في معية صديقه الملك عبدالعزيز ، كلما اتيح لجلالته ان يؤديها ، وآثر ان يموت ميتة المسلمين فأوصى أن يدفن في مقابرهم على الطريقة الوهابية البسيطة ، وان يصلى على جثمانه صلاة الميت ، فيكون بذلك قد عاش مسلماً ومات مسلماً .

فقبيل منتصف ليلة السابع من آب عام ١٩٣٠ ميلادية المصادفة عام ١٣٦٠ للهجرة النبوية الكريمة ، وقفت سيارة « فورد » خضراء ، أمام الحرم المكي الاقدس ، وهبط منها رجلان بينما ظل فيها رجلان آخران . أما الهابطان ، فكانا هذا البريطاني الذي يدعى سنت جون فيلبي ، الذي قرر أخيراً الدخول في جنة الاسلام ، وصالح العنقري ، احد المطاوعة من الاخوان الوهابيين ، الذي عهد اليه بأن يتولى ارشاد المهتدي ليقوم بالطقوس الدينية الأولى في البيت العتيق .

واترك لفيلبي الآن ، وصف ما حدث له ، في هذه الساعات الأولى ، من انضمامه الى صفوف المسلمين . قال في كتابه « اربعون سنة في الصحراء » ما نصه : «لقد كنت انا هذا الانسان الذي هداه الله ، وقد ارتديت مئزر الاحرام لأقوم بالفريضة الأولى من فرائض الانتماء الى ابسط ديانة عرفها العالم . واقلها تعقيداً واكثرها تأثيراً ، وهي الديانة التي كنت منذ ايامي الأولى في الهند ، وفي مقاطعة البنجاب بالذات ، قد اتصلت بها عن كثب ، والتي يدين بها العرب ، الذين نذرت نفسي لخدمتهم ، وقررت اخيراً بعد تفكير طويل ودرس عميق ، ان اصبح واحداً منهم ، وان ألقي بحظي بين حظوظهم .

« ووضعت حذائي على مقربة من باب المسجد العتيق ، وأسلمت قيادي

الى دليلي ومرشدي ، الذي أمسك بيدي اليمنى من رسغها ، فدخل بي من باب السلام ، الى ساحة الحرم الكبرى ، التي امتدت امامنا فسيحة واسعة ، في ضوء القمر الساطع ، الذي تقطعه بين الفينة والاخرى سحب صغيرة ، سرعان ما تختفي تاركة لأشعة القمر ، الذي كاد ان يكون بدراً ، اضاءة الكون ، بنورها الازلي . ورأيت في وسط ساحة الحرم ، الكعبة المشرفة ، وقد غطتها الستائر السوداء ، وأبصرت ببضع مئات من الناس ، وقد انتشروا في جماعات صغيرة يصلون ويهجدون ، بينما شاهدت عدداً آخر ، يطوف حول الكعبة طوافاً مستمراً لا تقطعه الا فترات قصيرة من التوقف ، ليستأنفوا الطواف حول هذا البيت المقدس . وكانت هدأة الليل ، لا يقطعها إلا همسات المصلين وابتهالهم الى الله .

« وتلوت الآيات والأدعية التي كان يرددها الدليل على مسامعي، ثم سرت في ممر مرصوف الى وسط الكعبة المشرفة ، حيث وقفت أمام مقام ابراهيم عليه السلام ، والى يميني يقف بئر زمزم ، ليعود فيصبح الى يساري ، وأنا اتجه الى الحجر الاسود القائم في الزاوية الشرقية من الكعبة المشرفة . واقتربت مع دليلي بكل خشوع من الحجر الأسود ، فقبلناه بكل اجلال ، ثم بدأنا نطوف بالكعبة سبع مرات ، ونحن نردد الدعاء المأثور ، لنقف بين الطوفة والاخرى فنلثم الحجر ، ثم اتجهنا الى الزاوية الجنوبية ، فاستقبلنا الحجر اليماني ، نلمسه بأيدينا ونحن نهلل ونبتهل .

« وانتقلنا بعد أداء الطواف الى مقام ابراهيم، حيث ادينا ركعتين ، تحية للكعبة المشرفة ، لننتقل بعدهما الى زمزم ، حيث تناولنا قدحاً من الماء الطاهر فأكملت بذلك فروض العمرة » .

هذه صورة صادقة للخطوة الأولى ، التي خطاها فيلبي بعد دخوله الى جنة الاسلام ، أما الخطوات التي سبقتها ، والتي توالت ، حتى وصلت به الى هذه المرحلة ، فاني اتركها له ليسردها ، في اكثر من موضع ، وفي اكثر من كتاب .

يقول فيلبي في كتابه أيام عربية : « لقد اجتذبني الاسلام، منذ أيامي الاولى

في الهند. اذ تأثرت بما فيه من بساطة في تناول حقائق الحياة الخالدة وفلسفتها. وكنت قد توقفت منذ أمد طويل ، عن ان اكون مسيحياً ، وأصبحت فيلسوفاً اتطلع الى الحياة بنظرة فلسفية عميقة ، دون ان تكون لي اية معتقدات او مشاعر دينية ، على الرغم من اعترافي بأن الديانة تؤلف لغالبية الناس ، ضرورة لامناص منها . ومع ذلك فقد بدا لي ان الاسلام في الهند ، قد اصبح محاطاً بسلسلة من الطقوس والمظاهر الغريبة عنه ، وهي طقوس ومظاهر لا يمكن للانسان ان يتقبلها الا بعد تمحيص دقيق . وعندما انتقلت الى العراق ، وجدت طائفتها السنية ، كثيرة التعلق بالرسميات والمظاهر ، في اداء الفروض الدينية ، بينما وجدت من الصعب ان أومن بالنظرية الشيعية ، التي تستند الى الائمة والاولياء. وعندما مضيت الى السعودية ، اتصلت بما بدا لي ، الفكرة المبسطة عن الاسلام ، تستمد وحيها وإلهامها من القرآن الكريم ، وسنة الرسول الأعظم ، وتبتعد عن النظريات والعقائديات الدينية المتشابكة والمعقدة .

« وبدا لي ان المذهب الوهابي ، هو الدين المثالي ، ولم أجد في تعصب اتباعه ما يسوءني او ينفرني . فقد رأيت الوهابيين يمارسون الطقوس البسيطة كما يؤمنون بها ويبشرون ، ورأيت ان مذهبهم يتفق مع حاجات الحياة البشرية والمجتمع في ابسط صورهما . واعتقدت ان الاسلام على هذه الطريقة ، هو المذهب الذي يستطيع الانسان ان يتقبله قبولاً حسناً ويؤمن به ايماناً صادقاً كوكيل موجه للحياة والسلوك . وان مقاييسه الدينية تنسجم مع الحاجات الاساسية للبشرية ، اكثر من أي دين آخر . واذا كانت فيه بعض الخشونة ، فإنه من الناحية الاخرى يرفض كل زيف وخداع ، كما انه يرى في تعدد الزوجات خير سبيل لمنع العهر والدعارة ، من سبيل الوصايا العشر .

« وأخذ حبي يشتد للبلاد العربية بعد عام ١٩٢٥ ، وكانت المشكلة التي تواجهني ، هي هل أنا على استعداد للمضي مع العرب الى آخر الطريق ، أو انني سأنكص على عقبي ، وأعود من حيث اتيت ، وأحاول تكييف نفسي للبيئة التي نشأت فيها والتي اهلتني لها ثقافتي . ولم يكن من اليسير علي ان اختار

عامداً متعمداً . وكنت أرى انني لم أصل بعد السن الذي يتيح لي شق الطريق في خضم حياة بريطانيا السياسية ، دون التأثير على الاعمال التجارية التي شرعت فيها في جدة ، يضاف الى هذا ان ثمة اشياء كثيرة ، ما زال في استطاعتي ان اتعلمها ، وان اعلمها للعالم ، عن البلاد العربية . وخيل الي أن من المؤسف حقاً ان لا اظل في مكاني لأكمل العمل الذي شرعت فيه ، والذي اجد في نفسي جميع المؤهلات لإكماله .

« ولم اتردد قط في اتخاذ قراري ، وإن اقتضى اتخاذ هذا القرار فترة طويلة من الوقت ، ادراكاً مني للحقيقة الواقعة ، وهي انه عندما يتخذ فمن الصعب الرجوع عنه . وقد عرف ابن السعود ، منذ امد ببعض ما يجول في خاطري ، ولكنني اقولها ، قولة صدق . انه امتنع مطلقاً عن محاولة الضغط علي او التأثير على اتجاهي ، تاركاً تقرير هذا الموضوع لضميري وحده ، مع ادراكي الكامل بأنه سيرحب ابلغ الترحيب بهذه الخطوة ان خطوتها . وانضويت الى رعيته ، حيث يتلقاني بذراعين مفتوحتين . وأخيراً كان للقدر شأن في اتخاذ هذا القرار .

« كان الطقس في نهاية شهر تموز من عام ١٩٣٠ ، وفي بداية شهر آب من اسوء ما عرفته المدينة في السنوات الاخيرة ، وكانت درجة الحرارة تتراوح بين الثلاثة والتسعين والخمسة والتسعين ، بينما كانت نسبة الرطوبة تصل حداً لا يطاق ابداً . وكنت أواصل العمل ، في كتابي عن سياسات الهند ، عندما غفوت بعد ظهر احد الايام المبكرة من شهر آب ، وانا جالس على مكتبي ، وخيل لي ، انها نوبة اغماء ، ولما كنت غير متعود على حالات كهذه ، فقد ظننت انها نوبة قلبية ، وزحفت الى اريكة قريبة حيث استلقيت بضع ساعات . وعندما صحوت الى نفسي من هذه الحالة ، شعرت ببعض الفزع ، ولكنني كنت نشيط التفكير تماماً ، وبدأت أدرس ما يجب علي ان افعله في هذه الظروف فحزمت امري أخيراً .

« كان الملك يقضي فصل الصيف في الطائف ، بعد ان جاء من الرياض لأداء فريضة الحج في مكة ، ثم قصد الى جدة ، حيث استقبل رايان وزير

بريطانيا المفوض الجديد ، وتلقى منه أوراق اعتماده . وكان فؤاد حمزه ، الذي تولى مؤخراً نيابة وزير الخارجية خلفاً للدملوجي الذي غادر البلاد ، في مكة ، فهتفت له احدثه بما وقع ، واسأله ابلاغ الملك بأنني قد حزمت امري على ما سبق لنا الحديث فيه ، وانني ارجو زيارته في الطائف لبحث التفاصيل اللازمة . ولم تمض الا ساعات ، حتى كان الملك يحدثني بنفسه هاتفياً من الطائف، معرباً عن سروره ، بأنني قررت اخيراً الدخول في حظيرة الايمان . وأبلغني انه سيوفد الي فوراً فؤاد حمزه ، حاملاً وثيقة يجب عليّ ان اوقعها ، تتضمن الاعراب عن رغبتي في اعتناق الاسلام . وأكد لي أن هذه الوثيقة ضرورية لإطلاع علماء مكة ، حيث سيسمح لي غداً بالذهاب اليها مع فؤاد حمزه وعبدالله السليمان لاداء فروض العمدة ، ومن ثم امضي الى الطائف حيث احل اهلاً وسهلاً عليه .

« وقد استغرقت هذه العمليات التمهيدية اقل من اربع وعشرين ساعة ، وغادرت جدة بعد ظهر السابع من آب ، محتجاً لموظفي مكتبي بأنني سأمضي الى وادي فاطمة لمقابلة وزير المالية لأمور تتعلق بالاعمال التجارية ، ثم مضيت في سيارتي الفورد الخضراء في طريقي الى مكة .

« لقد كان يوماً يبعث على التفاؤل ، فهو الثاني عشر من ربيع الأول ، عام ١٣٤٨ للهجرة ، أي يوم مولد الرسول الاعظم . وفي الحدة ، قابلت الرفاق الذين سيصحبونني في رحلتي الكبرى ، وبعد ان قضينا فترة استراحة في خيمة اعدت هناك ، وارتديت ثياب العمرة ، اشتركت في اداء صلاة المغرب للمرة الأولى في حياتي . وتناولنا عشاء مبكراً ، ثم مضينا في السيارة ومعي فؤاد حمزه وعبدالله السليمان وصالح العنقري ، في طريقنا الى مكة المكرمة ، واجتزنا اعمدة العلمين ، وهي حدود الارض الحرام ، وبدأت أرى في ظلمة الليل لأول مرة الأماكن التي عاشت في خيالي امداً طويلاً حتى وصلنا دارة عبدالله السليمان في جرول ، داخل مكة » ..

وقضى فيلبي ليلته الأولى في مكة المكرمة ، بعد ان خطا خطوته الحاسمة ،

التي كان يريد القيام بها منذ أمد طويل ، ليحقق بها كل ما يريد ، من دخول المناطق المحرمة ، والبقاء الى جانب الملك ، في كل مكان يحل فيه . فقد انتهى عهد بقائه غريباً عن المجتمع الذي يعيش فيه ، وأصبح واحداً من ابناء هذا المجتمع في كل شيء ، حتى في ديانته وايمانه .

واترك لفيلبي ثانية ، ان يصف لنا مشاعره ، بعد هذه الخطوة الحاسمة التي خطاها ، قال : « كانت عواطفي مختلطة متداخلة ، وكان من العسير عليّ ان احللها او اشرحها ، لكنها على العموم كانت مشاعر ذلك الانسان ، الذي اقدم منذ أيام يوليوس قيصر حتى يومنا هذا ، على اتخاذ خطوة ، كان يدرك تمام الادراك ، انها نهائية بالنسبة اليه ، وأن من الصعب عليه التراجع عنها . لقد احرقت سفني ورائي ، وواجهت مستقبلاً جديداً دون أي شعور من الندم أو الأسف . وهكذا أثمرت دراسة نصف عمري وأينعت . وكنت راضياً من ان اترك امور الغد للغد نفسه ، واذا ود انسان ان يسألني ، « لماذا اتخذت هذه الخطوة ؟ » اجبته على الفور « انني لا ادري لماذا ترددت طويلاً في اتخاذها » . لقد كان الملك عبدالعزيز ، هو العامل الموجه في هذه العملية كلها . ففي خريف عام ١٩٢٤ ، وبعد احتلال الوهابيين لمكة والطائف ، جئت الى جدة ، وأنا واثق من انتصار ابن سعود السريع ، وكنت عازماً على اتخاذ هذه الخطوة التي انتظرت بعد ذلك ست سنوات كاملة حتى اتخذتها . فلقد تأخر النصر ، وتلت ذلك سنوات من الجهد والعمل الشاق ، ولم يكن في غضون ذلك ، ليقبل مني هذه التضحية الظاهرة ، التي سأقدم عليها . أما الآن وقد انتصر ، وأصبح يعيش في سلام وهدوء ، ولم يعد في حاجة الى عون أي انسان ، ولكنه مع ذلك لم ينس ذلك الصديق ، الذي عرفه في أيام المحنة ، والذي رحب به الآن ، في هذه الصلة الوثقى الجديدة التي قدر لها ان تعيش ما تبقى من حياته » .

الا ترى معي أيها القارئ الكريم ، ان فيلبي باعترافه نفسه ، في هذه الفقرة التي نقلتها حرفياً من كتابه « اربعون عاماً في الصحراء » ، كان مدفوعاً الى الاسلام برغبة شخصية زمانية ، اكثر منها روحية سرمدية ، وانه انساق الى

الاسلام ، واعتنقه كما يعترف ، بدافع الحب الطاغي الذي كان يحمله لصديقه الملك عبد العزيز ، اكثر منه بدافع الايمان بحقيقة الاسلام وروحانياته ومثله السامية . فلقد ذكر انه عندما جاء الى الحجاز في عام ١٩٢٤ ، كان قد حزم أمره على اعتناق الاسلام ، ولكن الظروف التي كان الملك يمر بها ، هي التي اخرته عن اتخاذ هذه الخطوة حتى عام ١٩٣٠ . ولو كانت نيته الأولى نابعة عن ايمان عميق ، بأصول الاسلام وروحانيته ومثله ، لما انتظر هذه السنوات الست الطويلة ، متأثراً بعوامل زمانية شخصية ، ولأقدم على خطوته تلك ، غير مكترث بوضع الملك أو حالته أو الظروف التي يمر بها .

اتم فيلبي طوافه بالبيت العتيق ، ثم زار بئر زمزم ، وشرب من مائه ، وانتقل بعد ذلك مع دليله الى باب الصفا ، حيث قاما بالسعي بين الصفا والمروة ، وهما يتلوان الدعاء المعهود . وبعد ان سعيا سبع مرات ، وأديا ركعتين من جديد متجهين الى الكعبة ، عادا الى دارة عبدالله السليمان ، حيث قضى فيلبي تلك الليلة في رفقة مهندس بولوني مسلم يدعى فؤاد احمد سافيسكي كان مسؤولاً عن مشاغل الحكومة .

وفي صباح اليوم التالي ، وكان نهار جمعة ، استقبل فيلبي في الصباح احد كبار علماء المدينة وهو الشيخ عبدالله بن حسن ، الذي وفد ليهنئه على دخوله في جنة الاسلام ، وليعلمه اداء فريضة الجمعة ، التي تقرر ان يؤديها ظهر ذلك اليوم في الحرم الشريف .. وبعد الصلاة عاد الجميع الى دارة الوزير حيث تناولوا طعام الغداء ، وذكره الشيخ عبدالله بن حسن بالمرة الاولى التي لقيه فيها قبل سنوات صدفة على مقربة من بئر الحسيني على طريق المدينة المنورة ، حيث اعترض الشيخ على وجوده « بوصفه كافراً » في تلك الناحية . وأضاف الشيخ قائلاً : « كنت قبل اليوم ، اذا مت ، مضيت الى جهنم ، اما الآن ، واذا كان الله جل شأنه ، قد تقبل اسلامك ، على اساس انه نابع من القلب ، فستمضي الى جنان النعيم ، اذا حضرتك الوفاة » .

وقضى فيلبي يومه في مكة المكرمة يطوف انحاءها ، ويزور اصدقاءه ومعارفه

الكثر ، الذين ذهلوا من رؤيتهم إياه في المدينة ، بينما جاء آخرون لتهنئته لدى سماعهم بالنبأ . وعند المساء، استقلّ فيلبي وفؤاد حمزة السيارة في طريقهما الى الطائف ، التي وصلاها قبيل منتصف الليل .

ومضى في صباح اليوم التالي الى القصر الملكي ، ليقدم فروض الاحترام والولاء للملك . وأترك لفيلبي الآن وصف مقابلته الأولى له ، بعد اعتناقه الاسلام ، قال : « عندما دخلت القاعة ، كان جلالته مشغولاً في القضايا المعروضة عليه ليفصل بين الرعية في مشاكلهم ، فقطع الملك الجلسة ليرحب بي ترحيباً حاراً ، وأجلسني الى جانبه ، ثم واصل النظر في القضايا . وقال جلالته « انني مسرور للغاية يا فيلبي ، وليس ثمة في نجد من لا يشاطرني هذا السرور . حتى نساء الحريم قد سررن ، وعندما ابلغت نورا (شقيقة الملك) ، صفقت بيديها جذلاً وفرحاً . اسمعوا يا قوم ، لقد عمل فيلبي الكثير من اجلي ومن اجل قضية نجد . ولقد ضحى بالكثير في سبيلنا ، اذ اختلف مع سياسة حكومته بسببنا ، وتخلى تبعاً لذلك عن مناصبه الرسمية ، وكل ذلك ، من اجلنا على الرغم من انني لم اسد اليه أي صنيع . ولقد حدثني منذ امد طويل ، عن رغبته في اعتناق الاسلام ، وكنت أنا الذي احول بينه وبين تحقيق هذه الرغبة حتى يومنا هذا ، مع ان علماء نجد ، عندما اطلعوا على رسالة منه موجهة الي ، لاموني على ذلك ، وعلى وقوفي في طريقه . ولكن كانت هناك اسباب تدفعني الى ذلك ، ولا ريب عندي في انه قد فهمها وقدرها . وقد حلت اخيراً الساعة المؤاتيه ، والحمدلله ، وليس ثمة من هو احق بتقديرنا منه . ها هو الآن بين ظهرانينا ، وقد قيض الله جل شأنه له أن يطوف بالبيت العتيق ، وأن يسعى بين الصفا والمروة ، وأن يؤدي صلاة الجمعة في الحرم الشريف .. وجاء الأمير سعود لينقل اليّ تهنئته ، ثم دار الحديث عن الاسم الذي يجب ان يطلق علي ، واتفق اخيراً ، على ان يكون عبدالله ، فقد أراد لي الملك هذه التسمية » .

وأدى فيلبي في ذلك العام فريضة الحج لأول مرة في حياته .. وبعد غيبة دامت شهوراً عدة ، عاد الى جدة ، ليجتمع بأصدقائه ... وكان تعليق رايان

الوزير البريطاني المفوض ، على اسلام فيلبي ، بأنه عثر اخيراً ، بعد سنوات طويلة من الطواف الذي لا هدف له ، على الضالة التي يجب ان يتمسك بها ، والتي تشده الى الجزيرة العربية التي وقف لها نفسه . وتلقى رسالة من زوجته ، تقدر له موقفه وتعرب عن تفهمها الكامل لهذه الخطوة الحاسمة التي خطاها .

ويقول فيلبي انه أكد لاصدقائه القدامى الذين عرفوا فيه آراءه الفكرية والفلسفية ، انه باعتناقه الاسلام ، لم يتخل قط ، عن طهارته أو اخلاصه . ثم مضى يقول : « والاسلام عقيدة ذات سلطان ، ترتكز الى كلمات الله ، التي اوحى بها الى البشرية في القرآن الكريم ، والى سنة الرسول وأقواله . وقد ارتضيت دائماً بالتفسيرات التي اوردها العلماء وأئمة الدين ، لهذه الآيات الكريمة والاحاديث النبوية ، لاسيما وانهم قضوا حياتهم الطويلة في دراستها . أما دراساتي ونشاطي ، فقد اقتصرت على الحقل الدنيوي ، ولقد رأيت في ثمار هذه الدراسات ، من حصاد عميم ، وخير كريم ، ما مكنني من ان أرى حياتي لا تنقضي دون نفع او جدوى .

« أجل لقد وجدت في الاسلام ، وفي الجزيرة العربية ، نظاماً اجتماعياً سهلا وبسيطاً ، يتفق مع جميع مقتضيات الحياة الانسانية ، بينما كنت ارى في حضارة الغرب المادية ، مجالاً واسعاً للتيه والضياع في حدائق لا نهاية لها ، من الاصطناع والزخرف . ولقد رأيت بأم عيني ، كيف بدأت هذه الحياة البسيطة ، التي عشناها أول عهدنا بالصحراء تنقلب الى مظاهر صاخبة من الرفاهية والترف ».

وكان من المتوقع ، بعد أن اصبح فيلبي ، عضواً في المجتمع الاسلامي ، الذي يحيط بالملك عبدالعزيز ، وواحداً من الجماعة ، في كل شيء ، أن يعهد اليه بعمل رسمي ، في حكومة ابن السعود فقد زال الحاجز الذي كان يقف حائلاً دون ذلك في حكومة اسلامية كالحكومة السعودية . وهذا ما وقع بالفعل . فقد عرض عليه ، الملك عبدالعزيز ، ان يصبح ركناً عاملاً من أركان حكومته ، ولكن فيلبي رفض هذا العرض ، وأصر على الاحتفاظ بالدور

الذي يمثله من وراء ستار ، وهو دور المستشار والناصح الأمين ، اذ ان قبوله بالمنصب ، قد يضاعف من شكوك الناس ، في حقيقة اسلامه ، وهي شكوك ظلت قائمة من اللحظة الأولى ، التي دخل فيها الى الحظيرة الى اليوم الاخير من حياته . وخشي ان يؤدي ، تعيينه في احد المناصب ، الى قول الناس بأنه ما اعتنق الاسلام إلا طمعاً في مال أو جاه ، وهما حقاً لم يكونا قط دافعاً في هذه الخطوة الحاسمة التي خطاها .

وأترك لفيلبي نفسه ، ان يصور لنا ، حادث العرض والرفض ، فلعل في تصويره ، ما يكشف عن بعض الحقائق الخفية التي يستطيع المؤرخ ، استخلاصها من بين السطور . قال : « كنا في ذات ليلة ، من هذه الليالي الممتعة ، التي نجلس فيها الى حضرة الملك ، بعد وصولي الى الطائف مباشرة من مكة بعد اعتناقي الاسلام . اثار الملك موضوع مستقبلي ، كأحد رجال حاشيته وأتباعه ، على الرغم من عدم اكتسابي جنسية بلاده . وقال ، رحمه الله : « يجب ان نعثر لفيلبي على منصب ، فنحن احوج ما نكون الى رأيه ومشورته في الكثير من القضايا ، فما رأيكم جميعاً » . ودار همس بين الحاضرين ، وكأن الجميع ينتظرون ان يبدأ الملك بالاقتراح ، عندما تدخلت في الحديث ، لأقضي على هذه الفكرة وهي في مهدها فقلت انني لأقدر يا صاحب الجلالة عظيم عطفك ورعايتك ، وسيسعدني بل ويشرفني ان اقدم لجلالتكم ولحكومتكم كل خدمة استطيع أن اقوم بها ، ولكن في مكنتي ان اؤدي مثل هذه الخدمات كصديق بطريق افضل مما اقدمها فيه كموظف رسمي . ثم تصور ما سيقوله الناس ، اذا اعطيتني منصباً . انهم سيقولون بأن فيلبي اعتنق الاسلام طمعاً في المنصب والراتب. أجل انهم سيقولون ذلك ، على الرغم من عدم صحة ما يقولون ، ومن الخير ان لا نعطيهم الفرصة ليقولوا ذلك . ان في وسعي ان أخدم جلالتكم وأنا اعمل في حقل التجارة، وعن طريق ما اكتبه ، بينما تظل مشورتي رهن أمركم ، وطوع إرادتكم . وكان ما في قولي من قوة المنطق ، كافياً لإسكات الملك ، وهكذا أنهيت هذا الموضوع مرة واحدة والى

الأبد . وعلى الرغم من اشارات بعض الصحف ، فإنني لم أحتل أي منصب رسمي في الحكومة السعودية ، مع اني منذ تلك اللحظة اصبحت عضواً في بطانة الملك المقربة وفي مجلس الملك الخاص ، الذي يجتمع كل مساء لدراسة المشاكل العالمية عامة ، والقضايا العربية خاصة . وقد قارن الملك مرة ، مجلسه الخاص بالبرلمان البريطاني ، فقال : « الا ترون اننا نناقش الأمور هنا بحرية ديموقراطية كاملة ، ولدينا دائماً جبهة رسمية للمعارضة يمثلها فيلبي » . وكثيراً ما تقال بعض الحقائق على طريق المزاح وهذه الحقيقة التي أفضى بها الملك من هذا النوع ، فاذا كنت قد تمكنت من خدمة حكومة ابن السعود والملك نفسه ، فذلك لأنني لم اتردد لحظة واحدة ، في انتقاد اعمالها وتصرفاتها ، عندما ارى ما يستوجب النقد . وفي تفسير التطورات الدولية على الشكل الذي أراه ، دون خوف او احجام .

« ومع ذلك ، واجهت بعد أيام مشكلة جديدة ، كان عليّ ان احلها ، وهي تتناول وضعي الخاص ، في الجهاز العربي السعودي . فقد جاءني وزير المالية ، يزورني في المنزل الذي اعده الملك لسكناي ، وقال : « لقد امرني جلالة الملك بأن ادفع لك مرتباً شهرياً ، قدره خمسون جنيهاً ذهباً ، لتغطية نفقاتك الطارئة » . فقلت على الفور : « انني لشاكر ابلغ الشكر لجلالة الملك ، عطفه وكرمه ، ولكنني لست في حاجة الى المال حقاً ، وارجو ان أعفى من قبول هذا الراتب ، اذ ليس في وسعي ، أن أقبل بأن يظن الناس بأنني انتفعت مادياً من اعتناقي الاسلام » .. قال الوزير : « هذا كلام فارغ ، على كل حال ليس في وسعك ان ترفض عطاء الملك ، فهذا مستحيل » . فقلت : « كلا ، لن اقبل ، انني على استعداد لتنفيذ كل ما يأمره الملك ، الا هذا ، فليس في وسعي ان اقبل المال . حقاً لا استطيع قبوله ولن اقبله » .. قال الوزير : « لا تكن سخيفاً ، على كل حال ، لقد امرني الملك بأن ادفع لك ، وسأدفع اطاعة لأمره » .. قلت « ولكن الأمر ليس على هذا النحو من البساطة كما تظن . فماذا يحدث إذا رفضت ، وهذا واقع حتماً . في وسعك ان تقدم المال وسأرفضه ، وليس

في وسعك ان ترغمني على قبوله » .. وثار عبدالله السليمان عند هذا الحد وقال « حسناً اذا لم تأخذ المال . فسأطيع امر الملك ايضاً ، وسأقيد المبلغ على حسابك في دفاترنا شهراً بعد شهر ، وفي وسعك ان تأخذه او ترفضه » ، فقلت : « حسناً في وسعك ان تعمل هذا . ولكنني اود ان اؤكد لك ، انني لن آخذ فلساً واحداً منه » . وهكذا سوّي هذا الموضوع ايضاً . وكل ما اعرفه ان المبالغ قد سجلت لحسابي منذ ذلك التاريخ حتى اليوم ، ولكنني لم ألمس منها ريالاً واحداً » .

وهكذا انتهت هذه المرحلة الجديدة من حياة فيلبي ، باعتناقه الدين الاسلامي دون ان يتخلى عن جنسيته البريطانية ، وهو أمر قد يدل على ان شعوره القومي كان أقوى بكثير من احساسه الديني . وقد لا ارى حاجة الى التشكيك من جديد في حقيقة اسلام فيلبي ، اذ ان هذه قضية متروك امرها الى العلاقة بينه وبين ربه ، الذي يطلع على حقيقة النوايا ، فالاسلام في جوهره ، يرتكز على النوايا لا على الظواهر ، وهذا ما يفسره القول المأثور دائماً بعد اداء كل فريضة من صلاة أو صوم او حج أو زكاة ، « تقبل الله منك » ، اذ لا يكفي بالنسبة للمسلم ان يؤدي الفريضة ، بل يتحتم عليه ان تكون نيته صادقة في ادائها ، وهذا أمر لا تقرره الا العلاقة بين الانسان وربه ، ولعل الشيخ عبدالله بن حسن كان صادقاً كل الصدق ، عندما قال لفيلبي فور اسلامه « اما الآن ، واذا كان الله جل شأنه قد تقبل اسلامك ، على أساس انه نابع من القلب .. »

ومهما كانت نية فيلبي في اسلامه ، فليس في وسعي أن امر بهذا الموضوع وأن اختم الحديث عنه ، دون الاشارة الى ان أقوال فيلبي في الاسلام ، وهي التي سردت غالبها ، ان لم يكن كلها في هذا الفصل ، لا تنطوي على فهم عميق لحقائق الاسلام وفلسفتها ، كما جاء في اعترافه هو ، اذ كان يتقبل آراء العلماء ، وتفسيراتهم لها على علاتها ، دون ان يفكر بها تفكيراً فلسفياً ، وعلى اساس الجدل المنطقي ، وهو أمر يتعارض مع شخصية فيلبي نفسه ، الذي عرف بتعمقه في بحث الأمور وفلسفتها ، على ضوء معلوماته وتجاربه .

وقد يصح هذا الرأي الذي أورده فيلبي في قبول آراء العلماء وتفسيرهم دون مناقشتها على الانسان الذي يولد مسلماً ، ويقتنع بحكم مولده بصحة الدين الذي نشأ عليه . فلا يرى ضرورة لفلسفة هذه الآراء ، واختبارها على ضوء معرفته وتجاربه ، اما بالنسبة الى انسان آخر كفيلبي ، نشأ في بيئة مسيحية متزمتة كما وصفها هو بنفسه في مطلع أمره ، ودرس دراسة عالية ، في أرقى الجامعات ، وخبر شؤون الدنيا فعركها وعركته ، وكانت له آراء فلسفية في مختلف القضايا وهو ما سنتناول بحثه في فصل خاص ، فليس من المعقول ، ان يقبل على الاسلام مثل هذا الاقبال ، دون ان يناقش خطوته هذه ، مناقشة فلسفية عميقة تبرهن للناس الاسباب الروحية العميقة التي دفعته الى هذا الاختيار . وهذا أمر افتقر اليه فيلبي ، ولم اعثر له على بيان واضح في جميع ما كتبه وألفه ، اللهم الا اذا اعتقد ، بأن مجرد القول بأن الاسلام قد استهواه ، ببساطته منذ أيامه الاولى في الهند ، برهان كاف يستطيع ان يقنع به الكثيرين من الذين شكوا في حقيقة اسلامه ، ودوافعها ، منذ البداية حتى النهاية .

ولعل فيلبي كان يدرك تمام الادراك هذه الشكوك ، وكان كثير الحساسية بالنسبة لأقوال الناس ، وهذا ما حمله على رفض المنصب ، والراتب ، كما رأينا قبل قليل ، بدافع الخوف ، من أن يصم الناس اقباله على هذه الخطوة بالانتهاز ، والرغبة في المال أو الجاه . لكن حساسيته الشديدة هذه ، لم تكن في الوقت نفسه حافزاً له ، على تبرير خطوته تبريراً فلسفياً وروحياً كافياً ، للصمود أمام آراء المتشككين . وهو ما يدفع كل مؤرخ منصف الى الوقوف موقف الحائر ، من هذا الموضوع تاركاً الأمر في النهاية الى حقيقة العلاقة القائمة بين فيلبي وربه ، على ضوء نيته ، وعلى ضوء الحديث النبوي الشريف : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

١٠

تاجر السيارات ..

قضى فيلبي الثلاثين سنة الاخيرة من حياته في المملكة العربية السعودية ، يعمل في حقل التجارة ، بالاضافة الى الدور غير الرسمي الذي كان يمثله كمستشار للملك عبدالعزيز ، في مختلف الشؤون والقضايا التي اسهبنا في الحديث عنها في الفصول السابقة ..

وقد بدأ اتصاله بالحقل التجاري ، بتلك المقابلة العارضة التي وقعت له في الشارع مع المستر فيشر ، والتي أسفرت عن تأسيس الشركة الشرقية ، في جدة . فبعد ان حصل على الاذن اللازم من الملك عبدالعزيز ، لتأسيس هذه الشركة ، طرح اسهمها في السوق ، وكانت برأسمال قدره خمسة وعشرون ألف جنيه موزعة على خمسين ألف سهم ، اعطي له منها خمسة آلاف سهم ، مقابل اتعابه ، مع مرتب شهري قدره مائة جنيه في الشهر ، كمدير عام مقيم للشركة في المملكة العربية السعودية .

وقد تمت تغطية الاسهم في غضون بضعة أيام ، اذ ابتاعها اصدقاء فيشر ، وشركاؤه في مختلف أعماله التجارية . ويبدو ان هذه الشركة ، التي سنشير الى بعض ما قامت به من نشاط في العربية السعودية ، قد حققت نجاحاً منقطع النظير في الحقل التجاري والاقتصادي . فقد ذكر فيلبي نفسه ، انها كانت

في غضبون الاعوام التي سبقت الحرب الكونية الأولى ، قد قامت بأعمال تربو قيمتها المالية على المليون جنيه ، ووزعت ارباحاً زادت على رأس المال المدفوع بكثير ، بالاضافة الى ما احتجزته من رساميل احتياطية احتفظت بها لتوسيع نشاطها في المجالات الاقتصادية .

بدأ فيلبي عمله التجاري الجديد بعزم وقوة في عام ١٩٢٦ ، لا يضاهيهما الا ما اتصفت به اعماله السياسية من سابقة ولاحقة ، من اندفاع وعزم . فقد استأجر فور عودته من رحلة قصيرة الى انكلترا لاستكمال الاجراءات التمهيدية الضرورية ، محلاً كبيراً في الزاوية الجنوبية الغربية من مدينة جده ، يدعى بيت الدرويش ، وجعل منه مركزاً لشركته الجديدة ، التي اخذت بفضل ما لفيلبي من علاقات وثيقة بالملك عبدالعزيز ورجال حكومته ، وما يتصف به فيلبي نفسه من ذكاء لماح وقدرة على الاقناع ، توطد أقدامها في الحقل الاقتصادي فحصلت على وكالة مصانع فورد لإنتاج السيارات في البلاد كلها ، وأخذت تزود الأسواق بسيارات فورد الجديدة ، التي سرعان ما أخذت تنافس شركة « جنرال موتورز » بسياراتها « الشيفروليه » الفارهة ، المترفة . كما شرعت في بيع آلات المسح ، وأدوات الهندسة ، بالاضافة الى المراوح ، التي تعمل على الغازولين .

وتمكن فيلبي من الحصول على تعهد من الحكومة لصك عملتها الفضية والنيكليه الجديدة في مسابك برمنغهام ، فجنت شركته من هذا التعهد ارباحاً ضخمة ، كما حصل على مناقصة لتزويد مشروع المياه في جده ، بالفحم الحجري الذي كان يستورده من بريطانيا .

ويصف فيلبي هذه المرحلة التأسيسية في حياة شركته بقوله : « وبالاختصار بدأنا نثبت أقدامنا في الأسواق المحلية ، على الرغم من الطريق الطويل الشاق ، الذي كان علينا ان نقطعه ، لتغطية جميع نفقاتنا التأسيسية ، حتى نتمكن من تقديم الارباح للمساهمين . وكنت اقضي طيلة وقتي في هذه الأعوام الأولى متجولاً في الأسواق ، وطائفاً بالوجوه والتجار ، لأحصل على المعلومات

اللازمة عن اوضاع المدينة الأقتصادية والأجتماعية ، لاسيما في هذه السنوات التي اخذت تنمو فيها نمواً عجيباً ، وتزدهر تجارتها ازدهاراً سريعاً » .

وبدأت سيارات فورد الجديدة ، تتدفق على جدة في مطلع عام ١٩٢٩ ، لتنافس سيارات الشيفروليه المسيطرة على السوق . وأدى توسع الاعمال التجارية في الشركة ، الى انتقال مركزها ، من بيت الدرويش الى بيت البغدادي ، وهي عمارة ضخمة قديمة البناء ، تقع على شاطىء البحر ، وتنطوي على مساحات فسيحة من الارض ، وكانت في يوم ما مقراً للوالي التركي في الحجاز .

ويقول فيلبي ، ان موظفيه في هذه الفترة كانوا مجموعة من الرجال العاملين النشيطين ، وفي طليعتهم نويل براون ، الذي كان يعمل مديراً ومحاسباً وريشارد هاني ، الذي كان يعمل مهندساً ، وقاضي ، وهو هندي ، أوكل اليه رئاسة الكتبة ، وأعمال المحاسبة والصندوق . بينما كان مصطفى ناضر يقوم بأعمال ضابط العلاقات العامة ، وتخليص البضائع من الجمارك ، والاشراف على الاسواق المحلية . وقد اتاح له هؤلاء الموظفون الاكفاء ، الفرصة للراحة ، وكثرة التجوال ، واللحاق بركب الملك ، بين آونة واخرى ، معتمداً على قدرتهم على تسيير العمل ، بنجاح ، والمضي به في طريق الازدهار .

وبدأ الملك عبدالعزيز في عام ١٩٣٠ ، يفكر تفكيراً جدياً في تحسين سبل المواصلات السلكية واللاسلكية في بلاده . فعهد الى فيلبي بإجراء دراسة شاملة ، لإمكانية اقامة حلقة من المحطات اللاسلكية في البلاد ، وتقدير تكاليفها . فاستدعى هذا مندوباً من شركة ماركوني ، قام بالمفاوضات اللازمة لعقد الصفقة ولم يحل عام ١٩٣١ ، حتى كانت الاجهزة التي بلغت اثمانها ٣٦ ألف جنيه تصل الى جدة ، يصحبها مهندسان ، احدهما مصري والآخر انكليزي ، لإقامة المحطات في المواقع المقررة .

وقد تقرر اقامة محطة لاسلكية ، بقوة خمسة كيلواط ، في كل من مكة والرياض ، واثنتي عشرة محطة اخرى بقوة نصف كيلواط في عواصم الاقاليم والامارات المختلفة ، مع محطتين متنقلتين ، قوة الواحدة منهما نصف كيلواط ،

لمرافقة الملك في رحلاته . وكان في البلاد عدد من الاجهزة القديمة ، التي ورثها ابن السعود عن العهدين التركي والهاشمي .

وبدأت شركة ماركوني بالتعاون مع شركة فيلبي (الشرقية) في اجراء التجارب على الاجهزة الجديدة ، واعطيت الاولوية للجهازين المتنقلين ، فنقل احدهما الى مكة تحت اشراف ابراهيم الكردي المهندس المصري ، بينما ظل الآخر في جده ، تحت اشراف بوروديل المهندس البريطاني . ونجحت التجربة بين مكة المكرمة وجدة ، ولكن محطة الاستقبال في المدينة المنورة لم تستطع التقاط الاشارات ، مما حمل ، وزير المالية ، على الاعتقاد بأن الاجهزة ، وقد ضمنت ماركوني التقاط اشاراتها في دائرة نصف قطرها ٢٥٠ ميلاً ، غير صالحة ، ولا تنطبق عليها المواصفات المطلوبة . وشكا الوزير ايضاً من ان آلات « دوغلاس » الموجودة في هذه الاجهزة لا تستطيع العمل باستمرار اكثر من ساعتين ، بينما يشترط ان يستمر العمل في الحجاز ثماني ساعات ولاسيما في اشهر الصيف ، عندما يكون الملك ، في المنطقة .

ويقول فيلبي : « وبدأت اسمع في مجلس الملك الخاص ، بعض الملاحظات الواضحة من الملك نفسه ومن وزير المالية ، تعليقاً على تقرير قدمه انسان جاهل من الناحية الفنية وكان يشغل منصب المدير العام للبرق والبريد . وعندما عدت الى مكة المكرمة سمعت من يقول ، بأنني قد بعت للحكومة اجهزة غير صالحة ، وكانت الاتهامات تنهال عليّ من كل جانب ، حتى من الملك نفسه الذي غضب غضباً شديداً .

« وكنت ارد على هذه الاتهامات قائلاً ان الخطأ لا يقع في الاجهزة نفسها بل في عجز الموظفين الذين عينوا ، لاستخدام هذه الاجهزة . وقابلت الملك ، ورأيته في حالة هياج عنيف ، ولكنني صمدت للموقف وقلت: « ان هذه الاجهزة ، تصلح للبث الى مسافة ألف ميل ، في الاوضاع العادية المعقولة ، وأنني ارجو من جلالتكم ، ان تتيحوا لي الفرصة ، لأبرهن لكم على صحة قولي . اسمحوا لي ، ان آخذ مع المهندس كردي ، احد الاجهزة ، الى المدينة

المنورة .. » ، فقاطعني الملك ساخراً بقوله : « ماذا ... هل تطلب شفاعة الرسول لتحمل اجهزتك الفاسدة على العمل ؟ » .. قلت « لا ، انها ستعمل بنجاح ، باذن الله . دعنا نأخذ احد الجهازين الى المدينة ويظل الثاني في جده . واذا نجحت التجربة ، نقلنا جهاز المدينة الى العلا (على بعد اربعمائة ميل من جدة) ، ومنها الى تبوك (على بعد ألف ميل) أو الى أي مكان آخر ترضاه . أما بالنسبة الى الاجهزة ، فإنها لن تعمل ، الا اذا عني بها كل العناية ، وإذا سمحتم جلالتكم فاخترتم لجنة خاصة لاتخاذ القرار في هذا الموضوع ، على ان تأمروا اعضاءها بالبقاء الى جانب الأجهزة ، حتى يتأكدوا من أعمالها ، فأنا واثق من انكم سترضون عن النتيجة » . وانتهى الحديث في وضع ساخط صاخب ، ولكن الملك عاد في الصباح فقبل باقتراحي .

« وسمح الملك لنا بالذهاب الى المدينة المنورة .. ونجحت التجربة التي شهدتها اللجنة ، برئاسة عبدالله السليمان وزير المالية . واستمر الجهاز في العمل ثماني ساعات متوالية ، وأراد اعضاء اللجنة الانصراف ، ولكنني عارضت ، ومضيت بالتجربة الى نهايتها ، حتى عملت الاجهزة ست عشرة ساعة متوالية .. ورضي الملك عنها .. »

وتمكن فيلبي في عام ١٩٣٣ ، من الحصول على امتياز من الحكومة السعودية باحتكار استيراد السيارات للمملكة ، لشركة فورد التي يمثلها . وهكذا تمكن اخيراً وبعد اربع سنوات من الجهد المتواصل ، من القضاء على منافسة سيارات « شيفروليه » . ويؤكد فيلبي ، ان اقتراح الاحتكار ، صدر عن الملك عبدالعزيز نفسه ، ووافقت الشركةبدورها ، على تزويد الحكومة بكل ما تحتاج اليه من سيارات، على ان يكون الدفع نسيئة وعلى اقساط . وقد اضطر فيلبي في السنة الأولى من الحرب الكونية الثانية الى التخلي عن الاحتكار ، بالنظر الى عجز الشركة عن الوفاء بالتزاماتها ، كما توقف منذ ذلك التاريخ عن تمثيل الشركة في المملكة العربية السعودية .

وحصلت شركة فيلبي على وكالة شركة سوكوني ، لبيع الكيروسين (الكاز)

والبنزين في البلاد العربية السعودية . ويروي على سبيل الدعابة في احد كتبه ، ان وزير المالية ، حاول اقناع شركة شل ، بعرض اسعار ، اقل من اسعار سوكوني ، جاهلاً او متجاهلاً للحقيقة الواقعة وهي ان شركات الزيت الكبرى متفقة على تحديد اسعارها ، وعلى تقسيم الأسواق العالمية المختلفة .

ويروي فيلبي ايضاً ان عبدالله السليمان ، كان مهتماً أبلغ الاهتمام بإدخال بعض المصارف الاجنبية ، الى الأسواق السعودية لمنافسة المصارف البريطانية التي كانت تمثلها شركة « غيلاتلي هانكي وشركاه » ، في مدينة جده . فاقترح على فيلبي ان يقوم بالتفاوض مع مصرف « الكريدي فونسييه » ، لتأسيس فرع له في جدة ..

ويبدو ان ميدان التنافس بين الشركات الاجنبية ، قد أصبح مورداً من موارد الاستغلال ، بالنسبة الى الكثيرين الذين يعملون على تنمية ثرواتهم عن هذا الطريق . فقد روى فيلبي ، ان وزارة الدفاع السعودية طرحت في السنوات الاخيرة مناقصة لمشروع ضخم يقضي بتزويد الوزارة بعدد كبير من السيارات من مختلف الأنواع في فترة تمتد عشر سنوات ، وتبلغ قيمتها ملايين الجنيهات ، وان الشركة التي يمثلها فيلبي قد اشتركت في المناقصة ، وأوفدت ممثلاً عنها الى وزارة الدفاع للتثبت من شروط المناقصة . ويضيف ان اللجنة الفنية التي عهد اليها بإقرار المناقصة ، قد أبلغت الممثل ، ان عرضه يجب ان يتضمن ٢,٥ في المائة كعمولة للجنة نفسها . وقد رفض فيلبي القيام بهذا العمل . فخسر المناقصة التي حصلت عليها شركة اخرى : بدأت سياراتها تصل الى البلاد قبل ان يغادرها في عام ١٩٥٥ .

وفي غضون ذلك ، كانت الشركة الشرقية ، التي مثلها فيلبي هذا الردح الطويل من الزمن ، وكسب لها ارباحاً طائلة ، وزعت على المساهمين ، قد اندمجت في شركة أوسع منها وأضخم اسمها شركة « ميتشل كوتس وشركاه » حصل لها فيلبي من الملك عبدالعزيز نفسه ، على الترخيص اللازم للعمل . وكانت المفاوضات لهذا الادماج ، قد دارت بينه وبين المستر ليونارد الدريش المدير

العام للشركة في جلسات عقداها في كل من القاهرة ولندن ، بعد ان رأى فيلبي ان اتساع الأعمال الاقتصادية في المملكة ، قد أصبحت تتطلب ادماج شركته الصغيرة ذات الرأسمال المتواضع في شركة كبيرة كشركة ميتشل كوتس ، لها رأسمال ضخم ، وتتمتع بسمعة عالمية ، وتنتشر مصالحها في اكثر من جزء من أجزاء العالم .

وقد مثلت شركة ميتشل كوتس ، عدداً من الشركات الهندسية الانكليزية الضخمة وبينها شركة « غيلاتلي هانكي » التي تمكن فيلبي من الحصول لها على امتياز لإنشاء خط ضخم لأنابيب المياه يمتد خمسين كيلومتراً ، لايصال مياه ينابيع وادي فاطمة الى مدينة جده . وقد قدرت تكاليف هذا المشروع بربع مليون جنيه انكليزي ، ما عتم ان ارتفع قبل اكمال المشروع ، اذ تبين ان تزويد المدينة بثلاثة ملايين غالون من الماء في اليوم لم يعد كافياً لاحتياجات المدينة النامية ، وسرعان ما تقرر اقامة خط انابيب آخر ، لاسيما وان عدد سكان جدة قد ارتفع من ثلاثين ألفاً في أيام الحكم الشريفي الى ثلاثمائة ألف بعد الحرب الكونية .

ويروي فيلبي حادثاً آخر ، وقع اثناء خروج الملك عبدالعزيز الى مخيمه في بريده عام ١٩٤٧ . فقد ذكر ، ان الملك كان قد مل من خيامه التي اصبحت قديمة بالية ، فبعث الى وكيله في الكويت ، يأمره بالاستعلام عن امكان شراء خيام جديدة لمضاربه . وكانت الاسعار التي بعث بها الوكيل مرتفعة للغاية ، فطلب الى فيلبي مساعدته في الموضوع . وكانت شركة فيلبي ، تقوم بأعمال الوكالة لمصانع الخيام في موير في مقاطعة كاونبور في الهند ، وسرعان ما أبرق الى المصانع طالباً سعراً لألف خيمة كبيرة ، فجاءه السعر ، يقل عن نصف ما طلبه وكيل الكويت . ويمضي فيلبي قائلاً : « وحصلت على العرض ، وقررت منعاً لأي خطأ ان امضي بنفسي الى كاونبور ، لأشرف على انتقاء الخيام ووضع تصميمها . ووافق الملك على سفري ، فغادرت العربية السعودية الى دلهي بطريق القاهرة فالبصرة فكراتشي . وقضيت نحواً من شهر في زيارة

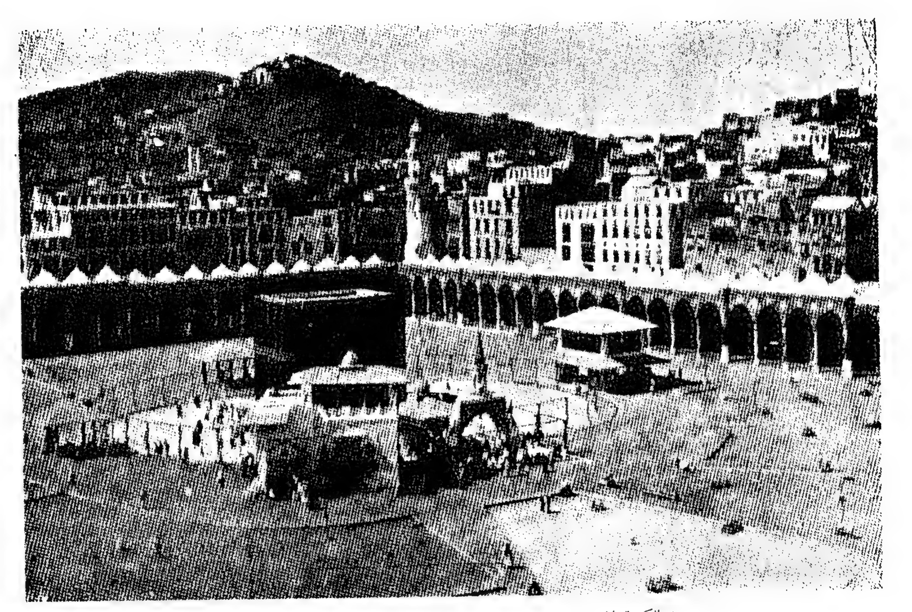
كاونبور ، وشهدت ولادة الدولتين التوأمين الهند والباكستان ، اللتين كنت من أول المطالبين بإنشائهما واستقلالهما . وكنت احمل رسائل توصية من الملك عبدالعزيز الى اللورد مونتباتن والبانديت نهرو ، وزير الشؤون الخارجية ، وقد ذكرني نهرو بأننا كنا زملاء في كمبردج ، كما اجتمعت الى مولانا ابوالكلام ازاد ، الصديق القديم الذيعرفته في كلكتا ، والى محمد علي جناح وعدد من مساعديه . وكان الزعيم الوحيد الذيلم اجتمع اليه في هذه الزيارة هو المهاتما غاندي نفسه »

* * *

هذا هو فيلبي التاجر ، الذي اشتغل بتجارة السيارات ، وتجارة اجهزة اللاسلكي ، والخيام ، والبنزين والكاز ، واشترك في المناقصات والتعهدات ، ومثل أكثر من شركة ، ومن وكالة من شركات بريطانيا الهندسية وغير الهندسية ، وكان حرياً بانسان كهذا عمل في الميدان التجاري اكثر من ثلاثين عاماً ، في سوق خام ، كسوق المملكة العربية السعودية ، عندما بدأ فيلبي العمل فيها ، وتمتع بعطف سيد هذه المملكة ومنشئها ، وبصداقة وزرائه ومستشاريه وكبار رجال دولته ، واحتكر استيراد السيارات مدة طويلة من الزمن ، ان يصبح ثرياً ومن ارباب الملايين الضخمة التي لا تعد ولا تحصى ..

لكن فيلبي ، خرج من المملكة العربية السعودية بعد هذه الأعوام الطويلة ، لا يملك ، من حطام الدنيا اكثر مما يملكه اي انسان عادي ، وذلك باعترافه واقراره .

قال فيلبي في الصفحة ٢٢٨ من كتابه « اربعون عاماً في الصحراء » ما يلي : « يقولون عني انني خرجت من العربية السعودية ، وأنا اغنى رجل فيها ، لكن هذه ليست الحقيقة ، وفي وسعي ان ابرهن على بطلان هذا القول بسهولة ويسر . فعندما غادرت الرياض . كان معي احد عشر صندوقاً من الكتب ، وسيارة لاندروفر مستعملة ، وخيمة صغيرة ، وجهاز راديو يعمل على البطارية ،



صورة الكعبة المشرفة – ويبدو فيها الحجر الاسود ، ومن ورائها بيوت مكة
كما ظهرت في عام ١٩٣٠ عندما دخل فيلبي جنة الاسلام



صورة تاريخية لتوقيع اتفاقية الزيت عام ١٩٣٣ التي كان لفيلبي دور كبير في التوصل اليها بين الحكومة السعودية وشركة ستاندارد اويل كاليفورنيا

في الصورة وزير المالية السعودية الشيخ عبدالله السليمان وممثل الشركة المستر هاميلتون يوقعان الاتفاقية

وقد بعت هذه الاشياء الثلاثة الاخيرة في المفرق بمائة جنيه . وقد تركت في منزلي في مكة نحواً من عشرين صندوقاً من الكتب ، تولت السفارة البريطانية في جدة جمعها ، واعدادها لشحنها الى بيروت . ولعل هذه الكتب هي أثمن ما ملكته في حياتي . وكل ما تركته في السعودية لا يعدو بعض المتاع والاثاث في منزليّ في الرياض ومكة ، وبعض الخيام ، وثلاث سيارات ، وسيارة شحن ، وبعض الامور التافهة الاخرى التي اكون ممتناً لو بيعت بأي ثمن . ولا يعدو ما أملكه في الرياض بيتاً أهداه لي جلالة الملك الراحل ، وقد قدر ثمنه بعشرة آلاف جنيه قبل ثمانية أعوام . وقد يبلغ ثمنه الآن ضعف هذا الرقم ، الا إذا شاءت بلدية الرياض هدمه ، لتنظيم شوارعها .

« حقاً لقد أضحى جميع اصدقائي القدماء من اصحاب الملايين ، ولهذا كان من المفروض ، وإن كان الفرض خاطئاً ، ان اصبح واحداً منهم . لكن الحقيقة ليست على هذه الصورة . لقد غادرت الرياض لا املك نقداً اكثر من ثلاثمائة جنيه ، وكان رصيدي في البنك الهولندي في جده ، لا يعدو ٩٦٧ جنيهاً ، كما تسلمت ١٢٧٠ جنيهاً من شركة ميتشل كوتس ، هو كل ما تبقى لي من رصيد عندها . ويبلغ رصيدي في بنك باركليس في القاهرة ٥١٣ جنيهاً ، وفي بنك لويد في لندن ٥٠٦ جنيهات ، فيبلغ مجموعها كلها (٣,٥٥٦) جنيهاً .

« وأملك بالاضافة الى كل هذا ما قيمته الف جنيه من سندات الدفاع البريطاني بينما املك سندات في البنك الاهلي المصري بقيمة ٤٤٧٠ جنيهاً وبوليصتي تأمين ، مجموع قيمتهما ألف وخمسمائة جنيه .

« انني اتحدى كل انسان ان يظهر انني املك غير الذي ذكرت ، وأنا على استعداد لمنحه ما يظهره حلالاً طيباً ، باستثناء البيت الذي اشتريته في لندن بعد الحرب الكونية الأولى ، والذي نقلت ملكيته ، طوعاً مني واختياراً ، الى كريماتي الثلاث اللائي يتقاضين منه دخلاً سنوياً يبلغ ستة وتسعين جنيهاً في السنة .

« هذه هي نتائج عمر يبلغ الخمسين عاماً من الجهاد المستمر . وهي اذا ما قورنت بثروات صغار الموظفين ، في اية دائرة سعودية تبيّن لي انني قد

اضعت عمري على حد تعبيرهم . ولكنني راض بما املك ، قانع بما حصلت عليه ، وهو في حد ذاته ، كاف ليؤمن لي عيشاً بسيطاً هانئاً لما تبقى من سنوات عمري » .

ماذا نستنتج من كل هذا ؟ لا ريب عندي في ان فيلبي ، صادق كل الصدق ، في ذكر ثروته وحسابها ، وهي كما قلنا ، من التفاهة الى حد كبير لا يتناسب مع هذه السنوات الطوال من العمل، في الحقل التجاري ، في مكان كالمملكة العربية السعودية . كان خاماً يرتاده الراكضون وراء الذهب ، فيجمعون في سنوات قليلة اضعاف اضعاف ما جمعه فيلبي في عمر طويل .

اذن ، هل كان فيلبي تاجراً جاهلاً وفاشلاً ؟ كلا وألف كلا ، لقد كان من اذكى الناس وأكثرهم نجاحاً ، وأوثق التجار اتصالاً بالمسؤولين ، ولكنه كان منصرفاً عن التجارة وجمع الأموال الى أمور اكثر اهمية ، بالنسبة له . وقد حمله انصرافه هذا ، وتعلقه بالفكرة الواحدة التي كرس لها حياته كلها ، والتي جعلناها موضوع هذا الكتاب ، كما سبق في الفصول السابقة ، على تجاهل جميع الاساليب التي يلجأ اليها التجار عادة في تكديس الثروات وجمع الأموال الطائلة ..

ولو لم يكن فيلبي ، منصرفاً الى خدمة هذا الهدف ، والتعلق بتلك الفكرة لكان الآن ، ولكان اولاده من بعده ، من كبار اصحاب الملايين الذين يشار اليهم بالبنان .

١١

جوّابُ البَوادي ..

ليس هناك من رجل طاف بالجزيرة العربية ، نجودها ووهادها ، بواديها وقفارها ، سهولها وجبالها ، مدرها ووبرها ، كما طاف بها فيلبي . ولا يقتصر هذا الاطلاق على الاجانب اوالاوروبيين ، بل يتعداه حتى الى العرب انفسهم . فقد كانت ملكة الطواف والترحال جزءاً من كيانه وعنصراً اساسياً من عناصر وجوده . واذا كان فيلبي السياسي ، الفذ ، الذي اقام الامبراطوريات وشيد دعائمها ، ونفذ سياساتها ، وأطاح بالعروش وأقامها ، قد انطوت صفحته ومضى مع الزمن الى عالم الفناء والنسيان والاهمال ، فان فيلبي الرحّالة الذي جاب مجاهل الجزيرة العربية ، وطاف بجميع بواديها وقفارها ، ودرس اوضاع الحيوان والطير فيها ، ونقّب عن آثارها المطمورة الدفينة ، وكتب عنها المجلدات الضخمة ، والكتب التي لا تبلى مع الزمن ، خالد ، ما خلّد الدهر ، وما بقي هناك تقدير لعلم ، او اجلال لمعرفة

أجل لقد قضى فيلبي ، اكبر مدة من حياته الطويلة التي قضاها في الجزيرة العربية ، يطوف براريها وقفارها ، محتملاً شظف العيش فيها ، ووعثاء الترحال والسفر ، ومتاعب الحر والقر ، ليدرس أوضاعها الجغرافية والحياتية . المناخية والتاريخية والانسانية ، وليسجل دراساته في اسفار ضخمة ، تعتبر من

كنوز ما صدر الى المكتبة الانكليزية ، من امهات كتب الرحلات ، وليحتل عن طريق هذه الدراسات التي اصدرها في كتبه الكثيرة ، وضمنها محاضراته العلمية القيمة ، مكانة لا تضاهيها مكانة ، في ميدان المعرفة والاطلاع .

واذا كنا قد تنكرنا للرجل السياسي ، الذي عمل في ميدان السياسة هذا الردح الطويل من الزمن ، لما مثلته سياسته في وطننا العربي ، من استعمارية بغيضة ، فعلينا ان نطاطئ الرأس ، تقديراً وإعجاباً بهذا الرجل الفذ ، الذي كانت دراساته عن الجزيرة العربية ، وأوضاعها ، وأحوالها ، من أنفس ما كتب عنها من اسفار وكتب ، في مختلف العصور ، ومتنوع اللغات . ولو شئنا ان ننقل الى قراء العربية ، ماكتبه فيلبي ودوّنه عن هذا الجزء العزيز من وطننا العربي ، لاقتضى هذا العمل منا عشرات الكتب ، والاسفار . ولكنني سأقصر حديثي في هذا الفصل ، على بعض اللمحات الخاطفة ، من هنا وهناك عن الرحلات العظيمة التي قام بها ، والتي لا يدانيه فيها أي رحالة أو مستكشف من الجوّابين الذين طافوا بالجزيرة العربية .

* * *

كان اجتياز الربع الخالي ، الأمل العذب الذي يدغدغ خيال فيلبي وأحلامه مذ وطئت قدماه ارض الجزيرة العربية . فهو يريد ان يستكشف هذه الصحراء البكر ، الشاسعة الفسيحة ، التي لم تطأها قدم اوروبي أو اجنبي من قبل . وهو يريد ان يصل الى تلك البلدة الاسطورية المسماة بالوبر ، والتي ورد ذكرها في تاريخ السبأيين والحميريين ، والتي لم يبق من آثارها الا بقايا تدل على ان الانسان كان يعيش يوماً في قلب هذه الصحراء ، وكان يقيم فيها حضارة ومدنية . لكن القدر لم يشأ ان يكون فيلبي هو اول من يجتاز هذا الربع من الاوروبيين ، فقد سبقه اليه انكليزي آخر هو برترام توماس ، وإن كانت المساحات التي قطعها هذا من تلك الصحراء ليست بالشاسعة او الفسيحة بالنسبة لما قطعه فيلبي بعد سنتين .

وكانت خطة فيلبي وطريقته في الاستكشاف ، ان يدرس كل شيء تقع عليه عيناه في المناطق التي يجوبها . فهو يدرس الأحوال المناخية ، ويرقب الطيور والحشرات والحيوانات ، ويجمع منها ما يستطيع جمعه من أنواع ونماذج ؛ كما يرقب النباتات وكل مظاهر الطبيعة الحياتية ، ان وجدت هناك حياة ، ثم يعكف على دراسة اصول القبائل التي يمر بها ، ولهجاتها ، وأوضاعها وعاداتها ، وكل ما يتصل بشؤونها ؛ كما يدرس تاريخ البقاع التي يجتازها ، وينقب عن اثارها ، ويحل طلاسمها ؛ وكل ذلك بعزيمة لا تكل ولا تمل ، وبإرادة تقف دونها أصلب الارادات والعزائم .

وسرعان ما تغدو الحقائق العلمية التي يجمعها والمعلومات التي يحصل عليها ملكاً مشاعاً للعالم ، يزوده بها في دراساته المستفيضة المشفوعة بالخرائط والحقائق والارقام ، والنماذج التي ضمنها كتبه الكثر ، ومقالاته ، ومحاضراته ، في اعظم الجامعات والمنتديات العلمية والجغرافية .

كانت السفرة الأولى التي قام بها فيلبي الى الرياض إبان الحرب الكونية الأولى ، رحلة استكشافية في حد ذاتها ، على الرغم من طابعها الرسمي . فقد وصل بحراً الى العجير في ساحل الاحساء ، كما رأينا في فصل سابق ، لينتقل منها براً الى الهفوف في طريقه الى الرياض . ومنذ ذلك التاريخ ، أي منذ عام ١٩١٧ ، بدأ اهتمام فيلبي بالرحلات الاستكشافية في الجزيرة العربية التي ضمن دراساته عنها ، عدداً من الكتب القيمة التي اصدرها ، وفي مقدمتها « قلب الجزيرة العربية » الذي صدر في عام ١٩٢٢ و « الربع الخالي » في عام ١٩٣٣ ، وفتيات سبأ ١٩٣٩ ، والنجود العربية ١٩٥١ .

وعلى الرغم من ان فيلبي كان ثاني اوروبي يجتاز الجزيرة العربية من البحر الى البحر ، أي من الخليج الى البحر الاحمر ، وثاني اوروبي يجتاز الربع الخالي . الا أنه كان اول من رسم خريطة هذا الربع ، ووصل الى مدينته الخرافية «الوبر» وأول من اكتشف النجود العربية الواقعة الى الجنوب من الحجاز ممتدة من البحر الى قلب الصحراء .

وأود قبل الخوض في هذا البحث القيم ، ان اقتطف فقرة من المقدمة الرائعة التي قدم بها فيلبي لكتابه « النجود العربية » لأعرض الطريقة التي اتبعها في دراساته الاستكشافية ورحلاته فقد قال : « ان هدفي من هذا الكتاب ، كما كان من كتب الرحلات التي سبقته ، ان اسرد الاشياء التي اعرفها ، معرفة صحيحة بحكم رؤيتي لها واختباري . وقد حاولت في جولاتي الاستكشافية وفي الملاحظات التي ادونها عليها ، ان اترك ثغرات هنا وهناك ، لينفذ منها ، من يخلفني في هذا الواجب العظيم . ولا استطيع حتماً ان انزه نفسي تماماً عن الخطأ ، رغم ما تحريته من الدقة ، فكلنا من البشر وكلنا معرضون للخطأ .

« وقد حاولت في هذا الكتاب ، الذي اضعه للخاصة من رجال العلم والثقافة ، ان اضع امام اعينهم وصفاً صادقاً لمنطقة كانت مجهولة تماماً بالنسبة اليهم : تبلغ مساحتها نحواً من ١٥٠ ألف ميل مربع ، وتمتد على جبهة عرضها ثلاثمائة ميل على الاقل ؛ بادئة من الساحل الشرقي للبحر الاحمر ، عبر سهل تهامة الكبير ، الى منطقة الجبال السامقة ، التي ترتفع قممها نحواً من ثمانية آلاف قدم فوق سطح البحر ، لتعود فتهبط الى المنطقة الرملية الصحراوية التي تقع في الجنوب . وتضم هذه المنطقة الحدود الدولية القائمة بين مملكتي اليمن والسعودية . ويتقلب الطقس فيها من المناخ شبه الاستوائي الى المعتدل ، كما تغزر المياه في ناحية من الجبال لتكون شحيحة في الناحية الاخرى . وعلى كل حال ، فإن المياه التي تسقط على الجبال ، تسيل في وديان تتجه شرقاً او غرباً ، لتضيع في سهول تهامة ، او بطاح الصحراء » .

كانت الرحلة الأولى ، التي قام بها فيلبي بقصد الاستكشاف ، عام ١٩١٧ اثناء اقامته في الرياض . وقد اشرت الى هذه الرحلة في حينه ، عند الحديث عن تلك الزيارة . وقد تمكن في هذه الرحلة من التجول في جميع المناطق الواقعة الى الجنوب من الرياض باتجاه وادي الدواسر ، وحدود الربع الخالي ، وهضبة الطويق ، حتى حدود الاحساء وهي المنطقة المسماة بأمارتي الخرج وعفلج .

وتلت ذلك رحلات كثر ، في مختلف انحاء الجزيرة . قطع بها البلاد من

شرقها الى غربها ، ومن شمالها الى جنوبها . وسأقتصر في الحديث عنها ، على بعض الرحلات الهامة ، اذ ان تناولها جميعها بالاسهاب والتفصيل ، يتطلب مجلدات ضخمة ، يقف هذا الكتاب الذي نضعه بين يدي القراء ، متواضعاً بينها

ولنبدأ برحلته الى الرابع الخالي .. كانت هذه الرحلة كما سبق وقلت الحلم الذي يؤرق على فيلبي أيامه ولياليه ويحرم جفنيه لذة الكرى . وكان اعجز من ان يقوم بهذه الرحلة بمفرده دون معونة من الملك عبدالعزيز ودون الحصول على اذنه ، وكان الملك بدوره قد وعده بتهيئة جميع السبل لمساعدته في مشروعه فتحتم عليه ان ينتظر تحقيق هذا الوعد ..

قال فيلبي : « قضيت عام ١٩٣١ ، اطوف بالاماكن القريبة من مكة المكرمة ، وازور اماكنها التاريخية والوديان المحيطة بها . وقد بلغتني انباء بأن ثمة كثيرين يفكرون تفكيراً جدياً في اعداد رحلات لاجتياز الربع الخالي ، بعد نجاح برترام توماس ، في عبوره في السنة السالفة . فقد سمعت ان العالم الالماني كارل راتجينيز ، الذي زار جدة قبل بضعة اشهر مع شخص نمسوي هو هيرمان فون ويسمان ، قد مضى الى اليمن ، وانه يعد هناك حملة لاجتياز الربع بادئاً من الاراضي اليمانية . وسمعت ايضاً ان القصاص الفرنسي المشهور جوزيف كيسيل ، الذي زارجده قبل اشهر ومضى عنها الى الحبشة واليمن، يفكر نفس الاتجاه ، ولم اكن قد نسيت ، ان برترام توماس ما زال في مسقط ، وانه قد يكرر المحاولة الأولى ، ويكتشف في المرة الثانية ، ما فاته اكتشافه في رحلته السابقة .

« وأثير الموضوع في جلسة خاصة من جلسات الملك وأعرب عبدالله السليمان وزير المالية ، عن رأيه بوجوب اكتشاف المنطقة بسرعة ، بقصد الحيلولة دون ادعاء اية دولة اجنبية حقوق السيادة على الربع ، بحكم اجتيازه وعبوره . وكان الملك ، الذي يملك جهازاً كفوءاً للمخابرات في اليمن قد وصلته انباء الزيارة التي قام بها الوزير الألماني في اديس ابابا لصنعاء ، لمفاوضة الامام يحيى في عقد معاهدة بين اليمن والمانيا . وكان الامام قد عامل البعثة الالمانية

على عادته ، معاملة تنطوي على الهواجس والشكوك ، في انها هيئة من الجواسيس فأمر ببقائها في قصر الضيافة طيلة الاسابيع السبعة التي قضتها في صنعاء ، والتي انتهت برفض الامام ، توقيع اية اتفاقية لا تتضمن الاعتراف بسيادته على امارة عسير ، ومحمية عدن ، ومشيخات حضرموت . وكان الامام قد اشترط مثل هذه الشروط في مفاوضاته السابقة مع روجيه ميغريه ، وزير فرنسا المفوض في جدة الذي زار صنعاء قبل اشهر .

« وعلق الملك عبدالعزيز ، على ضوء هذه المعلومات على احاديث الرحلات الفردية التي يقوم بها الرحالون . فقال ان موقف الامام من البعثات الرسمية ، لا يبعث الأمل في نفوس من يتوقون الى القيام برحلات استكشافية فردية ، ولكنه ادراكاً منه لرغبتي العارمة في ان تتاح لي الفرصة ، لاكتشاف الربع الخالي ، أكد لي انه لم ينس وعده وانه سيرتب المسألة ، اثناء رحلته المقبلة الى الرياض . ومع ذلك ، فقد تحتم عليّ ان انتظر بضعة اشهر قبل ان اقوم برحلتي هذه التي تلتها رحلات ويلفريد تيسيغر ، والجيولوجيين الامريكان ، الذين توغلوا في الربع ، بحثاً عن الزيت ، وبذلك خضعت الصحراء البكر وكشفت عن أسرارها ومفاتنها ، أمام فضول الانسان » .

ولكن حلم فيلبي تحقق اخيراً . فقد تمت الاعدادات للبدء بالرحلة العظيمة . وانتقل في شهر كانون الأول من عام ١٩٣١ ، الى الهفوف التي تقرر ان تكون نقطة البداية ، حيث كان الامير عبدالله بن جلوي يحشد له الرجال ، الذين سيرافقونه في هذه الرحلة ، والابل التي سيستخدمونها .

وفي السابع من كانون الثاني عام ١٩٣٢ ، بدأت الرحلة العظيمة ، باتجاه سلوه ، الواقعة على الخليج العربي ، حيث اجتازوا منها صحراء الجفوره ، الى واحة جبرين التي تمتد وراءها صحراء الربع . وكانت الطريق التي اتبعها فيلبي ، في الذهاب موازية لخط العودة الذي اتبعه برترام توماس ، في اوبته من الربع الخالي ، في الاتجاه المعاكس . ووصل فيلبي الى آثار قلعة الوبر الاسطورية ، التي برهنت على انها ليست بالقلاع ، وانما هي صخور نيزكية

ضخمة ، ذات قيمة علمية كبيرة . وانحرف من الوبر ، التي لم يزرها توماس قط ، الى اتجاه آخر ، ليلتقي بالطريق التي كان هذا قد سار فيها . ومضى في الطريق المذكورة الى شنه التي زارها توماس ايضاً .

ويقول فيلبي في كتابه « الربع الخالي » ، انه عثر طيلة الطريق على آبار جافة لا أثر للماء فيها ، حتى وصل الى نايفه ، حيث استطاع التحقق من قصة « الرمال التي تغني » والتي يتناقلها البدو في جوف الصحراء البعيدة عن المكان ، وامتدت وراء نايفه منطقة صحراوية ، مسافة اربعمائة ميل ، لا أثر للماء ولا للابار فيها ، هي منطقة الربع الخالي الحقيقية .

وقرر فيلبي ان يقطع هذه الصحراء ، التي لم تطؤها قدم انسان من قبل ، وأن يتجه الى سليل ، الواقعة في طرف الربع الغربي . ويؤكد فيلبي ان ادلاءه لم يكونوا قط قد وصلوا الى تلك الارض ، وإن كانوا يعرفون شيئاً عن طبيعتها ومتاعبها ، مما يسمعونه من اهل البادية . واعترض الادلاء على قراره ، معارضة جدية ، اخذت تهدد بالعصيان ، وبلغت حدود التآمر . ويروي فيلبي انه بعد سنوات طويلة من الرحلة سمع بقصة المجلس الحربي ، الذي عقده الادلاء اثناء نومه ، للبحث في الوسائل التي يستطيعون بواسطتها التغلب عليه ، وإحباط خطته . ثم مضى يقول : « وكانوا يعرفون ان الاقناع لن يجدي ، ففكروا بقتلي . وقد تدارسوا الخطة بمنتهى الجد . ولم يمنعهم عن تنفيذها ، الا عجزهم عن خلق قصة ، يقنعون بها ابن السعود ، ليقبل المصير الذي سيحل بي . ومن المحتمل ايضاً ان يكون الواحد منهم قد خاف من رفيقه ، وخشي ان يشي به ، وأن يضعف امام التحقيق ، الذي سيتعرضون له عند عودتهم . على كل حال ، قمت حياً في اليوم التالي ، لاجد رفاقي قد لانوا ، فمضينا في طريقنا ننفذ المشروع » .

وسارت القافلة في طريقها ، وانهارت الابل في اليوم الرابع ، امام هذه الظروف المناخية القاسية ، في صحراء لم ترَ المطر منذ عشرات السنين ، وقضى فيلبي ورفاقه ليلة اخرى يتناقشون فيما يجب عمله . ووافق فيلبي على العودة

الى نايفة شريطة البدء بمحاولة جديدة لعبور الصحراء منها بفريق أصغر ، ينتقى له ، خير الابل ، على ان تعود بقية القافلة الى الاحساء . وعندما عادوا الى نايفة ، جادت السماء بصورة غير متوقعة بمطر غزير . وذبح الرفاق بعيراً قددوا لحمه . ليعتمدوا عليه في رحلتهم المقبلة ، التي لن يستطيعوا الاستغناء فيها عما يحملونه من ماء لطبخ الارز أو عجين الخبز .

واعتمد فيلبي ورفاقه على التمر واللحم والشاي ، بعد ان أنقص عددهم الى احد عشر رجلاً وعشرين بعيراً ، وعاد الباقون بالابل الى الاحساء . ونجح فيلبي في مشروعه وبعد عشرة أيام كان في سليل معتزاً بانتصاره على الصحراء التي قطع فيها اربعمائة ميل حيث لا ماء ولا طير ولا اثر لحياة انسانية او حيوانية . وانتقل من سليل الى وادي بيشا ومنها الى طريق الفيلة ، باتجاه ترابة وصايل ، ليصل الى مكة المكرمة في الخامس من نيسان بعد ثلاثة اشهر تماماً من بدء الرحلة ، التي تحدث عنها في الصيف التالي في سلسلة من المحاضرات ألقاها في الجمعية الجغرافية الملكية وغيرها من الجمعيات .

وكان فيلبي قد جمع من أطراف الربع الخالي ، مجموعة من الطيور التي بعث بها الى المتحف البريطاني ، فأوفد المتحف في عام ١٩٣٣ ، المستر بيتس الى جدة ليساعد فيلبي في مهمته ، في جمع الطيور التي يريدها المتحف . وواصل فيلبي العمل بعد عودة بيتس ، وتمكن قبل انتهاء عام ١٩٤٠ ، من تزويد المتحف البريطاني بأكبر مجموعة من الطيور العربية عرفها المتحف حتى ذلك التاريخ ، حيث تعددت أنواعها حتى بلغت اربعمائة نوع .

وقرر فيلبي وزوجته القيام برحلة جديدة ، في عام ١٩٣٥ . ولم يكن مسرحها هذه المرة الجزيرة العربية فقط ، وانما عدداً ضخماً من البلاد في قارات ثلاث . فقد حشر نفسه وزوجته ومتاعهما ، في سيارته الفورد الكبيرة ، ليبدأ رحلته الطويلة الى لندن . وبعد ان اقامت زوجته يومين في الرياض ، وأغدق عليها الملك عبدالعزيز عطاياه من اجمل الملابس العربية ، وزارت شقيقته نورا ، والاميرات الاخريات بدأت الرحلة باتجاه الكويت . ومنها بالطريق

الصحراوي الى البصره ، فبغداد ، حيث حلا ضيفين على السفير البريطاني السير ارشيبالد كلارك كير ، واجتمعا الى ياسين الهاشمي رئيس الوزراء ، ورشيد عالي الكيلاني وزير الداخلية .

واجتاز فيلبي وزوجته بادية الشام الى دمشق عن طريق الرمادي والرطبه ، ومنها الى بيروت ، ليتجها بالطريق الساحلي عبر طرابلس واللاذقية الى انطاكية والاسكندرون ومنها الى الحدود التركية في باياس ، حيث بدأت متاعبهما على حد تعبير فيلبي ، اذ كانت طرق الاناضول من اسوأ ما يكون ، كما كان أفراد الشرطة التركية على جانب كبير من الغلظة . وقضى الزوجان اسبوعين ، يجولان في مناطق الاناضول وتراقية ، حيث كان يطلب اليهما دائماً ان يمضيا الى مراكز الشرطة ، للرد على الاسئلة التي توجه إليهما . وانتقلا من تركيا الى بلغاريا فرومانيا فتشيكوسلوفاكيا ، ومنها الى المانيا ، حيث زارا فرانكفورت وكولون ، ومنها الى اوستند في بلجيكا فدوفر في فرنسا فلندن .

وفي طريق العودة ، انتقل الزوجان بالسيارة ايضاً الى فرنسا فاسبانيا ثم عبرا مضيق جبل طارق ، الى طنجه ، ليسيرا مع الطريق الساحلي عبر المغرب والجزائر وتونس وليبيا ، الى مصر فصحراء سيناء الى فلسطين وسوريا ، حيث مضيا في الصحراء الى الجوف وحائل في الطريق الى الرياض ثم جدة . ولاريب في ان هذه الرحلة المزدوجة كانت من اعظم الرحلات التي قام بها انسان ، وقد استغرقت خمسة اشهر ونصف الشهر .

وعندما عاد فيلبي الى الرياض ، اعرب له الملك عن رغبته في ان يذهب الى الجنوب ليرسم له خرائط الحدود الجديدة بين المملكة العربية السعودية واليمن . وأخذ هذا يحلم من تلك اللحظة بالذهاب الى سبأ ، العاصمة البكر ، التي لم تطوْها قدم اوروبي او غربي بعد ، وبزيارة حضرموت نفسها ، قاطعاً الجزيرة العربية هذه المرة بربعها الخالي من الشمال الى الجنوب ، كأول غربي يقوم بهذه المحاولة .

وتقرر ان تبدأ تلك الرحلة في شهر ايار عام ١٩٣٦ ، على ان تستغرق

خمسة شهور ، ولكنها استغرقت بالفعل تسعة شهور كاملة ، قطع فيها فيلبي قفاراً واسعة ، اتسعت مساحتها الى نحو من ربع مليون ميل مربع ، وارتقى نجوداً ترتفع الى علو ٩٥٠٠ قدم فوق سطح البحر . فكان الاوروبي الثاني الذي يزور واحة رانيه ، وأبها عاصمة عسير ووادي نجران التاريخي ، ومدينة سبأ التي سبقه اليها رحالة الماني ، قضى فيها في السنة السابقة بضع ساعات ، ليطرده منها أهلها . وانتقل بعد ذلك الى حضرموت والشحر والمكلا على ساحل المحيط الهندي ، ومر بطريق العودة بآثار مأرب الخالدة ، واطلع على آثار سبأ ثم انتقل الى ميدي في الطريق الى جدة .

وقد ألف فيلبي عن هذه الرحلة التي تعتبر اعظم رحلاته وأضخمها كتابين اولهما « فتيات سبأ » ، الذي صدر في عام ١٩٣٩ ، وثانيهما « النجود العربية » الذي صدر بعد ذلك بسبع سنوات .

ويطول بنا الحديث عن هذه الرحلات الضخمة ، التي سجلها هو في ألوف الصفحات ، اذ ان كتابه عن النجود العربية فقط يقع في نحو من سبعمائة صفحة ، لم يترك فيها ناحية من نواحي الحياة في هذه البلاد لم يتطرق اليها . وكان يقطع في اليوم الواحد في بعض نواحيها ستة عشر ميلاً ، فبلغ ما قطعه من الرياض الى سليل ، فوادي التثليث الذي وصله في الثاني والعشرين من نيسان عام ١٩٣٦ اكثر من ١٧٠٠ ميل قطعها في تسعين يوماً ، وكان منها نحو من ٩٥٨ ميلاً من قفار الربع الخالي نفسه .

ولا يترك فيلبي في كتاب « النجود العربية » قصة سمعها ، أو منظراً شاهده او تجربة مرّ بها دون ان يتحدث عنها . فهو يتناول حيناً في الفصل المتعلق بزيارته لمنطقة خورمة في الصفحة التسعين من كتابه المذكور قصة الملك عبدالعزيز مع الارملة الطروب . فقد تحدث الامير سعد بن خالد بن لوئي ، الى الملك ، عند زيارته للخورمة قبل نحو من عامين ، عن مفاتن ارملة طروب ، قيل انها من اجمل نساء العرب ، تقيم في هذه المنطقة . وأغراه بالزواج منها . وجاء الملك فعلاً ، وبنى بالارملة ، في تلك الليلة ، التي « اعتقد انها كانت ليلته

الوحيدة معها ، اذ انه كره فيها ثرثرتها ، مما حمله على مغادرة الحورمة في اليوم التالي ، ولم يعد الى ذكر اسمها على لسانه » .

ولا يترك فيلبي شاردة او واردة ، يراها في الاماكن التي يجوب فيها الا ويوردها في هذه الكتب القيمة التي تتضمن بالاضافة الى معلوماتها الجغرافية القيمة ، حقائق مفيدة تتعلق بالقبائل العربية واصولها ، والحيوانات والطيور وأحوال المجتمع ، وأسواق البيع والشراء ، وعلاقات القبائل بعضها ببعض ، والآثار التاريخية والقصص الشائعة والنكات المستملحة .

فهو يتحدث في الصفحة ١٥٦ من كتابه النجود العربية . عن الولاة الاتراك ، الذين حكموا عسير في العهد العثماني ويشير بصورة خاصة الى الفريق محيي الدين باشا ، الذي حكم في ابها عاصمة عسير اكثر من ست سنوات ، وظل محافظاً بطريقة غامضة على اتصالاته السرية مع المدينة المنورة ودمشق والقسطنطينية كما يتحدث عن سليمان شفيق باشا ، الوالي السابق ، ووالد الجميلات الثلاث اللائي انتخبت احداهن ملكة جمال تركيا قبيل الحرب الكونية الثانية ، والذي حل مدة طويلة بعد انتهاء الحرب ضيفاً وأسيراً على الملك عبدالعزيز في كل من جدة والطائف .

ويقطع فيلبي في رحلته هذه نحواً من ١١٦٨ كيلومتراً الى ان يصل الى وادي التثليث ، ويشرع في الحديث عن الاثار التاريخية الرائعة التي عثر عليها هناك . وهذه الآثار مجموعة من الصور المنحوتة في الصخر ، وبينها صورة شيخ معمم يلقي حديثاً ، وقد تغلب عليه الحماس ، الذي بدا في الاشارات التي كانت تصدر عن يديه . وصورة انسان رفع يديه الى السماء وفتح قدميه ، واخرى لبعير أقعى على مؤخرته ورابعة لثور وخامسة لكلب من كلاب الصيد ، وسادسة كتبت عليها بعض الحروف الثمودية وسابعة عليها بعض الايات القرآنية ، وقد اضيفت اليها عبارة « لا اله الا الله محمد رسول الله » .

وعثر فيلبي ايضاً في هذه المنطقة على صخرة عليها نقوش ثمودية تضم نحواً من مائة وسبعة احرف ، مع بعض صور الابل والحيوانات الاخرى . وتمكن

من التقاط صور جميع هذه الآثار النادرة والنقوش ، وبعث بها الى المتحف البريطاني وبينها صورة رائعة تمثل معركة حربية ، وقد ظهر فيها اربعة من الفرسان ، يحملون الرماح ، ويتجهون الى جهات مختلفة وهم يلوحون بالرماح التي يحملونها في ايديهم .

ويذكر فيلبي انه كان يستخدم صغار الاطفال ، في المناطق التي يزورها في عملية جمع الطيور والحشرات والنباتات ، التي يؤلف منها مجموعاته العلمية . ويسهب في الحديث عن حماس الاطفال في اداء هذه المهام ، طمعاً بالفلوس القليلة التي كان يوزعها عليهم ، كأجور لهم على أتعابهم ، ويقول انهم كانوا يجمعون له صغار الطير من اعشاشها ، والضفادع ، والسحالي ، والثعابين الصغيرة وطيور الوطواط .

ويروي فيلبي قصة البعثة العلمية المصرية التي كان يرئسها الدكتور سليمان احمد حزين ، والتي قصدت اليمن للقيام ببعض البحوث والاكتشافات العلمية والتاريخية . فرفض الامام يحيى السماح لها بالوصول الى منطقة مأرب وسبأ ، الواقعة على مقربة من الحدود السعودية ويقع جزء منها فيها ، ضمن امارة عسير ولكن سرعان ما بدلت البعثة اتجاهها ، وقررت المضي الى وادي خريد ووادي عمران ، والقفلة ، لتصل منها عبر سُعُدَه الى نجران ، من عسير ، ولكن الامام يحيى منعها ايضاً من ذلك ، فعادت على اعقابها بخفي حنين .

وعندما كان في نجران . جاءه يهودي من أهلها يدعى يوسف ، يحمل معه حجرين على احدهما بعض الكتابات والنقوش الحميرية ، أما الآخر ، فحجر حديث اخذ من احدى المقابر وعليه بعض الكتابات العربية . ويمضي فيلبي فيقول : « ودعوت يوسف لقضاء الليل معنا في المخيّم ، وأراد ان يستمع الى اذاعة القدس ، وعندما شرعت الاذاعة تتحدث باللغة العبرية ، لم يستطع فهم ما تقوله ، ذاكراً انه ليس بالعبرية الصحيحة وانما باللهجة الاشكنازية . وبالطبع استمع الى الاذاعة العربية وفهمها اتم الفهم » .

ويتحدث فيلبي في الصفحة ٢٥٤ من نفس الكتاب عن تاريخ نجران ،

فيقول ان اول ذكر لها ، جاء في بعض النقوش التي عثر عليها في سد مأرب ، الرحالة النمسوي ادوارد غليسر ، في اواخر القرن التاسع عشر ، وهي تشير الى الايام التي سيطرت فيها مملكة سبأ على معظم انحاء الجزيرة العربية ، قبل نحو من اربعة عشر قرناً من ميلاد السيد المسيح . وجاءت الدولة المعينية حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، فسيطرت على اقسام كبيرة من الجزيرة العربية ولاسيما في اتجاه حضرموت وشواطىء الخليج العربي . وعادت سبأ ، حوالي القرن الثامن قبل الميلاد فسيطرت على الجزيرة العربية من جديد ، وحملت النقوش التي عثر عليها فيلبي ، اسماء عدد من ملوكها ، وفي مقدمتهم ناشان .

وعاد اسم نجران الى الظهور ، بعد ان اختفى مدة طويلة ، في حملة القائد الروماني ايليوس غالوس ، الذي احتل جميع منطقة عسير ، وانتشرت فيها بعد نحو من ثلاثة قرون الديانتان اليهودية ، والمسيحية . ودارت معارك حامية الوطيس بين القبائل التي دانت بالنصرانية والقبائل التي اعتنقت اليهودية . وتغلبت النصرانية اخيراً ، فأصبحت الدين الغالب في نجران ، مع بقاء بعض الاسر اليهودية . ويؤكد فيلبي ان الاثار التي عثر عليها في اخدود في ضواحي نجران ، والتي التقط صورها ، وبعث بها الى لندن ، ستحسر النقاب عن الكثير من الحوادث التاريخية المتعلقة بهذه المنطقة .

ويكثر فيلبي من الحديث عن اليهود في هذه المنطقة ويبدي عليهم عطفاً خاصاً . وأود ان اسرد هنا قصة يرويها في كتابه النجود العربية قال : « جاءني يوسف اليهودي ذات يوم وأنا في نجران ، ورجاني ان اتوسط لنقل اليهود الموجودين في نجران وضواحيها الى فلسطين . وكان السبب الذي حمل اليهود على التفكير بالهجرة غريباً جداً . فقد عاشوا قروناً طويلة في نجران ، على أحسن ما يكون من الوئام والسلام مع عدد من اكثر القبائل العربية عنفاً وقسوة ، ولم يكونوا يشكون من شيء طيلة هذه المدة . وبالطبع لم يكن في وسع العرب الاستغناء عن الخدمات النافعة التي يقدمها اليهود ، من صياغة ، وحدادة ، وأعمال مماثلة . ولكن يوسف اكد لي ان أحوالهم المالية قد ساءت مؤخراً ،

بسبب استغناء العرب عن السيف الذي كان اليهود يصنعونه ، وإقبالهم على البنادق .

« ودعاني يوسف لقضاء يوم مع الطائفة اليهودية في الناحية ، فحددت الثالث عشر من تموز لهذه الغاية وذهبت الى أحد بساتين النخيل في عوكله ، حيث شيد يوسف لنفسه بيتاً صغيراً يقيم فيه مع زوجته وولده الصغير سليم . وكان البيت مؤلفاً من ثلاث غرف ، إحداها في الطبقة السفلى والاخريان في الطبقة العليا . وقد حشد يوسف في بيته عدداً كبيراً من ابناء طائفته لاستقبالي . وكان نساؤهم يعملون مع امرأة يوسف في اعداد العدة للوليمة . وقد ذكر لي ان اليهود في هذه المنطقة لا يكتفون بزوجة واحدة ، وانهم يتزوجون كالمسلمين بأكثر من واحدة . وقيل لي أن عدداً من اليهوديات اعتنقن الاسلام للزواج من بعض الشبان المسلمين ، وان الامام يحي ملك اليمن ، قد بنى بيهودية من اجمل فتيات نجران » .

وبعد ان تحدث فيلبي عن الوليمة التي اقامها اليهود تكريماً له . قال : « وقد سمعت من بعض اصدقائي العرب ، انتقاداً لهذه الزيارة ، وقبول ضيافة اليهود . فقلت لهم ، بأن اليهود ايضاً من اهل الكتاب ، وان النبي عليه السلام قد قبل ضيافتهم .. حقاً لقد تمتعت بتلك الزيارة التي قمت بها للطائفة اليهودية في عوكله » .

ويطيل فيلبي الحديث عن اليهود في نجران . ليمضي بعد ذلك فيتحدث عن الاسماعيليين المقيمين فيها . وفي بلاد يام . والذين يطلق عليهم اسم المكارمه . ويقول ان الاسماعيليين ينقسمون الى ثلاث فئات اولاها فئة الخواجية وهي تنتشر في الهند وشرق افريقيا ويتولى زعامتها الاغا خان وثانيتها الواروية ، وهي تقيم في منطقة بمباي في الهند . ويتولى زعامتها الامير طاهر سيف الدين ، ثالثتها السليمانية . وتقيم في اليمن وجبال عسير ويتولى زعامتها المكرمي داي .

ويذكر فيلبي ان طائفة السليمانية الاسماعلية ، جاءت أول ما جاءت من الهند ، ثم اقامت في شمال صنعاء في اليمن ، ثم اخذت تنتشر نحو الشمال ،



بقايا معبد الشمس في منقا عثر عليها فيلبي على حدود عسير الجنوبية (التصوير لفيلبي)



كتابات حميرية قديمة في « خميس مشيت » عثر عليها فيلبي اثناء رحلاته الى نجران (التصوير لفيلبي)

الى ان حل في منطقة بلاد يام ، جعفر بن سليمان بن حسن الهندي الذي انتقلت زعامة الاسماعيلية هناك بعد وفاته ، الى ابراهيم بن محمد بن فهد بن صالح المكرمي ، وهو جد المكارمة ، الذين جمعوا في وقت ما بين السلطتين الدينية والزمانية في تلك المنطقة ، وجعلوا من بدر مقراً لهم ومركزاً .

وبعد ان طاف بالصحراء الجنوبية كلها ، حيث صام شهر رمضان المبارك تلك السنة وهو يواصل جولاته ، ارتفع صاعداً في جبال تهامه ، حيث قضى أكثر من شهر كامل مطوفاً بأرجائها ، الى ان وصل صابية ، التي كانت مركزاً للادارسة في عسير ، والتي تحيط بها مجموعة من القرى اهمها الحسينية ، والخواجية وبيت السيد ، وصابية الجديدة ، وسلهبة ، وغارة . وكلها تؤلف امارة جيزان ، التي ذاع صيتها في الحرب التي وقعت بين الادارسة والوهابيين بعد الحرب الكونية الاولى والتي انتهت بضم امارة عسير الى المملكة العربية السعودية .

وتحدث فيلبي عن اصل الادارسة في عسير ، فذكر ان احمد الادريسي ، جاء الى الجزيرة العربية من شمال افريقيا حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، كمصلح ديني وعالم كبير ، وكانت مهمته روحية لا زمنية ، ولكنه سرعان ما تولى الزعامة الفعلية في المنطقة ، بعد ان غاب عنها الاشراف ، الذين اخرجهم الاتراك . وقد نشبت الثورة على الاتراك في عسير في مطلع القرن الحالي ، فاضطروا الى الانسحاب من البلاد . واقام الأمير محمد بن علي ، دولة الادارسة التي لم يقدر لها ان تعمر طويلاً ، على الرغم من اعتراف بريطانيا رسمياً بها في نهاية الحرب الكونية الاولى ، وامتداد حدودها الى ميناء الحديدة في شمال اليمن .

وفي عام ١٩٢١ ، نشبت الحرب بين الامير محمد الادريسي والامام يحيى ، فاسترجع الامام الحديدة وأقسام تهامة الواقعة في اليمن . وعندما توفي الامير محمد في نفس العام ترك الحكم لولده علي ، الذي لم يصمد طويلاً امام الملك عبدالعزيز ، وانتهى امره ليعيش لاجئاً في الرياض ، في ظل الملك عبدالعزيز

بينما انتشر ابناء عمومته من الادارسة بين مكة ومصر وجيزان ، بعد ان فقدوا كل سلطة في البلاد .

ويمضي فيلبي في رحلاته ، ويتحدث عن كل ما يراه فيها . فهو حيناً في جيزان وحيناً آخر في جبال تهامه . ويمضي به الترحال الى ان يصل الى حدود اليمن ، فيسير محاذياً لها ، يرسم الخرائط التي عهد اليه صديقه الملك عبدالعزيز برسمها ، ليخطط نهائياً الحدود التي تفصل بين البلدين ، ثم يهبط الى السهول بعد ان يكون من الناحية الاخرى قد وصل الى حدود حضرموت ويصعد مع الطريق الساحلي ، الى قنفذه ليتجه منها عائداً الى الحجاز التي يصلها قبيل موسم الحج ، لينضم الى حاشية الملك ، ويؤدي في معيته فريضة الحج في ذلك العام .

وكان من الحري بفيلبي وهو العالم والمستكشف والرحالة ، أن يحمل صديقه الملك عبدالعزيز ، على انشاء متحف في العربية السعودية ، يضم على الأقل ، الآثار النفيسة التي يعثر عليها في بلادها ، لاسيما وقد عرفنا ما كان له من تأثير بالغ ونفوذ كبير على الملك . ولكن هذا الاهتمام من جانب فيلبي لم يكن جدياً ، وإن حاول هو في كتابه « اربعون سنة في الصحراء » تبرئة نفسه امام التاريخ ، اذا ما حاسبه ، على هذا الاهمال . فقال : « لقد قضيت سنوات طويلة ، وأنا أحاول اقناع السلطات السعودية بالاهتمام بمتحف جدة ، الذي اشرفت على تنظيمه واعداده ، كعمل ثانوي من اعمالها ، مديرية المناجم والمشاريع العامة ، وعهدت بإدارته الى المستر جيبس من اهالي مقاطعة ويلز في انكلترا » . وبعد ان يطري مواطنه ، على ذكائه واخلاصه في العمل يقول : « ويضم هذا المتحف مجموعة لا بأس بها من الآثار التي عثرت عليها ، والتي جمعها غيري من الرحالة في السنوات الاخيرة . ولكن يبدو لي ان اياً من الشخصيات العالية التي كنت احدثها في موضوعه لم تكن تشعر قط بوجوده ، أو لم يسبق لها ان زارته . وقد اشتد قلقي ، بعد ان غادر جيبس البلاد ، اثر انتهاء اتفاق عمله ، خوفاً على مستقبل هذه المجموعات » .

فهل كان فيلبي ، بحاجة الى وسيط من « الشخصيات العالية » بينه وبين الملك عبدالعزيز ، للتحدث اليه في موضوع اقامة متحف سعودي ، يضم ما يعثر هو او غيره عليه من الآثار في البلاد ؟ وهل كان يعوزه المنطق أو الحجة القوية ، لإقناع الملك بمثل هذا الرأي ، وقد سبق له اقناعه ، بالكثير من الآراء ، التي هي اقل شأناً من الحفاظ على ثروة البلاد الاثرية وكنوزها التاريخية كما سبق ورأينا في فصول هذا الكتاب . لكن المملكة العربية السعودية ، انتهت اخيراً الى الاهتمام بهذا الموضوع ، فأمر الملك سعود قبل سنوات قليلة بإنشاء متحف في الرياض ، نقلت اليه جميع الآثار التي كانت موجودة في متحف جدة ، وإن كان القسم الاكبر من الآثار التي سبقت قيام هذا المتحف ، قد نقلت الى متاحف لندن وباريس .

وأود قبل الانتهاء من هذا الفصل ان اشير الى آراء فيلبي ، في غيره من الرحالة والمكتشفين . فهو ينتقد طريقة الاستكشاف الجديدة ، التي تعتمد على الطائرات والسيارات ، ويؤكد انها لا تمكن الرحالة من رؤية كل شيء في البلاد ، كما مكنته هو رحلاته التي قام بها على ظهور الابل ، والتي طاف بها كل شبر من اراضي الجزيرة العربية ، وان كان هذا لا يمنع ان يكون رجال شركة الارامكو ، وبعثة مكافحة الجراد ، قد عثروا على معلومات قيمة للغاية اثناء اعمالهم في البلاد ، وسيصدرونها في كتب أو نشرات فيما بعد .

ويتحدث عن الكتاب الذي اصدره الدكتور جورج رنتينز ، بالنيابة عن شركة الارامكو ، والذي يشمل الحديث عن مختلف الاقسام في طرف شبه الجزيرة ، الجنوبي الشرقي ، بما في ضمنها امارة عمان ، ومقاطعة البريمي . ويقول بمرارة ان هذا الكتاب كان محشواً بالاخطاء والحقائق التي تفتقر الى الدليل ثم يقتطف من الكتاب الفقرة التالية : « لقد بدأت الجزيرة العربية التي وصفها فيلبي في الاختفاء من عالم الوجود ، لتحل محلها البلاد العربية الجديدة ، بحياتها اللامعة المشرقة ، وسبل معيشتها الجديدة التي تظهر مصورة في هذا الكتاب » ، ليعلق عليها بقوله انه لو صح افتراض الكتاب الامريكي ، فإن

الحياة العربية التي عرفها هو ، لم تختف ، وانما ابتعدت طائعة مختارة ، الى قلب الصحراء ، كما ابتعدت الظباء نافرة من قبل ، لتعيش حياتها نائية عن « طريقة الحياة الامريكية التي لا تستسيغها » .

ويتحدث فيلبي عن المستكشفين الذين عرفوا الجزيرة العربية ، كما عرفها هو ، وفي طليعتهم ، برترام توماس الذي توفي قبل الأوان ، وويلفريد تيسيغر ، من رجال بعثة مكافحة الجراد الذي انصرف عن الجزيرة العربية بعد ان قضى فيها عدة سنوات ، دون ان يكتب كتاباً عنها ، وإن صوّر انطباعاته وآراءه في مقالات مختلفة . وينتقل بعد ذلك الى بنكر وبوبوف من رجال البعثة ايضاً . فيقول ، انهما قاما بعمل رائع ، في رسم خريطة « البحر الصافي » في قلب الجزيرة العربية ، على مقربة من حدود حضرموت ، وهي المنطقة الوحيدة من الربع الخالي التي عجز فيلبي عن اقتحامها ، رغم محاولاته العديدة . وينهي حديثه بالاشارة الى ما قام به الدكتور هنري فيلد في شمال الجزيرة العربية ، من طواف بحثاً عن اصول الانسان العريقة ، وأقدم مظاهر الحياة البشرية في تلك المناطق .

* * *

هذا هو فيلبي الرحالة ، والعالم الجغرافي ، الذي زود المكتبة الانسانية ، بأنفس المراجع عن الجزيرة العربية ، في حاضرها الجغرافي والحياتي والعلمي . وكان حرياً ، بالحكومة العربية السعودية ان تعد دائرة خاصة في جهازها الحكومي الرسمي ، يقوم بمثل هذاه الدراساتالعلمية ، ويقارن بين ما اخرجه فيلبي وغيره من الرحالة والمستكشفين عن بلادها ، من كتب ، وبين حقائق الواقع الجغرافي والحياتي ، ويزود المكتبة العربية ، بما تفتقر اليه كل الافتقار من نتائج هذه الدراسات العلمية ، من وجهة النظر العربية نفسها ، دون تزويق ، ودون ان يتغلب عليها طابع النفاق والاصطناع .

١٢

آراء وأفكار

تناول فيلبي في الكتب الكثيرة التي وضعها ، مختلف المشاكل والقضايا من عربية وعالمية ، وانسانية ، بالبحث ، مبدياً فيها ، كإنسان مفكر وعالم بحاثه ، شتى الآراء ، التي يعرب عنها ، بجرأة لا تنقصه ، وشجاعة لا يفتقر اليها . وهو في اعرابه هذا انما يحسر النقاب ، في بعض اللمحات الخاطفة عن الكثير من الزوايا الغامضة في حياته ، والتي ظلت لغزاً مغلقاً ، على جميع من عرفه ورافقه ، حتى اليوم الاخير من حياته الطويلة .

وقد يكون في نقل هذه الآراء الى القارئ العربي ما يزيده معرفة بهذا الانسان الذي ركب متون الأهوال ، وقضى حياة الترحال والتجوال ، وانبرى يرسم السياسات ويكيفها ويحولها ، ويعمل على تنفيذها ، وكل ذلك بارادة لا تهين ولا تلين ، وعزم لا يصيبه وهن ولا يلحق به ضعف ، ما دام ان ايمانه بالقضية التي يعمل من أجلها ، هو الذي يدفعه ، وهو الذي يستفزه ويوجهه ، مستهوناً المتاعب ، ومستصغراً المشاق ، فالهدف أكبر من ان يخضع للطاقات البشرية ، والغاية أبعد من ان تتعرض للتقلبات والنزوات العاطفية والانسانية .

وأرى ان نبدأ ، بسرد آرائه في المملكة العربية السعودية ، التي عاش أطول فترة من حياته في ربوعها ، ان لم نقل نصف حياته فيها ، مرافقاً ملكها ،

وحاضراً مجالسها ، وجائلاً في بواديها وقفارها ، ومطلعاً على أدق أحوالها وشؤونها ، دون ان نعلق على هذه الآراء بشيء الا ما تقتضيه ضرورة البحث وسياق الحديث .

كان فيلبي يؤمن منذ بدأ اتصاله بدنيا العرب ، بقيام امبراطورية وهابية في الوطن العربي ، تخلف الحكم العثماني وتسيطر عليه . وقد عمل هو طويلاً في سبيل تحقيق هذا الايمان ، عن طريق توجيه سياسة بلاده الى هذا الاتجاه كما رأينا في الفصول السابقة . وكان يؤمن كل الايمان بعظمة الملك عبدالعزيز وقدرته على تحقيق هذا الحلم العظيم . وانني اترك لفيلبي نفسه ان يصف مشاعره تجاه الملك عبدالعزيز وتجاه ما يركزه فيه من ايمان ، قال : « لقد عرفت ابن سعود ستة وثلاثين عاماً ، هي نصف حياة هذا الملك العظيم ، وكنت طيلة الثلاثة والعشرين عاماً الاخيرة منها على اتصال دائم به . لا انقطع عن مرافقته مطلقاً : متمتعاً بعطفه وصداقته ، رغم الاجواء المسمومة التي كانت تحيط بنا ، من كل جانب . لقد كنت أرى فيه وحده الفنار والمشعل المضيء الذي يحمل الأمل لبلاده ، بعظمته وثباته ، واستقرار رأيه ، وصموده للحدثان ، وبساطته في حياته الشخصية والعامة ، وتقواه وطاعته لله وخوفه منه ، وكرمه الذي لا حد له .

« ولكن هذا الوهابي العظيم ، الذي لن ترى الجزيرة العربية شبيهاً له ، قد مضى . وإن كان اسمه ، سيخلد ما خلد التاريخ ، وبقيت الاجيال . وكان احساسي عندما ادركته الوفاة ، هو عين ما تحس به الباخرة ، وقد انقطع ما يربطها الى الميناء ، فأخذت الرياح تتقاذفها على مقربة من الشاطىء .

« وشعرت بالحرية اخيراً ، الحرية من العبء الذي فرضته على نفسي طواعية وحماساً مني ، لأخدم هذا الرجل الذي احببت ، والذي لم اعرف اعظم منه ، والقضية التي وقف حياته عليها .

« وها هي العربية السعودية ، تخلف وراءها الآن ماضيها الطويل اللامع ، لتحتل مكاناً متواضعاً في العالم الحديث ، الذي لن تستطيع ان تسهم في ترقيته

وإعلاء شأنه ، وانما يقتصر دورها على الاقتراض ، من عقائدياته ومقاييسه ، مما يتناقض كل التناقض مع الرسالة التي حملتها الجزيرة العربية منذ وجد الاسلام والتي تجددت بالبعث الوهابي . وبالطبع سيظل الاسلام دين الجزيرة العربية وغيرها من بلاد الشرق ، تماماً كما بقيت المسيحية ديانة الغرب ، على الرغم من الواقع المادي والشكلي الذي يعيش فيه . ولكن هذه العقائديات الجديدة ستتغلب على الجزيرة العربية ، ويتوقف الدين عن ان يلعب الدور الاساسي في حياة البلاد السياسية .

« وفي مثل هذا الجو الجديد ، أراني اعود الى تمثيل دور الذئب الوحيد في صحراء مهجورة ، فأعود الى تخيلاتي وانطباعاتي وأحلامي ..

« ولكن هذه الاحلام ، قد بدأت في الانهيار ، أمام هذه الموجة الطاغية من الرفاهية والبذخ ، التي انطلقت من عقالها ، متحررة من ذلك العهد المتزمت الصارم الذي كانت تعيش فيه ، لتحطم المثل العليا والمبادىء الانسانية الرفيعة والبسيطة ، التي قام عليها المذهب الوهابي ، بطبيعته وعقيدته ، وقيمه الروحية . »

وكانت المرارة الطابع الشائع في كتابات فيلبي الاخيرة . فقد تحطمت الصورة التي عاش فيها حياته الطويلة في الصحراء لتحل محلها صورة اخرى تختلف عنها كل الاختلاف في مدلولاتها ، ومفاهيمها ، وأوضاعها ، وخطوطها العريضة .. اسمعه يقول :

« ها هي الاجيال الماضية ، تختفي .. وها هي الاميرة طرفة بنت فيصل ، عمة الملك عبدالعزيز ، تنتقل الى رحمة الله . فتختفي باختفائها عن المسرح سيدة عظيمة ، لم يدانها احد في التقوى والصلاح . وها هو جيل جديد يظهر من الأمراء والاميرات ، وبين الجيل الماضي الذي انطوى والجيل الجديد الذي ظهر ، خلافات كبيرة في الشخصية والعادات والتقاليد . فقد استمدها اولئك من طبيعة الصحراء وحياتها وخشونتها ، بينما استمدها هؤلاء من رغد العيش ورخائه ومتع الحياة . »

ومع هذا الانتقال من الحديث عن الماضي الى الحاضر ، ومع هذه المرارة

النفسية ، المشفوعة بالألم والحقد ، من خروجه طريداً من العربية السعودية ، كما سنرى في فصل لاحق ، يكثر فيلبي من الحديث عن الاحوال التي تسود البلاد ، باسلوب الناقم الساخط ، ولاسيما عن الحاشية الملكية وأفرادها الذين ينعتهم بالانتهازية وجمع الاموال والثروات ، لانفسهم ، بعد ان جاءوا الى البلاد أول ما جاءوا لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً . ويستطرد الى البحث في الاوضاع الاقتصادية والموازنة وكيفية انفاقها ، لاسيما بعد ان ازداد عدد الامراء والاميرات زيادة كبيرة ، فأخذت نفقاتهم تستنزف نحو خمس الموازنة العامة ، مما لا اود الخوض فيه ، او الاسهاب في الحديث عنه .

ويرى فيلبي ان البترول ، كان السبب الرئيسي في المشكلة التي وقعت بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا حول البريمي . فقد ذكر في الصفحة (٤٨) من كتابه « اربعون عاماً في الصحراء » ما نصه : « اصبحت البحرين من البلاد المنتجة للبترول ، وكذلك شبه جزيرة قطر ، التي تبشر بأن تكون من أهم المراكز انتاجاً للبترول في الجزيرة العربية »، أما المحميات التسع الاخرى على ساحل الخليج فلم يتقرر بعد ما اذا كانت ايضاً من البلاد المنتجة للزيت ، وإن كانت الاحتمالات كبيرة فيها . لكن مثل هذا الاحتمال أثار مشكلة من أعقد المشاكل بين العربية السعودية وبريطانيا ، بالنسبة لملكية واحة البريمي . وقد تم الاتفاق على احالة الموضوع الى لجنة تحكيم دولية ، تشترك فيها كل من بلجيكا وباكستان وكوبا . وفي غضون ذلك ، وبينما جلسات التحكيم تعقد ، كان خبراء طبقات الارض من البريطان والامريكان ، يعملون باستمرار في التنقيب في هذه المنطقة ، للتثبت من احتوائها على الزيت ، وتقرير اهمية هذا الخلاف الدولي من الناحية الاقتصادية . وعندما فشلت اجراءات التحكيم في جنيف عام ١٩٥٩ في ظروف مثيرة ، سارعت الحكومة البريطانية الى احتلال المنطقة المختلف عليها عسكرياً ، مما مكنها بالفعل ، من السيطرة على جميع المنطقة الواقعة بين قطر وعدن من سواحل الجزيرة العربية ، وهو ما تبلغ مساحته ثلث الجزيرة العربية كلها . ولم يستطع خبراء البترول وعلماء طبقات

الأرض حتى الآن التثبت من وجود الزيت ، في هذه المحميّة الجديدة التي ألحقت بالامبراطورية البريطانية » .

ويمضي فيلبي بعد ذلك ، الى الحديث عن هذه الامارات والمحميات العربية الغنية بالزيت والتابعة لبريطانيا ، على هذه الصورة او تلك ، فيقول : « ولما كانت هذه الامارات تابعة لبريطانيا فهي لا تستطيع ان تكون اعضاء في الجامعة العربية ، على الرغم مما قد ينتج عن مساهمتها فيها من انعاش اقتصادي ومالي لمختلف البلاد العربية . لقد خلق الله الجزيرة العربية التي تقع بين بحارها الاربعة ، وحدة واحدة من الناحية الجغرافية والجيولوجية والعرقية الحياتية . وحتى في الايام السالفة التي كان الانتقال فيها ، يصعب من مكان الى آخر ، بسبب تعذر طرق المواصلات وانعدامها كنا نسمع بهجرات ضخمة من بني البشر ، بحثاً عن الماء وانتجاعاً للكلأ . اما الآن ، وقد قربت المسافات بل وانعدمت ، بطريق الجو والقاطرة والسيارة ، اصبحت هذه الجزيرة منقسمة الى عدد كبير من الدويلات والامارات ، بعضها غني وافر الثراء ، وبعضها فقير شديد الادقاع . وتفصل بينها حواجز مصطنعة من العوامل السياسية والاقتصادية ، فتقوم الحدود ومراكز الجمارك ، وحرس السواحل ، ونظم جوازات السفر . وقد لا تتحقق الوحدة العربية ، ولكن مما لاشك فيه ان هذا التوزيع غير العادل ، في ثروات البلاد ، سيكون مصدر شقاء للبلاد الغنية بقدر ما هو للبلاد الفقيرة . ولن يكون ثمة مجال ، لأن تلعب البلاد العربية دورها في السياسة العالمية ، إلا اذا وضعت ثروات البلاد العربية كلها في مكان تجتمع فيه لمنفعة هذه البلاد جميعها . ولكن ثمة مصالح كثيرة متشابكة تحول دون تحقيق هذه الامنية . فالرباط القوي الذي يتمسك به العربي هو رباط الاسرة او العشيرة ، ولم يصبح الشعور القومي عاملاً حاسماً حتى الآن » .

وقد يكون في قول فيلبي هذا بعض التلميح الى ان مصالح الاستعمار ، ممثلاً في بريطانيا ، هي التي تحول دون تحقيق الامنية الغالية في الوطن العربي .

وهذه المصالح هي التي تلعب دورها في تقوية الشعور القبلي ، وإضعاف الاحساس القومي المشترك . ولكنه يعترف في مكان آخر ، بأنه كان دائماً يعارض الروح الاستعمارية الممثلة في بريطانيا ويقاومها اشد مقاومة ، وانه كان دائم المطالبة لها ، بتغيير سياستها تجاه العرب ، فهو يقول : « واذا كان هدفي الماضي دائماً ، الحملة على اعمال الاستعمار القديمة ، وتأييد تحرر العرب وغيرهم من الشعوب ، فاني ارى من واجبي الآن ، ان احث الشعوب التي تحررت ، بأن تلتزم جانب الحكمة والحفظ ، في استعمال الحظ الرخي الذي اصابها ، لتصبح قادرة على ان تكون عضواً محترماً، له مكانته في مجموعة شعوب العالم . »

لكن فيلبي هذا ، الذي يتظاهر بالحملة على الاستعمار ، لا يخرج عن الروح الاستعمارية التي تمثلها بلاده . الا في الحدود التي يشعر فيها ان هذا الخروج لا يتعارض مع القواعد الاساسية لسياسة بلاده ، فقد ايد سياسة بلاده التي منحت الهند والباكستان حريتهما ، وعلل هذا التأييد بأن كلاً من الدولتين قد اختارت البقاء ضمن نطاق جامعة الشعوب البريطانية بعد تحررهما ، مما يقيم الدليل الناصع على صواب السياسة التي اتبعتها بريطانيا في تحريرهما . ثم قال : « ولم اكن اتوقع ان اعيش لأرى ذلك اليوم ، الذي ينتهي فيه حكم بريطانيا للهند ، لتخلفه ثلاث دول مستقلة هي الهند والباكستان وبورما . ولاريب في ان حكومة العمال التي اتخذت هذه الخطوة بكل جرأة وشجاعة ، تستحق كل ثناء وتقدير ، وإن كان هذا الثناء يجب ان يوجه اولاً الى الرأي العام البريطاني نفسه ، الذي اذعن لهذه النتيجة . »

ويمضي فيلبي قائلاً : « وقد ترك العمل الذي قامت به بريطانيا في الهند ، آثاره في كل مكان . واني لأشك في انه لو لم يقع لما حصلت اندونيسيا على استقلالها من هولنده بمثل تلك السرعة ، ولما تخلت فرنسا عن مستعمراتها السابقة في الهند ، لتصبح جزءاً من جمهوريتها . وقد مدت بريطانيا يدها السخية ايضاً الى جزيرة سيلان ، المكان الذي ولدت فيه ، فمنحتها استقلالها ، لتصبح

أيضاً ، شريكة في جامعة الشعوب البريطانية . واخيراً ، بدأت في تصفية حساباتها مع مصر ، ولكن دون ان تتصف مفاوضاتها الجديدة ، بنفس الحماس الذي ساد مفاوضاتها السابقة لتحرير الهند وبورما وسيلان والباكستان . ولاريب في ان تصفية الحساب ، ستؤدي الى استعادة مصر ما فقدته من حرية ، بفضل فشل سياستها في أيام الملكة فكتوريا (! ! !) كما ان السودان قد حصل على استقلاله ، بعد ان قطع جميع ارتباطاته السابقة بجارته مصر .

« وتخلصت ليبيا الى الغرب من الحكم الايطالي ، وأصبحت دولة مستقلة تحت حكم السنوسي ، وإن كانت تفتقر في دعم وجودها وكيانها الى مساعدة بريطانيا وامريكا اللتين طلبتا الحصول على بعض القواعد العسكرية مقابل المساعدات المالية التي تقدمانها الى ليبيا . ولا يعلم انسان ما اذا كانت هذه البلاد ستنضم اخيراً الى مصر . ولكن خلق اسرة حاكمة جديدة في هذا البلد الفقير (كان فقيراً) ، يجعل مثل هذا التطور أمراً بعيد الاحتمال ان لم يكن مستحيلاً . ذلك لأن المصالح الشخصية والعائلية تكون العائق الاساسي في طريق تحقيق الوحدة العربية ، وهي الوحدة التي يحلم بها الشعب العربي ويعارضها حكامه .

« ويرتبط الاردن والعراق (العراق قبل الثورة) ، بمعاهدات مع بريطانيا على الرغم من استقلالهما . وهذه المعاهدات ، اكثر قبولاً لدى الحكام في البلدين منها لدى الشعوب . فمن ناحية الاردن مثلاً ، تحددت حريته بالمساعدات المالية التي يحصل عليها من بريطانيا للابقاء على كيانه . وهي مساعدات ضخمة لا يمكن ان تقدم بدون ثمن . أما العراق ، فعلى الرغم من ثرائه وقدرته على ادارة نفسه ، الا ان حكومته تشعر بحاجتها الى ضمانة فعالة ، من بريطانيا ، لوقايتها من خطر هجوم خارجي (ارتباط العراق بحلف بغداد قبل الثورة) » .

الا ترى معي ان في هذه الآراء بعض الغرابة ان لم يكن كلها ؟ اولا يشعر الانسان عند قراءته لها بأن فيلبي يعتقد بأن استقلال الهند والباكستان وبورما وسيلان كان منحة من بريطانيا ، لا نتيجة جهاد طويل قامت به شعوبها ، وإن هذه المنحة امتدت حتى شملت اندونيسيا ايضاً ، التي أرادت هولنده ،

تقليدها ، فتصدقت على الشعب الاندونيسي بحريته . وتمتد هذه الغرابة ايضاً ، فتؤيد الحصول على القواعد العسكرية في ليبيا والارتباطات التعاهدية مع الاردن ، مقابل الأموال التي تدفعها بريطانيا لمساعدة هذين البلدين ، كما تؤيد بصورة غير مباشرة انضواء العراق، قبل ثورة الرابع عشر من تموز، الى حلف بغداد ، خوفاً من الخطر الشيوعي ، وانفصام اية علاقة بين مصر والسودان ، بالاضافة الى اعتبار وجود الاسر المالكة ، العقبة الرئيسية في طريق تحقيق الوحدة العربية ، مع العلم ، بأن هذا الرأي يفتقر الى الثبات والصمود أمام محك الحقائق ، علماً وادراكاً بأن الاستعمار ، والاستعمار وحده ، هو العقبة الكأداء ، التي تحاول الوقوف في طريق تحقيق هذه الوحدة التي يتطلع اليها كل عربي .

ويمضي فيلبي في مغالطاته هذه ، أو اخطائه ، اذا شئنا ، نسبة ارائه الى البراءة ، وذلك عند الحديث عن اسرائيل . فهو يقول في الصفحة ٤٧ من كتابه « اربعون سنة في الصحراء » ما نصه : « ولاريب في ان وضع البلاد العربية يعتبر مرضياً كل الرضى ، لولا وجود ذلك العامل من الخلاف والنزاع القائم في وسطها ، وأعني به دولة اسرائيل . فاسرائيل التي لا تستطيع العيش دون المساعدات الاجنبية والتي لم تتحرر من المصاعب الاقتصادية ، تقف موقف التعنت من جيرانها العرب ، وان كانت لا تؤلف خطراً حقيقياً على اية دولة عربية . والمنازعات القائمة ليست الا ثمرة طبيعية للخلاف العنصري والسياسي ، اذ لن يستطيع العرب نسيان ما لحق بهم من هزيمة عام ١٩٤٨ ، وهي الهزيمة التي اسفرت عن خلق هذه الدولة الغريبة في وسطهم . واللاجئون هم الذين يتألمون بصورة خاصة من استمرار هذا التوتر في العلاقات ، وهم العرب الذين طردوا أو هاجروا من ممتلكاتهم في فلسطين ، أو اليهود الذين خرجوا أو اخرجوا من مختلف البلاد العربية ، التي كانت كريمة في ايوائهم . ولم يكن نزاع العرب مع هؤلاء اليهود ، وانما مع اليهود الغرباء الذين غزوا فلسطين بحماية من امريكا وبريطانيا وتشجيعهما . »

الا تتضمن هذه الفقرة سلسلة من المغالطات ؟ حتماً . اذ ان كل ما فيها مغالطة او خطأ ، وإن اختفى وراء ستار من التظاهر بالتأييد للعرب ، فهو يعتبر ان الوضع في البلاد العربية مرض كل الرضى ، مع ادراكه ، بأن الوحدة العربية هي السبيل الوحيد ، لتحقيق هذا « الارضاء » الذي يشير اليه ، وهو وان اعترف بأن اسرائيل تعتمد في اقتصادها وأوضاعها على المساعدات المالية التي تتلقاها ، لا يشير الى ان هذه المساعدات لا يمكن ان تدفع بدون ثمن ، كما ذكر عن تلك التي تقدم الى كل من الاردن وليبيا ، وان هذا الثمن ، كان يحتم على من يدفع المساعدات ، ارغام اسرائيل على الاذعان لقرارات الأمم المتحدة . وهو يعزو الخلاف مع اسرائيل ، الى دوافع عنصرية وسياسية ، مع ان الحقيقة ليست كذلك ، وانما هي صراع على الوجود والبقاء ، لم ينجم عن آراء عنصرية عند العرب ، وانما نجم عن « استعمارية عنصرية طاغية » ، مثلتها الصهيونية ، على مسرح فلسطين ، بتأييد من الدول التي تبنتها وأقامتها . وهو يعزو اقامة اسرائيل الى هزيمة العرب في الحرب ، متجاهلاً الحقيقة التاريخية ، وهي انه لم تكن هناك هزيمة وانما كان تآمر من الاستعمار واعوانه ، مع الصهيونية ، في خلق اسرائيل . وهو اخيراً وليس آخراً يقرن بين اللاجئين العرب الذين اخرجوا من ديارهم عنوة واغتصاباً ، فأخذوا يعيشون حياة البؤس والفاقة في المخيمات ، وبين اليهود ، الذين اغرتهم الصهيونية على الخروج من البلاد العربية ، للاقامة في اسرائيل ، وهي مقارنة تفتقر الى كل مقومات المنطق والحق والعدالة .

ولفيلبي آراء صريحة في قضايا الحرب والسلام ، تنسجم مع طبيعته وميوله واتجاهاته فهو يقول مثلاً : « لقد جاءت الحرب الكونية الأولى ، لتقطف أرواح الملايين من الناس ، الذين مضوا الى اجداثهم ، قرابين على مذبح اله الحرب ، كما كانت القرابين من الرجال والنساء ، تقدم على هياكل الالهة ، عند الوثنيين ، في العصور السالفة . وقد مضى شقيقاي الاصغران مع رفاقهما ، الى العالم الثاني ، ضحايا على مذبح الحرب الكونية الأولى ، كما

مضى معهما الكثيرون من الاصدقاء والرفاق الذين عرفتهم وأحببتهم . ولعل وفاة شقيقي ، بالاضافة الى الملايين الذين قتلوا في تلك الحرب ، هي التي جعلتني اكره الحرب ، على انها وسيلة لحل المشاكل بين الشعوب ، وهي مشاكل نابعة من الاطماع والمنافسات ، التي لا شأن للشعوب بها وإن كانت هذه الشعوب هي التي تتحمل نتائجها . ولكن لا مفر من إلقاء بعض الملامة على الشعوب ، التي لو فكرت بالحرب وأوزارها بعض التفكير ، لتغير الوضع كل التغيير .

« وما ان انتهت الحرب الكونية الأولى ، حتى نسي الناس آثامها وفظائعها ، واخذوا يستعدون لحرب جديدة ، أخذت بدورها ، تضع البذور لكارثة ثالثة ، قد تعقبها ، رابعة ، اذا استطاعت البشرية ان تعيش بعد تجربتها الحمقاء الثالثة . اننا نتحدث عن السلام ، بينما نتأهب للحرب ، للحفاظ على السلام ، وهكذا دواليك ، ماضين بهذه الدائرة الشريرة الى ما لا نهاية . ونحن أشبه ما نكون بالكلاب الجائعة في مدينة من مدن الشرق نطارد فريسة من الفرائس ، فاذا ما سقطت هذه الفريسة في ايدينا ، انقلبنا ، على بعضنا نتشاجر ونتخاصم . أما برج الأمم المتحدة ، فلا يعدو ان يكون بيتاً منقسماً على نفسه ، كبرج بابل ، وكل من فيه ينادي بالتعلق بنفس المثل العليا من الحرية والديموقراطية وحقوق الانسان ، دون أن يفهم حقاً ما تعنيه هذه الكلمات ، أو مفسراً اياها وفقاً لأهوائه ووجهات نظره . وهكذا انقسم العالم الى فئتين ضخمتين يصعب التوفيق بينهما : هما فئة الشيوعيين ، والشعوب المحبة للحرية ، او فئة الاشتراكيين والرأسماليين . وليست الشيوعية في الحقيقة الا تطوراً منطقياً معقولاً للاشتراكية ، وهو اصطلاح ، اصبح يختلط في الغرب ، مع الاستعمارية الروسية التي قد لا تكون اسوأ من أنواع الاستعمار الاخرى . ولكن « الشعوب المحبة للحرية » ، اصطلاح جديد لا افهم والله ما يعنيه ، على الرغم من تكراره كل يوم على شفاه الناس في العالم الانكلو – سكسوني . هل يشمل هذا الاصطلاح اليونانيين في قبرص ، أو الشعوب الملونة في جنوب افريقيا أو

جماعات الماو ماو في كينيا ، وأهالي مصر ومراكش وتونس ، وغيرها من بلاد العالم ؟ ولاريب في ان الوصف الذي يطلقه اهل هذه البلاد ، على اولئك الذين يحكمونهم ، لا يمكن ان يكون حب الحرية ، لأن ما يبحث عنه ، هؤلاء لا يتعدى الحرية . وقد نطلق عليهم نحن اسم الثائرين والاشرار وعصابات الارهابيين وما شابه ذلك من العبارات . ونرى في هذه الاوصاف التي نطلقها مبرراً لنا لوضع تشاريع صارمة قاسية ، تتضمن القضاء بعقوبة الاعدام على كل من يحمل السلاح ، حتى ولو كان من النساء ، وتفرض اقامة اشكال من المحاكم تعتبر في حد ذاتها ازدراء بالعدالة وامتهاناً لها .

« وبينما نرى العالم الحر ، ينتفض ، لصدور الحكم بالاعدام على ستة من الناس لقيامهم بأعمال هدامة ضد سلامة الدولة في مصر – اعتقد ان المقصود بهم الجواسيس اليهود – في قضية التجسس المعروفة في عام ١٩٥٤ . نرى ان العالم نفسه يسكت عن الفظائع التي ترتكب في كينيا ، والتي وصفها مراسل التايمس اللندنية قائلاً ان خمسين رجلاً يقضى عليهم بالموت في كل شهر في كينيا ، وان ثلاثمائة آخرين يقتلون برصاص قوات الأمن ، وان ٤٦ ألفاً من الناس قد اعتقلوا دون محاكمة » .

ولقد سمعنا الكثير ، عن نزعة فيلبي العمالية وتأييده للحزب : وأرى من واجبنا هنا ان نقتطف بعض الآراء التي اوردها في كتبه المتعددة ، عن هذا الحزب الذي كان يتمتع باعجابه وتقديره . قال في الصفحة ٣٠٩ من كتابه « أيام عربية » ، ما نصه : «كان الوضع السياسي في اوروبا ، يسوء يوماً بعد آخر ، وكان خوفي من الحرب يشتد فقد خشيت ان تصبح أداة في عالم السياسة ، والنشاط المكبوت الطويل . وكان اشتراكي الفعلي في مشاكل ذلك العهد هو السبيل الوحيد لإقناع البلاد ، بأن الحرب مهما كانت نتيجتها ، تعبير عن اليأس ، لا يمكن له ان يسفر عن حل أية مشكلة من المشاكل المعقدة . وكانت النقمة تشتد في دوائر مختلفة على سياسة « التهدئة » التي اتبعها المستر تشمبرلين ، مع دولتي المحور ، وبات من المتوقع ، ان تؤدي هذه الحملة

المنظمة اذا استمرت ، الى وقوع الحرب . وكنت لا أزال عضواً في الجمعية الفابية — جمعية سياسية بريطانية تنادي بحل المشاكل بطريق سلمي — وقد وضع اسمي في قائمة مرشحيها في الانتخابات المقبلة . وسرعان ما دعيت لمقابلة المستر « شيبرد » ، الذي عرض عليّ ، الاختيار بين دائرتين انتخابيتين لأرشح نفسي في احداهما ، عن حزب العمال . وكانت احدى الدائرتين في فلينتشاير ، حيث قيل لي ان المقعد شبه مضمون للعمال ، إذا أجهد المرشح نفسه في دعايته الانتخابية . أما الدائرة الثانية ففي ايبينغ .

« وقد اخترت الدائرة الثانية ، رغبة مني في الاصطراع مع زعيم الفريق الداعي الى الحرب ، وسرعان ما استدعاني ممثلو حزب العمال ، في وود فورد ، وأعربوا لي عن رغبتهم في الاقتراع لمنافسي المستر ونستون تشرشل ، لاسيما وانهم لا يحبون آرائي ، اذ على الرغم من اطلاعي الواسع على الشؤون الخارجية فانهم يريدون مرشحاً ، واسع الاطلاع في الشؤون الداخلية .

« وبدأت ادرك ان حزب العمال أصبح اكثر اتجاهاً للحرب من حزب المحافظين ، ولكنني واصلت الدعوة الى السلام في سلسلة من المقالات نشرتها لي جريدة المانشستر غارديان ، وغيرها من الصحف ، التي لم تفتأ تناقش هذا الموضوع . وسرعان ما اتصل بي اللورد تافيستوك وجون بيكيت ، وبين غرين من ممثلي منظمة حزبية صغيرة تطلق على نفسها اسم حزب الشعب . وعرضوا عليّ ان أخوض معركة انتخابية فرعية باسم حزبهم في مقعد خلا بموت السير فيليب ساسون ، وعلى اساس الدعوة الى السلام . وعلى الرغم من انني لم اكن ميالاً الى هذا الحزب من نواحيه العامة . إلا أنني كنت اتفق معه في معارضة الحرب . فقررت قبول الاقتراح وخوض المعركة ، التي كانت طلائعها تبشر بفوز المرشح المحافظ . ومع ذلك فقد نافسه مرشح الاحرار منافسة شديدة . وقد اتفق المرشحان على الدعوة الى الحرب ، بينما كنت ادعو الى السلام . وأسفرت النتيجة عن خسارتي لقيمة التأمين ، مما دلل على أن الشعب البريطاني كان يتجه في هذه المرحلة اتجاهاً واضحاً

نحو الحرب » .

يتضح من هذه الآراء التي اقتطفتها ان فيلبي كان يؤمن ايماناً جازماً بالسلام ، لحل المشاكل العالمية ، ويعارض الحرب معارضة عنيفة ، متأثراً بدوافع شخصية وعامة . وقد اشتدت نقمته هذه على الحرب ، بعد الحرب العالمية الثانية وبعد ظهور اسلحة الدمار المخيفة الجديدة . فقد كتب في احد كتبه الأخيرة ، مبدياً رأيه في اية حرب قادمة يقول : « ومع ذلك فنحن نواجه الآن احتمالات قاتلة ، تتضاءل أمامها ، كل ما خبره العالم من ويلات الحروب السابقة ، اذ اننا نواجه خطر الفناء ، عن طريق الاسلحة النووية الجديدة وما يرافقها من مختلف أنواع الصواريخ . وها نحن نرقب كالطائر ، الذي يقف عاجزاً أمام الثعبان ، ذاهلين ، هذه المخاوف التي تنجم عن الاستعدادات الجبارة ، لانتاج هذه الاسلحة الفتاكة ، عند الدول التي تعرف انتاجها ، مدركين انها ستستعمل ضدنا ، واننا سنستعملها ضد الآخرين ، وغير مقدرين تمام التقدير لما يمكن حدوثه ، في حالة نشوب الحرب .

« اننا لا نذكر من مذابح هيروشيما وناغازاكي ، الا انها كانت المقدمة للنصر الذي حققناه ، في الحرب الكونية الثانية ، ولم اسمع صوتاً مسؤولاً ينطلق في الاحتجاج على هذه الفظائع او استنكارها ونقد المسؤولين عن استعمالها . ونحن لا نعرف حقاً من الذي استعمل هذه الاسلحة ، ولكننا نعرف ان القرار النهائي قد صدر عن الرئيس ترومان نفسه . ولا ريب في ان ترومان سيقدم حساباً عسيراً أمام محكمة اسمى ، من المحاكم الارضية القائمة في عالمنا ، لا بالنسبة لهذا العمل فحسب ، بل بالنسبة لنتائجه ايضاً ، اذ انه فتح الباب على مصراعيه أمام جرائم هائلة في المستقبل تضؤل امامها جرائم هتلر وموسوليني .

« ومن الغريب ان العالم الذي ثار في الحرب الكونية الأولى ، على استعمال الغازات السامة ، فأقر تحريمها ، يقف الآن مكتوف اليدين امام هذا السلاح الرهيب ، الذي تفوق نتائجه وآثاره ، نتائج الغازات السامة وآثارها . وقد قيل

لنا : ان منظمة حلف شمال الاطلنطي ، قد خولت بأن تضع خططها ، على أساس الافتراض ، بأن الاسلحة النووية ستستخدم في الحرب المقبلة . أما من اية جهة ستصل القنبلة الأولى ، من وراء الستار الحديدي ، فنحن لا نعرف ابداً ، ولن يمكننا ان نعرف الا بعد انفجار القنبلة نفسها ، بينما هناك الكثيرون لن يقدر لهم ان يعرفوا ذلك ابداً » .

ويحاول فيلبي ، بعد كل هذه الأهوال التي يتحدث عنها ، ان يعود الى بساطة الصحراء ، فيقول انه في عام ١٩١٨ وكان آنذاك موظفاً كبيراً في الحكومة البريطانية . ذكر للملك عبدالعزيز ان في وسعه ان يكون على خير العلاقات مع العالم ومع بريطانيا بصورة خاصة ، إذ انها الدولة الوحيدة التي كانت تهتم به في تلك الأيام ، اذا ما قام بالغاء الغزو في بلاده . فرد عليه الملك عبدالعزيز قائلاً : « بأي حق تقدم لي أنت ، يا ممثل بريطانيا ، هذه النصيحة ، في الوقت الذي يقع فيه كل يوم عشرات الالوف من القتلى ، في اوروبا في الحرب التي تخوضها بلادك » .

وأرى ان نختم هذا الفصل الذي سيطول بنا البحث فيه ، لو تناولنا كل رأي من آراء فيلبي ، وهي كثر ، باقتباس ، ما قاله عن لورنس ، صنوه ومنافسه على مسرح السياسات العربية ، وحامل الآراء الرئيسية التي تتعارض مع رأيه كما سبق وشرحنا في حينه .

فهو يعتقد ، ان انصار لورنس ، من ناحية ، وخصومه من ناحية اخرى ، قد غالوا في كيل المديح للورنس أو توجيه الاتهامات اليه . فتشبيهه بنابليون ، وتسميته بملك العرب غير المتوج ، وامير مكة ، وغيرها من الاوصاف المماثلة ، تعتبر كلها في رأيه اغراقاً في المبالغة وغلواً في الجنوح الى الخيال ، وخلق الاساطير بالنسبة الى رجل اصبح يعتبر اسطورة في تاريخ العرب الحديث.

ويتناول فيلبي ايضاً أقوال شانئي لورنس وحملاتهم عليه بالنقد والتحليل وفي طليعتهم الدينغتون ، الذي يكيل المثالب على لورنس ، فيتهمه بمركب

النقص في حياته ، لأنه جاء ثمرة علاقة غير مشروعة ، كما يتهمه بالشذوذ الجنسي ، المتمثل في طبيعته الناعمة ، وميله الى ارتداء الملابس الحريرية الناعمة الشفافة .

وبعد ان يرد فيلبي على هذه الأقوال ويدحضها ، مؤكداً ان لورنس كان انساناً يتعشق الفن والجمال والحياة الفكرية ، وانه كان ميالاً الى التقشف في حياته الخاصة وقتل النزعات والحواس الشهوانية ، لأن طبيعة عمله في الصحراء هذه اقتضت منه ان يتجه هذا الاتجاه ، ثم يقول : « ومن حق الدينغتون بالطبع ، ان يستنتج ما يشاء من مثالب ، وأن يقيم الدليل عليها ، للحصول على حكم ناطق من عالم المحلفين الذين يوجه حديثه اليهم . ولكنه خسر قضيته بالطبع ، اذ ان الادلة التي قدمها ، كانت واهنة ، ضعيفة لا يؤبه بها .

« حقاً لقد كان لورنس شيطاناً وضالاً ، فقد رفض التقيد بقيود السلوك وأحكام المنطق ، التي لا يختبرها بنفسه ويقر صلاحها ، ولم يكن ليتقيد دائماً حتى بالمقاييس التي يرتضيها . فالظروف في رأيه ، هي التي تغير القيم . وكان يجد لذة في احتقار رتابة الاجراءات الرسمية من مدنية وعسكرية ، معتقداً ان ذوي العقول الصغيرة هم الذين يحتاجون الى النظام الذي يفرض عليهم للسير بالجهاز الحكومي ، سيراً وئيداً صحيحاً . وكان يرتدي في الصحراء ، الثياب الجميلة التي لا يرتديها نبلاء مكة الا عندما يكونون في المدينة وفي الاعياد والمناسبات . أما في القاهرة ، فكان يلبس الملابس العسكرية التي لا يرضى عنها المشرفون على تنظيم الجيش . وكان يحب المصورين ، ويقدر الدعاية حق قدرها ، لانها السبيل الذي يوصله الى تحقيق اغراضه المهمة . وكان سيىء الادارة للشؤون المالية ، ولو كان غيره لاتهم بسوء الادارة .

« وكان من العسير على الانسان ان يفهم تماماً لماذا ، كان لورنس ، يقبل على هذه الهفوات عن سابق قصد وتصميم ، الا إذا كان يرى بأن تأكيد حقه في اتباع الطرق غير المستقيمة التي يراها ، هو خير سبيل يوصله الى الاستقلال

في رأيه ودعم القضية التي اوقف نفسه عليها ، بالطريقة التي يراها مناسبة . وقد يتهم بالجنون، لكن جنونه هذا كان على طريقته الخاصة ، ومن الحمق ان نعلق كبير اهمية ، على تلك الأعمال الشاذة التي كان يقوم بها ، والتي لم تكن لتعدو طواف عقل ذكي يتلمس طريقه في عالم من الدسائس والمرارات ، لايجاد حلول مثيرة لبعض المشاكل ذات الخطورة والاهمية التي خلفتها الحرب الكونية الأولى .

« وإذا كانت تقديرات لورنس السياسية قد اخطأت دائماً ، فانه لم يكن الوحيد في هذه الاخطاء . ولكن الشيء البارز ، انه كان يوحي لكل انسان تقريباً ، بأن ما يراه ، هو الصحيح والصواب . ولم يكن من السهل خداع أناس من امثال لويد جورج وكيرزون وتشرشل وكليمنصو وهوغارت وغيرهم ولكنهم جميعاً ايدوه في آرائه ووقفوا الى جانبه ، في الخطة التي رسمها ، لوضع مصير العالم العربي ، تحت رحمة الاسرة الهاشمية . وإذا كان كليمنصو قد تبين سريعاً ، خطأه في الموافقة على جلوس فيصل على عرش سوريا ، فإن تشرشل ، لم يقدر فشله هناك ، وانما سارع الى تهيئة فرصة جديدة له ، في العراق ، في ظل الحكم البريطاني . ولاريب في ان لورنس ، هو الذي مهد السبيل لإقناع تشرشل ، باتخاذ هذه الخطوة ، بالتفاهم الذي حققه بين فيصل ووايزمن على اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .

« ولاريب ايضاً في ان نفوذ لورنس هو الذي ادى الى قبول البريطانيين ، بامارة عبدالله في شرق الاردن . وبدا له ان حلمه في عزل الوهابيين المقيمين في الصحراء ، عن العالم المتمدن ، بنطاق من الملكيات والامارات الهاشمية ، قد تحقق . ولاريب في ان لورنس قد تلقى انتصار ابن سعود ، على جيش الشريف في عام ١٩١٩ ، ببعض الامتعاض ، وان حقق له هدفاً اساسياً ، في اضعاف شوكة الملك حسين العجوز ، الذي عارض علناً في تحقيق خطط لورنس ومشاريعه. وعندما حقق ابن سعود انتصاره النهائي على الملك حسين عام ١٩٢٤ كان لورنس ، قد اختفى من المسرح العربي ، ولم يعد يهتم بمصير الملك الشيخ

الذي قضى بقية حياته في المنفى . وإذا كان الشيخ قد فقد عرش الحجاز ، فقد احتفظ اولاده ، بمراكزهم في الملال الخصيب في ظل بريطانيا .

« وهناك حقيقة ثانية لابد من قولها ، وهي ان لورنس لم يلعب إلا دوراً ثانوياً ، في المراحل الأولى من الثورة العربية . فقدكان البطل الحقيقي فيها السير رونالدستورس اليد اليمنى للسير هنري مكماهون ، الذي قام بالمفاوضات السرية الدقيقة مع الشريف حسين وولده عبدالله ، في كل من القاهرة وجدة ومكة والطائف . ولم يبدأ دور لورنس الفعلي الا في الثالث والعشرين من تشرين الاول عام ١٩١٦ ، عندما قام بأول زيارة لفيصل في الحمره ، ووعده بأن يقدم اليه ، كل عون ومساعدة .

« وثمة نقطة اخرى ، لابد من تأكيدها وهي ان لورنس هو الذي اختار فيصلاً من بين اخوته ، ليتولى قيادة الثورة العربية الفعلية ، لانه وجد فيه الانسان العاقل الذكي ، الذي يستمع الى النصح ، والمستقيم في وسائله ، بخلاف عبدالله ، الكثير الالتواء ، وأخويه الآخرين اللذين لا أهمية لهما . وكان من الطبيعي ان يتولى امير هاشمي قيادة الحملة العسكرية التي يجب ان يقوم بها العرب انفسهم للدفاع عن قضيتهم . وعندما اختار فيصلاً ، لهذه الغاية ، فذلك ، لان فيصلاً ، كان اكثر قبولاً لدى القبائل العربية من عبدالله ، وقد اسفر تعاون الرجلين ، عن توجيه الحملة العربية الى نهايتها الظافرة » .

هذه هي آراء فيلبي في لورنس ، وهي آراء رغم ما فيها من تظاهر بالاعجاب ينطوي على الاطراء ، تضم في طياتها بعض مظاهر النقد الدقيق لكثير من أعماله وتصوراته ، في قالب ناعم ، لا يشتمل على مرارة النقد اللاذع ، الذي يظهر في بعض الكتب الاخرى التي كتبت عن لورنس ، وفي مقدمتها كتاب الدينغتون هذا ، الذي اكثر من الاشارة اليه . ولم ينس فيلبي ، في هذه الفقرات التي اقتطفناها ايضاً ، ان يغمز من قناة فيصل ، الذي لم يكن يشعر نحوه بالحب ، كما ظهر من سياق كتابنا كله ، وهي عاطفة تأصلت في نفس فيلبي حتى دفعت

به الى المغالطة ، وتشويه الحقائق التاريخية ؛ عندما زعم ان كليمنصو قد وافق على عرش فيصل في سوريا ، مع العلم ، ان هذا العرش ؛ قد فرض فرضاً على الحلفاء بارادة المؤتمر السوري الأول ، الممثل لشعب سوريا ، بمختلف اجزائها الطبيعية ، وهو مالم ترض به فرنسا في أي وقت من الاوقات ، مما حفزها على محاربة فيصل ، والهجوم على سوريا ، تلك الهجمة الغادرة التي انتهت بمعركة ميسلون .

١٣

الطريد ..

خرج فيلبي في الخامس عشر من ايار عام ١٩٥٥ ، من المملكة العربية السعودية طريداً شريداً ، ليقضي ما تبقى من حياته بعيداً عن الوطن الثاني ، الذي أحبه وقضى فيه اكثر من نصف حياته الطويلة . وغدا بعد هذا العمر الطويل ، الذي عاشه في قلب الصحراء ، مثبتاً أقدامه ، وبانياً حياته كالمنبت لا ظهراً قطع ولا أرضاً طوى ، فليس في مكنته وقد بلغ به السن ما بلغه ، ان يستأنف حياته من جديد ، في ارض جديدة ، حتى ولو كانت ارض الوطن الأول ، الذي نشأ فيه وترعرع تحت سمائه وعمل في خدمته ، سراً وجهراً السنوات الطوال ، راضياً بمنفاه الاختياري ، الذي فرضه على نفسه ، فرضاً ، والذي احبه ولاشك ، وتعلق بحياته التي استهوته ، وطراز معيشته الذي غدا جزءاً من حياته . وآثر ان يقبع في مكان قريب ، يأكل الحنين قلبه ، ويعصر الألم فؤاده ، متطلعاً الى تلك الربوع التي يحمل لها من الذكريات اعزّها وأغلاها ، وتحمل هي له بدورها ، بعض المشاعر ، التي تتفاوت بين الألفة والمعرفة ، وبين الرضى والسخط ، والتنكر والتجاهل .

أجل فقبل اكثر من شهر واحد ، اذاع راديو مكة المكرمة ، ان جلالة الملك سعود ، قد أمر بإخراجه من بلاده وأراضيه ، مع منحه ، جميع املاكه

وأمواله ، لأنه أخذ « يتجه اتجاهات غير ملائمة ، رغم تحذيره عدة مرات ، مما اضطر جلالته الى ان يتخذ معه اسهل ما يمكن من الاجراءات » . وتناقلت الصحف في صفحاتها الأولى ، كما تناولت الاذاعات انباء هذا الطريد ، واحتلت قصته مكانة بارزة في عالم الإثارة الصحفية ، وأصبح موضوعه ، مادة لحرب علنية مشهرة ، بين انصار المملكة العربية السعودية وخصومها . ففي كل يوم قصة جديدة ونبأ حديث ، وتفسير وتعليل ، وخرج بعض هذه الصحف وتلك الاذاعات عن الطور ، في مادتها ، حتى ان بعضها وصل به الحد الى اتهامه بالصهيونية والعمل في السمسرة لها والتجسس لحسابها ، لاسيما وان مواقفه من اللاجئين من أهل فلسطين ، الذين اصبح يعيش الآن حياتهم ، مع الفارق في الرفاهية ورغد العيش طبعاً ، ويحس بحنينهم ولوعتهم ، لم تكن مواقف بارزة ولا لامعة ، ولم يوقف نفسه ، وهو العربي الحب والهوى ، والعمالي النزعة ، والتحرري الميول على حد تعبيره ، على خدمة قضيتهم ، محاولاً بقلمه وهو قلم صاحب صولة وجولة ، وذو نفوذ وسلطان ، شرح ما لحق بهم من ظلم تقف أمامه اعظم المظالم في تاريخ الانسانية صاغرة تافهة .

فما هي الاسباب الحقيقية التي تقف وراء طرد فيلبي وإخراجه من المملكة العربية السعودية .. لاريب في انها عدة ، ولكن وراءها يقف شيء واحد ، وهو الحسد ، والضغائن . فقد كان فيلبي يتمتع بنفوذ لا يكاد يصل اليه انسان في عهد الملك الراحل عبدالعزيز ، وكان ينعم برضاه ويعيش في كنفه ، لا ينقطع عن مجلسه ، ولا يمتنع ذاك عن استشارته وأخذ رأيه ، في كل ما يعرض عليه ، من جلائل الأمور وصغائرها . وقد اثار هذا العطف الملكي الخاص عند الكثيرين من رجال الحاشية ، الحسد والغيرة ، وأورى في القلوب ناراً كامنة لم يتح لها الظهور في عهد الملك عبدالعزيز . فلما انتقل الى رحمة ربه ، وخلفه ولده الملك سعود ، أصبحت الفرصة ، اكثر مواتاة ، لأن الروابط التي تشد فيلبي الى الملك الابن ، اضعف وأوهى ، من تلك التي كانت تشده الى الملك الوالد . فلما اتيحت للحاسدين الشانئين ظروف اخرى ، حملوا

معاولهم يهدمون هذا النصب الذي يكنون له كل بغضاء ، والذي طالما استفز ، بما عرف عنه من صلافة وصلابة رأي وميل الى المشاكسة ، احقادهم وضغائنهم ، ولكنهم كانوا اعجز من ان ينالوا منه قلامة ظفر ، أو يصيبوه بمطعن ، حتى اتيحت لهم الفرصة التي طالما انتظروها ، فرفعوا معاولهم يضربون بهذا البرج الذي هوى ، ليحطموه ، ويكون في تحطيمه القضاء النهائي عليه .

وهناك سبب عام آخر ، لعب دوره ولاشك في تلك النهاية ، التي لم يقدر لها على كل حال ان تظل الفصل الختامي في مسرحية فيلبي ، وإنما شاءت الظروف والاوضاع ، واستعار الحرب الدعائية التي ثارت حول فيلبي بعد خروجه ، واستغلال الاقلام لهذا الخروج ، الى رفع الستارة عن فصل ختامي جديد ، لم يقدر له ان يعمر طويلاً ، اذ شاءت العناية الالهية ، ان تضع نهاية ابدية للمسرحية ، بعد فترة لم تتجاوز بضع سنوات ، فتقرر بذلك الخاتمة الطبيعية لكل انسان . ولكل دور يمثله على مسرح هذه الحياة .

فقد اتصلت حياة فيلبي ، منذ بداية عهده ، بالجزيرة العربية ، بقصص الاستعمار ، والعمل في خدمته ، وتنفيذ أغراضه وظلت هذه الصفة ، غالبة ، على حياته كلها في قلب الصحراء ، على الرغم من فصم كل علاقة رسمية له بحكومته وسياساتها ، وظهوره بمظهر التاجر المجد الدائب على انجاح الشركة التي يعمل مديراً لها ، بالاضافة الى اسهمه فيها ، في الحقل الاقتصادي. ولعل خير تصوير لهذه الحقيقة الواقعة ، ما ورد على لسان الشيخ فؤاد حمزه ، في حديث خاص له ، مع فيلبي ، نقله هذا بدوره في كتابه « أيام عربية » ، اذ قال : « اسمع يا فيلبي ، لاشيء يقنع معظم الناس في مكة وجدة ، بأنك لست جاسوساً بريطانياً في صفوفنا ، وأن ما تتظاهر به من صداقة للعرب ليس إلا ستاراً لعملك في سبيل مصالح بلادك » .

لقد كان فؤاد حمزة ، صريحاً كل الصراحة في حديثه هذا ، مع فيلبي . فالانطباع السائد ، عند الجميع ، من عرب وأجانب ايضاً ، ان علاقة فيلبي

ببلاده لم تنقطع ، وانها انتقلت باستقالته من الحكومة من عالم الجهر الى عالم السر ، وأنه ظل يعمل في العربية السعودية ، في خدمة مصالح الامبراطورية البريطانية التي ما انفك عن حمل جنسيتها ، حتى اللحظة الاخيرة من حياته ، مما يعتبر دليلاً قائماً على ان ولاءه ظل متجهاً ، اول ما يتجه ، الى الوطن الذي ينتمي اليه ، والى رعويته ، والذي عمل في خدمته الرسمية ، في ميدان هو اقرب الى المخابرات منه الى أي ميدان آخر ، السنوات الطويلة .

قلت ان هذه الفكرة لم تقتصر على العرب ، وانما تعدتهم الى الاجانب ، فقد رأينا مجلة « الشرق الحديث » الايطالية تنشر في عام ١٩٣٧ ، مقالاً طويلاً عن أعمال فيلبي ، ومجالات نشاطه في الجزيرة العربية ، اكدت فيه ان الرحلة الاخيرة التي قام بها الى حضرموت — قام فيلبي بهذه الرحلة عام ١٩٣٦ — هي التي مهدت الطريق ، أمام الاحتلال البريطاني ، الذي تم بعد هذه الزيارة لهذه المنطقة وضمها الى مناطق النفوذ والاحتلال البريطانيين .

فلا بدع والحالة هذه ، اذا ما رأينا الكثيرين من ابناء السعودية ، ومن المتنفذين فيها ، يؤيدون الحملة التي شنها اعضاء الحاشية من الحاقدين الشانئين عليه ، ويشتركون في تمهيد الجو ، لاخراجه من البلاد بصورة نهائية ، ليقضي حياته بعيداً عنها .

ويضاف الى جميع هذه العوامل ، عامل آخر ، لعب الدور المباشر في هذه النهاية . فقد آلم فيلبي ان يضعف نفوذه ، بعد وفاة صديقه الملك الراحل ، وأن يقوى نفوذ خصومه وشانئيه ، الذين يعرف هو قبل غيره مقدار ما يحملونه له من ضغينة ، وما تنطوي نفوسهم له عليه من حقد ، وأن يرى ان الاتجاه الجديد في السياسة الخارجية ، للمملكة العربية السعودية ، قد طوى به على الرف ، وألقى به في زوايا النسيان والاهمال . فشرع ينتقد الاوضاع ويحمل عليها بشدة وعنف ، مستخدماً قلمه السيّال ، في المقالات التي يكتبها ، ولسانه الذرب ، في المحاضرات التي يلقيها ، رغبة منه في اثبات وجوده من ناحية ، وانذاراً ووعيداً من الناحية الثانية ، وتنفيساً عما يشعر به من كبت وضيق من هذا

الانقلاب الذي طرأ على طوالعه ونجمه ، فجعل منه الكمية المهملة ، بعد أن كان السيد المشير الناصح .

وقد أدت حملاته هذه وانتقاداته المرة ، الى دنو النهاية ، اذ سرعان ما استغلها خصومه وشانئوه ، أحسن استغلال ، وأوغروا صدر الملك عليه ، وهو المستعد لقبول اتهاماتهم بدافع من ميوله الشخصية نحو الرجل ، وانضم الى هذا الفريق كله ، نفر ضخم من الناس الذين لا يهمهم الا الخلاص من فيلبي ، ومما يمثله في بلادهم ، من فكرة استعمارية بالية ، طوتها صفحة الزمن ، وأسدل النسيان عليها ستاره ، فتألب عليه جميع الفرقاء ، وأسفر تألبهم عن صدور ذلك البيان القصير المقتضب الذي ادرجناه في مستهل هذا الفصل .

ولنسمع الآن ما يقوله فيلبي نفسه ، في الصفحة الأولى من كتابه « اربعون عاماً في الصحراء » ، وهو الكتاب الذي أصدره عام ١٩٥٧ أي بعد طرده من السعودية ، بل وحتى بعد السماح له بالعودة ثانية اليها .. لقد قال : « لقد تغير الشرق ، الذي كنا نحسبه لا يتغير ، وأصبحت الاحداث تسبق جهود الانسان ، في تسجيلها وتأريخها ، لمنفعة الأجيال اللاحقة . وكانت هذه الحقيقة هي التي وقعت بالنسبة لكتابي الأخير الذي أصدرته في مطلع عام ١٩٥٥ ، عن تاريخ المملكة العربية السعودية ، والذي خرج الى عالم النور ، بعد شهرين من وفاة الملك العظيم الذي كان حكمه لا يزال في اوجه ، عندما شرعت في الكتابة ، ودون ان يوجد دليل واحد ، على ان الفصل الوهابي ، في التاريخ العربي ، سينتهي ، قبل ان تفرغ المطبعة من إخراج هذا الكتاب . وهذا هو الوضع عينه بالنسبة الى هذه المذكرات التي أعدها عن حياتي ، والتي بدأت في إعدادها في جو الصحراء الهادئ ، التي تنشقت هواءها النقي عهداً طويلاً ، كنت فيه غارقاً في السعادة والهناء ، ولا شيء يوحي الي بأن أيامي في الصحراء قد غدت معدودة ، وأن علي ان اكمل هذه المذكرات ، في حياة المنفى والحرية . أجل الحرية من ذلك النظام الذي يفرضه كيان اجتماعي صارم ، قبلت به طواعية ، قبل ان تبدأ اسسه في الانهيار ، تحت وطأة الثروة التي اغدقتها

العناية الالهية ، كتعويض على ما فات من شظف العيش وخشونته . ولهذا آثرت في هذا الكتاب ان ابدأ من النهاية ، فلعل القارىء ، يمكن له ان يتصور اعداد ذلك المسرح الذي خطوت عليه ، ومثلت دوري ردحاً طويلاً من الزمن » .

ويمضي فيلبي فيقول : « بدأت الصحراء في التغير منذ سنوات بتأثير نفوذ اجنبي جديد طرأ عليها ، وبغزو نفر من صغار الرجال ، جاءوا من البلاد القريبة ، وقد اجتذبتهم قصص الثروات الدفينة في أرضها ، فبرعوا في أعمال النفاق والدهاء ، وأحاطوا بذلك المارد الجبار ، الذي فرض وجوده على الصحراء ، وأخذوا يقيدونه بسلاسل من الذهب مستغلين ما فيه من فضائل البساطة والطهر ، في سبيل مصالحهم الخاصة . وبدأت منذ سنوات اشعر بأن الصحراء قد غدت شديدة الحرارة بالنسبة الي ، ولم أعد اطيق شدتها ، وبدأت اتقزز ، من مظاهر هذا الترف والفساد التي تبدو على مواطنيها الجدد ، بينما كانوا هم انفسهم يحقدون على تلك الروابط من الصداقة التي تشدني الى الملك الذي كثيراً ماكان يغضب ويثور من حديثي ، ويختلف معي ، ولكنه لا يحرمني من حرية القول التي يعتقد بأنها من حق مستشاريه ، ولذا فقد ظللت اشعر بالمناعة والحصانة طيلة حياته .

« وقد قضيت ثلاثين عاماً اطري سراً وعلانية ، عهد الملك ابن سعود ، وكل ما يمثله هذا العهد ، بينما كان هؤلاء الذين انضموا مؤخراً الى الحاشية والحكومة ، يحملون على الوهابيين وتعصبهم . أما الآن ، فهذه الدولة الهادئة المستقرة الثابتة ، التي أقامها بالعرق والجهد والحرب ، اصبحت مهددة ، بمتع السلام ومباهجه ، يستخدمها أناس لم يحملوا السيف في حياتهم . ورأيت من واجبي ان اتحدث من جديد ، وان السكوت سيكون جبناً وميلاً عن الواجب ، ولذا فقد قررت ان اتكلم مهما تكن النتائج » .

هذه هي المقدمات التي يحددها فيلبي اسباباً لتلك النهاية التي قدر لها ان لا تكون الخاتمة ، وهي اسباب تتفق في طبيعتها مع ما سبق لنا ان اوردناه من اسباب في مستهل هذا الفصل ، وهو يرتبها ، على النحو الذي وضعناه ،

من تغير سياسة المملكة العربية السعودية ، واتجاهها ، وحسد رجال الحاشية وأحقادهم ، واتجاه البلاد الى حياة الرخاء والرفاهية ، وشروعه في حملة الانتقادات ، التي قرر ان يجد فيها متنفساً لما يشعر به من كبت وضيق يصفه هو « بشدة حرارة الصحراء التي لم يعد يطيقها » ، رغم ان السنوات الاخيرة ، قد نقلت اليها « المكيّفات » والمراوح ، ووسائل الرفاهية الاخرى ، التي لم يكن بحاجة اليها لعدم الشعور « بالحرارة » لو ظلت الحال على ما كانت عليه ، وعلى ما ألفه وأعتاده .

وكانت الفرصة الأولى التي اهتبلها فيلبي الكتاب الذي أصدره عام ١٩٥٢ ، تحت عنوان « اليوبيل العربي » ، بمناسبة انقضاء خمسين عاماً على تبوء الملك عبدالعزيز عرش ابائه وأجداده ، والذي بدأ فيه حملته على حالات التراخي والبذخ والفساد ، التي طرأت على البلاد ، في السنوات الاخيرة ، لتهدم ما بناه ذلك الرجل العظيم الذي أثقلت الأعوام الآن ظهره ، وأقعدته العلل عن مباشرة اشرافه وسلطانه .

وقد اختلفت الآراء في استقبال هذا الكتاب ، فبينما رحب به الكثيرون من الذين يريدون الاصلاح حقاً ، ويتوقون الى تحسن الأوضاع ، قابله بعض كبار رجال الحاشية بمظاهر السخط والحنق والغيظ . وقد نقل هذا الكتاب الى العربية ، في القاهرة ، ووصلت بعض نسخه الى الرياض ، وسرعان ما صدر الأمر بمنعه من دخول البلاد .

وكان الملك عبدالعزيز طريح الفراش في هذا الحين ، في الطائف .. وأخذت مجالسه الخاصة ، مع رجال حاشيته تقل يوماً بعد آخر . ويقول فيلبي : « وفي التاسع والعشرين من ايلول عام ١٩٥٣ ، وكان الملك قد آوى الى فراشه مبكراً ، دخلت غرفة مجلس الملك الخاص في القصر ، فوجدته مكتظاً بالامراء والوزراء . ويبدو ان الجمع كان يبحث في موضوع كتابي ، وعندما دخلت شن الأمير عبدالله بن عبدالرحمن ، شقيق الملك ، حملة عنيفة عليّ ، ايده فيها جمال الحسيني . وظل الامراء صامتين احتراماً لعمهم ، على الرغم من انني

شعرت بأن بعضهم كان يقف الى جانبي . أما الموظفون الآخرون ، فقد أحسوا بعدالة ما في كتابي من أقوال وآراء ، فآثروا التزام جانب الصمت . وقد اثار الأمير عبدالله بعض النقاط التي اعتبرها اخطاء في سرد قصتي للتاريخ السعودي ، وهاجم بعنف الفصل الذي كتبته عن فلسطين في الكتاب ، الذي لم استطع ان اناقشه فيه لأن الجميع في هذا الموضوع قد تألبوا علي بالطبع ، ورفضوا ان يعترفوا بأن الملك الشيخ نفسه ، على الرغم من معارضته الشديدة للصهيونية ، كان يصف دائماً الطريقة التي لجأت اليها الجامعة العربية في معالجة القضية بالسخف والعجز . ولكن الامير تجنب الخوض في القضايا الرئيسية التي كانت موضوعاً للجدال بيني وبين اصدقائي ، وفي الاخطاء السياسية التي ارتكبت في الماضي والتي ادت الى ضياع العقبة قديماً ، وفلسطين حديثاً ، والتي ستؤدي الى ضياع البريمي ، لأن المسؤولين في السعودية لا يمكنهم ان يثقوا بأن في وسعهم ان يكسبوا القضية بالوسائل الصحيحة فقط . وبالطبع كان لأقوالي هذه وقع الصاعقة على الامير وعلى جميع الحاضرين ، ولكنني سرعان ما فاجأتهم بصاعقة اخرى اذ قلت : « على كل حال ، أنا على استعداد لمغادرة بلادكم ، إذا كنتم لا ترغبون في بقائي ، ولكن ثمة شيئاً واحداً لا استطيع ان اقبله أو افعله ، وهو ان أظل هنا صامتاً ، وأنا أراكم تهدمون ما بناه الرجل العظيم » . وقبل أن اغادر المكان قلت لجمال الحسيني « لا تنس أنني كنت اطري العهد الوهابي ، عندما كنت أنت ورفاقك من المتحضرين ، تطلقون على الوهابية صفة الكفر » .

« وكانت هذه هي المرة الاخيرة التي حضرت فيها المجلس الخاص للملك المحتضر . ففي الثاني من تشرين الأول ، رأيت الملك لآخر مرة في ديوانه بعد الظهر ، وسافرت الى مكة ، لأعود في السادس عشر الى الطائف ، فأرى الملك في حالة يائسة . وبعد ان قضيت يومين ، عدت الى مكة ، حيث وصلني في التاسع من تشرين الثاني نبأ وفاة الملك الصديق .

« وشعرت فور الوفاة ، بأن دوري قد انتهى ، وأن لا مكان لي في العهد الجديد .. » .

هذه هي البداية ، بداية المعركة بين فيلبي وحاشية الملك . ولم يكن من المقدر لها ان تبدأ ، لو ظل الملك عبدالعزيز حياً ، في قوته وعنفوانه وسلطانه ، ولكنه وقد انتهى ، فقد اصبحت نهاية فيلبي نفسه قريبة ، اذ لم يعد له مكان في المسرح الجديد .

وواصل فيلبي التنقل بين مكة والرياض والطائف وجدة ، ولكنه ظل بعيداً عن مجالس الملك الخاصة ، وعن القيام بأي عمل رسمي او شبه رسمي ، حتى ولو في حدود المشورة والنصيحة ؛ ولكنه ظل يرقب الاوضاع عن كثب ، ويشاهد الأحوال ، وأوحت اليه مشاهداته بكتابة مقال بعث به الى مجلة « الشؤون الخارجية » التي تصدر في واشنطن ، فنشرته في عددها الصادر في نيسان عام ١٩٥٤ . وبعث السفير السعودي في واشنطن ، بملخص عن محتوياته الى حكومته في الرياض .

واستاءت الحكومة السعودية ابلغ استياء ، من هذا المقال ، وجاء الامير عبدالله بن عبدالرحمن الى فيلبي يناقشه ويعاتبه على هذا المقال . وعندما اجتمع فيلبي الى جلالة الملك سعود بعد أيام ، اعرب له الملك عن استيائه وغضبه . ويروي فيلبي أنه قال لجلالته : « انا لا ارى داعياً لاستيائك ، فأنت تعرف ان ما كتبته هو الصحيح فأنت ملك مطلق ، وأنت تتحكم بميزانية دولتك وتنفق منها كما تشاء ، فهذا اقدره وافهمه ، ولكنني لا استطيع ان افهم ، لماذا تسمح لخدمك وموظفيك ، بسرقتك وسرقة أموالك ، كما يفعلون الآن ، وهو ما يعرفه كل انسان » . وقد رد الملك ، بأنه كان في وسعي بدلاً من ان اقدم على النشر ، ان اتحدث اليه ، وأن افاتحه في جميع هذه الأمور . فقلت ، في معرض الرد ، انني لم أعد اتمتع بذلك العطف الذي يتيح لي ان انفرد بالملك ، وان أحدثه بما أراه في مصلحة بلاده » .

ويعترف فيلبي ان الملك اشار اكثر من مرة بصورة ناعمة في المآدب العامة التي كان يحضرها فيلبي ، الى هذه الانتقادات التي يوجهها الى مملكته وعهده ، معرباً عن استيائه منها . فكان فيلبي ، يرد عليه ، بأن غايته منها ليست التشهير

ولا الانتقاد ، وإنما الاصلاح والانقاذ .

وأخذت شقة الخلاف تتسع ، وأحس فيلبي بالضيق والعنت ، وأصبح يتوق الى الخلاص من هذا الجو ، ولكن ارتباطاته مع الشركة البريطانية التي كان يمثلها كانت تحتم عليه البقاء الى ان ينتهي أجل العقد ، في تموز من عام ١٩٥٦ ، بعد ان أشعر الشركة بعدم رغبته في تجديد العقد . وبدأت مشاكله مع الشركة نفسها في الظهور ، بعد أن ضعف مركزه ونفوذه في البلاد ، وغدا عاجزاً عن تحقيق مشاريعها ودعمها والسير بها الى الامام ، مما حمله على تقديم استقالته في كانون الأول عام ١٩٥٤ . ولكن الشركة قد رفضتها ، بدافع الاعتراف بالجميل ، وعدم رغبتها في التخلي عنه في محنته .

وقبل فيلبي في الاسبوع الأخير من شباط عام ١٩٥٥ ، دعوة شركة الزيت العربية الامريكية (الارامكو) ، لزيارة الظهران والاطلاع على المدى الذي حققته الشركة في تقدم أعمالها ، منذ زيارته الاخيرة عام ١٩٤٨ ، ولإلقاء بعض المحاضرات على عمال الشركة وموظفيها عن تجاربه في البلاد العربية . وسافر بالفعل الى الظهران في القطار حيث ابلغه الموظفون المختصون في الشركة ان البرنامج قد أعد ليلقي خمس محاضرات في مختلف مراكز الشركة الثقافية .

وألقى فيلبي محاضراته ، وكانت ذات طابع عام ، وإن تناولت بصورة خاصة ، الثورات الاجتماعية التي غيرّت وجه الجزيرة العربية في هذه المدة التي قضاها فيها ، والتي حولتها من دولة دينية ، الى دولة علمانية عصرية . وكان بين المستمعين جمهور كبير من الموظفين العرب ، بينهم عدد من السعوديين . ويبدو أنه كان صريحاً اكثر من اللزوم في محاضراته هذه ، فانتقد بطريق او بآخر ، الاوضاع السائدة في البلاد . وعندما عاد الى الرياض بعد نحو من اسبوع ، وكانت شائعات محاضراته قد سبقته ، وجد جواً من البرود يلفه من كل جانب ..

ويروي فيلبي انه قبل سفره الى الظهران بأيام قليلة ، كان السفير البريطاني كليفتون بيلهام ، قد جاء الى الرياض ، لاستئذان الملك بالسفر ، عائداً الى

بلاده ، بمناسبة انتهاء عمله في السعودية ، ثم يمضي قائلاً : « وأقام الملك وليمة عشاء كالمعتاد تكريماً للسفير ، وقد دعيت لحضورها .. وحدث أبان المأدبة ان اتجه اليّ الملك قائلاً : « متى ستذهب الى الظهران ؛ قلت غداً ان شاء الله » وقال الملك موجهاً حديثه الى السفير : « ان فيلبي يحب كثيراً التجوّل في بلادنا » .. فرد السفير بقوله : « وهو يحب الكتابة عنها ايضاً » .. فقال الملك معلقاً : « أجل ، بالطبع ، وأنا واثق بأن ما يحفزه الى جميع ما يكتبه ، حسن النية ليس إلا » .

لكن موقف الملك منه بعد رحلة الظهران لم يتغير ، فقد استمر في حضور مآدبه الرسمية ، وكان بينها مأدبة خاصة شهدها جميع الوزراء ، اقيمت تكريماً لوزير خارجية سوريا ووزير الارشاد القومي في مصر . وقد جاءا الى الرياض ليبحثا مع الملك سعود في موضوع حلف بغداد ، الذي تم التوقيع عليه بين العراق وتركيا .

ويقول فيلبي : «وحلمت في احدى الليالي ، حلماً مزعجاً ، دوّنته في رسالة بعثت بها الى احد اصدقائي في انكلترا . فقد سمعت قرعاً على باب داري ، وعندما فتحت الباب وجدت مدير الشرطة السعودي ، فقدم الي مسدساً ، وأفهمني ان أمامي يومين ، استطيع استخدامه فيهما بالطريقة التي أراها مناسبة ، قبل ان تضطر الحكومة الى اتخاذ اجراءات قاسية معي . وعندما مضى المدير عني اخذت ابحث عن وسيلة للهرب الى ليفربول ، بمساعدة القنصل البريطاني ، وكنت لا أزال في خضم هذه المشكلة ، باحثاً عن سبيل للخلاص ، عندما أفقت من نومي لأجد انني على خير ما يرام ، ولكن الحلم سرعان ما تحقق بعد بضعة أيام ، ولكن بطريقة مختلفة وبصورة أقل ارهاباً وبعثاً للفزع » .

وفي التاسع من اذار زار وفد مؤلف من ثلاثة من كبار رجال الدولة السعودية فيلبي في منزله ، للتحقيق معه ، في موضوع المحاضرات التي ألقاها في الظهران . وكان الوفد يضم جمال الحسيني مستشار الملك ، ورشدي ملحس السكرتير السياسي الخاص للملك ، وعبدالله بن عثمان ، سكرتير الملك في

الشؤون الداخلية . وطلب الوفد من فيلبي ان يقدم اليه صوراً من الخطب التي ألقاها في الظهران . وقد رد هذا بأنه لا يستطيع تقديم هذه الصور ، لأنه لا يملكها ولأن المحاضرات التي ألقاها ، كانت مرتجلة لا معدة ، وأحالهم الى الموظفين السعوديين الذين حضروا هذه المحاضرات ، ففي وسعهم ، ان يقدموا للوفد المعلومات اللازمة عنها . وسأله رشدي ملحس ، ان يذكر للوفد المحقق اسماء هؤلاء الموظفين ، فتعذر عليه ان يذكر إلا اسماً واحداً .

وبدأ جمال الحسيني يتحدث، فقال: ان جلالة الملك قد استاء كثيراً من الملاحظات السابقة التي كان فيلبي يلقيها ، هنا وهناك ، منتقداً اعمال حكومته ، وانه كلف الوفد ابلاغ فيلبي رغبة الملك في مغادرته البلاد . وقد رد هذا بأنه سيطيع أوامر الملك ، ويغادر البلاد ، وكل ما يطلبه بعض الامهال ، لحزم متاعه وحاجاته ، واعداد العدة لنقل اسرته الى مدينة يختارها ليلجأ اليها . ووافق الوفد على ما طلبه فيلبي ، وانتقل الحديث بعد ذلك الى مناقشة ودية خاصة فذكر السيد الحسيني أنه كان في وسع فيلبي ان يبلغ انتقاداته الى الملك بصورة خاصة ، بدلاً من نشرها على صفحات الصحف ، وأن الجميع قانعون من أنه يعمل تحت تأثير دولة اجنبية ، فأكد لهم فيلبي أنه لم يتأثر قط بآراء احد سوى آرائه ، الخاصة ، وانه يعرف ان الأمير عبدالله بن عبدالرحمن هو الذي اشار بإخراجه من البلاد .

ومنذ تلك الليلة ، لم يرَ فيلبي جلالة الملك ، حتى خرج من البلاد ، وقد اشرف رشدي ملحس على عملية خروجه ، واتفق على أنه في حالة استكمال اعداد حاجياته في الرياض ستؤمن له الحكومة وسيلة النقل الى مكة المكرمة ؛ حيث يعد اموره في منزله الآخر هناك ، ثم يمضي الى الحدود متجهاً الى لبنان .

وأعد فيلبي كل شيء ، وأصبح متأهباً للسفر في كل لحظة ، منتظراً اشعاره باعداد وسيلة النقل اللازمة ، ولكن ترحيله تأخر ، وكان في هذه الفترة قد انقطع عن الاتصال تماماً بأصدقائه وبأعدائه ، بينما توقفوا هم بدورهم ، عن الاتصال به مخافة اثارة غضب الملك .

وجاءه بعد عشرة أيام رسولان ، من كبار رجال الدولة ، احدهما يحمل رسالة شفوية من الامير عبدالله بن عبدالرحمن ، يعرب له فيها عن اسفه لمغادرته البلاد ، ويؤكد له انه لا يكن له أية ضغينة خاصة ، والثاني يحمل رسالة مماثلة من الامير فيصل تقول ان قرار الاخراج ، كان خطيئة وانه لن يسمح له بمغادرة البلاد .

وكان الملك غائباً في الطائف منذ أسبوع . وعاد في الثاني والعشرين من آذار الى الرياض . ومضت الأيام متراخية ببطء وفيلبي ينتظر اعداد وسيلة السفر . وحل اليوم الثلاثون من آذار ، وسافر الملك ثانية الى الخرج . وجاءه رشدي ملحس في ذلك اليوم ، ودار حديث عام ، اكد فيه فيلبي ان موقفه لم يطرأ عليه ما يدعو الى التبدل . وفي الخامس من نيسان ، جاءه من جديد ، وبدأ السيد ملحس الحديث معرباً عن الاسف لما وقع ، من سوء تفاهم ، واقترح ان يتم جلاء الموضوع ، بروح ودية ، على أساس ان يقوم فيلبي بتوجيه رسالة الى الملك ، يعرب له فيها عن الاسف لما وقع ، ويذكره بصداقته لبيته وللمرحوم والده .

ورضي فيلبي بالعرض الجديد ، ووعد رشدي ملحس ، بتوجيه الرسالة على ان لا تتضمن أي اعتذار ، عن شيء قاله او فعله ، وعندما غادره هذا قال له : « انك تعلم يا فيلبي أننا لا نريد منك ان تذهب » .

وبعد يومين ، بعث اليه فيلبي بالرسالة المطلوبة ليقوم بإيصالها الى جلالة الملك وهذا نص الرسالة :

« ارفع الى جلالتكم اسمى آيات الاجلال والتحية والاحترام . وبعد، لقد انقضى نحو من شهر ، منذ تلقيت أمر جلالتكم بمغادرة البلاد ، وقد اعددت نفسي ورتبت حوائجي استعداداً لتنفيذ أمر جلالتكم ، حالما تتكرمون بإصدار الأمر اللازم لإعداد وسائل النقل اللازمة لي ، وتأشيرات الخروج ، وما شابه ذلك ، من ضرورات . ولكن مثل هذه الأوامر لم تصدر حتى الآن .

« والآن ، وبالنظر لاستعدادي لإطاعة أوامر جلالتكم مهما كانت ، أود

ان اعرب عن أملي ، بأن تكونوا قد عدلتم عن النظر الي بعين الغضب ، بالنسبة الى ما اعتبرتموه من اخطاء ارتكبتها في أقوالي وأفعالي ، وأود ان اؤكد لجلالتكم ولائي لشخصكم الكريم ولبيتكم النبيل وبلادكم العزيزة ، وهو ولاء لم يطرأ عليه أي تبدل ، منذ وصلت الى هذه البلاد ، اول مرة ، في عهد جلالة المغفور له والدكم .

« واذا كنت قد تمكنت في الماضي من خدمة قضيتكم ، كما شهد لي بذلك الراحل الكريم اكثر من مرة ، فلم تكن خدمتي طمعاً في أجر او منفعة شخصية ، بل على العكس ، وهذا ما تعرفونه انتم ويعرفه الناس جميعاً ، داخل هذه البلاد وخارجها .

« اعتقد ان في هذا الكفاية ، وإذا كنتم قد غضبتم علي لشيء قلته او فعلته مؤخراً ، اعتبر نقداً ، فأود ان اعرض لجلالتكم انني اشعر ان واجبي يدعوني الى ذلك ، كصديق لشخصكم ومملكتكم ، وليست له أية رغبة الا في ازدهاركم وإعلاء شأن بلادكم ، لتكون انموذجاً وقدوة لغيرها من البلاد . ولا ريب في ان جلالتكم تعرفون طبيعتي ، وخلقي منذ أمد طويل ، وانهما يقومان على الحرية المطلقة في التفكير والتعبير . واذا كنت قد اخطأت في أي موضوع ، كما هي عادة الانسان ان يخطىء من وقت لآخر ، فإنني آمل في تجاوزكم على هذا الخطأ ، وأن لا تشكوا لحظة واحدة في حسن نواياي نحوكم .

« هذا ما أردت قوله لجلالتكم ، وأنا على اتم استعداد لتنفيذ أوامركم وإطاعتها ، وفي الختام ارجو ان تقبلوا وافر متمنياتي ، مبتهلاً الى الله جل شأنه ان يحفظكم الى ابد الآبدين » .

وعاد رشدي ملحس بعد يوم أو يومين ، واقترح على فيلبي ان يذهب الى القاهرة او بيروت ، حيث يعقد مؤتمراً صحفياً ، يسحب فيه جميع انتقاداته السابقة للاوضاع في البلاد ويعترف بأخطائه ، وأن يتعهد في المستقبل ، بعدم نشر أي شيء قبل عرضه على الحكومة لمراقبتها . ورفض فيلبي بالطبع هذه الشروط ، مؤثراً مغادرة البلاد على قبولها . ولكنه اقترح ان تقوم الحكومة

السعودية باذاعة بيان تضمنه ما تراه من اخطائه ، متعهداً بأن يترك الموضوع عند هذا الحد ، دون ان يحاول الرد على البيان أو الدفاع عن نفسه وتعهد بعدم نشر أي شيء طيلة مدة بقائه في البلاد .

ولم يتلق فيلبي رداً على اقتراحه الجديد ، ولكنه في الثالث عشر من نيسان استقبل مدير شرطة الرياض ، الذي ابلغه بمنتهى اللطف والكياسة ، أمراً من امير الرياض بوجوب مغادرة المدينة خلال ثمان واربعين ساعة ، وان عليه ان ينقل متاعه وما يريد بالسيارات عن طريق الانابيب الى الاردن فسوريا . ورفض فيلبي أن يأخذ اسرته معه ، فتركها في الرياض لتدبر أمر بيته في مكة المكرمة ، ولتلحق به الى لبنان .. وهكذا غادر الرياض في الخامس عشر من نيسان .

وكانت رحلته هذه آخر الرحلات التي قام بها في المملكة العربية السعودية ونقل كتبه وأوراقه وبعض متاعه الضروري في سيارتين كبيرتين من سيارات الشحن واستقل ، يرافقه دليل من قبيلة المطير ، سيارته « اللاند روفر » . ومضت القافلة في طريقها عبر الصحراء الشاسعة الى الحدود الاردنية ، مارة بالدهناء فقيصومه ، فالرمح ، فرفحة ، فبدنه فطريف ، فالجفور داخل الحدود الاردنية ، حيث انتقل منها الى المفرق ، حيث قضى ليلة واحدة ، ثم غادرها الى دمشق فأقام فيها عشرة أيام قبل ان تحط به عصا الترحال اخيراً في لبنان ليقضي حياته في المنفى .

وأقام فيلبي في دارة استأجرها في مصيف عجلتون ، حيث لحقت به اسرته . وظن ان الهدوء سيشمل هذه الحياة النائية البعيدة ، ولكن سرعان ما جعلت الصحف والاذاعات المتنافسة من قصته وموضوعه ، مادة دسمة لها ، تتبارى في الحديث عنها وتجعل منها وسيلة لتبادل المطاعن والمثالب .

ويكفي للتدليل ، على هذا الوضع ، ان ننقل الى القراء الكرام ما اذاعه راديو مكة المكرمة في الثاني من حزيران عام ١٩٥٥ في اذاعته المسائية .. قالت الاذاعة السعودية :

« عندما اذاعت محطة بغداد نبأ وصول السيد فيلبي الى بيروت ، بعد صدور الأمر بإبعاده من المملكة العربية السعودية ، اضافت تصريحات نسبتها اليه ، تقول ان السبب في ابعاده يعود الى استياء بعض الاوساط ذات النفوذ ، من الانتقادات التي كان يوجهها ، الى ما في البلاد من ترف واسراف ، والى ما يسود الاعمال الحكومية من فساد ، مما حمل بعض المتنفذين على الاحتجاج الى جلالة الملك ، الذي أمر بإبعاده من البلاد . وأضافت اذاعة بغداد ان فيلبي كان يحث في الآونة الاخيرة ، السلطات المسؤولة ،في المملكة العربية السعودية ، على ادخال اصلاحات واسعة النطاق الى البلاد .

« هذا ملخص ما اذاعته بغداد ، وتأسف الاذاعة السعودية ان تفسح اذاعة بغداد صدرها ، لهذه القصص ، التي يسردها السيد فيلبي والتي لا أساس لها من الصحة . ففيلبي نفسه يدرك حقيقة الاسباب التي ادت الى ابعاده من البلاد ، وانها لم تكن ناجمة عن احتجاج بعض ذوي النفوذ والأهمية في البلاد ، ولا عن انتقاداته او آرائه ، اذ ان هذه الآراء ، التي نشرها في كتبه الكثيرة ، والتي كانت سبباً في ابعاده ، معروفة للجميع ، فقد كان عميلاً للصهيونية في المملكة ، وهذا ما تحكم به عليه أقواله التي سردها في كتبه .

« وكانت الاذاعة السعودية ، وصحافة المملكة ، قد امتنعت عن الاصطراع مع هؤلاء المقيمين في العراق ، على الرغم من الخلافات القائمة بينهم وبين الشعب العربي في البلاد العربية الاخرى بالنسبة الى السياسة الاخيرة التي اتبعوها خارج نطاق الجامعة العربية وميثاق الضمان الجماعي .

« وقد تجنبت الاذاعة العربية السعودية وصحافة المملكة ، الخوض في شؤون العراق الداخلية ، لأن أوامر جلالة الملك سعود العظيم تحظر عليها هذا الخوض في أمور لا تهمها ، لاسيما وأن جلالته يعمل دائماً في سبيل الوحدة العربية لا في سبيل تجزئة الكلمة ، ويدأب على توجيه العرب في طريقهم المشترك ، نحو الرخاء والازدهار ، وحماية العرب من كل عدوان ليعيشوا آمنين مطمئنين ، هادئين راضين في بلادهم .

« وتأمل الاذاعة العربية السعودية في ان يكون هذا التحذير كافياً لوقف اذاعة بغداد عن المضي في الصراع ، الذي لا يخدم مصلحة العراق ، ولا مصلحة العرب » .

واستمع فيلبي وهو في منفاه في عجلتون ، لهذا البيان السعودي الرسمي ، الذي اذاعته الاذاعة ، ونشرته بعض صحف بيروت ، فتألم من هذه الصفة الجديدة التي اضفاها البلاغ عليه ، وهي انه « عميل للصهيونية » ، وقد انبرى في كتابه « اربعون سنة في الصحراء » يرد على هذا الاتهام قائلاً :

« إذا افترضنا جدلاً ، ان لي ميولاً صهيونية ، فقد كانت المرة الاخيرة التي تدخلت فيها في السياسات المتعلقة بقضية فلسطين ، في عام ١٩٣٩ ، عندما ذهبت الى مؤتمر لندن ، تلبية لأمر الملك ابن سعود ، لأعمل كمستشار للامير فيصل ازوده بالرأي والمعلومات . وقد رفض العرب في ذلك المؤتمر ، دون تبصرة ووعي عرض الحكومة البريطانية ، تحديد الهجرة اليهودية بخمسة وسبعين ألف مهاجر آخرين في مدى خمس سنوات ، على ان تتوقف الهجرة بعدها ، بصورة نهائية ، إلا بموافقة العرب . وعندما رأيت ان المؤتمر يكاد يمنى بالفشل وأدركت خطورة وجوب العثور على حل للمشكلة ، اقترحت اعطاء فلسطين لليهود ، مقابل استقلال البلاد العربية كلها . وأضفت في اقتراحي ان يقوم الرئيس روزفلت ورئيس الحكومة البريطانية وكان قد اصبح المستر تشرشل عندما نقلت الاقتراح الى الملك عبدالعزيز ، بضمان هذا الحل . ولقي الاقتراح ، تأييداً من الزعماء اليهود ومن الشخصيات البريطانية المؤيدة للعرب . ولم يسر المشروع خطوة اخرى الى الأمام ، اذ ان الرئيس روزفلت والمستر تشرشل ، لم يقوما بعرضه على الملك ابن السعود ، ولكنني أطلعت الملك عبد العزيز على المشروع في عام ١٩٤٠ ، كما اطلع عليه كل من يوسف ياسين وخالد القرقني والدكتور محمود حموده ، وكانوا من اقرب المستشارين الى الملك في ذلك الحين . وعلى الرغم من أن اياً منهم لم يوافق على المشروع ، الا انني ظللت اتمتع بصداقة الملك وثقته ، في المدة التي بقيت له من حياته ،

ولم يكن لهذه القصة ادنى علاقة ، بموضوع ابعادي من البلاد بعد ثمانية عشر شهراً من وفاته » .

ان هذا الاعتراف الصريح ، الذي أورده فيلبي في كتابه ، يدل على حقيقة ميوله الصهيونية . فهو يقترح في عام ١٩٣٩ : أي قبل ان يفكر انسان من المسؤولين في بريطانيا نفسها ، باعطاء فلسطين كلها لليهود ، هذه المنحة السخية ، مقابل الاستقلال للبلاد العربية الاخرى ، وكأن الاستقلال ، لا يمكن الحصول عليه ، بالنسبة للاجزاء الاخرى من الوطن العربي ، الا بالتضحية بجزء عزيز من هذا الوطن ، وهو فلسطين . فهل كان فيلبي مدفوعاً الى هذا الاقتراح ، الغريب كل الغرابة بالنسبة الى الزمن الذي قدم فيه ، من اليد الخفية التي كان يعمل لها والتي لا نشك في انقطاعه عن العمل معها أو من الهيئات الصهيونية التي أخذ يعمل لحسابها ؟ هذا سؤال لا نستطيع الاجابة عليه لأننا نفتقر الى المعلومات الصحيحة للرد عليه ، وإن كان ما كشف عنه وايزمن في كتابه « التجربة والخطأ » ، هو أول كشف حقيقي لهذا الموضوع الذي ظل سراً خفياً مدة طويلة ، ولم يتبرع أي من المستشارين السعوديين الكرام للافصاح عنه ، رغم بقائه هذا العهد الطويل ، طي الكتمان الى ان جاء الزعيم الصهيوني فكشف عنه .

ولكننا نميل الى القول بأن فيلبي لو كان يعمل في خدمة الصهيونية نفسها لا في خدمة امبراطوريته ، عندما تقدم بهذا الاقتراح ، لما عرّضه وايزمن للفضيحة ، وكشف النقاب في كتابه عن هذا السر الدفين . الذي كان من المفروض ان يظل طي الكتمان .

على أي حال ، كان فيلبي محقاً كل الحق . وان كان حقاً اريد به باطل ، عندما ذكر أن سنوات طويلة قد انقضت منذ هذا الاتصال الذي كان مستشارو الملك سعود على علم به ، ولكنهم لم يحركوا ساكناً او يطالبوا بإبعاد فيلبي بتهمة الاتصال بالصهيونية ، ولكنهم لجأوا الآن الى اتخاذ هذه التهمة ذريعة ووسيلة لمهاجمته .

وانقضت أسابيع جديدة ، وجاء يوماً الى فيلبي في دارته في عجلتون ، الرئيس الحاج حسين العويني ، وكان قد عاد لتوه من زيارة للمملكة العربية السعودية تفقد فيها أعماله الاقتصادية الناجحة هناك . وقال الرئيس العويني لفيلبي ان الملك مستاء مما نشره في الصحف والمجلات ، وأنه على كل حال لا يعارض في عودته الى المملكة شريطة ان لا ينشر شيئاً ، إلا إذا عرضه مسبقاً على مراقب الحكومة . وقد رد فيلبي بأن هذا الشرط لا يختلف مطلقاً عن الشروط السابقة التي رفضها مقابل البقاء في المملكة ، وأنه لا يستطيع تبعاً لذلك قبول هذا الشرط الجديد ، ويفضل البقاء حيث هو .

ويقول فيلبي في حديثه عن هذه المقابلة : « وذكّرت الصديق ، ان محمد بن عبدالوهاب نفسه ، قد طرد من مسقط رأسه في عينيه ، متهماً بنفس التهمة التي اتهمت بها الآن وهي نقد الحكومة القائمة على إسرافها وتراخيها وبعدها عن سبل الفضيلة . وقد ارتحل الشيخ الكبير الى الدرعية ، حيث حل ضيفاً كبيراً على اميرها محمد بن سعود . ومضت مدة وجاء وفد من عينيه يرئسه اميرها بنفسه الى الشيخ ، يرجوه العودة الى المدينة ، دون قيد أو شرط . ولكنه رد على الوفد قائلاً : « هذا الأمر متروك تقريره لمحمد بن سعود ، فقد جئت الى بلاد وجدتها اكثر امتاعاً من البلاد التي تركتها ، وسأظل فيها الا إذا امرني محمد بن سعود بمغادرتها .

« وأدركت ان ارتباطات الصديق الوثيقة بالمملكة ، وهي الارتباطات التي تصل حدود الملايين من الجنيهات ، تجعله لا يغامر في خلق أي سوء تفاهم بينه وبين الحكومة ، وقررت منذ ذلك اليوم ، ان اتجنبه ، لئلا يؤدي اتصالي به الى مضايقته .

ووجهت التهم الى فيلبي في هذه الفترة ، بأنه كان القوة المحركة ، وراء الحركة التي اسمت نفسها بحركة السعوديين الأحرار . حتى ان بعض الصحف المؤيدة للسعودية ، في اكثر من عاصمة عربية أخذت تؤكد بأنه هو الذي كان يمول هذه الحركة ويوجهها ويشرف على طبع منشوراتها المناوئة للحكم

في السعودية . وقد أعلن فيلبي في اكثر من مكان من كتبه الاخيرة ، براءته من هذه الحركة وعدم معرفته بأي شخص من رجالها ، وأكد انه كان يتلقى المنشورات التي تصدرها بالبريد ، كما يتلقاها أي انسان توجه اليه ، وأضاف أنه ظل اكثر من ستة شهور بعد خروجه من السعودية بعيداً عن كل نشاط صحفي ، نائياً ، عن كل عمل يسيء الى السعودية . واعترف بأن السبب في هذا الموقف الذي فرضه على نفسه ، هو ان عائلته كانت لا تزال في السعودية ، وانه لم يصف بعد علاقاته المالية فيها ، وكان يخشى عليها ، أي على العائلة ، من الانتقام وعلى ما يملكه — وهو ضئيل — من المصادرة ، يضاف الى هذا سبب آخر ، أراه وجيهاً كل الوجاهة ، وهو انه كان في هذه الفترة بالذات ، لا يزال يطمع في غفران الملك ، وفي عودته الى الرياض .

وعندما شعر باليأس من هذه العودة ، وبعد ان اتم تصفية علاقاته المالية هناك ، وانتقلت عائلته الى جواره في عجلتون ، بدأ يهاجم السعودية بقوة وعنف فنشر مقالين متواليين ، في صحيفة السنداي تايمس ، حول الاوضاع في السعودية ، انتقد فيهما الطريقة التي اتبعتها الحكومة في معالجة مشكلة البريمي كما حمل على تقربها من روسيا السوفياتية في محاولة ، وصفها هو ، بأنها « غير جادة وساذجة » ، لإرهاب الدول الغربية وتهديدها ، وعلى استمرار حالات البذخ والاسراف في انفاق موارد الدولة من البترول .

ويذكر فيلبي ان حملته ، هذه ، التي شرع فيها قد أثمرت ، على الرغم من امتناع الصحف العربية ، عن نقلها ، فيقول ان الرياض عادت الى التلويح له بغصن الزيتون ، فقد استدعاه دولة الرئيس العويني — وهو يكتفي بتسميته بالصديق المشترك ، الذي عمل طويلاً في السعودية ، وتبوأ وزارة المالية ورئاسة الوزارة في بلاده التي لا يسميها — ويمضي في وصف هذه المقابلة فيقول : « كان الوقت في نهاية تشرين الثاني من نفس العام ، وكنت قد امتنعت عامداً متعمداً ، عن لقائه ، مخافة مضايقته والتأثير على مركزه في السعودية من جراء اتصالي به ، لاسيما وقد كنت احمل له طيلة الثلاثين عاماً التي عرفته فيها ارفع

منزلة ، وكنا دائماً على اتم ما يكون من الصفاء والود . وقد لبيّت رغبته ، ومضيت الى زيارته ، ولا ادري حتى اليوم ، ان كان قد عمل مدفوعاً من نفسه كصديق مشترك ، أو انه كان ينفذ رغبات جاءته من السعودية ، ولكنه على أي حال اقترح تسوية المشكلة . وقضينا ساعتين طويلتين نناقش المشكلة دون ان نصل الى حل لها ، فقد اكدت له انني راض عن البقاء في عجلتون ، ولا ارغب حقاً في العودة الى بلاد اساءت اليّ ، ولكنه رد عليّ قائلاً ، بأن تلك البلاد هي وطني الذي اخترته ، وانني اكون في خارجها كالسمكة التي تخرج من الماء ، حتى لو مضيت الى انكلترا . وقلت له انني لم أغادر البلاد غاضباً ، وإنما خرجت منها مطروداً ، لأنني انتقدت اخطاءهم ، فرد بأن الخطأ الذي ارتكبته ، كان في توجيه هذه الانتقادات جهراً وعلانية ، بينما كان في وسعي ، ان اسرّ للملك بكل ما أراه موضعاً للانتقاد . وقلت ، ان هذه هي الطريقة التي كنت اتبعها مع الملك الراحل . لكن الملك سعود ، قد أحاط نفسه بزمرة من المستشارين الذين يشك في نزاهتهم وكفاءتهم . وأعدت على مسامعه ما سبق ان حدث لي في مجلس الملك الخاص في الطائف ، وكان الملك الراحل على فراش الموت ، عندما اعلنت الجميع ، بأنني على استعداد لمغادرة البلاد ، ولا يمكن ان أقبل بأن اظل ساكتاً ، وأنا أرى هؤلاء الناس يحطمون ما بناه الملك العظيم .

« وسألني الصديق ، لماذا لم أطلب عند صدور أمر الابعاد مقابلة الملك نفسه للاحتجاج على القرار ، فقلت انني على الرغم من علاقاتي الطيبة بالملك منذ عرفته ، قبل نحو من اربعين عاماً . وهو لا يزال شاباً صغيراً . كنت واثقاً من انه واقع تحت تأثير هؤلاء المستشارين ، الذين كانوا يحسدونني على علاقاتي الطيبة بوالده الكبير . ولما كان هؤلاء هم المسيطرون ، فلم اكن لأتردد في الرحيل كما يريدون .

« وأكد صديقي ان جميع هذه العقبات يمكن ازالتها ، اذا قمت بعمل يرضي الملك ، لاسيما ان كل ذوي الشأن ، لا يحملون ضدي اية ضغينة ،

سوى القول بأنني تسرعت في انتقاداتي ، ولم أراع جانب الحيطة فيها . وهنا أكدت للصديق ، أن أية خطوة نحو « الصلح » يجب ان تأتي من الرياض ، فأنا المطرود وأنا الذي لحقت بي الاساءة والاهانة أما أنا فلن اطلب الصفح والمغفرة ، على أي شيء قلته او فعلته ، ولن اقبل بأي شرط يحدد من حريتي في الحديث والعمل ، وهي الحرية التي تمتعت فيها طيلة حياتي في السعودية . ولي بدوري شروط اريد تنفيذها ، للتدليل على حسن النية ، اولها ان تدفع الحكومة للشركة التي كنت امثلها جميع ما لها من أموال مستحقة ، وأن تلغي العقد المتعلق ببناء ما تبقى من قصر الامير عبدالله بن عبدالرحمن .

« وطلب مني الصديق وثيقة خطية ، بما اقترح عمله وما أطلبه ، فامتنعت قائلاً انه يعرف الآن الوضع تمام المعرفة ، وأن في وسعه التدخل كصديق للطرفين بالشكل الذي يراه ، وأكدت له ان الشروط المتعلقة بشركتي أمرٌ جوهري لي من الناحية المعنوية ، اذا انني مسؤول ادبياً تجاهها » .

ويبدو من هذا الحديث الذي نقلته بدقة ، ان المصالح الاقتصادية قد لعبت دورها في الخلاف بين فيلبي وبين الحكومة السعودية ، وهو الخلاف الذي ادى الى ابعاده من البلاد . فقد اصبح فيلبي يمثل شركة من اكبر الشركات البريطانية ، وهي شركة ميتشل كوتس وشركاه ، التي تتولى الاشتراك في المناقصات ، لأخذ الالتزامات الضخمة في الاعمال الانشائية والبناء ، والطرق ، والسكك ، وغيرها من الأمور ، وهي بدورها توزع الأعمال المتعلقة بهذه الالتزامات ، على شركات صغيرة اقل منها شأناً ، ترتبط معها في العمل ، لتقوم بدور التنفيذ ، وتحقيق المشاريع .

ويبدو ان مشكلة البريمي لم يقتصر تأثيرها على العلاقات السياسية بين العربية السعودية وبريطانيا فحسب بل تجاوزتها الى العلاقات الاقتصادية ايضاً ، فقد أدت حدة المشكلة ، وعدوان البريطانيين على هذه الارض العربية ، الى قيام موجة طاغية من الكراهية للانكليز في البلاد ، حملت المسؤولين فيها على التقليل من الالتزامات التي تمنح للشركات البريطانية ، ولما كانت امريكا ،

لم تدخل حتى ذلك التاريخ بشركاتها الضخمة ، في ميدان المنافسة ، بسبب قصر نشاطها على مشاريع البترول ، وعلى المساعدات الفنية التي تقدمها بواسطة الخبراء الرسميين للجيش والقوة الجوية والطيران المدني والمشاريع الزراعية ، ومشاريع المياه ، والبحث الجيولوجي ، في طبقات الارض . ولما كانت فرنسا بسياستها الظالمة الاستعمارية في الجزائر وافريقيا الشمالية بصورة عامة ، قد اصبحت بعيدة عن كل احتمال في ميدان المنافسة ، فقد خلا الجو لالمانيا الغربية ، التي دخلت الميدان بكل قوة وجرأة ، وحلت شركة فيليب هولتزمان الألمانية المشهورة ، التي قامت بمد خط برلين – بغداد قبل الحرب الكونية الأولى ، محل الشركة الامريكية ميشيل بيكر التي كانت بدورها قد خلفت شركة بيشتيل البريطانية ، في ان تصبح القائمة بدور المستشار للحكومة في جميع مشاريعها الانشائية والهندسية والعمرانية . ولكن هذه التجربة منيت بالفشل ، وانتهت بطرد الشركة ، واعتقال اثنين من كبار موظفيها ، للتحقيق في سير الأعمال ، مما حمل وزارة الخارجية الالمانية على ايفاد ممثل لها الى جدة ، اشترك مع الحكومة السعودية في أعمال التحقيق ، التي اسفرت عن ظهور اشياء كثيرة تناولت اكثر من شخص واحد من المسؤولين في الحكومة السعودية .

وظهرت على المسرح الآن ايضاً شخصية المانية جديدة ، هي شخصية فون هينتيغ ، الذي عينه الملك سعود ، مستشاراً له في شؤونه الخارجية ، وقد تناقلت الصحف والاذاعات في الخارج ، نبأ تعيينه خلفاً لفيلبي ، مع العلم ان الاخير لم يكن في يوم ما ، موظفاً رسمياً في الحكومة السعودية . ويبدو ان عنصر المنافسة ، الشخصية والعامة ، قد لعب دوره في هذا الموضوع ايضاً ، ويبدو هذا العنصر بوضوح وجلاء في ما كتبه فيلبي .. قال : « وظهر الآن الماني آخر على مسرح الصحراء ، انه شخصية غريبة ، اثقلت صاحبها السنون ، ومراتب الشرف ، اذ عمل طويلاً في السلك الدبلوماسي في عهد هتلر ، في اكثر من عاصمة شرقية ، بينها كابل ، كما كان الشاهد الألماني على تسليم الجنرال دينتس الفرنسي الى الحلفاء في لبنان . أما من اين أتى هذا الرجل للسعودية

فلا ادري ، ولكنه جاء ليصبح مستشاراً للملك سعود في ادارة دفة شؤونه الخارجية ، واعتقد ان مشورته هذه لم تكن بلا اجر ، وحباً بعيون السعودية . ومن الغريب ان هذا الرجل ، رغم عمله الطويل في الشرق ، يجهل كل لغاته ، ولا يعرف كلمة من العربية ، كما ان ليس في السعودية من يعرف الالمانية . وكنت ألتقي به بين الحين والحين ، في جلسات الملك العامة وعلى موائد طعامه ، وكنت اسمعه يتحدث الى الملك بانكليزية ركيكة . ولا ادري حقاً ما هو الدور الذي كان يمثله وراء الستار .

« ولم يكن هذا الالماني سوى فون هينتيغ ، الذي ذكرت الانباء تعيينه مستشاراً للملك بعد ابعادي . لقد اوضحت اكثر من مرة ، انني لم اشغل منصباً لا في عهد الملك الحالي ، ولا في عهد الملك الراحل . وكنت في عهد المرحوم احضر مجالس الملك الخاصة ، وجلسات اللجان السرية ، ولكنني انقطعت عن حضورها ، قبل ثلاثة اسابيع من وفاته بسبب الخلاف الذي وقع بيني وبين الامير عبدالله . أما الملك الحالي ، فلم يطلب قط مشورتي ، كما اني لم اتبرع بها ، في أي موضوع منذ توليه العرش حتى يوم ابعادي .

« انني اعلنها كلمة صريحة ، انني لم اكن موظفاً قط في الحكومة السعودية . أجل لقد كنت اتمتع بصداقة الملك الراحل وثقته ، مدة ستة وثلاثين عاماً ، وكانت علاقاتي في المدة عينها مع الملك الحالي ، ودودة وان لم تكن وثيقة .. أما « خلفي المزعوم » فلم يطل عهده بالسعودية ، وسرعان ما عاد الى المانيا في خريف عام ١٩٥٥ ، في اجازة غير محدودة ، وبراتب مستمر .. » .

وقضى فيلبي شتاء عام ١٩٥٦ ، في دارته في عجلتون ، وهطلت الثلوج فأحاطت بالدارة ، وظل يعمل ليل نهار في اعداد كتبه ، التي يعتزم إصدارها . ومضى شهر شباط ، ليحل شهر آذار ، عندما دوى في العالم نبأ جديد ، يتعلق بطرد ركن آخر من اركان الاستعمار البريطاني ، من البلاد التي عمل فيها طويلاً ، في دعم امبراطوريته ، فقد نقلت انباء عمان ، ان الفريق غلوب ، رئيس اركان حرب الجيش العربي الأردني قد اعفي من منصبه ، وانه قد منح

اربعاً وعشرين ساعة للخروج من البلاد . وتلقى الشعب الأردني هذا النبأ بمظاهر الفرح والابتهاج ، وعمّت المظاهرات التعبيرية كل ناحية من نواحي البلاد .

وبلغ النبأ فيلبي ، وهو في منفاه ، ولم يشأ ان يمر به النبأ مر الكرام فآثر ان يعلق عليه وان يقارن بين مصير غلوب وبين مصيره ، وكلاهما دعامة من دعائم النفوذ البريطاني ، في الوطن العربي فقال : « ان الطريقة التي تم بها اخراج غلوب ، تتنافى مع تقاليد الضيافة العربية ، ولاسيما بعد خدمته الطويلة في تثبيت كيان دولة تفتقر الى مقومات الكيان . وليس في وسعي الا ان اقارن بين مصيره ومصيري ، لاسيما وقد اتصلت به ، عندما مررت بالاردن ، مطروداً من السعودية قبل نحو من عام ، فعلق على النبأ قائلاً ، ان دوره سيأتي . وكانت مشكلته ، والخطأ ليس خطأه وإنما خطأ الحكومة البريطانية ، ان مشاريعه لنقل السيطرة على الجيش الأردني من الضباط البريطان الى الضباط العرب ، قد تأثرت واضطربت بسبب بعثة الجنرال تمبلر رئيس اركان حرب الامبراطورية الذي فسّرت زيارته للاردن، ان خطأً وان صواباً، على انها محاولة من بريطانيا لإرغام الأردن على الدخول في حلف بغداد . ويبدو ان غلوب كان متفائلاً كل التفاؤل ، في انه سيتمكن من تحقيق مشروعه في الوقت المناسب . وقد أوضح لي ، أنه سيتمكن في غضون اربع سنوات من اعداد الضباط الاردنيين لتولي الاشراف على الجيش ، ولكن مد القومية العربية الطالع ، قد أبعده عن منصبه ، قبل ان يحين الوقت المناسب . وها هي موجات القومية العربية تعصف بسواحل البلاد العربية كلها ، إذ سرعان ما قامت مظاهرات في البحرين ، تلت طرد غلوب ، احتجاجاً على زيارة المستر سلوين لويد ، وزير الخارجية البريطانية ، وهو في طريقه الى كراتشي .

« لكن هناك فرقاً كبيراً ، بين طردي ، وطرد غيري من البريطانيين الذين خدموا مصالح الاستعمار ، في مختلف اجزاء الوطن العربي . فعندما ابعدت من البلاد مشفوعاً بحملة عنيفة من الحكومة السعودية ، لم تقم مظاهرات الابتهاج ، في العربية السعودية ، بينما اعربت الصحف البريطانية ، عن

ارتياحها لخروجي من البلاد ، التي كنت اتولى فيها الدفاع عن الحقوق العربية ، أمام الاستعمار منذ الحرب الكونية الأولى . أما طرد غلوب ، فقد استقبلته بريطانيا حكومة وشعباً بحنق وسخط شديدين ، بينما انهال الثناء على طارديه في الأردن » .

ولا يسعنا إلا أن نتوقف قليلاً لنعلق على هذه الأقوال التي تظهر في طبيعتها متناقضة ، بالاضافة الى ما فيها من مغالطات ، تتناول التاريخ في صميمه . ففيلبي يعترف ، ان غلوب كان من البريطانيين الذين خدموا مصالح الاستعمار في الوطن العربي ، فكيف يطلب من العرب ، من ناحية اخرى ، مراعاة حقوق الضيافة وتقاليدها العربية مع هذا الضيف « الثقيل » ، الذي يمثل لهم الاستعمار بكل ما فيه من قسوة وبطش ومثالب . وهل تقضي تقاليد الضيافة العربية ، ان يفتح العرب أبواب بيوتهم أمام من جاء اليها ، لا كضيف ، وإنما كمستعمر محتل ، ينفذ مصالح بلاده الاستعمارية باعتراف فيلبي نفسه ؟.

والمغالطة الثانية ، هي هذا التشكيك في حقيقة مهمة الجنرال تمبلر ، عندما يقول أنها فسرت ان خطأ وإن صواباً ، على انها محاولة من بريطانيا لإرغام الاردن على الدخول في حلف بغداد . فهل كان فيلبي يجهل حقاً مهمة الجنرال تمبلر ؟ وهل لم تصل الى مسامعه انباء المفاوضات التي كان يجريها مع الحكومة الاردنية ، والتي استغرقت اياماً طويلة ، وأدت الى استقالة حكومة سعيد المفتي ؟ واذا كان قد جهل كل هذه الحقائق من مصادره الخاصة ، فهل لم يصل الى مسامعه نبأ الكتاب الذي أصدره هزاع المجالي آنذاك ، والذي تحدث فيه عن ازمة تمبلر وأسبابها ، واعترف بالمفاوضات التي وقعت فيها لإدخال الاردن في حلف بغداد .

والنقطة الأخيرة ، هي قوله ان المظاهرات لم تعم البلاد العربية السعودية ، ابتهاجاً بخروجه من البلاد ، كما عمت الأردن ابتهاجاً بطرد غلوب . حقاً انها لمغالطة مقصودة ، فمتى كانت المظاهرات تعم انحاء المملكة العربية السعودية ، لأي حدث من الأحداث القومية التي كانت تهز الوطن العربي كله وتثير

فيه اعنف المظاهرات من الخليج الى المحيط ؟... ان البلاد العربية السعودية، لا تعرف التظاهر والمظاهرات ، وهذا ما يدركه كل انسان يعيش في الوطن العربي

لقد أخرج فيلبي من المملكة العربية السعودية ، بأمر من الملك ، وبرأي مستشاريه ووزرائه ، ولم يكن للشعب في هذا الخروج ، أي اثر أو فضل ، حتى يعرب عن فرحه وابتهاجه . ولو كان هذا الشعب هو الذي أخرجه ، أو كان له يد في إخراجه ، لما سمح له بالعودة كما سنرى في فصل لاحق ، ولكن الشعب السعودي ، كان ولا يزال ، بمنأى عن الأحداث التي تقع في بلاده او خارجها .

* * *

وكانت محاولات الوساطة لا تزال مستمرة في هذه الفترة كلها . ويقوم بالدور الرئيسي فيها ، الحاج حسين العويني فقد ذهب دولته الى القاهرة في شهر آذار ، ليكون في استقبال الملك سعود عند زيارته مصر ، للاجتماع بالرئيسين عبدالناصر والقوتلي ، لبحث موضوع المساعدة العربية الى الاردن ، للاستعاضة بها عن المساعدة المالية البريطانية . واجتمع هناك بالملك وبوزرائه ومستشاريه وبحث معهم في وضع فيلبي ، وقد عاد لينقل اليه الانطباع الذي حمله من هذه المقابلات ، وهي ان الجميع راغبون في عودته ، وأكد له انه سيسافر في الثاني والعشرين من الشهر نفسه الى جده ، لأعمال تجارية خاصة . وسينتهز فرصة زيارته لإثارة الموضوع من جديد . وطلب اليه ان يكتب رسالة الى الملك ، يعرب فيها عن اسفه لما وقع من سوء تفاهم ، ادى الى اضطراب العلاقات الودية التي عاشت دهراً طويلاً بينه وبين بيته المالك . وكان العويني قد أعد مسودة الكتاب على الشكل الذي يراه ، وجاء به الى فيلبي ، ليكتبه بخط يده ، ويوقعه فيحمله معه الى جده .

وطلب اليه فيلبي ان يطبع الكتاب على الآلة الكاتبة في مكتبه وأن يرسله اليه لتوقيعه ، وقد تم هذا بالفعل ، وكان تاريخ الكتاب في الواحد والعشرين

من آذار عام ١٩٥٦ .

ويعتذر فيلبي لقرائه ، عن عدم تمكنه من اخراج نسخة من الكتاب ، إذ أن الحاج حسين ، لم يعط له نسخة منه ، على الرغم من إلحاح فيلبي بالحصول عليها .

* * *

وهكذا دخلت الوساطة هذه المرة مرحلة جدية ، فقد وقع فيلبي الكتاب المطلوب ، ونقله الحاج حسين الى الملك سعود ، الذي أمر بالصفح عن اخطاء فيلبي ، وسمح له بالعودة الى البلاد ..

١٤

العودة إلى الحظيرة

تلقى فيلبي في الثالث من نيسان عام ١٩٥٦ ، الرسالة التالية ، عن طريق صديق له :

« من سعود بن عبدالعزيز الى المكرم فيلبي حفظه الله .

سلام الله عليك ورحمته وبركاته . وبعد فقد تلقينا كتابك المؤرخ في الواحد والعشرين من آذار عام ١٩٥٦ ، وفهمنا الاعذار التي قدمتها لسلوكك ، وطلبك منا الصفح على ما عملت . ولما كنت والحمد لله ، مسلماً وعربياً ، ولما كنت ، لا احمل في نفسي حقداً او ضغينة ، لذا ارجو ان تفهم من كتابي هذا ، على أنه مسامحة لك على أعمالك ، وأن في وسعك ، ووسع عائلتك ، ان تعودوا الى المملكة في اي وقت تشاؤون . وقد أصدرنا الأمر اللازم الى مفوضيتنا في بيروت . والله نسأل ان يوفقنا وهو ولي التوفيق » .

إذن فقد انتهت الأزمة ، وأصبح في وسع فيلبي ان يعود الى الحظيرة ، وهو ما كان يسعى اليه وينشده ، فقد مل حياة المنفى وسئم عيشة الطريد في ربوع عجلتون ..

واجتمع فيلبي بالعويني من جديد وبحثا في الموضوع من جميع جهاته ونواحيه ، وأترك لفيلبي وصف هذا الاجتماع ، قال : « اكد لي الصديق اعتقاده ، بأن جميع ذوي العلاقة والشأن في المملكة يريدون مني أن أعود ، وأن جميع الشروط التي اشترطتها ستنفذ بحذافيرها ، بل وسأنال اكثر مما اشتهي . وبالطبع لم يكن لدي إلا الوعد الذي حصلت عليه من هذا الصديق ، وقلت له ، ان ثقتي المطلقة بصداقتنا الطويلة ، تكفي بالنسبة الي ، لقبول الدعوة ، وتقرير العودة الى العربية السعودية . وأضفت انني كنت سعيداً في اقامتي بلبنان ، وكنت سأظل سعيداً لو استمرت حتى الأبد ، ولكن هناك اعتبارات من الواجب تفوق مفاتن المنفى ، وأكدت له أنني سأعود . وبعد بضعة أيام ، زرت في رفقته السفير السعودي ، لتوقيع الاتفاقية وبحث ترتيبات العودة.

« وانتشرت انباء عودتي القريبة الى العربية السعودية انتشار النار في الهشيم في الاوساط الصحفية ، في الشرق الأوسط ، وفي الخارج ايضاً ، وصدر سيل من التعليقات والتفسيرات ، فاقت في اثارتها الانباء السابقة التي نشرت عن ابعادي . وكانت الصحيفة الوحيدة التي وصلت الى حقائق المسألة وجذورها ، جريدة « الحياة » التي تصدر في بيروت ، عن طريق مراسل لها في بغداد ، أسمى نفسه الشريف فاضل . وقد تناول هذا المراسل ، في حديثه ، ما سبق لاذاعة مكة المكرمة ان أذاعته ، في تبرير ابعادي ، قبل نحو من عام ، عندما وصمتني بأني عميل للصهيونية وتساءل ، كيف يسمح لمثل هذا العميل بالعودة الى أقدس اماكن المسلمين . واستطرد المراسل بعد ذلك ، يشرح التطورات التي وقعت ، والرسالة التي بعثت بها الى جلالة الملك ، ورد جلالته عليها » .

وتقرر اخيراً ، ان يسافر فيلبي بالطائرة الى الرياض ، وحيداً دون عائلته في الثلاثين من ايار ، على ان تلحق به اسرته فيما بعد .. ولكنه يروي قبل سفره الحادثة الغريبة التالية :

« كانت الاقدار تخبيء لي مفاجأة مدهشة في اوائل شهر أيار . فقد تلقى موظف لبناني يعمل في السفارة البريطانية في بيروت ، رسالة من مجهول ،

كانت توحي بالفزع ، مما دعا السلطات البريطانية الى القيام بعمل من الكياسة نحوي ، على الرغم من انها لا تشعر بأي التزام تجاهي . وقد نقل احد موظفي السفارة ، الرسالة التي في عجلتون في ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام ، وكنت لا أزال في حمامي ، ولا انتظر وصول أي زائر في هذه الساعة المبكرة . كانت الرسالة موقعة في الخامس والعشرين من نيسان عام ١٩٥٦ وهذا نصها :

« ابعث اليك بهذه الرسالة ، دون سابق معرفة او اتصال . وقد تدهش من وصول هذه الرسالة اليك ، وقد تهملها ، ولكنني أود ان اؤكد عليك وجوب الاهتمام بما فيها من حقائق ومعالجتها على هذا الأساس . وأرجو ان لا تحاولوا معرفة من اكون ، ولكن ارجو ان تتذكروا .. وهي كلمة اقترح ان تكون مقدمة او كلمة السر ، عندما تبرهن الظروف على صحة المعلومات التي انقلها اليكم الآن . لقد وصل الى علمي ، من مصدر موثوق ، ان هناك محاولات قوية وجهوداً تبذل لإقناع السير فيلبي (الحاج عبدالله فيلبي) ، بالعودة الى العربية السعودية .

« ولما كنت قومياً عربياً اؤمن ، بأن اوضاع العرب ومستوى حياتهم لن يرتفع أو يتحسن اذا استمرت السياسة وطريقة الحكم في العربية السعودية على ما هي عليه الآن . لهذا فأنا انتظر الوقت الذي يصدر فيه كتاب السير فيلبي ، عن العربية السعودية لتمكين الرأي العام ، من ان يطلع على الأمور في البلاد التي يقدسها جميع المسلمين ، في انحاء العالم . ولهذا فأنا اشير عليكم بأن تقدموا هذه الرسالة الى رؤسائكم وأن تحذروهم وتطلبوا اليهم الحيلولة بكل السبل دون عودة السير فيلبي الى المملكة السعودية .

« لقد رتبوا خطة فور عودته ، لاغتياله بعلم الملك ، بطريقة مسرحية وطنية . وليس في وسعي ان ابرهن لكم الآن على هذه الحقيقة ، أو قبل وقوعها ، ولكن في وسعكم ان تتأكدوا ، من

هذه المعلومات ، وأن تدركوا هدفهم من الاشارة على السير فيلبي ، بأن يطلب شروطاً قاسية لعودته ، واؤكد لكم انهم سيقبلون بهذه الشروط ، ليجروا قدمه ، ويحملوه على العودة الى العربية السعودية .

« يضاف الى هذا ان عليكم ، ان تتخذوا كافة الاحتياطات للمحافظة على حياته في الأراضي اللبنانية .

« إنني أقدم هذه المعلومات الآن ، وآمل ان نلتقي في القريب العاجل » .

« هذا ما جاء في الرسالة ، وهي تضم عدداً من النقاط المهمة . واذا كانت المقابلة التي يعرب عن الأمل في وقوعها ، ستقع بعد الوفاة ، فإنني ارجو الله ان لا تقع ، ولكن لنترك الهزل جانباً ، لقد كنت دائماً انظر الى الاوضاع نظرة موضوعية وكثيراً ما أقوم في الحياة بدور الممثل والنظارة معاً ، ولاريب في ان شكسبير كان صادقاً عندما قال : « العالم مسرح ، وكل فيه من الرجال والنساء ، ممثلون » . ولاريب في انني اشارك الكاتب المجهول رغبته في رؤية كتابي هذا يصدر الى حيز الوجود ، وآمل في يوم ما أن يشبع فضوله بقراءته ، لا في عين الظروف التي يتمناها ، وإنما في ظروف أخرى . انني سأبعث به قبل عودتي الى السعودية ، الى ناشري « روبرت هيل » ، في لندن لطبعه كما هو ، إلا اذا ادخلت عليه بعض التعديلات ، وفقاً لما أراه ، عند عودتي الى السعودية ، من صلاح في الوضع هناك ، أو من أمل في الصلاح .

« أما الآن ، هل اذهب ، أو لا أذهب ، هذا هو السؤال ، ولم يتطرق الى ذهني أي شك في حقيقة الجواب ، منذ اللحظة التي قرأت فيها هذه الرسالة . وعلى الرغم من ان صديقي سكرتير السفارة ، قد اكد لي ، بأن كاتب هذه الرسالة ، سبق له ان زود السفارة بمعلومات دللت فيما بعد على صحتها ، إلا انني لم استطع ان اضحك من المفارقة العجيبة ، بين فترتين مهمتين في حياتي اولاهما في تموز عام ١٩٤٠ عندما قررت ان اترك العربية السعودية ، وأنا انضم الى عائلتي في امريكا على الاقل ، وعندما جاءني الملك سعود نفسه ، وكان

انذاك اميراً ، ووليا للعهد ، ينصحني بعدم الذهاب ، مخافة ان تكون الحكومة البريطانية تتآمر علي ، كما ثبت فعلاً فيما بعد ، وبين موقفي الآن ، وأنا ارى الحكومة البريطانية نفسها تحذرني من الذهاب الى بلاط الملك سعود نفسه . ولم اندم قط ، على انني تجاهلت في الماضي نصائح الامير سعود . كما انني لن اتردد الآن في العودة الى بلاده رغم هذه النصائح الصادرة عن نية طيبة ، وليس في وسع المرء ان يحكم على صواب قراراته او خطئها الا بعد تجربتها . وهذا ما سأقوم به في الثلاثين من ايار عام ١٩٥٦ . واذا كانت هذه هي نهاية الطريق فانني سأواجهها باتزان وسكينة على الرغم من بعض الحسرة ، من انني لم اعش اطول لأحدث العالم ، اكثر عن التجارب التي مرت بي في الصحاري العربية طيلة اربعين عاماً .

« ولم يكن هناك من انسان اكثر ألماً في العودة الى بيته من منفاه ، مني وأنا أغادر هذه الجبال الرائعة في لبنان ، حيث قضيت اسعد سنة في حياتي : مكرراً في ما اكتبه العيش في الحياة التي قضيتها ، في ذلك المسرح . الذي كان حتى وقت قريب ، المكان الذي يظهر فيه الابطال من امثال ابراهيم وموسى : ليؤدوا دورهم ، كما أديت دوري ، ولأعود الى بيت انقسم على نفسه بالنسبة الى مصالحه ، والى خوفه من خطر الزوال ، ثمرة ما عمله اصحابه . وقد يتيح لي الحظ في يوم ما ، ان اكتب قصة الولد الضال ، وهو يعود .. » .

أجل لقد عاد فيلبي في الموعد المقرر ، ولم يكترث بنصيحة السفارة البريطانية وانذارها .. وعاد ليعيش في البيت الذي آواه ثلاثين عاماً ، مع اسرته الجديدة ، بعد ان نقلت اليه الانباء عام ١٩٥٧ من بريطانيا وفاة زوجته ، وأم بنيه ، التي رافقته هذا العهد الطويل ، في حياته وكفاحه ، وشاركته عسر الأيام ويسرها ، وكانت الى جانبه في كل حين وآن .

وأود ان اختم هذا الفصل ، الذي كانت بدايته ، بداية النهاية في حياة فيلبي الطويلة ، اذ لم تسجل الأعوام الاربعة الاخيرة منها ، أي حوادث ذات شأن وبال ، في افق نشاطه ، باستثناء بعض الكتابات العلمية والجغرافية التي

كان يزود امهات الصحف العالمية بها ، وباستثناء حضوره لبعض مؤتمرات المستشرقين ، بفقرة وردت في مقدمة كتابه « اربعون عاماً في الصحراء » ، تعكس ضوءاً على عودته الى الحظيرة ..

قال فيلبي : « لقد استقبلت في كنف الملك سعود ، كالولد الآمن يعود الى داره . فقد أضحت الخلافات التي ادت الى نفيي وابعادي في زوايا النسيان ، وشملها جلالته بالصفح والغفران . ووجدت عند عودتي علائم مشجعة تشير الى انه في غيابي اتخذت خطوات فعّالة ، للسير بسفينة الدولة ، على اسس اكثر ثباتاً في هذا الجو من الاعاصير الذي احاط بالشرق الاوسط . ولاريب في انه ما زال أمام الملك ، الكثير ليعمله ، ولكنني واثق ، من انه مع وجود الارادة ، فستذلل جميع المصاعب ، في طريق الاصلاح والانشاء .

« وقد علت هيبة الملك ، ولم يعد في حاجة الى ايدي الناصحين الامناء من المستشارين ، والساسة ، ليساعدوه في اعماله الاصلاحية الجمة . وفي وسع بريطانيا وامريكا ، ان تساهما في هذا الميدان ، شريطة ان تكون مساهمتهما نابعة عن رغبة صادقة مخلصة ، وعلى بريطانيا بصورة خاصة ، انتزيل من جو علاقتها بالسعودية ذلك السبب الذي ادى الى تشويهها هذه المدة الطويلة .

« ويمقت العرب اشد المقت ، انتقال قبضة الاستعمارية البغيضة الى أي جزء من اجزاء وطنهم ، ولهم الحق في ذلك كل الحق ، وعلى الجميع ان يدركوا انه على الرغم من عدم رغبة العرب ، في تشجيع مد الشيوعية في بلادهم ، فإن أمامهم مشاكل فورية ملحة ، تحتل بالغ اهتمامهم ، وتستأثر من عنايتهم أكثر من خطر العدوان الروسي . اذ ان هذه المشاكل تتصل بحياتهم كل يوم . فالبريمي واسرائيل والجزائر ، وفق هذا الترتيب ، هي المشاكل الرئيسية التي تؤثر على المملكة العربية السعودية ابلغ التأثير . ولا يكفي ان تجتث هذه الاعشاب الضارة من الاراضي التي زرعت وأينعت فيها ، بل يجب ان لا تعود الدول الغربية الى زراعتها في أي جزء من اجزاء الوطن العربي » .

١٥

النهاية

قال جلالة الملك عبدالعزيز ، رحمه الله : « اثنان لم يأخذا مني شيئاً او يسألاني شيئاً ، فيلبي والشيخ عبدالرحمن الصبيح ، (والاخير تاجر نجدي ثري) .

وقال فؤاد حمزه ، رحمه الله : ان فيلبي خير من في الحجاز من الأجانب ، فهو عالم رحالة ، قتل الجزيرة بحثاً وتنقيباً ..

وقال احد ناقديه .. سنت جون فيلبي ، اديب كلاسيكي ولغوي ودبلوماسي ومكتشف ، ومن اعظم رجال الانكليز في عصره .. أما بالنسبة الى البلاد العربية ، فهو اعظم انكليزي ظهر حتى الآن ..

حقاً لقد كان فيلبي ، احد كبار الانكليز في عصرنا الحاضر ، وأعظم انكليزي عمل في البلاد العربية حتى اليوم ، في دعم ، اركان امبراطوريته وتثبيت سياساتها ، القائمة على تجزئة الوطن العربي ، ولئن كان قد ظل لغزاً مبهماً ، مغلقاً ، على اذهان الكثيرين وأفهامهم ، ولئن كانت حياته الطويلة في قلب الصحراء العربية قد اثارت من التساؤل ، ووضعت من علامات

الاستفهام تثره حياة انسان ، من قبل ، فإن من طبيعة الغموض ان يثير مثل هذا التساؤل والاستغراب ، لأن من طبيعة الانسان ان يحاول استكناه الغوامض ، واستقراء البواطن ، مدفوعاً بنوازع مختلفة متضاربة اقلها الميل الى الاستطلاع والفضول في معرفة الأمور .

فهذا الرجل الذي نشأ نشأة لامعة في جهاز بلاده الاستعماري ، ووصل في سن مبكرة الى اعظم المراكز حساسية ، وأكثرها خطورة ، فأوفد في مهمات كبيرة لا توكل الا لمن يتمتعون بالثقة المطلقة ، ويقدر فيهم الذكاء اللمّاح ، تمام التقدير ، كالمهمة التي اوفد فيها الى قلب الصحراء ، في أواسط الحرب الكونية الأولى ، ليضم الى صف بريطانيا حليفاً جديداً كأبن السعود ، يشترك معها ، في حرب فرعية ، ضد ابن الرشيد ، حليف الاتراك، اعدائها ، وهذا الرجل ، الذي لو قدر له ، ان يتابع العمل ، في ذلك الجهاز لوصل بعد سنوات قليلة الى اعلى المراكز كما تنبأ له صديقه السيد طالب النقيب ، أو لو غادر ذلك الجهاز ، وارتحل الى وطنه يعمل في سياساته الداخلية ، ويقيم له قواعد انتخابية تحمله الى مقاعد مجلس العموم ، لكان له شأن وأي شأن ، في حياة بلاده العامة ، ولتمكن بفضل مواهبه الكبيرة ، وتجاربه الكثر ، واطلاعه الواسع ، على مختلف الشؤون المتصلة بأكثر من بلد ، من أن يبز اقرانه ، ويرتفع درجات السلم غير هياب ولا وجل ، ليصل غاية ما يطمع اليه شاب في ذروة النشاط والحيوية من رفعة ومركز .

ولكن هذا الرجل ، آثر أن ينسحب من كل هذه الأمجاد ، وأن يقبل على حياة الصحراء ، الجافية ، القاسية ، يتودد اليها ويألفها ، ويغرق فيها كل هذه الآمال والمطامح ، ويضيع فيها ، وفي صحاريها وبيدها نتاج عمر ، وحصيلة تجارب ضخمة . وأقبل على حياته الجديدة ، اقبال الملهوف ، يذوب فيها بعقله وعواطفه ، وحتى معتقداته ، فلا بدع والحالة هذه ، إن أثار سلوكه هذا الكثير من الشكوك . واستفز العديد من الاسئلة وعلامات الاستفهام: التي تتطلب بإلحاح ، الحل والجواب .

وفي مقابلة صحفية ، جرت له في أواخر أيامه ، مع صحفي اديب ، جهد فيلبي ، أن يوضح نفسه ، وأن يجيب على هذه الاسئلة التي تثار في كل آن وحين حول عمره الذي أضاعه في الصحراء ، ونقول أضاعه ، اذا شئنا ، التسليم بالبراءة التي ادعاها لنفسه ولحياته ، والموافقة على المبررات البسيطة ، التي اتخذ منها وسيلة ، لتفسير ما أحاط بتلك الحياة من غموض ، وما رافق تلك النفس من ابهام ، وان شئنا في الوقت نفسه التأكيد ، على ان الدراسات العلمية في الصحراء ، لم تكن تتطلب منه ان يصرف اربعين عاماً في نجودها ، وبطاحها بصورة متتابعة متلاحقة ، اذ كان في وسعه ان يفعل كما فعل أقرانه وزملاؤه من الرحالة والمستكشفين ، في اكثر من بلد ، وفي مجهل من المجاهل ، التي لا تقل شأناً وأهمية ، بالنسبة الى العلم وآفاقه ، من بطون الصحراء العربية ، حيث قضوا فترات لا تكاد تصل معشار ما قضاه فيلبي في بيدائه العربية .

قال الصحفي يسائله : هل تخليت حقاً عن الاسلام ، منذ ابعادك من المملكة العربية السعودية ؟

فرد فيلبي قائلاً : لا . لا ، لم اتخل عن الاسلام ، ولن اتخلى عنه ، وكل من يصمني بهذه الوصمة ، أفاك مريد . فقد اقبلت على الاسلام ، بروح صادقة خالصة ، لا علاقة لها البتة ، بعواطف الحكام ، وآرائهم ، ولا شأن لهم فيها ، وليس من المعقول ، ان اتخلى عنه الآن ، لمجرد أن الملك سعود قد أمر بابعادي عن بلاده .

ـــ هل كنت بوصفك مستشاراً للملك ابن سعود تتلقى راتباً ضخماً من عائدات الزيت ؟

ـــ لا ، أنا لم اكن قط في حياتي مستشاراً للملك عبدالعزيز ، بصورة رسمية ، على الرغم من انني كنت دائماً صديقه الودود القريب منه ، وكنت بالطبع ، اتقدم له بالرأي في جميع المشاكل ، التي يعن له ان يسألني عن رأيي فيها ، يضاف الى هذا انني لم اقبض منه أو من حكومته ، أي مرتب طيلة هذه المدة الطويلة التي قضيتها هناك .

أما بالنسبة الى عائدات البترول ، فقد كنت أنا الذي اقترحت على الملك عبدالعزيز ، اجراء تلك المفاوضات ، التي أدت الى ذلك الامتياز الذي منحه الى شركة ستاندارد اويل كاليفورنيا ، والذي اسفر عن هذه الثروة الطائلة ، التي تتمتع بها العربية السعودية ، ولكني لم اتلق فلساً واحداً ، لا من الملك ولا من الحكومة على خدماتي هذه .

ـ هل انت رجل ثري ، وهل درّت عليك أعمالك التجارية ، اموالاً طائلة ، كما هو الشائع والمعروف عنك ؟

ـ أنا لست بالانسان الثري ، واني لأمنح عن طيبة خاطر كل من يستطيع ان يبرهن على العكس ، كل ما يستطيع ان يثبته من ثروة عندي .

ـ هل كنت حقاً ، كاتب المقال الذي نشرته مجلة « التايم » الامريكية دون توقيع ، والذي انتقد انتقاداً مراً ، اسراف الملك سعود ؟

ـ لا ، لست بكاتب ذلك المقال ، اذ لم احظ بالشرف قط في كتابة أي مقال لهذه المجلة ، ولما كانت المجلة ، قد نشرت مقالها ، دون أي توقيع ، فليس من العدل في شيء ان ينسب هذا المقال الي ، فقد تعودت دائماً ، ان اذيل المقالات التي اكتبها بتوقيعي ؛ كما ان ليس من شأني الجبن ، بحيث أخشى تحمل مسؤولية شيء اكتبه ، وأعرف صحة ما فيه .

ـ لماذا ، استقلت من خدمة الحكومة البريطانية . وآثرت عليها العمل في الجزيرة العربية ؟

ـ هذا سؤال يعود بنا اكثر من خمس وثلاثين سنة الى الوراء ، ولو قرأت الكتب الكثيرة التي وضعتها عن تاريخ حياتي . لتبين لك حقاً ، السبب في هذه الاستقالة . فلقد مللت من النكث بالعهود التي قطعت للعرب ، وشعرت بأن سياسات حكومتي أخذت تتجه اتجاهاً مضاداً ، لهذه العهود ، فرأيت ان ليس باستطاعتي ، ان اظل مرتبطاً بهذه السياسات التي لا اتفق معها .

أما بالنسبة الى العمل في الجزيرة العربية ، فقد استهوتني هذه البلاد التي اتخذت منها موطناً لي منذ اربعين عاماً ، وذلك اثناء زيارتي الأولى لها . وشعرت

نحوها بانجذاب عميق ، لم استطع منه فكاكاً حتى هذه اللحظة . ولا ادري هل للصحراء مثل هذا الجاذب العميق ، المؤثر ، بالنسبة للكثيرين . فقد سمعت عنها ظواهر مماثلة في ادب العرب الاقدمين وشعرهم .

– هل كنت حقاً تحب العرب ، وتؤثر مصلحتهم على مصلحة بلادك ؟

– أجل لقد احببت العرب حباً جماً يفوق حدود العقل والتصور ، وهذا ما حملني على التطبع بطباعهم ، والعيش كما يعيشون ، والتدين بديانتهم . وقد دفعني حبي هذا لهم ، الى الاصطدام اكثر من مرة مع حكومتي ، مما اضطررت معه اخيراً الى الاستقالة ، واعتزال العمل نهائياً في خدمتها .

أما قضية ايثار مصلحتهم على مصلحة بلادي ، فما كنت اعتقد قط بوجود أي تناقض بين المصلحتين ، لو أحسن الذين يوجهون سياسة حكومة بلادي الصنع ، وحققوا للعرب آمالهم ومطامحهم ، في الحياة الكريمة ؛ فمن شيمة العربي الوفاء لأصدقائه .

* * *

هذه اسئلة صحفية وجهت الى فيلبي في اخريات أيامه ، وقد ردّ عليها رداً واضحاً ؛ لا غموض فيه . فهل تتطابق هذه الردود مع حقائق الحياة التي عاشها والتي حاولت ان اشرحها ، شرحاً وافياً في هذا الكتاب ، الذي اقدمه الى القارىء الكريم .. انني اترك ذلك لتقديره ، وحكمه ، وانصافه ..

أما أن هذه الردود ، لم ترفع من حياة فيلبي سحب الشك التي لفتها ؛ ولم تزل منها علامات الاستفهام الكثيرة ، فهذه حقيقة واقعة لا يستطيع انسان ان يتجاهلها .

لقد ظلت حياة فيلبي وستظل لغزاً مغلقاً ، ولن ينجلي كل ما فيها من حقائق ؛ على الرغم من هذا الجهد المتواضع الذي بذلته في اعداد هذا الكتاب ،

الى ان يتاح للذين عاشوا مع فيلبي ، وكانت لهم صلة بأسرارها وخفاياها ، ان يزيحوا عنها النقاب ويكشفوا عنها الأستار ..

* * *

على أي حال ، لقد مضى فيلبي ، عن هذه الدنيا ، تاركاً وراءه اكثر من علامة استفهام كبيرة ..

أجل مضى صانع الامبراطوريات ، وهادم العروش ، وباني الممالك ، في موكب متواضع بسيط ، الى مقره الاخير ، لا يرافقه الا حفنة من الرجال ، نصفهم من الاجراء ، الذين استؤجروا لحمل جثمانه ...

ولعل في هذه النهاية المتواضعة ، ما يشير الى ان تلك الامبراطورية التي كان قد جاهد ، في دعمها ، واقامتها ، قد انطوت على نفسها وانكمشت منذ حين ، بفضل عوامل خارقة ، تقف أمامها جهود فيلبي ، صغيرة متواضعة ..

هذا الكتاب ...

أول كتاب ، من نوعه ، وموضوعه ، يصدر في اللغة العربية يتناول حياة رجل غامض ...

سنت جون فيلبي ... أو الحاج عبد الله فيلبي ...

الانسان اللغز ... الذي ظلت حياته الطويلة ملأى بالأسرار التي تلفها من كل جانب ...

إن المؤلف يتحدث فيه ، بعد معلومات وثيقة ودراسات وافية عن :

فيلبي ... صانع الامبراطوريات ، ورافع العروش ، ومحطم الممالك ...

فيلبي ... السياسي الداهية ، الذي يتلاعب بمقدرات الشعوب ...

فيلبي ... المستشار ، الذي يضع المخططات ، ويرسم السياسات ...

فيلبي ... الرحالة ، الذي يجوب الآفاق ، ويطوف بالصحارى والنجود ...

فيلبي ... التاجر ... الذي يحصل على امتيازات البترول ويحتكر تجارة السيارات ...

فيلبي ... المسلم ، المؤمن ، الذي يفيء الى جنة الاسلام ...

ليس التاريخ دائماً هو ما نطالعه في الكتب المعتادة إنه في الحقيقة تلك الأحداث التي تجري وتحاك من وراء الستار ، والتي لا يتاح عادة لأسرارها أن ترى النور .. وفي هذا الكتاب .. قطعة هامة من تاريخ العرب الحديث يزاح عنها الستار لأول مرة ..

منشورات : المكتب التجاري - بيروت